متلازمة فريجولي

(الجزء الثالث)

رواية

مئة وتسعة ١٠٩

ⓒ مركز الادب العربي للنشر والتوزيع ، ١٤٤٨هـ

معشي ، منال
مئة وتسعة - متلازمة فريجولي الجزء الثالث. / منال معشي -
ط١. - الرياض ، ١٤٤٨هـ
٥٠٤ ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٨/٦٦٣٢
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٦٢٢-٤١-٤

مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع

الموقع الإلكتروني :
Www.Adab-Book.Com
مركز الأدب العربي
@Services_Book
@ServicesBook1
مركز الأدب العربي
adabarabic7
aladab@subeie.com

لطلبات النشر
+966582533504
+966590358100
المبيعات
+966561212210

دولة الإمارات العربية المتحدة +971569767989
جمهورية مصر العربية +201120102172
جمهورية سوريا العربية المبيعات +963959307770 النشر +963959306669

للطلب من المتجر الالكتروني

تنفيذ الطباعة
مطبعة الكتاب العربي - الرياض

الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر .

جميع العبارات و الأفكار الواردة في الكتاب تعبّر عن وجهة نظر المؤلف دون ادنى مسؤولية على الناشر .

متلازمة فريجولي

(الجزء الثالث)

رواية

مئة وتسعة

١٠٩

تأليف

منال معشي

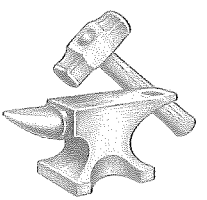
𝕏 Mnowolita_M

mnowolita_m

١٤٤٨هـ - ٢٠٢٦م

على رقعة الحياة،
ستخوض تجاربَ تُثبت لك أنه ليس كلُّ خصمٍ خصمًا،
وليس كلُّ حليفٍ حليفًا!

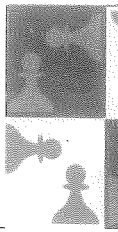
هل نسيت؟
لقد أخرج أباك من الجنة خصمٌ ارتدى ثوبَ حليف.



بين المطرقة والسندان

«اليوم الثالث من إيقاف أدوية اضطراب متلازمة فريجولي»

«خلف الباب باب»



البضاعة!

-١-

١٥ أكتوبر

كانت سيارة (كاظم) ـ حارس فاضل الشخصي ـ تشق طريقها نحو قرية السنابل حين ارتفع في فضاء السيارة صوت امرأة صدر عن المذياع المقترن مع هاتفه:

- نعم.. لقد رأيته بنفسي في نُزُل بقرية السنابل، عيناه زرقاوان وشعره الأسود مقصوص على خلاف الرسم المنشور، ولكن تقاسيم الوجه تنطبق عليه مئة بالمئة.
- قُلتِ إن برفقته شابًّا تملأ جسده الندوب؟
- نعم.. نعم.. ووقح جدًّا هاجمني أنا وطفلتي.
- صفيه لي؟
- آسفة.. النظر إليه لحظة خروجه من الحمام بجسد نصف عارٍ لم يكن سهلًا علي، كان لثوانٍ فقط، ثم غضضتُ البصر عنه فأنا امرأة شريفة ومحترمة، ولكن ذلك الوقت القصير كان كافيًا لتعجز ذاكرتي عن نسيان ندوب جسده الغريبة والكثيرة ثم أعدتُ بصري بسرعة نحو الفتى..

عقد كاظم حاجبيه وعقله يربط خيوط الشك القديمة بالجديدة، فليس مصادفة أن يُذكر بلسان ياسر ومن ثم على لسان امرأة غريبة!

- ندوب!

كررها وارتيابه يتعاظم أكثر وأكثر في الطبيب المزيف نادر عبد المجيد..

فمن أين قد يحصل شخص على ندوب كثيرة سوى من السجن؟! ونادر عبد المجيد كان سجينًا سابقًا في عمرٍ صغير، وبالتأكيد من الممتع للبالغين من المساجين التنمر عليه واللهو به.

إضافةً إلى أن الرسم المنشور لم يُذكر فيه لون عيني الفتى ولا شعره، ووصف المرأة يتطابق تمامًا مع وصف الوريث المفقود لأموال بسام ثروت: (فارس).

قاطع أفكاره صوت المرأة الذي ازداد ارتفاعًا، ناقمة على الشاب الذي أهانها، مجتهدةً بكل السبل للإيقاع به، فنقر كاظم بإصبعه على مقود السيارة مغلقًا الاتصال في وجهها؛ لقد حصل منها على المعلومات التي أرادها، ولم يعد مضطرًّا للإنصات إلى ثرثرة لا قيمة لها.

ضاقت حدقتاه، ورحلته التي جَزمَ عقله من قبل أنها مضيعة للوقت بدت له الآن أكثر قراراته حكمة، فالوقائع المتواترة تؤكد تورط المعالج النفسي نادر عبد المجيد في اختفاء المراهق (فارس)..

زفر بقهر فلم يتبقَّ على موعد جلسة المحكمة التي انتظروها لعشر سنوات سوى يومين..

يومان فقط يفصلانهما عن المستقبل الذي بناه برفقة رئيسه (فاضل بسام ثروت) ليستوليا على أموال الفتى فارس.

لم يدرِ ما الخطأ الذي ارتكباه هذه المرة وأي ثغرة أبقياها خلفهما ليحدث ذلك؟!

ففي المرة الأولى التي خطط فيها فاضل للاستيلاء على أموال والده بسام ثروت وجد أنه قد أوصى بكل ما يملك لطفل الثامنة (فارس) الابن البيولوجي لأخيه أمجد والذي تم تبنيه في الخفاء من راكان عبد السلام حمايةً له من عائلته الحقيقية التي من الممكن أن تسعى لانتزاعه من والدته.

ورغم الوصية المُثبتة قانونيًا فقد خطط فاضل - للمرةِ الثانية - لأخذ الورث لنفسه، فهز العاصمة النبأ الأبشع عن جريمة قُتلت فيها طفلة في الخامسة من عمرها هي (لمى) ابنة راكان عبد السلام.

طفلة تم نحرها وتمزيق جسدها بيدي أخيها فارس، هذا ما أذاعته الأخبار وقتها، ثم أذاعت بعدها بشهر نبأ قتل الفتى لنفسه حرقًا إثر اضطرابه النفسي (متلازمة فريجولي) الذي دفع الجميع للظن بأنه هو السبب أيضًا في قتله وتمزيقه لجسد أخته وإلا فإنه يستحيل على طفل بريء سَويّ أن يرتكب مثل هذا الفعل الشنيع لولا اضطراب عقله.

وماتت الحادثة عند كل البشر، ولكنها عاشت في قلب وروح وجسد الطفل فارس الحي حقيقةً، والمتوفى زورًا في جميع السجلات الرسمية.

زُجَّ بِهِ في مستشفًى للأمراض النفسية من قبل عمه فاضل بعد أن شوَّه اسمه وصورته سلفًا بِنِسبَةِ الجريمةِ إليه، وكان في اضطرابه وعنفه المبرر الكافي ليقتنع مدير المستشفى بسجنه إلى أن يبلغ السن القانونية التي تتوافق مع موعد استلامه لإرث جده بسام، وعندها سينتزعه فاضل منه بوصايته عليه لفقدانه الأهلية على إدارته بسبب غياب عقله.

١٠٩

طفل عجز عن الدفاع عن نفسه، وصَعُبَ عليه صياغة كلمات تُبرّئه من جرمٍ لم يرتكبه، عانى، وعانى، وعانى بين جدران أربعة رافقه فيها: اضطرابه، وذكرى مقتل أخته الصغرى، وإخفاقه في إنقاذها، إضافة إلى مجرم طليق ظل يُجدد له المأساة كل عشرة أيام..

تسع سنوات من العذاب مرت لم يُحَرِّره من ازدياد عددها لعشر سوى معالج نفسي وُظف بالخطأ لمراقبته فوجد في قضيته ما لا يمكن الصبر عليه ولا السكوت عنه.

وتدمرت خطة فاضل الثانية حين خالف المعالج النفسي نادر عبد المجيد النهج المعتاد للأطباء قبله، فلم يتجاهل الفتى وأخرجه بخطة ذكية من سجن المستشفى ثم اصطحبه معه إلى أقصى الجنوب حيث قريته، قرية السنابل التي قضى فيها فارس أمتع الأيام برفقة أسرة نادر، وقلبه يتحرق شوقًا للحظةَ اللقاء الموعودة بشقيقته مايا.

ولم يعلم كاظم أن في هذه الساعة بالتحديد، في فندق مئة وتسعة، كان هناك لقاء قريب يُحاك بين الشقيقين بفضل المعالج النفسي نادر..

«لو كنت أنت الثغرةَ في الخطة!».

تمتم كاظم وعقله يتخيل عشرات السيناريوهات حول الطريقة التي سينتقم بها من نادر، سيجعل من جسده صورةً حية لأبشع وأقسى تعذيب قد ذاقه البشر على مدى الحياة، وبعد أن يشفي غليله منه سيقتله ثم يُعيد الفتى إلى سجنه الأول.

****

١٥ أكتوبر - ٩ ص

فتح نادر باب الشقة، ثم دفع مايا إلى داخلها، وعيناه العسليتان تجوبان كل زاوية منها بتوتر شديد و... (جيد!.. لا يزال فارس نائمًا).

سحب القبعة عن رأسه فانسدلت خصلات شعره الكستنائية حول وجهه وأسفل رقبته، ثم رفع سبابته مُهددًا:

- إن أبقيتِ فمكِ مُغلقًا فلن أوذيكِ.

ومد كفه بجرأة نحو وجهها فتراجعت إلى الخلف بفزع، ولكنه استطاع نزع الكِمامة عنه قبل ابتعادها أكثر، ليبقي الشريط اللاصق وحده يكتم صوتها، فيما لم يظهر له من وجهها الشاحب سوى عينيها الواسعتين العاكستين ذعرها واستهجانها..

لقد أرادت إنقاذ أخيها المُختَطف، فكيف لها أن تكون هيَ الأخرى مُختَطفة؟!

وعلى يد الرجل نفسه!

«اجلسي».

وأشار إلى مقعد قريب، فحركت رأسها بجزع بـ (لا)، فاستطرد بحزم:

- بالطبع، إن أردتِ أن تستعيدي أخاكِ.

وعندها سكنت حركتها، وعيناها تتفحصانه بحذر شديد لعدةِ ثوانٍ، ثم لم تلبث أن هدأت مفاجئةً له، ومشت لتجلس على أحد المقعدين، بينما جلس هو على الآخر تفصل بينهما طاولة مستديرة.

كان وجهه يعكس غضبًا عنيفًا؛ فلاتزال كفه تؤلمه من عضتها، وقدمه من كعب حذائها، ورغم ذلك لم يُضيع الوقت، وواجهها مباشرة:

- أُريدُ المليوني دولار قبل أن أسلمه لكِ.

برقت عيناها فرحةً فهناك مايمنحها نقطة تتفوق بها عليه، ويُمكِنها التلاعب به من خلالها، إنها (المال). وضعت ساقًا فوق أخرى وأمالت رأسها بخفة.. فكيف لها أن تتحدث وفمها مُغلق؟!

«آه صحيح».

ومدّ كفه ليسحب الشريط اللاصق عنه بسرعة، فتأوهت بألم، ثم ملأ بُصاقها الأرض، وصاحت:

- كانت الكمامة على وجهك! كيف تجرؤ أيها القذر على أن تضعها على وجهي من بعدك؟

ارتفع أحد حاجبيه؛ أهذا ما أغضبها؟! الكمامة المتبادلة بينهما!

على حين تابعت بغطرسة بالغة:

- لن تقبض دولارًا واحدًا حتى أتيقن من سلامة البضاعة.

كلمتها كانت كزيت صُب على جمرة غضبه فازدادت اشتعالًا.. أهكذا تنظر لفارس؟! كبضاعة!.. وعندها صَدَّقَ ظنّهُ السيئ بها، فقال بانفعال:

- البضاعة؟! عجبًا، ما الذي جعلك تسعين خلف هذه البضاعة بعد هجرك لها لإحدى عشرة سنة؟!.. بل وعرضتِ مكافأة ضخمة للحصول عليها!

شحب وجهها صدمةً ليس بسبب تَطَفُّله اللا منطقي، بل لعدد السنين

التي نطقها، هو حتى أضاف في عدّه السنة التي غادرت فيها للدراسة، عندما كان فارس في السابعة!

ورغم دهشتها سألت ساخرة:

- ما زلنا هنا بصدد عقد صفقة أليس كذلك؟

عقد حاجبيه بحنق، فيما أردفت:

- التطرق للمسائل الشخصية حول سبب كلٍّ منا للمساومة على هذه البضاعة هو أمر مرفوض لا شأن للآخر به.. أنت تريد المليونين وأنا أريد أخي.. سيكون هذا فقط مدار نقاشنا وتفاوضنا.

أخي الآن! بدلاً من البضاعة!

ضاقت عيناه بحيرة؛ هل تتلاعب بظنه بها بقصد؟ أم بغير قصد؟!

«حسنًا».

ثم نهض مفاجئًا لها واقترب منها، فامتلأ وجهها ذعرًا ليده التي امتدت إلى جيب معطفها القصير، ثم سحب هاتفها منه، فصرخت بفزع:

- أعد لي هاتفي.

- طلبك مرفوض.. ألا تُدركين خطورة الموقف؟! أنتِ مُختَطَفة.. لا حق لكِ في أي مطالب.. أنا من يضع القواعد هنا ويقرّرها.

انفرجت شفتاها لحديثه الأشبه في مَنطقه بِمَنطِقِ حديثها قبل قليل، هل يُقلدها؟

فيما أطفأ هو هاتفها، فنقاش خمس دقائق معها نبأه أنه قد يمر وقت أكبر مما ظن قبل أن يستخلص منها السبب الحقيقي وراء سعيها الحثيث للاستحواذ على فارس بدلاً من عمها.

- لا تغتر بنفسك، هناك شُرطي يرافقني.. حين يجدك ستندم لأنك لم تُنهِ الصفقة معي الآن.
- حقًّا؟! لم يكن ذكيًّا كفاية ليُنقذك عندما اختطفتك، فهل تظنين أنه سينجح في العثور على هذا المخبأ؟!

رد ساخرًا، فامتقع وجهها بجزع.. بالفعل، لقد اختطفها تحت نظرهما وسمعهما، والأرجح أن آخر مكان قد يبحثون عنها فيه هو المكان الذي اختُطفت منه.

وأمام عينيها الباهتتين أخرج شريحة الاتصال من هاتفها ثم وضعها في جيبه، فصاحت باستنكار شديد:

- هل أنت معتوه؟ اتظنني أحمل المليونين في جيبي؟ كيف ستحصل عليها دون أن أستخدم الهاتف؟!

سؤالها أربكه، لن يخبرها أن المكافأة هي الهدف الثاني من اختطافه لها، وإن أدركت هدفه الحقيقي فقد تدّعي كذبًا أنها تُريد حماية فارس بدلًا من استغلاله...

أخرج سيجارة، ثم راح يدخنها على مقربة منها، فنيتها السيئة لن تكشفها أمامه إلا إذا جعلها تشعر بأنه أسوأ منها، كما فضح فاضل نفسه حين علم أنه خريج سجن..

سعلت بقوة، ثم صاحت بتقزز: «أنت متعفن من الخارج والداخل».

تصلبت أصبعاه على السيجارة المشتعلة ورمقها بنظرة عصبية، المرةُ الأولى التي يُشعِرهُ فيها أحد بهذا الشعور المقيت نحو التدخين! ورغم انزعاجه رد بابتسامة عابثة:

- كعائلتك!

- ما هذا الهراء؟!

- جدك بسام تسبب بمقتل والدك أمجد، وأمجد لص يسرق من أبيه، والأسوأ بدلًا من أن يتوب الجد بعد أن قضى ابنه نحبه في السجن، ارتكب خطيئة أكبر، فحرر وصية جائرة بأن تؤول جميع أمواله إلى حفيده فارس متجاهلًا ابنه فاضل ونابذًا لكِ كحفيدة أخرى.

وأخرج نفسًا جديدًا مُشبعًا بسحب من الدخان، وهو يكمل باشمئزاز:

- والأشدُّ حقارة هو عمك فاضل الذي سجن ابن أخيه الصغير في مصحة نفسية وراح يعذبه لأجل أن يستولي على الورث منه.. وما أدراني ما نوع العفن الذي تُخفينه أنتِ الأخرى كي يقرر جدكِ بسام ثروت إقصاءك من وصيته ومالـ..

وصمت بصدمة عندما رأى عينيها المتسعتين وشفتيها الورديتين المتفرقتين بجزع.

«أنت تكذب».

صرخت بأعلى صوتها، وحذاءاها يضربان الأرض، ملوثةً لها بطين حقل التفاح، ثم أردفت بثورة:

- مُجرم مثلك مُعتدٍ على المُراهقين ومختطف للنساء لا يمكنني تصديقه.. بسام لا يعلم أن أخي فارس هو حفيده.. وعمي فاضل أشرف وأنقى من عائلتـ..

وسكتت بخوف حين ضربت قبضته الطاولة بعنف:

- لا تُسيئي لعائلتي.. دخلتُ السجن من أجلهم مرة، ولا أمانع دخوله أخرى، ولا يُهمني لقاء أخيكِ بكِ.

- إذًا توقف عن ترهاتك بشأن عائلتي.. هذا لا يَخصُّك! لنتم الصفقة فحسب: أعد لي أخي وسأمنحك المليوني دولار وينتهي هذا الهراء عند هذا الحد أيها الوغد.

صرخت بالأخيرة بأنفاس ثائرة، فأغمض عينيه بغضب، وظل لثوانٍ يتمالك نفسه بعد ما شتمته، ثم زفر بقوة ونهض، فارتجف جسدها.. هل سيضربها؟!

ولكنه بدلًا من ذلك أخذ حاسوبه المحمول ثم وضعه على الطاولة أمامها، وجعل شاشته في مواجهة عينيها المُترقِّبتين بقلق، ثم اختار أحد مقاطع الفيديو وشغله.

سألت بحذر:

- ما هذا؟

- الدليل على أن عمك أشرف مني.

لم تفهم ما يعنيه ومع ذلك حركت عينيها لتنظر إلى المقطع الذي بدأ، وظهر عمها فاضل فانفرجت شفتاها بصدمة، كان نادر يراقب ملامحها المصدومة باستمتاع شديد، بينما غاب عن نظرها كل شيء عدا المشهد الغريب بمن فيه...

راحت عيناها تتسعان وتتسعان.. وغادر اللون وجهها...

هو مزيف! كذب! محضُ هراء!

عمها فاضل يعترف بحبس أخيها فارس في المصحة دون أي كاميرات!

يرفض نشر بلاغ عن فقدانه باسم عائلة راكان أوعائلة أخيه أمجد، بل ويتعرض فارس للعنف النفسي والجسدي داخل المصحة وهو على دراية كاملة بذلك، والأسوأ هو من عيّن ياسر مرافقًا له كي يُعذبه، وقبوله بالمجرم نادر ليكون طبيب فارس كان من أجل هدف واحد فقط وهو أن يشهد نادر بعدم الأهلية العقلية لأخيها حتى يستولي هو على الورث بدلًا منه.

وانتهى المقطع...

خفضت رأسها للأسفل... صدرها كان يعلو ويهبط بجنون...

وعيناها شاخصتان...

دراما غبية.. من الذي سيُصدقها؟

يستحق من صنعه جائزة عظمى على دقة إتقانه فلولا معرفتها بعمها فاضل لأوشكت على الوقوع في الفخ...

وابتسمت ساخرة من فكرة غريبة: لتسع سنوات اختفى فارس لأن عمها فاضل يسجنه ويُعذبه دون أن تعلم!

ضحكت بخفوت، ثم تلاشت ابتسامتها فجأة..

ولم تلبث أن اهتزت شفتاها مُنذرة ببكاء وانكسار عنيف..

هذا هو التفسير الوحيد والمنطقي لسحبه أوراق البلاغ من أمام عينيها؛ حتى لا تُدرك أن فارس حي فتحميه منه..

هو حتى لم يشرح لها ولو لمرةٍ واحدة كيف أحرق فارس نفسه ومات..

لتسع سنواتٍ، كلا، تسع توشك أن تكون بعد يومين عشرًا كاملة، كانت تزور فاضل وتتشارك معه وجبات الطعام والقهوة، تُحدثه عن نفسها، عن نجاحها في لندن، وتتعلم من أجله قوانين المحاماة في بلدهم لتحميه، وفارس يُعاني تحت رحمته!

الموت أرحم لها ألف مرة من هذا الشعور.. شعور أنها عاشت مُستغفلة منه..

اختلج قلبها بشعورٍ بائس، ولكنها لن تبكي، لن تذرف دمعةً واحدة، يُمكنها أن تملأ العالم صراخًا وبكاءً، ولكن بعد أن تُنقذ فارس..

رفعت رأسها فظهرت عيناها الداميتان أمام العسليتين المحدقتين بها بهدوء فارغ من أيِّ تعبير.. ولم تستطع إدراك السبب في تفحصه تعابير وجهها الفوضوية!

«ماذا تريد؟!».

سألت بصرامة مُعيدة النقاش إلى صفقتهما.

«أنتِ تعلمين» أجاب ببرود.

«أنت تريد المال ثمنًا لإعادتك لي أخي هذا ما أعلمه، ولكن هذا الفيديو والذي قد يكون مُزيفًا! ما هدَفُك منه؟!».

«مزيف؟!»

كرر بتهكم جعل الشك يتعاظم في قلبها، ولكن، حتى لو كان حقيقيًّا فلم يكن هذا المجرم الغريب ليتجشم عناء تسجيله ما لم يكن يترقب عائِدًا منه ينتفع به.

«سلمهُ لي مع أخي».

قالتها بنبرة تحترقُ غضبًا وجنونًا.. فإن أثبت لها خبير الحاسوب سامي أنه ليس مُفبركًا.. فستدمر فاضل.. ستحطمه.. ستكون شؤم حياته للأبد وشؤم أطفاله، بل وأحفاده.

- ثمنه غالٍ جدًّا.

- هذا هو هدفك إذًا: المال.. لا بأس، سأدفع المبلغ الذي تُريد.

صمت بينما غرق عقله في تردد شديد، هل يُعطيها هذا الدليل على خيانة عمها؟

برفقة فارس؟

ورغم تحليلاته الدقيقة التي قلَّ أن تُخطئ لم يستطع قلبه تقبل فكرة المخاطرة بتسليم فارس إليها استجابة لعقله الذي رأى في وجهها المصدوم أثناء مشاهدتها للفيديو دليلًا على حُسن نيتها تجاه أخيها.. كلا، هو بحاجة لدليلين وأكثر قبل أن يطمئن قلبه تمامًا.

«بعد أن أقبض المليوني دولار سنتناقش حول القيمة التي يستحقها».

بكل برود أجاب مستفزًّا لها، ثم وقف واتجه إلى المطبخ ليصنع لنفسه كوبًا من القهوة فهو يقاوم نعاسه بصعوبة. وعندها صرخت بغضب:

- كيف ستحصل على المليونين وأنا مُقيدة هنا؟

- اطلبيها من الرجلين في الخارج.

- لن يستطيعا جمع ربعه حتى.. أنا من أملك المال وللحصول عليه من المصرف لا بد من الذهاب بنفسي إليه وأخذه.

- لا بأس، يمكنني الإنتظار حتى يتدبرا أمرهما وينتهيا من جمعه.
- هل أنت مجنون؟!
- لماذا؟

وخرج بكوب قهوته يرتشف منه بتلذذ.

- هل ستُبقينا أنا وأخي برفقتك وترعانا حتى يجمعا لك المال؟

ابتسم بجرأة وتحدٍّ، وبالفعل هذه خطته الثانية فلا بد أنها ستكشف عن نيتها الحقيقية بوضوح حينما يدفعها إلى حافة هاوية، وسيكون من الأمثل لو استطاع وضعها في موقف يكون فيه مدار المساومة: نجاتها مقابل نجاة أخيها..

- أتظنهما سينُهيان جمعه في أيام؟ قد يمتد إلى شهر وأكثر ما داما لن يعتمدا على مالي.. أنت أغبى مُجرم صادفته في حياتي.
- وأنتِ أغبى مُختَطَفة في العالم.. ألم يُعلّمكِ أحد أن تظلي هادئة ولا تستفزي خاطفك؟
- للأسف محاورة خاطف، معقد، عصي الفهم مثلك تجعل ذلك صعبًا.
- أنتِ مُحقة..

واتجه نحوها فرجعت بظهرها إلى الخلف بفزع، بينما سحب هو الشريط اللاصق، وألصقه مجددًا على فمها، مضيفًا ببرود:

- لذا فلننعم ببعض الهدوء.

وسحب حاسوبه المحمول من أمامها ثم اتجه إلى أريكة قريبة وبدأ بالعمل عليه وهو يرتشف ما تبقى من قهوته..

زمجرت بغضب، صرخت، وشتمت طويلًا، ولكن قطعة اللاصق كتمت صوتها.. ولم تلبث أن هدأت أخيرًا لتنظر إلى الأسفل وقد شعرت بالحيرة مؤقتًا.. هل هو حقًّا سيُسلم فارس إليها إذا ما حصل على المال؟

لماذا إذًا اختطفها وهيَ صاحبة المكافأة؟!

ذلك لم يحدث في أيّ قصة من القصص.. أن يُختطف دافع الفدية!

«هذا الرجل معتوه!».

حسمت حيرتها أخيرًا، وشيء من الوجل يطرق قلبها؛ فلا أفظع من أن يكون الخاطف مجنونًا أيضًا.. وكادت عيناها الواسعتان تتبللان، وعقلها يتخيل المعاناة التي قاساها أخوها برفقة معتوه مثله.

ثم أردفت فجأة بحزم: «عليَّ أن أتماشى مع ما يريد حتى أعلم أولًا أين يحتجز أخي ثم أنقذه».

مضت عشرُ دقائق أغلق نادر بعدها حاسوبه المحمول، ثم نهض ونزع معطفه وعلقه بترتيب شديد فوق مشجب قريب محافظًا على كيّته مما جعل عينيها تبهتان، ثم استلقى فوق الأريكة يُريد النوم..

برود أعصابه أثار خوفها.. بالتأكيد هو مُعتاد على اختطاف الناس!

لم يرد النوم حقيقةً، هو أراد فقط نيل قسط من الراحة حتى موعد استيقاظ فارس؛ فالجدال معها عقيم.. لذا سيشرع في تطبيق تفاصيل خطته الثانية:

سيسمح لها برؤية فارس، وسيستمر في الوقت ذاته بتمثيل دور

الخاطف المجرم السيئ، وبمجرد أن تفقد حذرها سيضعها فورًا في موقف صعب تُجبر فيه على أن تعامل فارس بطبيعتها الحقيقية كما عامله فاضل بقسوة وبرود في أول لقاء شهده بينهما.

كان جفناه على وشكِ أن يُغلقا رُغمًا عنه، حين سمع فجأة صوت دكِّ كعبي حذاءيها للأرضية.. تجاهلها، ولكن ازداد صوت ضرباتها عنفًا فاهتز أحد حاجبيه لجرأتها، إذًا هذه هي طريقتها الجديدة في إزعاجه بعد أن أخرس فمها!

لم يغفر لها بعد دكّها لقدمه بكعب الحذاء هذا.. لذا لن يتهاون معها هذه المرة، سيجردها منه ثم سيحطمه، ومن بعدها سيجرها هِيَ ومقعدها ليحبسهما في الحمام..

التفت نحوها بوجهٍ غاضب فرآها تهزُّ رأسها كناية عن أنها تُريد الكلام معه..

هل كُلُّ المُختَطِفين متساهلون مثله؟

وقف أمامها ثم نزع الشريط اللاصق بغلظة فشهقت بألم بعد ما أحدث أثرًا على زاوية فمها.. على حين هتف بها بعصبية:

- ماذا؟

- ما أدراني أنك لا تكذب؟ أريد أن تُثبت لي أولًا أن أخي بخير ويرافقك، دعني أرَه بنفسي، وعندها لن أتردد في إيجاد طريقة تُمكّن الرجلين في الخارج من الحصول على المال في ساعاتٍ معدودة.

أظلمت عيناه.. ألهذا أحدثت ضجة؟!.. بالتأكيد خسارتها للمليونين لا تُعدُّ شيئًا مقارنةً بالورث الذي سيُمرر إليها لو أصبحت هي الوصية على فارس.

«أخبرتك، يمكنني الانتظار».

قال ببرود، وعندها شحب وجهها، كيف له ألا يهتم وهي تُخبره عن اقتراب نيله للمال؟!

سوء الفهم بين الاثنين بلغ درجة مقززة..

رأته فجأة يستدير ليقف خلفها، وانتفض جسدها بفزع حينما اهتز مقعدها الذي جرَّه بلا أدنى مسؤولية نحو الحمام، لن يمنحها فرصة أخرى لإزعاجه.. سمع شهقتها المرتعبة، ومع ذلك تابع السحب وفجأة قفزت إلى رأسه فكرة مُخيفة: ماذا لو نهض فارس فوجده يحبسها في الحمام؟

بالتأكيد مهما حاول الشرح له لن يجد مُبررًا منطقيًّا سيُقنعه به، وبالأخص لو رآه يدخل إلى الحمام ثم تخرج هي من بعده منه.

ولا شعوريًّا أصبحت وجهته إلى المطبخ. تركها في منتصفه ثم عاود الكَرَّةَ بوضع الشريط اللاصق على فمها مجددًا، ولكنها تحدثت بسرعة:

- قبل المجيء إلى الفندق كُنتُ في قرية السنابل.

توقفت كفَّاه الممتدتان نحوها، بينما تابعت بانفعال:

- قالوا إنك دفنت والديك بالأمس صباحًا.. من الغريب تباهيك قبل قليل بحبك لهما ومع ذلك تجد الآن الوقت لتلهو وتعمل أعمالًا سيئة!

ارتخى جفناه، وغشي الحزن قلبه لتذكره القبر الذي أغلقه بنفسه عليهما، ولولا أنه اضطر للمغادرة من أجل أن يساعد فارس لكان الآن قد عوض تركه السريع لهما بالأمس فلبث أمام القبر وقتًا يدعو لهما.. فيما تابعت:

ولديك صديق اُسمه أحمد و...

وأطبقت شفتيها بخوف للنظرة القاتلة التي رماها بها، غير مستوعب، ما تهدف إليه بذكرها لأحمد.. قلبه استشعر خطرًا ما، ولكن ما هو؟

نظرته تلك كانت كافية لتُدرك قيمته عنده، فاستدركت بتوتر وارتباك:

- والتقيتُ ريم أيضًا.. وطارق وثامر ودخلت إلى حقل التف..

ذكرها لبقية الأسماء أفلح في التخفيف من حدة نظرته، وصرف باله عن نيتها الماكرة.. هيَ لن تخضع له أبدًا، ستخلق توازنًا بينها وبينه.. فكما اختطفهما معًا، هي وأخاها، يجب أن يكون لديها ورقة رابحة أخرى تُضاف إلى المكافأة التي لم تعد تدري هل هي ذات قيمة عنده أم لا؟!

ثم غيرت حديثها فجأة لِتَذُمَّهُ باستهجانٍ حقيقي:

- كم أنت جاحد! ألا ينبغي عليك البقاء في قريتك لاستقبال المُعزّين في والديك؟ أنت بمغادرتك قد أضعت عليهما الفرصة بأن يظفرا بدعائهم! وأيضًا ألا يستحقان أن يحظيا بزائر لقبرهما لثلاثةِ أيام بعد الدفن؟! كيف استطعت أن...

كلماتها نكأت جرحه، أحيت ألمه، وفجرت غضبه.. سيُغطي كامل وجهها بالشريط اللاصق ما عدا أنفها، نعم، ذلك لن يقتلها، ولكنه سيشفي غيظه منها...

تراجعت إلى الخلف بهلع أمام الشريط اللاصق الذي فتحه بعنف ثم قربه من عينيها و...

«نادر.. أنت لم تنم!».

تجمدت كفَّاه، وتلاشى حُزنه دَفعةً واحدة وهو يُبصر فارس قادمًا

نحوهما من الحجرة البعيدة، تُزين وجهه ابتسامة خفيفة بعد ما اطمأن أن نادر لم يُكرر تصرفه المخيف بأن يغلق على نفسه باب إحدى الغرف..

تبدَّل غضب نادر إلى توتر شديد، وأسرع يقف أمام مايا حاجبًا بجسده جسدها عن نظر فارس الذي اقترب أكثر من المطبخ.

****

-٢-

(قبل أكثر من ٣٠ عامًا)

- اللعنةُ عليك.. ألم ترَ سيارتي؟ إنها بيضاءُ ساطعة! هل غطت لحيتك على عينيك؟

- بل اللعنةُ على أمثالك.. نحن في أول النهار ولم ترَ سيارتي السوداء.. أعمى البصر والبصيرة..

- بصيرة تجعل مني مُتطرفًا مثلك فليُعمني الله عنها.

- فلتبتعد أيها العاصي فرائحةُ الخمر تفوح من فمك القذر.

وقف رجل المرور بين الاثنين يفك الشجار الذي تجاوز في بَاعِثه حادث التصادم بينهما إلى القَدح والمذمة في شخص الآخر ومعتقداته..

ثم اضطر إلى دفعهما بالقوة بعيدًا عن بعضهما بعضًا؛ حينما رأى طفلين في سيارة كل منهما يراقبان بأعينٍ متسعة، وآذانٍ مُصغية..

وعندما نجح أخيرًا بتفرقتهما صرخ بغضب في صاحب السيارة السوداء:

- من عاب ابْتُلي.. من عاب ابْتُلي!

ثم صاح في مُدمن الخمر:

- والمُجاهر لا يتعافى.. اتقِ الله يا رجل، اغسل فمك، وارمِ هذه القوارير الفارغة من سيارتك.

تراجعا إلى الخلف، وثورة الغضب تصبغ وجه كلٍّ منهما باحمرار عنيف، فأخرج رجل المرور دفترًا صغيرًا دوّن فيه الحادث، وهو ينتهرهما بغلظة:

- أقلّه فلتتأدبا أمام طفليكما.. أحدكما بفعله هذا يغرس في قلب طفله بذرة النفور من مظهر التدين، بينما الآخر يَنشأ طفلًا فاقدًا لجوهره يعتنق منه القشور فقط..

شَهِدَ ذلك الحادث شيخ بدا على وجهه سيما الرزانة والوقار، خرج من سيارة يقودها ابنه الذي توسل إليه ألا يتدخل بينهما، ولكن غلب عليه خُلقه الحسن فوقف بين الثلاثة، ثم وجَّه حديثه إلى رجل المرور:

- من المخطئ؟

وقبل أن يُجيب رجل المرور اندفع مُدمن الخمر يصيح به:

- لحيةٌ أخرى! تبًّا لهذا الحظ.

أراد الرجل الأول شتمه لانتقاصه من مظهر تدين الشيخ، ولكن الشيخ سبقه بإجابته برفق:

- أجل، لحيةٌ أخرى مُسَرَّحَة وجميلة قد حنتها لي زوجتي قبل عشرة أيام.. كم أفتقدها!

اتسعت أعين الثلاثة لحديثه الهادئ الغريب الذي لم يفهمه إلا رجل المرور الذي قال بضحكة:

- زوجتك أم الحناء؟

- زوجتي بالطبع.

وضحك واقترب منه يتفحص السيارتين بينما رجل المرور يشرح له بهدوء:

- لا يوجد كاميرات مراقبة في هذا الشارع لذا حسب ما قاله الاثنان فالأول قد انعطف دون تنبيه والآخر كان يقود في الخط المعاكس، ولكن لحسن الحظ تفاديا تصادمًا قويًا، ورغم ذلك ستحتاج سيارتاهما لمبلغ للتصليح كلاهما يريد رميه على الآخر.. ولكنني أرى أن الخطأ يقع على كليهما..
- أهو كبير؟
- تم تقديره بخمسة آلاف للسيارتين معًا.
- سأدفعها..
- ماذا؟! لا دخل لك بهذا.. يجب أن يرتدعا وينالا جزاءهما.. كما أن هناك قوانين يجب أن أتبعها ولا يمكنني تجاوزها..
- يا رجل لا تحرمني الأجر العظيم.. الحمد لله قد أنعم الله عليَّ بالمال، فلنستر على هذا؛ إنما نحن المؤمنين إخوة فلنصلح بين إخوتنا..

اتسعت عينا رجل المرور ورمى بنظره نحو مُدمن الخمر، فالشيخ لم يُرد أن يُسجل عليه أنه كان على معصية فيُفضح ويُعيّر بين الناس ولعلها ستكون حقًا فرصته للتوبة..

وتحرك قلب رجل المرور رحمةً بالطفلين في السيارتين عن أن يشهدا ما هو أسوأ من الشجار بين والديهما، فتنهد ثم قطع ورقته وأخفاها في جيبه، بينما مشى الشيخ إلى سيارته، ثم أخذ ذلك المبلغ منها، وسلمه إلى رجل المرور، فهدأ خصام الاثنين، وقبل أن يرحل سأله رجل المرور بفضول:

- أيها الشيخ أنت لست من هنا؟
- لا، أنا من قرية بعيدة جدًّا.
- بارك الله لك في مالك ورزقك.. لعلك ذو مكانة في قريتك؟!
- نعم، شيخها وإمامها لذا لا تُعد هذه مشكلة أمام ما صادفته من قبل في حل مشكلات أهل قريتي وتحمّل بعض الألسنة الحادة والمستهزئة.

حديثه زاد من هيبته في قلب رجل المرور الذي شيعه بنظرة تقدير كبيرة وهو يرحل، ثم قال:

- هذا هو جوهره.. جوهر الدين.

سمع صاحب الخمر يستبشر بالمال وهو يتمتم مستهزئًا:

- فلينل الأجر.. هات المال.. أحمقُ مثله يُجب أن يُستغل.. ليته يسكن بالقرب مني.

فيما اندفع الآخر يتباهى:

- قد أرسله الله لأجلي.. الصالح مثلي يُكرم والطالح مثلك يُتصدق عليه.

زفر رجل المرور باستياء ثم دفعهما ليرحلا مرددًا بغيظ:

- بل أنتما مُفرِط ومُفَرِّط.. اقتديا بهذا الشيخ.. توقف أنت عن الحكم عليه بالحمق، وأنت عن جعله كرامة مُرسلة لأجلك، فهو لم يحكم على أي منكما بالعاصي أو سيء الخلق وسماكما أخويه.. هذا هو الدين قلبًا وقالبًا.

وتنهد والحسرةُ تملأ قلبه:

- لسنا بحاجة لمولد أجيال يجعلون من جهلكما وسلوككما القبيح المُخْجِل مبررًا لهم في المستقبل للإفراط أو التفريط في الدين.

لم يهتما بنصيحته المؤنبة وقد رضيا تمام الرضا عن نفسيهما، فاندسا في سيارتيهما ثم تحرك صاحب السيارة السوداء إلى حيث ورشة تصليح السيارات، بينما لبث صاحب السيارة البيضاء دقائق بدا عليه فيها جهاده لنفسه، ولكنه قرر أخيرًا المغادرة فما زالت السيارة تعمل وبمثل هذا المبلغ سيحصل على عدد أكبر من القوارير الجديدة.

ظل الطفل في المقعد الخلفي على جموده وهدوئه وكأنما تم إيقافه بجهاز تحكم عن بُعد وبمجرد أن أوقف والده السيارة أمام منزل من طابقين نزل يركض إلى حيث المطبخ ليخبر والدته بما رآه وسمعه.

ودقائق معدودة وانفجر في المنزل خصام عظيم بين الزوجين من أجل هذا المبلغ الذي لم ينفقْه ولن يُنفقه هذا الرجل على عائلته، أخذ الطفل (سمير) يراقبهما من زاوية بعيدة فإن حصلت أمه على المال فستُعطيه بالتأكيد منه؛ فهي في المقام الأول من أمرته أن يهدأ ويراقب والده كي ينقل إليها أخباره وستُجازيه على تعبه هذا.

****



-٣-

هبت نسماتٌ لطيفة بعد عاصفة الأمس حرّكت أغصان شجر التفاح، فأصدرت أوراقه حفيفًا لطيفًا كانت الآذان لتطرب له، ولَخَفَقَتِ القلوب راحةً وطمأنينةً، لولا الفقد الموجع الذي حدث فوق أرضه قبل أقل من يومين.

مسحت ريم دموعها، وهي تتجول داخل كوخ العجوزين اللذين لم تحضر جنازتهما بالأمس، رأت في كل زاوية منه ذكرى جمعتها بهما، فاشتاق قلبها لبحر عطفهما الذي لطالما ارتوت منه وكان فيه سلوى لها عن فقدانها لوالدتها..

وفجأة تحركت شفتاها بابتسامة حينما وقعت عيناها على حجرة رفيق طفولتها نادر، ودون تردد دخلت إليها وسمحت لنفسها برؤية هذا وذاك وغمر قلبها الفرح عندما وجدت في خزانته صورًا تجمعهم هم الثلاثة معًا.. نادر وأحمد وهي...

الخدمة التي قدّمها لها بحماية شرفها وشرف عائلتها تستحقُّ مقابلًا كبيرًا، لذا ستجعل من هذا المكان مصدرًا له للمال يُغنيه عن العودة إلى قرية السنابل والعيش فيها، ولن يضطر إلى لقاء ثابت مجددًا؛ فما أدراها أنه قد ينشب شجار جديد بينهما فتُفضح تلك الشائعة الضارة، ولذا من الأفضل التخطيط لعدم حدوث ذلك أبدًا..

بدأت برسم مخطط توسعة للكوخ كي تستقبل فيه السّيَّاح فقرية

كقرية السنابل لم تخلُ أبدًا من الزوار والغرباء المتجولين من خارج البلاد الراغبين بالاستمتاع بطبيعتها الخلابة وهوائها النقي المنعش للأنفاس.

وحانت منها التفاتة مفاجئة إلى الباب الحديدي المغلق بسلسلة صدئة وقفل، رأت الرياح الداخلة من الشرفة تتلاعب بالستائر الرقيقة المغطية له.

ودون وعي منها وقفت، يدفعها فضولها إلى فتحه، كانت تعلم المخبأ الذي يضع فيه عبد المجيد مفاتيحه، ولكنها لم تجد الفرصة ولو لدقيقة واحدة للحصول عليها بسبب العجوزين الملازمين للكوخ، ولم تكبح رغبتها الآن وما تمنته طويلًا يتحقق لها أخيرًا..

ودون ذرة تردد واحدة أخذت مفتاح القفل من حجرة عبد المجيد ثم عادت إلى حجرة نادر الكبير، أزاحت الستائر عن الباب فوجدت القفل مكسورًا..

كان الأمر غريبًا، لكنه لم يستوقفها كثيرًا، وفضولها يدفعها للدخول. مشت فوق كومة من الغبار فانطبع أثر حذائها على الأرضية، وعيناها تشهدان ما وصفه لها نادر بالحرف الواحد قبل ثلاثة عشر عامًا..

الساعة الملوثة بالدم والنظارة الشمسية والكتب الطبية المغبرة وخزانة الملابس الممتلئة بالمعاطف التي شحب لونها، ولكن لم يجذب انتباهها سوى الخزنة الحديدية العتيقة المغلقة بقفل والتي أخبرتها جواهر من قبل أن جميع مجوهراتها وأوراقهم الرسمية يحتفظ عبد المجيد بها فيها..

وخانتها قدماها فاهتزت في وقفتها وهي تتخيل حجم الغضب الذي قد يتفجر في وجه عبد المجيد لو رآها تتجاوز حدها وتنظر إلى ما أخفاه لما يوازي سبعة وعشرين عامًا.

تراجعت إلى الخلف وكادت تخرج لولا إدراكها أنها لن تُمنح فرصةً أخرى مماثلة إذا ما عاد نادر ليجمع ممتلكات أسرته تهيؤًا للاستفادة من الكوخ وحقل التفاح..

فاستدارت وعادت نحو الخزانة، وانحنت على ركبتيها أمامها ثم فتحت قفلها وبدأت بإخراج ما فيها الواحد تلو الآخر ولهفتها تزداد لمعرفة ذلك السر الذي لم يستطع صاحبه نفسه البحث عنه لمعرفة إن كان حقيقيًّا أو مجرد وهمٍ منه.

****

«نادر».

كرر فارس وضحكاته المتحمسة تسبق خطواته المستعجلة:

- ماذا تُخبئ خلفك؟ هدية؟! هل استعدت قرين ويُلو من أجلي؟ كُنتُ أعلم أنك ستفعلها.

رؤية فارس لمايا مُقيّدة لم يكن ذلك من ضمن خطة نادر أبدًا فتجمد في موقعه بتوتر، بينما من خلفه كاد قلبُ مايا يتوقف بعد سماعها للنبرةِ المألوفة المتحمسة التي هيجت بعنف ذكرياتها القديمة..

أحست بحرقة شديدة تغزو عينيها وهي تُدير رأسها إلى الخلف بلهفةٍ مجنونة لكن ارتطم بصرها المضبب بالدموع بظهر نادر..

قلبُها أخبرها أنه هو...

الهُتاف العذب باسم نادر يشبه هُتافه القديم باسمها...

وصَكَّ سَمعَهَا رنينُ ضحكاته المُبتهجة فازداد يَقينُها أنه هو أخوها فارس الذي ظل يقترب من نادر مُميلًا رأسه يمنة ويسرة بمشاكسة وهو يصيح: «لا.. دعني أرَ».

الوضعُ ازداد تعقدًا بالنسبة إلى نادر الذي أمسك بكتفيه أمام فرجة الباب ليمنعه من الدخول، فارتفعت الزرقاوان المتلهفتان نحو العسليتين الجزعتين:

- أهيَ غالية جدًّا؟

ثم صمت ثوانيَ يُخمن قبل أن يصيح ببهجة: «بُرقر!».

سمع الاثنان شهقة مُلتاعة صدرت من خلفهما، فاتسعت عينا فارس دهشة، فيما ازدرد نادر ريقه بارتباك، قبل أن يدفعه إلى الخارج، قائلًا بحزم:

- لم أكن أظن أنك ستستيقظ الآن.. أحتاج إلى تهيئته أولًا قبل أن أُريه لك.. لذا انتظر هنا.

لم يُعارضه، بل استدار بثقة معطيًا له ظهره، وضاحكًا بخفة؛ بانتظار هديته، فأسرع نادر ليغلق الباب، وعندها ارتفع همسها المتضرع الباكي:

- أتوسلُ إليك.. لن أهرب.. دعني أرَه.. سأفعل ما تقول.. أرجوك، افعل هذا الخير من أجل والِدَيكَ اللذين ماتا قريبًا..

صُدم نادر من توسلها الحزين الباكي.. ظنها حين تسمع صوت فارس ستمارس عادتها بالصراخ واستفزازه، ولكن لم تكن هي الشخص نفسه على الإطلاق..

نبرة فارس المألوفة على ذاكرتها كانت كافية لتخضع لانقلاب في عاطفتها، تفوقت فيه غريزة الحماية عندها على كرامتها، التي كانت قد تجاوزت من قبل في مقدارها غريزة البقاء، ودفعتها للتمرد على خاطفها رغم علمها بما قد يجرّه ذاك عليها من أذى..

أخرج نادر مطواة من جيبه وانحنى نحوها، وبمجرد أن رأى وجهها الفائض بالدموع لم يتردد لثانية واحدة في قطع الشريط اللاصق من على رسغيها..

سحبت كفيها إلى الأمام دون أن تقاومه كما فعلت في المصعد، ولم تشتمه أيضًا، بل وقفت بصعوبة، ثم مشت نحو الباب، فتحته، وشفتاها بالكاد تنطقان: «فـــــارس!».

تلاشت ابتسامة فارس المتحمسة بالكامل وذلك الصوت المألوف يطرق ذاكرته قبل سمعه.

«فـــ.. فـ.. فـــــارس!».

كررت بنبرة تخللتها شهقاتها الباكية.

فاستدار نحوها بسرعة، وعندئذ رأت مايا وجهه الأبيض، عينيه الزرقاوين، وشعره الفاحم، هو فارس، ولكن بنسخةٍ أكبر..

هو فارس صغيرها، ولكن بقامة تكاد تساويها طولًا، أوقد يكون أطول فهيَ تنتعل حذاء ذا كعب عالٍ..

جرّت ساقيها نحوه بخطوات مُهتزة فيما غشيَ زرقاويه هو الآخر الدموع..

فقلبُهُ منذ سَمِعَ هُتافها باسمَه، بنداءٍ ممدُودٍ، عرف أنَّها مايا..

تأمل وجهها المُحمَر، عينيها السماويّتي اللّون المطرتين بسخاء، وشعرها الأسود المتموج، ثم أمام عينيه أطبقت شفتيها لتسيطر على صوت نشيجها الباكي من أن يرتفع أكثر.. وكعادة فارس، حين كانت تحزن، مدّ كفه نحو وجنتها فانسابت دموعها عليها...

المرةُ الأولى في حياته التي يرى فيها مايا باكية!

«مايا؟!».

سألها بنبرة مُتهدجة فهيَ بدت شابة أنضج.. كم فصل بين لقائهما؟! عشر سنوات.. بالتأكيد ستتغير..

ولكنها لم تقوَ على إجابته، وعيناها المبللتان لا تزالان تتأملانه بغير تصديق.

«مايـــا؟!».

بنبرة ممتدة نطقها، يتوسلها أن تُجيب، بأنها هيَ، فازداد بكاؤها حدة، وهزت رأسها بـ (نعم).

وعندئذ تقوست شفتاه وانهارت دموعه، سحبته إلى حضنها ثم بكت بأعلى صوتها، وجسده يُعصر بين ذراعيها.. أرادت ادّعاء القوة أمامه، كعادتها، ولكنها فشلت..

تركته عند البحيرة يبكي فراقها.. وهيَ الآن من تبكي شوقها وحنينها إليه..

«أسفة.. أسفة.. كُنتُ مُخطئة بتركك».

أحاطها فارس بذراعيه بقوة وبحر زرقاويه يُسكب على كتفها، ظنها هديةً صغيرة، لكنها أجمل وأعظم هدية قدّمها نادر إليه..

قلبه المغمور بالفرح أرسل عبر عينيه امتنانه إلى نادر، الذي ظل يُحدق بعينين مُرتابتين بمايا، ولكنها بدت له في شعورها صادقة تمامًا ثم انسابت تنهيدة ارتياح من بين شفتيه، ففارس قد استطاع التعرف على أخته.

«أسفة.. لأنني تأخرت بإيجادك».

تمتمت بها مايا بقلبٍ ملتاع فيما كرر فارس اسمها مُحييًا في أعماقه وأعماقها شعورًا جميلًا.. كم افتقد مناداتها.. وقُربها..

أعادته إلى الخلف مبتسمة ببهجة من بين دموعها، فبادلها بابتسامة ذكرتها بابتسامته القديمة.. تأملت وجهه، ملامحه، وضمته مجددًا.. ومرَّ وقت كبير، وما زالت متشبثة به، وكأنها تخشى أن يُنتزع من بين ذراعيها أو أن يختفي مجددًا!

ثم بنبرة حزينة بثها فارس شكواه من فوق كتفها:

- مايا.. أنا مريض.

وعكست عيناه ألمه وخوفه من ردة فعلها.

«أعلم».

ردت برفق وهيَ تُبعده لترى وجهه الحزين، فقد أخبرها راكان من قبل أنه سلَّمه إلى فاضل لأنه مريض بالمتلازمة.. بينما كرر ببؤس كي تفهمه:

- مريض بمتلازمة غريبة.

- لا يُهم.

أجابته، فتجهم وجه نادر الذي اتكأ بكتفه على الحائط.. متسائلًا: كيف لا يُهم؟!

- ولِمَ أقتل أختي لَمى كما قال عمي فاضل!

فاجأها بعبارته الشاكية تهمة فاضل الجائرة فجفت الدموع من عينيها.. هيَ لم تظن يومًا أنه من قتلها، ولكن فاضل يتهمه!

- أعلم، ولا يُهم.

حمل وجهه المُحمر دهشته، فيما ضغطت وجنتيه بين كفيها مُردفة:

- ما يُهم الآن أنك حي.. وليس هناك شيء آخر سيكون أهم من ذلك.

واتسعت ابتسامتها الجميلة:

- شكرًا لأنك لم تمت.

عبارتها غمرت قلبه بانشراح كبير، تهلل له وجهه، وانطفأ به خوفه من أن يكون ناقصًا بين عائلته فعكست عيناه الزرقاوان حبًّا أعظم لها، بينما عادت دموع الامتنان للنزول من عينيها الواسعتين، وهي تحاول طبع صورته الجديدة في ذاكرتها..

الكثير من الدقائق مرت، وهما لا يزالان يقفان في صالة الجلوس، ينظران بعضهما إلى بعض بصمت، وغير تصديق، ثم فجأة انتفض فارس، وابتسم ابتسامة واسعة، وسبابته تُشير نحو نادر الغافل بمحاولة فك رمز إغلاق هاتف مايا، وصاح:

- إنه نادر.

نظرت مايا نحوه في الوقت الذي نظر فيه هو الآخر نحوها، وانبثقت شرارة كره متبادلة بينهما لم يلتقطها فارس الذي أكمل باندفاع:

- كما وعدتكِ مايا.. أحضرتُ لكِ رجلًا يُشبهكِ.. اسمه نادر، وقد وافق على أن يكون زوجًا لكِ.

امتقع وجهها، فيما كاد نادر يُسقط الهاتف من يده، وكلاهما يسلطان على فارس المبتسم جمرتين تشتعلان غضبًا وتقززًا.

****

-٤-

(قبل تسعة وعشرين عامًا).

«عمتي!».

ناداها الطفل سمير الذي بلغ السابعة من عمره، كانت ليلى مُنعزلة في حجرتها قد مرَّ على وفاة زوجها الشهران لكن شوقها إليه لم يقل.

كان العزاء الأكبر في مُصابها الجلل هو المصحف الذي استقر بين يديها وسجادتها التي جلست عليها.. قد بلغت السادسة والأربعين من عمرها، ولكنها خلال سنوات زواجها الإحدى والثلاثين لم تُنجب طفلًا يكون سندًا ومواسيًا لها عن زوجها الطيب..

قد استجابت لنصيحة أخيها الوحيد (والد سمير) فباعت منزلها واستقرت في حجرة منفصلة تقع في فناء منزله فلا يصح كما قال أن تعيش امرأة في منزل بمفردها فهذا سيُسيء لاسمه وسمعته.

- نعم.. أهلًا بك.. ادخل يا سمير.

دخل يحمل كتاب الرياضيات في يده، فقد بدأت منذ أيام سنته الدراسية الأولى، رأى القرآن المستقر على حجرها فأراد لمسه، ولكنها أمسكت كفه بلطف:

- نظف يدك من التراب أولًا.. هذا كتاب الله يجب أن نُقدِّره ونُجِلَّه ونعمل بما فيه.. ولا نمسه أبدًا إلا على نظافة.

تنازل عن لمسه، وقرب منها كتابه، فعلمت أنه يريد منها مساعدته في دروسه، ولم تتردد، شرحت له بهدوء وصبر وأوصلت له كل معلومة بأسهل الطرق وبعد ما مرت ساعتان سمعا نداء أمه من أجل الغداء فنهضا معًا وتناولا وجبة دسمة دافئة أرضت الجميع..

لكن هذا السلام لم يدم إلا لثلاثة أشهر، نفد خلالها مال ليلى، الذي أخذه أخوها لنفسه، وأغدق منه على زوجته وابنه من الطعام والملابس والهدايا بسخاءٍ تام، واشترى بما تبقى منه مزرعة جعلها مسكنًا لشره وخمرته..

وانصب الجحيم على رأس ليلى من الجميع؛ زوجة أخيها، وأخيها، وحتى الطفل سمير.

خرجت ليلًا من حجرتها فقد أصابها الجوع منذ أن توقف الجميع عن مناداتها لتشاركهم المائدة.. دخلت إلى المطبخ لتصنع لها ما تسد به جوعها، فظهرت من خلفها أم سمير فجأة تصيح بغضب:

- كل لقمة تأخذينها تُنقص من طعامي أنا وابني.. إلى متى ستبقين تسكنين معنا؟

- يا ابنتي.. ما أملكه أعطيته لأخي لأعيش معكم.

- أخوكِ! قد أنفقه كُله على الخمر.. فتدبري أمرك.

- أنا لم أُكمل عِدَّة الوفاة بعد.. ترفقي بي.

- ومن سيترفق بي أنا؟ بُؤسًا لكِ ولأخيكِ مُدمن الخمر.

أخذت ليلى قطعة الخبز الوحيدة المتاحة ثم عادت إلى حجرتها، والدمع يُغرق عينيها، لم تكن من هواة الجدال ولا الشجار..

قد أنعم الله عليها بقلب مُرهف رقيق، وعينين سريعتي الفيضان.. ولكنها ستكون كعذاب عليها بين أناس اعتادت قلوبهم القسوة، فها هو بابها يُطرق ليلًا ويُرمى بالحجارة فتنهض مفزوعة من نومها، ثم تسمع صوت ضحكات الطفل سمير آتية من الخارج، لكنها لم ترَ والدته التي وضعت نقودًا في يده جزاء عمله، وهي تحثه ليزعجها أكثر:

- إن بقيت مُرتاحة فلن ترحل.. لذا فلنجبرها.

وسلطت نظرة حاقدة على بيت الجيران:

- الجميع يستلطفونها، ويأتون لزيارتنا من أجل لقياها والتسلي معها.. هل بيتي فندقها؟

مضت ثلاثة أشهر على طرد أم سمير لليلى من مطبخها، ضعف فيها جسدها، وازداد تنمرهم عليها..

كانت تمشي في فناء المنزل عندما اعترضت عصًا طريقها فأسقطتها أرضًا على وجهها وسال الدم من أنفها. بدا سمير مرعوبًا قلقًا، وكاد يركض نحوها لولا ضحكة والدته الواقفة من خلفه عند ركن الباب:

- أحسنت.. هذه المرة قد أحسنت حقًّا.

لم يعلم ما هو الذي أحسن به؛ فهناك شخص ينزف دمًا، ويبكي ألمًا، لكنه يُكافأ على فعله هذا بابتسامة رضًا وقبول من والدته..

تراوحت تعابير شفتيه ما بين تقوس بكاء وابتسامة فخر بنفسه، وانتصرت أخيرًا قهقهة عالية خرجت مُدوِّيَة من فمه.. نعم.. والدته تريد خروجها فلماذا تُصر على البقاء إذًا؟

(هي المُذنبة في حق نفسها).

****

-٥-

حَلَّتَ الواحدة ظهرًا، ثلاثُ ساعات مضت على ذلك اللقاء، لكنها لم تُقلل من تأثر مايا التي ظلت تكرر بهمسٍ خافت: «حمدًا لله».

ويدها تمتد لتلمس فارس، مرة في كتفه وأخرى في وجنته ثم جبينه، فيما بقي فارس على جلوسه بتربع أمامها فوق السرير في حجرته، ووجهه لا يزال يعكس ذهوله:

لِمَاذا لم يحصل على ردة فعل متحمسة من الاثنين بعد عبارته المُبشرة السابقة؟!

ومع ذلك تابع إجابة طلبها فأخذ يُحدثها بما حدث له مُنذُ افترقا عند البحيرة، ثم قطع حديثه فجأة، ليسألها بنبرة وجلة:

- مايـــا! هل أنتِ بخير؟!

انتبهت من سكرة سعادتها على مناداته لها، فأوقفت سبابتها الممتدة نحو وجنته لتتحقق من أنه حقيقةً أمام عينيها، ثم ردت بلطف: «أجل».

وقبضت أرنبة أنفه فعبس بشدة وعندها ضحكت فيما ازداد تجهمه؛ مُستنكرًا: ألم تنضج خلال تلك السنين العشر؟

ثلاثُ ساعات!.. هل ذلك طبيعي؟!.. بالطبع لا!.. تلك المدة الطويلة قضتها بالاستماع إليه، بالنظر إلى وجهه، وفي تَلَمُّسِ كتفيهِ

ووجنتيه، والتبسم له من خلف عينين متسعتين غطتهما طبقة رقيقة من الدموع.. هِيَ حتى نسيَت أنها مُختطفة!

والأغرب أن فارس على عكسها، قد ظل مُتماسكًا أمامها يُحدثها بأشياء غبية، فيُضحكها مرة ويكادُ يُبكيها أخرى بتعابيره القديمة التي افتقدتها لعشر سنوات.

اقتربت منه أكثر، وكأنها أدركت محاولته الغبية إسعادها، فهمست:

- فارس، لقد كَبِرْتَ وتغيرت كثيرًا.

عكس وجهه حبورًا شديدًا، فأطلق نادر - المستند بكتفه على ركن باب الحجرة - (تشـه) مُكذبة لها، فهو كَبِرَ جسدًا ليس إلا!

ثم لم يلبث أن أغمض عينيه بتأفف فقد تعب من ذهابه وإيابه بهدف مراقبتهما.. ألم يتعبا؟!

ثلاثُ ساعات!. الخاطف لديه حقوق أيضًا.. هو بحاجة للجلوس.. لتناول الغداء! للنوم أيضًا! ألا يُدركان ذلك؟! ولكن يبدو أن وجوده هو الوحيد المُفسد لهذه اللحظة السعيدة.

تابعت مايا في حب كبير:

- نعم قد كَبِرت.. فحين كُنتَ تصف قديمًا ما حدث لك لم تكن تصبر على الجلوس.. كُنتَ تقف ثم تُقلد بحماس كل شخص.

«هل كُنتُ أفعلُ ذلك؟» سألها بذهول وقد نسي بالفعل.

«أجل»

أجابته بابتسامة لطيفه فكسا وجهه الخجل، وهو يدير عينيه ببطء إلى

الخلف وتفجر حرج أكبر على وجهه حين اصطدمت عيناه بابتسامة نادر الساخرة منه، إلا أنه لم يعلم ولن يعلم أن خلف تلك الابتسامة كانت أعماق نادر تضجُّ شكرًا لله؛ فهو بصعوبة يحتمل ثرثرته فكيف لو أضاف لها مسرحًا اعتلى خشبته ليُمثل أمامه؟!

وفقط تلك الالتفاتة من فارس كانت كفيلة بأن يتبدل وجه مايا مئة وثمانين درجة فأرسلت نظرة شرسة نحو المُخْتَطِف، ثم أمسكت بوجه فارس لتُديره نحوها:

- فلندع التفاهات خلفنا، ولنركز على الأهم.. ماذا حدث للَمى في تلك الليلة؟

تفاهة! هيَ تقصدهُ بالتأكيد!

سلّط عليها نظرات لو كُتب لها الرمي لاخترقت جسدها دون رصاص! بل تقلّبها السريع جعله يثق بأنها تعاني من انفصام في الشخصية؛ فكيف لها أن تُبدل أقنعتها بهذه السرعة؟! من وديعة ولطيفة إلى شرسة وقاسية في أقل من جزء من الثانية!

«ستحزنين وقد تبكين!».

ردَّ فارس بإشفاق وكأن بكاءها الأول أمامه قد أَيْقَظَ فيه رغبة الحماية لها مما يؤذيها.. هذه الصفة الجديدة منه فاجأتها ولم تعرفها فيه من قبل.

وشهق بألم حينما شدَّت فجأة أرنبة أنفه بأصبعيها:

- لا تستقلَّ بي.. حتى إن ازددت طولًا ما زلتُ أكبرُ منك بتسع سنوات.. بكائي الآن فرحًا وليس حزنًا!

ثم شمخت بأنفها، ودفعت شعرها الأسود للخلف متابعة:

- انظر.. انظر جيدًا.. من التي أمامك؟.. إنها أنا مايا.. لم أكن من قبل ضعيفة، فكيف الآن وأنا شابة ناضجـ..

قطعت تفاخرها بغضب حين مر نادر أمام الباب المفتوح بالكامل، فتجهم وجهها واستنكر عقلها: يكفيه أن يُغلق باب الحجرة عليهما وعندها لن يهربا منه، ولكنه بدلًا من ذلك أبقاه مفتوحًا، ثم أرهق نفسه بمراقبتهما!

المعتوه، أليس لديه عمل شرير آخر غير التلصص على اللحظات العائلية لأشخاص آخرين؟!

أدارت بصرها بسرعة نحو فارس وقد استبدلت عبوسها بملامح فاضت لُطفًا وليِنًا:

- اخفض صوتك.. يجب أن لا يسمع أسرارنا العائلية فهيَ خاصة بنا فقـ..

قاطعها فارس بابتسامة جذلة:

- ولكنه يعلم كُلَّ شيء.

امتقع وجهها ورمت فرجة الباب بنظرة عصبية؛ هذه الساعاتُ الثلاث لم تمر هباءً بالنسبة لها فقد تفقدت فيها ذراعي فارس وقدميه، ولكن لم يكن هناك أثر لأي قيد وضعه الخاطف عليها، وانتقلت للبحث عن أثر لأي كدمات على الجزء المكشوف من جسده وأيضًا لم يبدُ وكأنه تعرض للضرب منه، وهما الآن يجلسان قبالة بعضهما بعضًا يتحدثان بحرية دون أن يكرر المجرم فعله العنيف معها بتقييدها وكتم صوتها..

ورغم هذا كله فهي ليست غبية فلم تنسَ بعد كيف ظنَّ فارس قبل أن يلتقيها أنه يُخبئ خلفه هديةً له. بل وظن لسذاجته أنها (بُرقر)، هذا المجرم أخطر مما اعتقدت فهو يعلم ما يُحبه فارس ويستغل براءته بالكامل!

غلت أعماقها غضبًا.. إلى أيِّ حد عبث مع أخيها؟

حوَّلت نظرها نحو فارس، ستُحطم صورة هذا الرجل أمامه، ستُخبره أنه ليس جيدًا كما يظن، بل هو مجرم يدَّعي الطيبة ويستغل جهله لكي يُطيعه بالتنقل معه من مكان إلى آخر دون أن يحتاج إلى تقييده أوجرّه بالقوة كخاطفٍ حقيقي.

فتحت شفتيها ثم أطبقتهما بسرعة وحذر حين غطى جسد نادر فرجة الباب، وكأنه استشعر خطرًا ما..

وقطع جوهما المشحون صوت فارس عندما امتدت يده لتلمس شعر مايا قائلًا بابتسامة:

- شعرك طـال كثيرًا.. لا بد أن أمي سعيدة لأنكِ لم تقصيه.

ارتخى جفناها، وعكست عيناها دفئًا عظيمًا.. كلا، هيَ البالغة، لذا ستتولى وحدها أمر الخاطف، ولن تكسر فرحة أخيها بلقائهما الذي لمْ يتجاوز نصف اليوم حتى.. يكفي أنه مريض ولا داعي لأن تُثير خوفه من الخاطف فيزداد اضطرابه النفسي سوءًا لذا كأختٍ كُبرى ستتحمل كافة المسؤولية وتُنقذه.

رمت نظرة حاقدة نحو نادر وتمنت لو تنهض وتصفع باب الحجرة في وجهه، ولكن كيف ومتى فقد مفصل الباب مسماره ليتدلى بهذا الشكل المُريع؟

الوغد، لقد استغل انشغالها بأخيها وأفسد الباب كيْ لا يُغلقا الباب على نفسيهما.. هو مُحترف بلا شك!

تمالكت نفسها إلى أقصى حد كي لا يُدرك نادر نيتها بالهروب، ثم التفتت إلى فارس قائلة:

- حسنًا.. أخبرني عن تلك الليلة، أريد أن أعلم ماذا حدث بالضبط.

انعكس الضيق على وجهه، ولكن ضغطها برفق على كفيه جعله يتحدث، ويتحدث، ويتحدث، فيما كانت تعابير وجهها الشاحبة تكشف صدمتها.. هيَ لم تُصدق أبدًا أنه قتل لَمى، ولكن لماذا لم تفكر أن هناك جريمة قتل مُتعمدة قد حدثت في قصرهم؟

«كُلُّ هذا حدث أمام عينيك!».

بالكاد استطاعت شفتاها نطقها، وعقلها يكبح عينيها عن إيذاء قلبه بدموعها مُجددًا.

«نعم.. ولكن لم أكن قادرًا على حمايتها».

وارتجفت شفتاه، وعيناه تنظران إليها بتوجس خوفًا من أن تلومه، وبالفعل صرخت بغضب:

- لماذا لم تهرب؟

اصْفرَّ وجهه، فيما ضاقت عينا نادر، وهي تُعاتبه بعصبية:

- هل ظننت أنك بقوة رجل؟! كان عليك الهرب منه.

- وأترك لَمى؟!

- لم تكن قادرًا على إنقاذها فأنقذ نفسك.

حرك فارس رأسه يمنةً ويسرة ببؤس:

- لم أستطع تركها.. فأنا رجل.

- مجددًا! الرجال وكبرياؤهم الغبيُّ!

قالت بسخط دون أن تُدرك أنها شتمت اثنين في آنٍ واحد، عبس الأخير، فيما ابتسم الأول لأنها لم تُجرمه لمقتل لَمى، ثم رفعت كفها لتمسّ وجهه:

- يكفي أن يتأذى شخص واحد بدلًا من اثنين.

وعكست عيناها نَدَمَها، وإبهَامُها يَمسَح وجنته:

- إنه خطئي أنا.. أسفة لأنني لم أُعلمك الهرب.

وقبل أن ينهاها فارس عن لومها لنفسها سألته فجأة: «قُلتَ إن الرجل قد آذاك في رأسك؟». أومأ أيجابًا فسألته بسرعة: «أين؟».

أشار لمؤخرة رأسه فوقفت ورأت بين خصلات شعره الكثيفة أثرًا لذلك الجرح فشقت وجهها ابتسامة مُتحمسة:

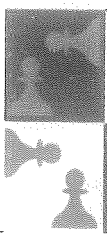
- قبل سبع سنوات سألتُ طبيب عن مرضك، فقال: إن كان سببه إصابةً في الرأس فبعلاج الإصابة قد يُشفى.

أشرق وجه فارس سعادةً، وحوّل نظراته المتسائلة نحو نادر، فوجده ينظر إليه بهدوء دون أن يبتسم؛ فتلك الإصابة قد مرَّ عليها زمن طويل، ما يتجاوز تسع سنوات، ليس وكأنه لم ينتبه إلى ذلك..

ولكن فارس انتبه فجأة إلى شيء آخر، أن مايا لديها طبيب آخر، فحوّل نظره نحوها قائلًا برفض:

- كلا.. أريد أن يكون نادر طبيبي.. نادر فقط.

****



حطم رأسه

-٦-

في مركز شرطة العاصمة، لَمْ يَكِلَّ ولَمْ يَمَلَّ نائب رئيس الشرطة (صفوان عبد العزيز) وهو يشارك المحققين كل صغيرة وكبيرة ترد إلى قسم الشرطة حول الفتى المفقود (فارس راكان عبد السلام).

اجتمع تسعةٌ منهم حول طاولة مستطيلة، ترأس الطرف الأول منها صفوان، بينما تُرك الطرف الآخر للمحقق أيمن الذي وقف يشرح لهم على لوحٍ أبيض خط سير سيارة الإسعاف منذ مغادرتها مستشفى الصحة النفسية وحتى وصولها إلى مستشفى السلامة المشهور بإجراء أنجح العمليات الجراحية.

- لم تمر سيارة الإسعاف في خط سيرها بأي كاميرات للمراقبة سوى الكاميرا الخارجية لمستشفى الصحة النفسية التي رصدت وصولها فصورت سائقها والمُسعف في الخلف.. وللأسف بسبب الحالة الطارئة للفتى لم يُبالِ أحد موظفي المستشفى بتفقد هوياتهم كما أن تغطيتهم لأوجههم جعل من الصعب التعرف عليهم، وعند مقارنة بنية جسد المُسعف بجميع موظفي الإسعاف في مستشفى السلامة والتحقيق معهم لم يتطابق وصفه مع أيٍّ منهم وكلٌّ منهم قدّم حجة غياب تنفي استعماله لسيارة الإسعاف لغرضٍ شخصي.

قال أحد الرجال بنبرة تحمل شكه الكبير:

- ألا يبدو وكأن سائقها قد تعمّد تجنب الطُّرق التي توجد فيها كاميرات الرصد المروري؟!

أيّده الباقون، فيما تحدث آخر بتعب:

- ومهما بحثنا عن أي سيارة كانت على خط سيرهم للاستفادة من كاميرا التصوير الخاصة بها نجد أن تلك السيارات لم تلتقط شيئًا، لذا فمن الأرجح أن خط السير الذي افترضناه خاطئ، وتتبعنا العشوائي لها في طرق أخرى كان مُرهقًا للغاية، ومعظم السيارات التي أضعنا وقتنا في البحث عنها لم يقتنِ أصحابها كاميرا داخلية قد نستفيد منها.

كلماته المحبطة نشرت جوًّا من الكآبة والخيبة في المكان، ولكن اعتدل صفوان في جلسته ليسأل بانفعال:

- ألم يقل الطبيبان النفسيان سالم ونادر إن هناك اثنين من المراجعين وطبيبًا من مستشفى السلامة قد أكّدُوا رؤيتهم للفتى؟ إذا كانت لم تصل سيارة الإسعاف إلى مستشفى السلامة فما المصلحة التي قد يجنيها هؤلاء الشهود من كذبهم بشأن رؤيتهم له؟

اندفع أحد المحققين ليقول بحدة:

- شهادتهم هي الحجر الذي عرقل علينا سير التحقيق.. عندما ذهبت إلى مستشفى الصحة النفسية لآخذ للمرةِ الثانية أقوال سالم ونادر حول هؤلاء الشهود المشبوهين وجدت أن نادر قد تم فصله من عمله على أثر الحادثة ولم أجد وسيلة للتواصل معه بينما حصل سالم على إجازة.

قال صفوان بارتياب:

- لماذا قد يأخذ سالم إجازة في مثل هذا الوضع العصيب؟

- نعم، بدا لي الأمرُ غريبًا.. الأول تم طرده لكن لماذا قد يغادر سالم هو الآخر؟

ترك أيمن اللوح الذي كان يسجل عليه وعاد للجلوس قائلًا بانزعاج:

- وحين تفقدنا جميع فيديوهات المراقبة داخل مستشفى السلامة منذ لحظة صعود الفتى إلى سيارة الإسعاف ولست ساعات مضت بعد ذلك لم نرَ ذلك اللقاء المزعوم بين طبيبي الصحة النفسية والشهود المشبوهين.. فهل حدث هذا في بقعة عمياء؟

اتسعت أعين جميع الرجال فيما صرخ واحد منهم:

- دورات المياه!.. ماذا لو كان اللقاء قد حدث هناك؟ يمكننا تفقّد اللحظة التي دخل فيها سالم ونادر إلى دورة المياه ومن ثم نتفقد من مِن الرجال قد سبقهم بالدخول إليها أو خرج بعدهم.. سيكونون هم أكثر الرجال المحتملين كشهود.. ولا بد من التواصل مجددًا مع نادر وسالم للإدلاء بشهادتهما إذا ما قبضنا على هؤلاء الرجال؛ فهناك من يسعى لتضليلنا، ولكن لا أعلم من بالتحديد.

شيء من الراحة تسلل إلى قلوب سبعة من الجالسين لحصولهم على خيط جديد يبدؤون منه تحرياتهم فيما لم يُبعد أيمن عينيه عن وجه صفوان وقلبه يغرق في الخوف.. فمنذ تولى صفوان مركز نائب رئيس الشرطة لم يشاركهم التحقيق في أي قضية من القضايا فلماذا إذًا هذه بالتحديد؟

****

ألقى فارس طلبه بلهفة شديدة حملت ثقة وودًّا عميقًا نحو نادر مما جعل حماس مايا من أجل علاجه يتحطم بالكامل، بينما كبح نادر

ابتسامته، وهو يدخل إلى الحجرة ليسحب حقيبته إلى الخارج، وكأن ما قاله فارس لا يَخصُّه.

على حين عارضته مايا بحدة:

- هُناك أطباء أكثر كفاءة وخبرة منه.

- لا.. أُريده هو.

ومنحها عبوس الوجه الذي قلَّما ترفض بعده أيَّ طلبٍ له، وانفجر في أعماق مايا شعور غريب، فالنظرة في عيني أخيها ليست بطبيعية على الإطلاق.. بدا وكأنه ليس مخدوعًا بأن نادر شخص جيد فحسب.. بل هناك شيء أعمق من ذلك لا تعلم عنه...

ففي البداية انتظر هداياه وطعامه وكأنه والده، ثمّ صرَّح بِغباءٍ مُطْبِقٍ عن رغبته بتزويجه لها، والآن يريد أن يمنحه وظيفة!

ظلت تفكر بِتمعّنٍ لعدة لحظات قبل أن تفرقع وسطاها وإبهامها عدة مرات بالقرب من أُذني فارس مُفزعةً له، ثم زاد الأمر سوءًا بأن انتقلت إلى التصفيق، صفقات مفردة، جعلت الاثنين ينظران نحوها بدهشة، وحين لم يُفلح التصفيق انتزعت من بين خصلات شعرها دَبُّوسين معدنيين صغيرين يُستخدمان لتثبيت الشعر ثم ضربتهما بعضهما ببعض محاولة تقليد صوت الجرس.

«ماذا تفعلين؟!» سألها فارس بصدمة.

«اهدأ فقط.. سأجعلك تُفيق».

وأوقفت محاولاتها بعد وقت، والتي تكللت جميعها بالفشل، بدا عليها الحيرة والارتباك، ثم انتقلت فجأة لتعدّ ببطء من العشرة إلى الصفر

والعكس، لكن فارس ظل متجمدًا بصدمة، يرمش باستهجان شديد، فأصابها اليأس؛ ظنت الخاطف تلاعب بأفكاره فقط، ولكن لا بد أنه قد استغل تخصصه فأخضعه لتنويم مغناطيسي شديد.

«لا بد أن تُنطق الأرقام بصوتي أنا».

قال نادر فجأة فشهقت بجزع، فيما رمقه فارس باستفهام: «ماذا قلت؟!».

أراد نادر إجابته بجواب أشدَّ تهكمًا، ولكن وجهها الذي عكس يأسًا فظيعًا جعله يُنزل رأسه إلى الأسفل نحو الحقيبة مُطلقًا ضحكة خافتة.. هيَ حمقاء وذات خيَال دراميٍّ بالكامل.. وعندها بدأ عقله يُقنعه أن مثلها لن يسعى لإيذاء فارس.

«ستنطقها يومًا ما باكيًا».

همست بتهديد اهتز صوتها في آخره بعد تذكُّرها أن حماية أخيها منه مُقدمة على استفزازها له، لكنه أجابها ببرود:

- أجبريني إن استطعتِ.

اتسعت عينا فارس بإعجاب شديد، كيف لها أن تتحدث مع نادر هكذا؟ وتُهدده أيضًا! هيَ تُناسبه تمامًا..

فقط لو يعلم أنها مُخْتَطَفَةٌ أيضًا!

فيما قررت مايا التنازل عن محاولة إيقاظ وعي فارس لتُشيع نادر بنظراتها المُبغضة، وهو يخرج جارًّا الحقيبة من خلفه، لم تستطع أن تهتدي إلى كيفية إدراكه لنظرتها الخفية إلى الحقيبة أثناء حديثها مع فارس، كانت تأمل أن تجد فيها من الأدوات ما ينفع كسلاح تواجهه به عند الهرب، ولكنه مزق أملها.

أغمضت عينيها بتعب، ولم تلبث أن تنهدت، ثم عادت إلى فارس لتسأله بلهفة:

- ثم ماذا حدث بعد موت لَمى؟!

- وجدتُ نفسي في المستشفى بسبب إصابة رأسي و...

حديث فارس شغل بالها بالكامل عن خطتها بالهرب، أصغت بكيانها كُله لتلك السنين التسع التي ظَنَّ الجميع فيها أنه ميت.

أخبرها عن بقائه لعام بأكمله في منزل غريب، وبالتحديد في حجرة معدنية خارجية استُعملت لتخزين عدة النجارة وعدة تصليح السيارات والسباكة.

وصفه لتلك الحجرة بالتفصيل كاد يوقف قلبها وجعل أنفاسها تضيق.. هل فاضل أبقاه في سقيفة التخزين المعدنية المُلحقة بحديقته بعد أن ائتمنه راكان عليه؟ وسط البرد، وعفن الأدوات، والفئران والحشرات، وصدأ الحديد ونشارة الخشب والغبار الداخل من شقوق الجدران المعدنية.

لم تُصدق!

ولكن فارس وصفها بدقة رغم أنه لم يزر منزل عمها فاضل ولو لمرةٍ واحدة على عكسها هِيَ من زارته كثيرًا..

بلعت ريقها على حين انتقل فارس بحديثه إلى مستشفى الصحة النفسية الشهير وكيف حُبس فيه، وذلك المُجرم يُرافقه، يضربه، ويُريه صورًا لجسد لَمى الممزق، بل وصُدمت أكثر حين أخبرها باعتقاده أنه طوال تلك السنين التسع كان يظن أنه مُحتجز في منزل المجرم.

احمرَّ وجهها، وارتجفت شفتاها لجزء من الثانية فقط، ولم ينتبه فارس الحاكي معاناته لحالها بسبب سرعتها في كبت مشاعرها، وانتقل بحديثه ليخبرها عن زيارة فاضل له:

- كُنتُ سعيدًا للغاية حين رأيته بعد تسع سنوات من تلك الحادثة، ظننتُكِ أنت من أرسلتِه إليَّ، كان يقف إلى جوار المجرم وقد كُنتُ خائفًا عليه منه، ولكنه لم يهتم وظل يُكرر أنني أنا من قتلتُ أختي لَمى.

عكس وجهه ألمه الشديد وبلغ كبته لدموعه أقصاه ولو أن الذي أمامه نادر لأطلقها دون تردد، ولكن من أمامه هي مايا، التي مدت كفًّا مُهتزة إليه لتُزيح خصلات متمردة من أمام زرقاويه، وابتسمت برفق:

- مررتَ بالكثير.

كلماتها كادت تُطلق دموعه فبثَّها بقية شكواه بألمٍ وحُرقة:

- قال عمي فاضل إن والديَّ قد تخليا عني، وإني حطمتُ أُسرتي، وإنهما لن يؤويا قاتلًا مثلي في المنزل.

وتوسلت عيناه القانيتان حُمرةً لإجابة منها تُهدئ فوضى مشاعره، وهو يُلح عليها:

- فهل هذا صحيح مايا؟!

ظل عُنقها يُمرر غصتها الباكية للأسفل، لن تبكي، لن تجزع رغم ما حدث له..

ستحتمل لأجله ولن تُخبره أن راكان قد سلَّم بالفعل وصايته إلى فاضل لأنه انشغل عنه بعلاج فاتن بعد انهيارها.

«كلا، لم يتخلَّ عنك والداك» قالت بهدوء فتهلل وجهه فرحًا..

«إذًا لماذا عمي فاضل يكذب؟!».

سألها بحيرة، فأرسلت نظرة كئيبة مُستغربة نحو فرجة الباب؛ إذًا الخاطف لم يُخبره عن كل ذلك الهراء حول وصية بسام ثروت الجائرة واستغلال فاضل له!

هل يُراعي مشاعر أخيها؟ أم أنه فقط ليس مُهتمًّا بإخباره؟

هذا الْمُخْتَطِف أمره مُحيِّر للغاية!

ثم عادت بنظرتها المُثقلة بالهمّ نحو فارس، هو مضطرب نفسي وقد يكون ما حكاه أوهامًا وهلاوس، ولكن تسع سنوات بحثت فيها حول مرضه وسألت عنه العديد من الأطباء كانت كفيلة بأن تُدرك أنه يستحيل أن يهلوس بصورة عمها فاضل في وجود المجرم نفسه، كما أن تخلي والديْه عنه لم يكن ليعلم عنه فارس لو لم يُخبره فاضل بنفسه، ووصفه لسقيفة التخزين المعدنية التي تعرفها جيدًا زاد من يقينها أنه يقول الحقيقة..

وأخيرًا، كلماته الشاكية ما اتهمه به فاضل حملت أَلَمَهُ وحُزنَهُ الكبير لأنه بالتأكيد ذاق ذلك الشعور مجددًا كما أذاقه أياه فاضل في أول مرة.

«مايا»

أفاقت من أفكارها العاصفة بروحها وقلبها على صوته، وهو يُمسك فجأة بكفيها متشبثًا بها:

- أرجوكِ.. لا تتركيني.

ستنهار، أحست بعدم قدرتها على الصمود أكثر، ولكنها سحبت نفسًا عميقًا بددت به غصتها ثم أحاطت رأسه بذراعيها لتضمه إليها برفق:

- ستندم يومًا ما على طلبك هذا.. أنت لن تتحرر من مايا أبدًا.

ضحك براحة فهذه مايا التي يعرفها، والتي وثق بها. أعادته للخلف لتُمسك بذقنه وقربت وجهها منه مُبتسمة:

- فاضل رجل مسكين فقد عقله لذا هو لا يعلم ما يقول.

اتسعت عيناه صدمةً فهيَ لم تُطلق مُسمى (العم) عليه حتى، فيما ارتخت ملامح نادر المتكئ بظهره على الحائط من الخارج يستمع لحديثهما وقد فاجأته بإخفائها لحقيقة فاضل على فارس..

هل هيَ لا تُريد تحميل فارس مشكلات البالغين كما فعل هو معه؟! أم تريد التستر على عمها؟

تصرفها الغريب أثار حيرته بالكامل!

سألها فارس بقلق:

- هل هو مريض؟

- نعم.. مريض بمرض شنيع جدًّا.

- أسوأ من مرضي؟!

- مرضك لا يُعدُّ شيئًا أمامه.

- مسكين! لهذا قال إنكِ لم تعودي تنطقين اسمي حتى.

اصفرَّ وجهها وتصاعد احتقان عنيف إلى عينيها:

- هو قال ذلك عني؟

- نعم.. لم أكن أُريدُ إخبارك، ولكن بما أنه مريض فلا بأس، صحيح؟

ازداد وجهها احتقانًا من وقاحته، يتحدث باسمها، يتجرأ على تشويه صورتها أمام أخيها الوحيد، هو بالتأكيد مريض وعلاجه عندها.. ثم قالت بلطف:

- لا بأس.. الآن وبعد أن علمتُ كل شيء.. لن تُفكر بشيء آخر غير علاجك.. حسنًا؟

- حسنًا.

ومنحها ابتسامة كبيرة وكأنما أفرغ ما يُثقل كاهله بالكامل ليحملهُ كتفاها بدلًا منه. ابتسمت بدورها محاولة تبديد هذا الجو الكئيب وقالت:

- لدي خبر رائع.

- ما هو؟!

- لن أُخبرك الآن.

- توقفي عن إغاظتي وأخبريني ما هو.. أرجوكِ.

- على ماذا سأحصل بالمقابل؟

مطَّ شفتيه، لا يملك شيئًا!

التفت إلى الباب المفتوح بعد ما فكر بالطلب من نادر، أزعجتها نظرتُه المستعطفة وقد أدركت ما ينتويه فأمسكت بكفه قبل أن ينهض:

- فارس.. لا تطلب شيئًا من الغرباء.

- نادر ليس غريبًا.. هو طبيبي وسيصبح زوجـ..

قاطعته بعنف وتقزز:

- لن يحلم بذلك حتى.

لم تكن قد أنهت جملتها بعد حين برز من خلف الحائط رادًا بازدراء:

- بل أنا في غنًى عن كوابيس على هيئتك.

أرجح فارس بصره بينهما بحيرة، كلاهما جيدان، أين الخطأ الذي ينبغي عليه تصحيحه فقط؟!

بينما ازدادت حدة النفور في نفس مايا منه: فهل كان طوال الوقت يتنصت عليهما؟

تنهد فارس بتعب وعقله يبحث عما يقايض به مايا، ثم أطلق ضحكة مفاجئة عندما تذكر الصور المتلمع بها هاتفه، قرية السنابل، العجوزان، الدجاج، برونو، طيراه و.. رغم الحزن الذي طرق قلبه إلا أن هذا هو الجديد الذي لم تعرفه مايا عنه وسيُثير فضولها..

أخرج هاتفه من جيبه لكنّه لم يكد يمدّه نحو مايا حتى صُدم من منظر وجهها الذي أشرق سعادةً، وارتفع من خلفه صوت نادر شاتمًا نفسه لنسيانه الهاتف معه، وامتدت كفان في وقتٍ واحد نحو كف فارس المبسوطة، ليعلق طرف الهاتف السفلي في كف نادر بينما العلوي بين أصابع مايا...

تجاذباه بقوة وعنف أمام نظراته التي عكست خوفه.

كانت فرصة مثالية لمايا لتُظهر هذا الخاطف على حقيقته أمام أخيها، سيزول أثر سحره عنه حينما يراه يدفعها بعنف كما فعل بها في المصعد..

رفع نادر الهاتف عاليًا بكامل قوته، مستغلًا طوله الذي تجاوزها بكثير، ونجح أخيرًا بانتزاعه من يدها رغم محاولتها التمسك به، فبلغ

حنقها وغضبها منه أقصاه، وانتبهت بغتة أنه يقف في منتصف المسافة الفاصلة بينها وبين فارس، وعندها صرخت بقوة:

- فارس حطم رأسه بالمقعد.

فرَّ اللون من وجه فارس، وهو يُحدق في عينيها اللتين أرسلتا له تشجيعًا لطالما أحبه واعتاده منها، فنقل بصره الشاحب نحو ظهر نادر الذي حمل وجهه استنكارًا شديدًا، وقد أدرك أخيرًا ممن استقى فارس عنفه.

«فارس!».

صرخت بنبرة أعلى؛ فالفرصة تكاد تفوتها مع استدارة نادر إلى الخلف، لكن فارس بقي متصلبًا، إحدى كفيه تتشبث بذراع المقعد، بينما الأخرى تدلت إلى الأسفل.

وسقط عليه نظر الاثنين معًا فصُدما من منظر شفتيه المنفرجتين، وعينيه المحمرتين، واللتين حناهما بسرعة إلى الأسفل وقد عكس وجهه فوضى في المشاعر؛ لا يريد عصيان أخته التي التقاها لِلتَّو بعد أكثر من تسع سنوات، ولا يريد أيضًا إيذاء نادر.

****

-٧-

(قبل تسعة وعشرين عامًا).

«منذ أن أعطتنا هذه المرأة مالها ونحن لا نجد خيرًا في هذا الرجل».

صاحت أم سمير ولعنت وشتمت بعد مرور ثمانية أشهر من قدوم ليلى إلى منزلها.

خرجت إلى فناء المنزل فوجدت ليلى تكنس الأرض من الغبار وأوراق الشجر اليابسة كي تقضي جزءًا من وقتها الفارغ الطويل، فلحسن الحظ قد حظيت ببعض المساعدة عندما انضمت إلى حلقة لتحفيظ القرآن الكريم بالقرب من المنزل، وجدت فيها أُنسها، وسلواها، وعاونها البعض ممن وثقت بهم بأن باعوا لها عددًا من أقراطها المصنوعة من الذهب الخالص. مكَّنها ذلك من العودة في كل ليلة إلى حجرتها بحقيبة ممتلئة بالطعام دون أن يدري أخوها وزوجته..

عندما خرجت من بيت والديها للزواج كانت في الخامسة عشرة من عمرها، وكان أخوها في الخامسة، سكنت في منطقة تَبعُد عنه مئات الأميال ولم تظن حين وافقت على الرحيل معه بعد وفاة زوجها أنه على هذا القدر من السوء.

ابتسمت للأفكار التي تزاحمت في عقلها، اليوم ستشتري بعض البسكويتات والمقرمشات وستشاهد مسلسل المساء في حجرتها، ولكن

ابتسامتها المشرقة استفزت بطريقةٍ ما أم سمير.. فكيف لامرأة مرَّت بكل هذا البؤس أن تكون بهذه السعادة؟

وطُرق باب المنزل فجأة فأسرعت أم سمير لتفتح الباب لابنها سمير القادم لها بالجديد من الأخبار:

- أبي في مزرعته وبرفقته امرأة.. قال من يعتني بالمزرعة إنه تزوجها بعد شرائه للمزرعة بشهر.

نزل الخبر على رأس (أم سمير) كالصاعقة، أذهب لُبّها ومزق روحها..

ولولت وناحت وبكت، لكن زوجها في عُمق سروره، يعيش متعته بعيدًا عن تذمرها..

أصاب سمير الذهول من ردة فعل أمه العنيفة، وفاجأه اقتراب ليلى منها لتساعدها على النهوض، ولسانها المُشفق يواسيها:

- توكلي على الله.. أنتِ أُم لطفله ولن تساو..

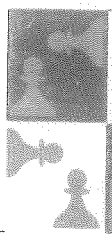
بتر عبارة ليلى صفعة عنيفة تلقتها على وجهها من أم سمير، لم تعلم ليلى أن هناك بشرًا يعيشون يومهم فقط، وإن غضبوا، أو حزنوا، أو مروا بأزمة ما، فسيبحثون عن أضعف شخصٍ مُتاح ليتلقى لومهم، شخص يجعلون منه دلوهم الذي يفرغون فيه بؤسهم دون خوف من مستقبل يلقون فيه جزاء الله..

نهضت (أم سمير) ثم أسقطت المسكينة أرضًا، وانهالت عليها تضربها، وتركلها، وهي تصرخ:

- تزوج بمالك.. بمالك أيتها العفريتة.. فرقتِ بيننا.

لم يفهم سمير من هذا الموقف إلا أن هذه المرأة الدخيلة هي السبب في مُصاب أمه فشاركها نوبة غضبها وبدأ بالضرب معها...

****



-٨-

«هناك سبعة رجال.. ثلاثة من المرضى وأربعة من الأطباء».

قال أحد المحققين وهو يُعيد مشاهدة الفيديو ـ المصوَّر أمام دورة مياه مستشفى السلامة ـ للمرةِ الثالثة، بينما طبع رفيقه صورة لكل الداخلين إلى دورة المياه بنصف ساعة تسبق دخول نادر وسالم إليها، والخارجين بعدهما بنصف ساعة أخرى.

ظهرت على الصور أوجه الأطباء الأربعة واضحة تمامًا ما عدا شخصًا واحدًا فقط غطت الكمامة نصف وجهه، أما المرضى الثلاثة فأحدهم كان مكشوف الوجه، بينما الآخران قد التف على رأسيهما لفافات بيضاء غطت معظم ملامحهما.

قال المحقق الأول بعد انتهائه من المشاهدة:

- عندما وصف طبيبا الصحة النفسية (سالم ونادر) الشاهدين اللذين قابلاهما قالا إنه يصعب عليهما وصف وجهيهما لتعرضهما لإصابات في الوجه وأحدهما قد كُسرت يده.. هذان الاثنان هما المعنيان بحديثهما.

أجابه الآخر، وعيناه تتفحصان الصور:

- يصعب التعرف عليهما؛ فبالكاد تظهر أعينهما بسبب طبقات

الشاش الملتفة على رأسيهما.. سُحقًا.. أي حادثٍ هذا الذي قد تعرضا له وتسبب لهما بمثل هذه الإصابة البالغة؟

- أنت محق.. لنركز إذًا على الأطباء.

- لماذا يبدو لي ذلك الطبيب ذو الكمامة أكثرهم ريبة؟.. انظر إلى خطواته أثناء خروجه، يبدو عليه الارتباك والتوتر.

- تعني التفاتة رأسه الكثيرة.. نعم، ولكن هذا ليس دليلًا فعليًّا على محاولته إخفاء شيءٍ ما.

- حقًّا؟ إذًا لماذا مهما كبرت الصورة أجده لا يضع بطاقته الشخصية؟

- قد يكون قلقًا من أن يُسقطها أثناء استخدامه لدورة المياه.

- نعم هذا ما سيعتقده غبي مثلك.. لقد تجول في كامل المستشفى بدونها، ومهما تتبعته بعد خروجه من دورة المياه لم أجده يُعيدها إلى معطفه، ثم فقدت أثره عند بقعةٍ عمياء لا يوجد فيها كاميرات.

- واو.. متى أصبحت بهذا الذكاء والنشاط؟

- منذ أن تدخل هذا الحثالة نائب رئيس الشرطة في عملنا.. دعنا نُنهِ الأمر.. لا أريد رؤية وجهه في قسمنا بعد الآن.

- ذلك البغيض.. يُلصق الخطأ بنا في تأخر حل هذه القضية..

- لنذهب إلى مستشفى السلامة، ونأخذ كافة تسجيلات الفيديو لذلك اليوم، أريد البحث عن هذا الطبيب قبل قدوم طبيبي الصحة النفسية نادر وسالم فأنا واثق أنه في ساعة ما قبل هذا الحدث سيكون بدون كمامة فنقتنص بذلك فرصة تُمكننا من القبض على أول خيط يقودنا إلى الفتى.

ونهض الاثنان معًا، وأكفهما تحمل الصور، ولا بأس بسؤال الأطباء الثلاثة الآخرين فقد يتذكر أحدهم الطبيب الرابع دون الحاجة لجلوسهما الطويل أمام الفيديوهات وتفحُّصِها من جديد.

****

كانت انحناءة رأس فارس لثوانٍ فقط، رفع بعدها رأسه، وقد ملأ وجهه تجهم شديد، نقل بصره بين الاثنين المتجمدين ثم ترك المقعد لهما، وغادر الحجرة..

اصفرَّ وجهُ مايا وقلقها يُحركها للذهاب خلفه، ولكن، بالتأكيد، سيمنعها الخاطف من مغادرة الحجرة، نظرت نحوه بتوجس وحذر، فوجدته يزفر بتعب ثم وضع هاتف فارس في جيب سترته ولحق به إلى الخارج متجاهلًا وجودها..

مشت ببطء، والدهشة تلفُّها. وقفت أمام عتبة الباب مُترقبة ثورته عليها، لكنه ظل يتجاهلها وقدماه تصلان به إلى منتصف صالة الجلوس، وعندها ارتفع في فضاء الشقة صوت إغلاق فارس على نفسه باب دورة المياه، فقفز فزع شديد إلى وجهها وغادرت الحجرة راكضة، ولم يمنعها نادر من التجول في الشقة، بل سبقها ليقف أمام باب دورة المياه، فوقفت إلى جواره قائلة بثورة:

- أنت السبب.

تجهم وجهه، ورد مدافعًا عن نفسه:

- بل أنتِ.. لم أسمح لكِ بامتلاك هاتف فكيف تأخذين هاتفه.. هل أنت غبية؟

- أخبرني، لماذا يمتلك هاتفًا من الأصل وهو رهينةٌ عندك؟!

انفرجت شفتاه صدمةً، فما تقوله صحيح، أراد أن يُجيب، ولكن تلعثمت الحروف فوق شفتيه، بينما أظهرت عيناها المَصَوَّبَتان نحوه حيرتها وتشتتها البالغ من مفهوم الاختطاف عنده.

ومضت ثوانٍ وعقله لا يُسعفه بردٍّ مقنع، فازداد احتقان وجهه؛ هو عالق بين الاثنين بغباء، لا يستطيع ردعها في وجود فارس فتتصرف كيفما يشاء، ولا يستطيع أيضًا المغادرة وترك فارس خلفه حتى يطمئن لنيتها أولًا..

وعندئذ أطلق زفرة ساخطة، ثم دفعها في كتفها بغلظة لتبتعد عن باب دورة المياه، ففغرت فاهها بصدمة لجُرأته ووقاحته الشبيهة بما حدث في المصعد، واستنكر عقلها: هل من الممكن أنه فعل هذا لأن فارس لا يراه؟

فقد لاحظت من قبل أنه على الرغم من جذبها للهاتف من يده بعنف، إلا أنه لم يتصرف معها بوقاحة كما تمنت ولم يكشف عن حقيقته السيئة أمام فارس.

على حين اقترب نادر من باب دورة المياه أكثر، قائلًا بتأفف:

- اخرج.. أنا لستُ غاضبًا.

ولم ينتظر رد فارس، بل اتجه إلى المطبخ ليصنع له كوبًا جديدًا من القهوة، منسوب الكافيين في جسده في ارتفاع خطير، ولكن إن لم يُهدئ نفسه فهو قد يحطم الأخوين معًا.

«الوغد.. من يظنُّ نفسه؟!».

قالت باستخفاف، لظنه السخيف بأن فارس قد أغلق على نفسه الباب

لأنه مُحرج منه لأنه كاد يُطيعها ويضربه بالمقعد، بل الحقيقة أنه مُحرج منها هِيَ لأنه لم يُطعها ويفلق رأسه الكبير.. هذا ما أكَّدَهُ قلبها لها، وهي تطرق الباب بأصبعها منادية له بلطف:

- فارس.. لستُ غاضبة منك.

فاجأها بفتح الباب، وابتسامة سعيدة تشقُّ وجهه:

- حقًّا؟!

تأملته ثانية، تلتها أخرى، ثم ابتسمت بتكلّف: «نعم».

«لا أُريد أن أوذيه».

قالها بنبرة حملت حُبًّا وتعلقًا كبيرين جعلا وجهها يَشحُب بشدة، وكأنه رسم لها حدًّا لا يُسمح لها بتجاوزه، فانقبض قلبها وتيقنت أكثر أن أخاها خضع لتنويم مغناطيسي قوي.. الآن أدركت لماذا سمح لها الخاطف بالتجول في الشقة دون قيد، لأنه سيُقيدها بأخيها.

والأسوأ أن فارس قد تركها، وقفز ليقف أمام نادر الحامل قهوته سائلًا بلهفة:

- لستَ غاضبًا مني لأني أطعتُها وسحبتُ المقعد؟!

- أطعها وحسب.. وانظر كيف سأُشكِّل جسدك على هيئة مقعد.

وارتشف من قهوته دون أن ينظر إلى وجه فارس الذي شحب ذعرًا ثم ارتفعت ضحكاته فجأة وهو يشاركه الجلوس على الأريكة موليًا اهتمامه بالكامل إليه:

- كيف وجدتَ أختي مايا؟!

نظر نادر نحوها، مفكرًا، كيف سيجيب؟ ثم تحركت شفتاه بشبه ابتسامة مستفزة:

- هناك أشياء على الكبار أن يحتفظوا بها سرًّا لأنفسهم.

احمَرَّ وجهها لعبارته التي احتملت شتى المعاني ما عدا الاختطاف، بينما اتسعت ابتسامة فارس وقد صُرف باله تمامًا عن السعي للإجابة الحقيقية لسؤاله، على حين قفزت بغتة إلى عقل مايا فكرة بدت لها مستحيلة، ولكنها لم تتردد لثانية واحدة في اختبار صحتها.. فاقتربت منهما قائلة بهدوء:

- أشعر بالجوع.

نظر نادر نحوها بحذر، فيما تحدث فارس بسرعة:

- صحيح إنه وقت الغداء، نادر سيجلب لنا الطعام.. لا تقلقي.

- يمكنها أكل البقايا من طعام الإفطار.

قال نادر بغلظة وهو يضع كوب قهوته الفارغ على المنضدة دون أن ينتبه لأحد حاجبيها الذي ارتفع بصدمة، ولم تستسلم، بل قالت بانزعاج مفتعل:

- الجو بارد.. أحتاج إلى طعام ساخن فذلك أفضل في تدفئة أجسادنا.

ذلك الجزء من الثانية كان كافيًا لها لتلحظ نظرة التوجس في عسليتيه، فاستدركت بسرعة:

- لا بأس سأنزل وأجلب الطعام لنا جميعًا.

لم تكن قد أطبقت شفتيها بعد حينما تفاجأت بوقوفه مما أثار فزعها، ولكن بدلًا من مهاجمته لها أخرج بطاقة الشقة، وتحرك نحو الباب:

- سأجلبه أنا.

كان ظهره لها، ومع ذلك سمع همستها الناقلة دهشتها وحيرتها:

- أنت.. ما نوع علاقتك بأخي؟

التفت نحوها، فحولت عينيها الغارقتين في الضياع نحو أخيها، الذي أسرع نحو نادر ليطلب منه برقر، بدا لها وكأن الخاطف يحرصُ بشدة ألا يظهر أمام أخيها بصورة سيئة، وإلا لصرَّح لهُ بأنه اختطفها حينما سأله قبل قليل عن كيفية لقائه بها، بل أيضًا لم يتصرف معها بثورة الآن رغم علمه أنها تتعمد استفزازه بشأن الطعام..

شعرت بالفراغ يكبر داخل عقلها: هل هذا الرجل قد خضع هو الآخر لتنويم مغناطيسي من قِبَلِ أخيها؟!

- برقر عليه الكثير من الجبن ولا أحب الطماطم.. ومايا لا تُحب..

راح يشرح له بتفصيل مُزعج، ورغم ذلك كان نادر مُصغيًا له، وفجأة بتر فارس حديثه عندما أمسكت مايا بذراعه، ثم جذبته نحوها بقوة ووجهها يعكس تعبيرًا لم يُرح نادر، وهي تستعجله:

- أي شيء سيكون كافيًا.. اذهب فحسب.

وفي هذه المرة رأت في عيني نادر ما لم تره من قبل، رأت ما جعل الدماء تتجمد في عروقها، نظرةٌ غاضبة متحفزة أخبرتها أنه لن يتوانى عن إيذائها، لا سيما حينما استدار بجسده كله ليقف في مواجهتها، مستنكرًا: لماذا هي تسعى لإخراجه من الشقة والانفراد بفارس؟

ثم ضاقت عيناه بشدة فإن كانت غايتها هي محاولة الهرب فسيمنحها فرصتها لأنه حين يعود سيحظى برؤية أشد أمارات الخيبة والإحباط على وجهها..

ولكن إن كانت تُخطط لشيء آخر، شيء ليس في مصلحة فارس، فنقاطها الثلاث التي اكتسبتها ستتلاشى، وعندئذ لن يتردد في اتخاذ رد الفعل المناسب لها، والذي لن يُرضيها ولن يُرضي فارس..

وكما أرادت غادر الشقة، فبغيابه ستستغل الفرصة وتكشف عن نيتها الخبيثة، وبالتأكيد لن يفوته ملاحظة أثر لذلك على فارس، وبهذا سيحصل على دليله، لكنه قد قرر أيضًا قضاء أقل وقت ممكن في الخارج فهو لن يمنحها بالتأكيد الوقت الكافي لتتلاعب بفارس كما تشاء.

وأيضًا لم يكن ليغادر لولا علمه بحقيقة أن فارس بحاجة إلى طعام دافئ؛ فآخر وجبة قد تناولها كانت في طريقهما إلى الفندق أي منذ أكثر من سبع ساعات.

ولم يكد يُغلق الباب خلفه حتى انتهزت مايا الفرصة بالفعل، فتركت ذراع فارس واتجهت راكضة إلى المطبخ لتأخذ منه سكينًا كي تهدده به إذا ما عاد، ولكن خاب أملها حين وجدته مُغلقًا بالمفتاح وبابه المتين يصعب كسره، ولم تلبث أن اتجهت إلى باب الشقة، وحاولت مرارًا وتكرارًا فتحه، ولكن قُفله الإلكتروني مكون من ثمانية أرقام يصعب عليها تخمينها جميعًا في وقت قصير، الوضع مُتأزم للغاية..

قلقها وتوترها انتقلا إلى فارس الذي أمسك بيدها فصُدم من كفها المبتلة بعرقها البارد، وعندئذ سألها بخوف:

- مايا.. لا تبدين بخير.. عمَّ تبحثين؟! أخبريني سأساعدك.

فتحت شفتيها، ستُخبره أن هذا الرجل لم يحضرها إلى هذا المكان بطريقة طبيعية على الإطلاق وإنما اختطفها، وانتبهت لعينيه الزرقاوين المتلئتين بقلقه عليها، فقالت:

- الشقة لا يوجد بها تدفئة.

- هل تشعرين بالبرد؟

أومأت له برأسها فركض نحو حجرته، ثم عاد بذاك المعطف الذي منحه نادر إياه في قرية السنابل، وابتسم:

- ارتديه إنه دافئ جدًّا.

ارتدته مُرغمة وعيناها الوجلتان تتجولان في ما حولها، هذه الشقة بدت لها وكأنها قد صُنعت من أجل الخاطف.. فالنوافذ ذات سياج حديدي قوي، لا تتسع فجواتها لخروج رضيع حتى، بل من بالغباء الكافي ليُسقط نفسه من الطابق التاسع؟!

يحيط بالفندق أرض جرداء خالية من المباني، والموقع الذي وُجد فيه منذ البداية مُثير للكثير من التساؤلات والريبة، ولكنها لم تنتبه في ذلك الوقت بسبب انشغالها بالتفكير في خطة تنتزع بها أخيها من يد خاطفه..

نظرت إلى صالة الجلوس ولم ترَ فيها أي تُحف أو زهريات تكسر بها رأس الخاطف، ولا يوجد أيضًا هاتف للتواصل مع موظف الاستقبال في الأسفل..

هي الآن محتجزة داخل شقة أشبه بسجنٍ خفي، وهذا الرجل الخطير ليس مستعجلًا للحصول على المال حتى! ما هو هدفه الحقيقي إذًا؟

وعاد ذلك السؤال الغريب إلى عقلها، فالتفتت نحو فارس تسأله بذهول:

- هذا الرجل.. لِمَاذا يُطيعك؟! ما الذي يُريده منك بالضبط؟

ابتسم فارس أدفأ ابتسامة قد رأتها في حياتها، وهو يهزُّ كتفيه مجيبًا:

- أخبرتك مايا.. هو شخص جيد عالجني من مرضي وأخرجني من المستشفى.

هذه الإجابة الموجزة لم تُرضها أبدًا فاستحثته:

- كل شيء.. أخبرني عنه كُلَّ شيء منذ لحظة لقائك الأولى به وإلى الآن.

وابتسمت بلهفة فأيُّ تفاصيل مهما صغرت قد تُساعدها لاحقًا في خداعه والهرب..

بينما بدا على فارس الاستمتاع والتأثر وهو يحكي لها لقاءهُ الأول به، كيف ضربه بالمقعد ثم عضّ ساعده، ومن ثم ضرب نادر له ليبعده عنه واستمر في قصِّ روايتهما المُشبعة بعاطفته الكبيرة نحوه، ومع كل حادثة يرويها كانت عينا مايا تتسعان وتتسعان، ذلك غير معقول...

مُجرم قرر أن يُنقذه لأنه مسكين فقط!

وتطرق فارس في حديثه إلى القرية، فأخبرها عن مدى استمتاعه فيها، وكيف اعتنى والدا نادر به، ثم عن روعة حقل التفاح، وعن مدى سوء أهل القرية وإيذائهم المتتابع لنادر، وقتلهم لكلبه، بل وفضح بلا مبالاة ذاك الحديث المتبادل بينه وبين نادر في الحقل عن سبب جريمته التي

أدخلته السجن؛ هو يعلم أن ما يفعلهُ خاطئ وسيُغضب نادر منه، ولكن ما دامت ستكون زوجته يجب أن لا يكون هناك أسرار بينهما.

- انتظر.. انتظر.. تقول إنه أخرجك من المستشفى لأنك تتأذى فيه؟ ووعدك بأنه سيجمع بيننا؟ ودخل السجن لعامين من أجل هذا السبب السخيف؟!

سألته بدهشة فأجابها بثقة:

- مايا.. لم أكن أُميّز بين الناس حتى عالجني، ولم أكن أعلم بأني مريض حتى أقنعني هو بذلك.. لقد ظل يطلب مني أن أرسم وجهكِ لأتعرف عليكِ بسرعة عندما ألتقيكِ، وخوفًا من أن أنساكِ فأهاجمكِ بالسكين كما فعلتُ مع والديَّ.

ثم حَمَّل صوته حُزنه وإشفاقه:

- هو حزين لموت والديه.. لقد بكى كثيرًا بالأمس ومرض أيضًا ورغم ذلك نفذ وعده لي وجمع بيننا.. إنه طيّب جدًّا.

اصفر وجهها.. ما كُلُّ هذا الهراء؟

لماذا عمها فاضل المجرم، ونادر البريء؟!

هيَ بحاجة لجلسة تأمل فوق سفح أحد الجبال لعام بأكمله كي تستوعب هذا الجنون! إن لم تحتم الأمر برمي نفسها من فوقه!

هل عليها أن تشعر الآن بالذنب لقولها له سابقًا إنه بلا مشاعر لأنه ترك قبر والديه؟

بل هي ليست غبية، فقد لاحظت سلفًا أنه بعد إخراجه لأخيها من المستشفى لم يطلب فدية؟!

ولكن هذا لا يعني أنه لا مصلحة له في هذه الحادثة، ولكن ما هي؟!

وفُتح الباب فجأة فظهر نادر من خلفه يحمل بانزعاج كيس الغداء، وعكست عيناه نظرة حاقدة سلطها على معطفه المرتدية له، هذه النظرة كانت كافية لتنهار الصورة المشرقة كالشمس التي رسمها فارس في ذهنها عنه..

في الواقع، حتى لو صدقت أنه لم يختطف أخاها ويؤذِه فهذا لن يمسح حقيقة أنه قد اختطفها.

وضع الكيس فوق الطاولة المستديرة فأسرع فارس ينظر لما بداخله، ثم ابتسم بسرور حين وجد بُرقر بعد أن حُرم منه في قرية السنابل..

ولم ينتبه فارس للعسليتين اللتين تفحصتاه بدقة عالية إلا أنه بدا له بحال أفضل مما تركه، إذًا لم تستغل هذه الماكرة الفرصة وتقلبه ضده أو تضايقه كما ظن..

فيما بقيت مايا بدورها صامتة تراقب نادر، وحين مرَ من أمامها سمعته يهمس بتهكم:

- هل راقت لكِ الشقة؟ ظننت حينما أعود أنني سأجد رأسك قد عَلِقَ بإحدى نوافذها وأنتِ تحاولين الهرب.

ارتفع أحد حاجبيها، ثم ابتسمت مُستفزة له:

- نعم، كُنتُ سأهرب، ولكن عقلي فشل في البحث عن طريقة ناجحة للهرب؛ لأنه عَلِقَ بتحليل شخص مُعقد.

رماها بنظرة حذرة، فهمست بجرأة وصراحة:

- هل كُنتَ تُعالج وحدتك ونبذ أهل قريتك لك بإبقاء أخي جوارك؟!

****

-٩-

(قبل ٢٩ عامًا).

منذ اليوم الذي امتدت فيه يد أم سمير على ليلى لم يعد يردعها قلبُها عن تكرار ذلك في أول جدال ولو صغير يحدث بينهما..

أباحت لنفسها ما حرمه الله من استباحة جسد وعرض امرأة لم تقوَ على الدفاع عن نفسها، ذنبها الوحيد أنها امتلكت قلبًا لا يجرؤ على الإيذاء بين قوم أضحت قلوبهم كالحجارة.

وجاء أخيرًا يومُ سَعدِهَا، هكذا ظنت ليلى حين زار أخوها المنزل، فلحقت به قبل أن يغيب داخله لتشكو له ألمها، والجحيم الذي تعيشه..

كان يستمع لها بإنصات تام، ملأ قلبها أملًا، ولكن ما أن ذكرت له مالها وحاجتها إليه حتى ثارت ثائرته:

- لتسعة أشهر! تعيشين تحت سقف منزلي لتسعةِ أشهرٍ كاملة.. وفرتُ لكِ حجرة، ودورة مياه خاصة بكِ.. أدفع فاتورة كهربائها ومائها، وتأكلين من طعامي وتشربين من شرابي ثم تحاسبينني على بعض المال اشتريتُ به مزرعة تساعدني على توفير لقمة لكِ.. ما مدى بشاعة قلبك وسوء أدبك؟!.. لم أعلم إلا الآن أنكِ أنانية لا تحبين إلا نفسكِ.

كيف للحقائق أن تُزيف ليكون الجلاد هو الضحية والضحية هي الجلاد؟!

لم تكن ليلى ذات خبث يستوعب جرأة بشر على تقمص دور الضحية ليتفلت من واجبه..

وعصفت بعقلها أفكاره المشوشة.. هل هي مُخطئة؟

لم ينفعها تودداها لتحصل على بعض حقوقها، ولا المطالبة بها بأدب قد نفعتها أيضًا، بل اتُّهمت في نقاء قلبها ووبخت لحجم الخيبة التي سببتها لمن ظنها إنسانة كريمة خيّرة..

وأمام باب المنزل كان سمير يقف فتلقى صفعة عنيفة حاقدة على رأسه من والده الذي صاح:

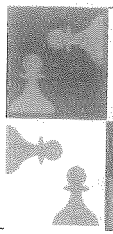
- نمام خبيث كوالدتك.. لن آخذك معي ما دمت تراقب تصرفاتي لتنقلها إلى والدتك.

ارتفع بكاء سمير ومشى من خلف والده إلى داخل المنزل ليشكو لوالدته قسوة والده معه، بينما كانت ليلى لا تزال في ذهولها وانكسارها عندما تفاجأت بمرور جارة أم سمير إلى جوارها وهي تقول باشمئزاز:

- ماكرة قذرة.. عينك على أزواج جاراتك لهذا السبب كُنتِ تترددين إليهم.

وعندئذ علمت ليلى أن دائرة علاقاتها بعد هذه الشائعة لن تتعدى محيطها الذي تقف عليه، نعم، لقد حكمت عليها أم سمير بكذبتها هذه بأن تفقد الحد الأدنى من التعاطف الذي بالكاد حظيت به من الجارات اللاتي شاركنها بالقليل من الطعام واللباس في أوقات متفرقة...

****



خطة للهرب

-١٠-

«هل كُنتَ تُعالج وحدتك ونبذ أهل قريتك لك بإبقاء أخي جوارك؟!».

تجمدت كفا نادر فوق معطفه الذي كان يهمُّ بنزعه، لكنه لم يلبث أن استدار بجسده كُلَّه نحوها. سؤالها أغضبه، هِيَ وقحة أكثر مما ظن، وأدرك من سؤالها أنه بدلاً من أن تقلب فارس ضده قد حدث الأعجب والأغرب وهو أن صورته السيئة التي غرسها في ذهنها متعمدًا قد شوهها فارس بحديثه الطيب عنه.

«لماذا لا يكون العكس؟!».

أجاب وابتسامة عابثة ترتسم على شفتيه، فرفعت حاجبيها الرقيقين باستفهام، بينما اقترب منها متابعًا باستخفاف:

- فتًى سَجِين لتسع سنوات، في الحجرة نفسها، بمفرده، دون رفيق أو زائر، يُعاني أشد حرمان عاطفي قد يعانيه بشر، بسبب والِدَيهِ اللذين قررا الحكم عليه بالموت وهو حي، عُذب جسديًّا ونفسيًّا منذ أن كان طفلًا إلى أن أصبح مراهقًا من أجل المال فقط.. يصعب عدُّ المرات التي حاول فيها التخلص من حياته وهو يصرخ باسم أخته المقتولة التي فشل في إنقاذها.. من باعتقادك منا بحاجة لأن تُشبع عاطفته أكثر كي يحب ذاته مُجددًا، أنا أم هو؟!

تغيَّر لون وجهها، وانفرجت شفتاها، وكلماته المنطقية تتسلل إلى أعماقها لتكسر قلبها على حال أخيها، فيما بدا أن سؤالها الوقح قد أطلق مارد غضبه فأردف بغيظ:

- وحدته لسنوات جعلت منه طفلًا في جسد مراهق، لم يستطع الاعتماد على نفسه، ولم يكن من الممكن تركه لوحده.. فأين كُنتِ عنهُ خلال تلك السنوات؟ ظل يصرخ بسذاجة أنكِ الوحيدة من سيُنقذه.. استنجد باسمكِ أنتِ في كل ألمٍ مسّه.. لم يستسلم عن الأمل في عودتك إليه.. وحكى ببراءة عن لطفك البالغ، ولكنكِ رضيتِ بكتابة متوفًّى جوار اسمه.. أنتِ عديمة فائدة بالكامل! وحمقاء ظلت تزور عمها وهو يُعذب أخاها.

ثم صدرت عنه ضحكة عصبية:

- لا أعلم كيف ما زال يعترفُ بكِ أختًا له؟!

لم ينتبه لشفتيها المرتجفتين، وغضبه يُسيطر عليه فأنهى النقاش قبل أن تستفزه أكثر:

- لستُ وحيدًا ولستُ بحاجة لأحد.. اجمعي لي فقط مال المكافأة وارحلي أنتِ وإياه بسلام.

وأغلق بوابة شفتيه حابسًا لسانه أخيرًا، وعندئذ انتبه عقله لطيشه؛ ففي فحوى كلامه بيّن لها تعاطفه مع أخيها، وهذا قد يجعلها تُخفي عليه نيتها الحقيقية نحو فارس، والتقطت عيناه ذلك اللمعان الخفيف في زاويتي عينيها الواسعتين فتلاشى غضبه.

منحته ظهرها سريعًا دون أن ترد عليه، وعندما رأت فارس ينظر

نحوهما بوجهٍ قلق دون أن يستطيع سماع همساتها المتبادلة، رسمت على الفور ابتسامة متكلَّفة، ثم جلست إلى المائدة أمامه قائلة:

- ماذا سنأكل؟

ناولها فارس البُرقر وقنينة المشروب الغازي، فبدأت بالأكل فيما علَّق نادر معطفه، وصورة وجهها الحزين لا تغادر عقله.. ماذا لو كان هدفها بالفعل إنقاذ فارس؟!

وبخته نفسه على لومها وإلقاء عبء ماحدث لفارس بأكمله على عاتقها، ولكن إن جرحها بكلماته فهيَ تستحق الأسوأ لأنها هي من بدأت أولًا باستفزازه!

استدار نحوهما ببطء فتفاجأ بعيني فارس العاكستين حزنًا شديدًا؛ لقد آثرها على نفسه ومنحها البُرقر الخاص به بعد أن وجد أن نادر لم يشترِ لها سوى شطيرة صغيرة.

نظر نحوها بانزعاج، أليس من الشائع أن يتباهى النساء بأكلهن للقليل؟! لكنها كانت تأكل بهدوء وصمت وعيناها تحدقان في منتصف الطاولة بشرود.

جرَّ نفسه ليجلس معهما، سحب الكيس ثم أخذ الشطيرة الصغيرة، وأعطى فارس نصيبه الأكبر وبدأا بالأكل معًا، وسقطت نظرة خاطفة منه عليها فوجدها تبتسم له، فتوقف عن الالتهام بفزع، ألم تكن مكتئبة قبل قليل؟!

«هل يبدو لك شيءٌ من هذا صحيحًا؟!».

قالت وابتسامتها تتسع أكثر، فعقد حاجبيه بحذر، فيما راوحت

بصرها بين فارس، والطاولة ثم الطعام، وعادت أخيرًا به إليه، وكأنها تسأل:

هل هم الآن يلعبون دور العائلة المُحِبَّة لبعضها البعض؟!

نعم، الخاطف والمُخْتَطَفة والرهينة يجتمعون معًا على مائدة واحدة يتناولون الطعام!

كل ما يحدث جنون لذا فهي الأخرى لن تكبح جنونها بعد الآن.

وارتفعت شهقة ألم خافتة من بين شفتي نادر بعد أن طحنت قدمه بكعب حذائها من أسفل الطاولة، وقد تعمدت القدم نفسها مجددًا، فوقف بعنف، مضمرًا الشر لها، وامتدت يده ليبطش بها، وعندها لمحت عسليتاه وجه فارس المتفاجئ، والذي وقف بدوره سائلًا بذعر:

- ماذا حدث؟!

تصلبت كفه في منتصف المسافة، وراح صدره يعلو ويهبط إثر أنفاسه الثائرة، التي بالكاد تمالكها، وسقطت عيناه الحاقدتان عليها، فازدادت ضغينته عليها حين حركت شفتيها المتقوستين بـ:

- لا تتحدث معي بوقاحة مرةً أخرى، وإلا فسأخصم من مال المكافأة.

نقل فارس بصره بين الاثنين، ثم ظهر على وجهه فجأة ضيق وانزعاج شديد وصاح:

- أنتما تخفيان علي أمرًا ما.

هناك حرب باردة من الخير له ألا يعرف عنها ولا يشارك فيها، إن آثر بالطبع المحافظة على ما تبقى من سلامة عقله، لم يُدرك ذلك، ولكن

البالغين بالتأكيد توليا زمام الأمور فقد عاد نادر فجأة للجلوس ليكمل ما تبقى من طعامه، فيما مسحت مايا شفتيها بمنديل ورقي، ومنحت أخاها ابتسامة محبة دافئة:

- تريد معرفة ما أغضبه؟ لقد نصحته باستبدال كريم التصفيف الخاص بشعره.. انظر إليه ما أرخصه! لقد جعل شعره يقف بثبات كجدار.
- ولكن أنا أيضًا أستخدمه.. هل يبدو شعري سيئًا؟

سألها بإحباط فمدت يدها لتلمس شعره:

- على الإطلاق.. شعرك حتى الماء سيجعله بمظهر جميل.. لقد ورثنا هذا عن أمي.

ابتسم براحة وحول زرقاويه المبتهجتين ليتفحص شعر نادر فتفجرت قشعريرة باردة في كامل جسده، حينما رأى عسليتيه المشتعلتين غضبًا فقال بسرعة:

- أقسم أنه رائع.

ثم ضحك فجأة بارتباك:

- تخيل لو أن جدتي جواهر قد سمعتها، أقسم أنه حتى لو كان شعرك ممتلئًا بريش الدجاج ولم تغسله لأسبوع لحطمت العصا على ظهرها ولجعلت..

وصمت فجأة حين داهم قلبه حزن شبيه بالأمس، فيما ظل نادر ينظر نحوه بدهشة ما لبثت أن تحولت إلى ضحكة خافتة، وبالفعل نجح هذا المخادع في جعله يتخيل الموقف الأشبه في وصفه بهيئة فارس عندما

يحلب البيض، فتبدد غضبه بالكامل، ولكن فارس لسذاجته هو من وقع في فخ محاولة تسليته، فقال نادر بتهكم وهو ينظر إلى رأسه المنحني بكَدَر:

- وستمر العصا على ظهرك بما أنك أخوها.

غزت ابتسامة صفراء وجهه الحزين، بينما تصاعد غضب شديد إلى وجه مايا لحديثهما الغريب عن شيء لا تفهمه، وفجأة اهتزت الطاولة إثر وقوف نادر فانسكب الصوص الحار بأكمله وقنينة المشروب الغازي فوق حجرها، فهبت واقفة بشهقة عالية، وبرودة السائل تلسع جسدها.

نظرت نحو نادر بغضب عنيف، فرسم نادر أبرأ وجه قد يراه فارس في حياته وقال:

- أوه.. لم أقصد.

«لا بأس»

قال فارس مطمئنًا له، ثم أسرع يناولها عددًا من المناديل، ولكنها قالت بحنق شديد:

- بل بُؤسًا له.. فأنا لا أملك إلا هذه الملابس!

لم تكن قد أنهت جملتها بعد حين استشعر نادر خطرًا جديدًا قادمًا، وبالفعل التفتت نحوه صائحة بسخط:

- إنه خطؤك.. أحضر لي ملابس أخرى.

في أقل من ساعة استطاعت الحصول على سبب جديد لتخرجه من الشقة، الماكرة بعد أن تيقنت من محافظته على صورته الجيدة أمام أخيها قررت استغلال نقطة ضعفه هذه دون أن يقدر على الخروج من مصيدتها بسبب فارس العالق بينهما..

ولكن، ما الذي تسعى إليه هذه المرة؟

«فارس.. أَعِرها بعض ملابسك لتضعها تحت المعطف». قال الأخيرة بغيظ مكتوم.

- هل أنت أعمى؟ لماذا أرتدي ملابس رجل وأنا امرأة؟

- امرأة! أين هي؟!

قال وأدار بصره بعبثية في زوايا الشقة فعبست بشدة، هذا الشجار بينهما لن ينتهي أبدًا، عقد فارس حاجبيه ثم سألها:

- كيف أتيتِ من العاصمة إلى هنا دون حقيبة بها ملابس لكِ؟

ردت ساخرة:

- ألم يُخبرك؟ كان الأمر سريعًا إلى الحد الذي لم أستطع معه حمل حقيبتي.

بدا الأرهاق على ملامح فارس، وحوّل بصره برجاء نحو نادر الذي تأفف بشدة، فحتى لو كان خطأه فهو لن يصرف ماله عليها، لذا قال بلا أدنى اهتمام:

- ليس لديَّ مال.

فقره أكثر من كافٍ لِيَعذُرهُ فارس ويعطيها من ملابسه، لكنها لم تمنحه الفرصة ليحتفل بانتصاره فقد أخرجت محفظتها ثم منحته بعض المال قائلة:

- اشترِ لي ملابس دافئة، واشترِ لنفسك كريم تصفيف غير هذا الرخيص.

رماها بنظرة مُحتدة غاضبة، إلى متى سيكون قادرًا على احتمال استفزازها؟ هو بحاجة عاجلة لمعرفة نيتها وإلا فقد يُدمر الخطة بأكملها..

ورن هاتفه فجأة، فنظر إلى شاشته و... زيد الطماع، بالتأكيد يريد سؤاله عن المكافأة، والتحقق من مدى نجاح حيلة صابون الشباب التي ابتكرها حاتم..

وبهدوء تام أجاب:

- نعم.. نجح الأمر ووصلوا إلى الفندق.. كلا.. يعتمد على كسبها لنقاط أخرى، قد تمر عدة ساعات قبل أن تحصل عليها.. لا أحتاج لنُصحك.. بالتأكيد لن يتم التبادل دون ضمانات تؤكد لي أنه ليس مزيفًا.. اخرس وانتظر وإلا فإني بالفعل سآخذها لنفسي.

وأغلق الخط في وجهه، الوغد! لماذا يظن أنه سيستأثر بالمكافأة لنفسه؟

أو أن مايا قد تنجح في خداعه فتمنحه مالًا مزورًا؟ هل يظن الجميع مُحتالين مثله؟

وحول نظره نحوها فرأى وجهها الذي غادره اللون، ورغم دهشته، قال:

- فارس استعد.. سنخرج معًا.

صاح فارس بسرور: «حقًّا؟!».

«نعم.. وخذ مال أُختك».

وابتسم بتشفٍّ، لن يمنحها فرصة جديدة للنميمة حوله مع فارس، بينما أخذ فارس المال من كفها صائحًا بحماس:

- مايا.. سأختار لكِ ما يُعجبك ويدفئك.

لو كانت هناك صورة ستصف الذعر في أشد وأعمق معانيه فلن يكون هناك أبلغ من تأطير صورة لها في هذه اللحظة، فقد غشى البهوت عينيها، وكسا الخوف وجهها، وانهارت ذراعيها، وبالكاد حملتها قدماها والعرق البارد يتصبب من جبينها، وهي تنظر إلى نادر الذي ارتدى معطفه للخروج مجددًا، ولكن هذه المرة برفقة أخيها فارس الذي جلس أرضًا لينتعل حذاءه..

(وصلوا إلى الفندق.. نقاط أخرى.. عدة ساعات.. لن يتم التبادل دون ضمانات).

تسللت كلماته الغريبة إلى عقلها الذي حاول وحاول فك شفرته، لكنها لم تهتدِ إلا إلى أن لديه رجالًا في الخارج ووجودها في هذا الفندق كان بخطة ماكرة منه...

ولكن ما الذي يعنيه بنقاط أخرى وضمانات؟

هل سيُسلم فارس إلى الرجال في الخارج؟

هل هو الضمان الذي يعنيه ليحصل على المال منها؟

وتضاعف ذعرها ألف مرة، قد يكون هذا انتقامه منها لأنها استفزته!

(أن يأخذ فارس بعيدًا عنها).

كلا...

هِيَ قد تحتمل كل شيء ما عدا أن يختفي فارس من أمام عينيها مرة أخرى بعد ما التقته أخيرًا.. انتفضت من جمودها، وتضبب نظرها بدموع هلعها عليه، وأطلقت صرخة جزع:

- لا أُريد ملابس.. سألبس مع فارس.

تحطمت فرحة فارس، فيما اتسعت عينا نادر لاستسلامها الغريب. رآها تجري بسرعة لتتشبث بأصابع مُرتجفة بذراع فارس لتهمس له بتوسل:

- فارس، لا تذهب معه.

هدأت ملامح نادر أمام مشاعرها القلقة والمفضوحة بالكامل، أخبره حدسه أن سبب خوفها هو رغبته بأخذ فارس معه، وازداد شكه حين رأى نظرة الألم في عيني فارس حينما ازدادت كفاها تشبثًا بذراعه إلى حد موجع.

دلك جبينه بتعب، كُلُّ ذرة من جسده صرخت بالثقة بها نحو فارس، ولكن عقله الذي قلَّ أن يثق بأحد طالب بالمزيد، قد يكون ذلك فوق العادة، ولكن التجربة التي عاشها قبل أقل من شهر برفقة رفيق عمله ياسر قد أحدثت في أعماقه أثرًا، حتى لو لم يكن يعلم.

وبالرغم من رفض عقله إبقاء فارس معها، لم يقوَ قلبه على كسر ذلك الترابط بينهما بالأيدي، ففتح باب الشقة وخرج.. سيجلب لها ملابس.. ولكن: إلى متى سيستمر في خدمة هذه العائلة الأنانية؟!

ولم يكد يخرج حتى انهارت على ركبتيها، انحنى فارس نحوها والخوف يغمر قلبه عليها، ولكنها لم تسمع مناداته لها، وبالها يُشغل بالمجرم..

مهما حاولت معرفة داوفعه لم تستطع، شخصيته تبدو أكثر تعقيدًا من شخصية (الجوكر)، اختطفها وهي دافعة الفدية، ولم يمنحها هاتفها لتجمع له المال!

والآن يُريد تسليم أخيها الذي هو السبب في المكافأة إلى مجرمين آخرين!

أي جنونٍ هذا؟!

هِيَ لم تنسَ بعد المائدة الغريبة التي جمعتهم قبل قليل!

وبعد سلسلة من الأفكار والتحليلات المعقدة خرجت بنتيجة واحدة: هو مُختل نفسي بالكامل يتسلى بالناس لذا فالبقاء برفقته أسوأ من البقاء بصحبة مُجرم له هدف واضح.

أدارت بصرها نحو فارس وسألته بتوتر وعجلة:

- هذا الرجل متى نام آخر مرة؟!

انفرجت شفتا فارس فجأة ووجهه يعكس قلقه عليه:

- لا أظنه نام مُنذُ الأمس.

ابتسمت بفرحة كبيرة، سيكون نومه هو فرصتها الوحيدة للهرب وإنقاذ فارس منه. وقبل أن يسألها فارس عن حالها الذي أقلقه، أمسكت بكفيه، ثم جذبته معها نحو حجرته قائلة:

- تعال.. سأخبرك بالمفاجأة.

بدا الحماس في عينيه، وأطاعها ليعودا إلى الجلوس معًا على سريره، ثم قالت:

- لدينا الآن أختان تُدْعيان لين ولينا.

سألها بفرحة: «أمي أنجبت؟».

- نعم، توءمتين، وهما في الرابعة من عمريهما.

ازدادت فرحته ولم يلبث أن غطى وجهه حزن شديد، لقد كان بعيدًا إلى الحد الذي لم يشارك أسرته هذه المناسبة السعيدة، وقفز إلى عقله سؤال مفاجئ:

- هل تعلمان أن لديهما أخًا؟

سؤاله جمدها للحظة.. بالتأكيد لا تعلمان، والأسوأ هو حتى لا يعلم أنه ميت في سجل عائلته، ولكنها آثرت ألا تُحزنه، فكبتت شعور أساها عليه، مُجيبة له بابتسامة خفيفة:

- أجل تعلمان.

كاد يبتسم بسعادة لولا تذكره معاملته الفظة للَمَى فارتسمت الكآبة على وجهه، واشتدت كفه في قبضة، وقال بعزيمة كبيرة:

- سأُحسن معاملتهما.

ربتت مايا على كفه بإشفاق، وقد أدركت ندمه من أجل لَمَى، فقالت:

- بالتأكيد.. فأنت أخوهما الأكبر.

اهتزت كفه بين كفيها من فرط حماسه، وكأنه لن يقوَى على الانتظار أكثر للقاء أسرته، فيما أخذت مايا تُحدثه عنهما، وعن والديه مُثيرة في قلبه لهفة أكبر للقائهما، وعقلها ينسج في الخفاء خطة تجعل فارس يتبعها في الهرب طوعًا دون أن يُثيرا انتباه خاطفهما.

****

-II-

(قبل ٢٨ عامًا)

مر عام منذ وطئت قدما ليلى منزل أخيها (أبي سمير) تغيّر فيه حالها، ضوّت ابتسامتها، وحفر الحزن والكآبة أثرهما على وجهها بعد ما خَسرت من كانت تبثه شكواها من الجارات، ولم يعد ألمها يُحكى إلا على سجادتها..

وفي حلقة التحفيظ أضحى الحديث معها قليلًا؛ فالقرب منها سيضرّ بسمعتهن بسبب صِيت أخيها الذي انتشر بين الناس عن تردد الفسقة من الرجال والنساء على مزرعته، وبيعه للخمور بعد أن كان هو الشارب لها..

كثُر ماله من الحرام، وعاشت أم سمير الثراء فتغافلت عن تجاوزاته وفجوره، ولكن قلبها ما زال يُلقي اللوم على ليلى فلولا مالها لم يكن ليجد زوجها منذ البداية طريقه إلى النساء..

ذلك المال لم يدخل منه إلى جيب ليلى قرشٌ واحد، وبقي من حُليّها الذهبية ما لا يكفيها لعيش ستة أشهر إلا بتقشف لم تعتد عليه من قبل..

في ليلتها هذه كانت مُصلية على سجادتها في قيام ليل اعتنقته منذ عَنَّفَها أخوها لمطالبتها بحقها.. ناجت ربها أن يرفع كُربتها، وسمعت أثناء صلاتها حركة ما وراءها، فاستعجلت بإنهاء الركعتين ثم التفتت فإذا بخزانة ملابسها قد فُتحت، وانتشرت ملابسها خارجها، فداهم قلبها وجلٌ عظيم..

ركضت نحوها لتفتشها وبالفعل ما بقي من حُليّها قد سُرق..

جرت دموعها على خديها، نهضت ثم خرجت بسرعة إلى فناء المنزل تبحث عن السارق، ولكن لا أثر.. كانت هذه هي الفاجعةَ الكبرى التي ألجمت لسانها، وغشاها منها ما لا قوة لها باحتماله.

عادت إلى حجرتها، وجلست على سجادتها، ولسانها ينطلق بـ:

- حسبي الله ونعم الوكيل.. حسبي الله ونعم الوكيل.. حسبي الله ونعم الوكيل.. كُنتُ غائبة يا الله وكُنتَ حاضرًا.. إن لم أرهم فقد رأيتهم.. اللهم أنت حسبي ونعم الوكيل.. لك الخِيَار في انتقاء عِقابهم فاجعله في أعز ما عندهم.

لم تنم ليلتها، والهَمُّ يُثقِلها، بينما داخل صالة الجلوس ارتفعت ضحكات أم سمير، وهي تهز الكيس الحاوي للحُليّ:

- وأنا من استغربت من أين لها بالطعام والشراب! لو لم تقل لي جارتي إنها وجدتها تبيع منه عند صائغ الذهب لما علمت بذلك.

ضحك سمير لضحكها، وشاركها تفحص ما بالكيس، وهي تنهال عليه بالمديح:

- ذكي رغم صغر سنك.. كيف استطعت مغافلتها وأخذه؟
- هي دائمًا تصلي في هذا الوقت لذا علمت أنها لن تفطن لدخولي ولن تقطع صلاتها.
- ليتها تدعو أن يُزيحها الله من أمامنا.
- ولكن يا أُمي..

قال سمير وهو يجلس على الأريكة إلى جوارها والضياع يبدو في عينيه:

- ليلى لا تُشبه الرجل الذي صدم سيارة أبي قبل عام.. لم أسمعها تشتم أبي أو تُعيّره بالفسق.. وأيضًا لم تشتمك، ولم تضربني رغم أنني قد شاركتك في ضربها.. قال والد صديقي: إنه ليس كل من أظهر التدين سينظر لغيره من الناس بعجرفة، وقال إن التعميم هو لغة الجهلاء من الناس.. كان غاضبًا جدًّا حينما قال إنه على من رسم هذه الصورة المشوهة في رأسي أن يتوقف عن إسقاط تجربته على الآخرين، وليكُفَّ عن الإساءةِ إلى الخيَار من الناس ممن أظهر التدين فإن منهم الصادق، الصالح، نقي القلب، المُشفق.

احمر وجهها غضبًا:

- هل أخبرته عن ليلى وعما فعلناه بها؟

التقطت عينا سمير إشارة الغضب في وجه والدته فتجمد للحظة أنكر بعدها:

- لا.. لم أفعل.

ضاقت عينا أمه وهي تتفرس في ملامحه، ولم يخبرها بالحقيقة، حقيقة أنه قد أخبره بكل شيء وأن والد صديقه قد أرسل معه رسالة مضمونها: (ألا تستهين أمه بصبر عمته فدعوة المظلوم مستجابة فما بالها إن كانت من امرأة صالحة قريبة من الله؟).

وعندما طال صمته، زجرته بحدة، واستنقصت منه كأنما تجاوز حدّه بإبدائه رأيه في امرأة وجد فيها صدقًا ونبلًا، بينما كرهتها هي من كل قلبها:

- لا تكن غبيًّا.. لقد كسرتها أنا منذ البداية، ولم أمنحها الفرصة، ولولا ذلك لرأيت عجرفتها وخبثها.. هي الآن خائفة من ردة فعلنا فلم تكشف عن حقيقتها، وتظاهرت باللطف والصلاح لتخدع السذج من أمثالك وتستدر شفقتهم.. انظر كيف تسببت بالفرقة بيننا وبين والدك.

ثم هزت رأسها بتحسر:

- جعلتك بتصرفاتها هذه تنظر لي ولنفسك وكأننا نحن الشريران وهي الطيبة.. ما أخبثها!

انفرجت شفتا سمير صدمة، للحقيقة التي وعاها بعقله، ولكن أمه ترجمتها بطريقة أخرى جعلته ينزعج بشدة، نعم، قد جعلته ليلى بكل ما يصدر منها، وكأنها هو الشرير؛ مثاليتها الزائدة، لطفها المبالغ فيه، وابتسامتها المتكررة عندما تراه و... و...

إذًا، في الواقع أرادت بما تظاهرت به أن تجعله يفكر بأنها خيرٌ منه، وأفضل منه، وأنها تترفع عن التمرغ في وحل شره هو وأمه لأنها ليست مثلهما..

كانت جريمتها إذًا هذا الشعور الذي غرسته في قلبه!

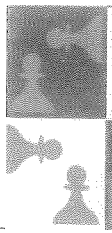
شعور النقص والدونية والشر المحض! وبالفعل كما قالت أمه.. يا لخبثها! ويا لعجرفتها!

رأت أمه احتقان وجهه فسحبت أحد الأقراط الذهبية، ثم قدمته له:

- دعك منها الآن.. خذ هذه غنيمتك.. سنبيعها في الغد واشترِ لك بها من الألعاب ما يُعجبك.

عاد وجهه ليشرق من جديد وغمر قلبه الفرح ولم ينم تلك الليلة إلا سويعاتٍ قليلة للحماس الذي تغلب على نعاسه.

****



اختر بيننا!

-١٢-

«ما معنى هذا؟!».

صاح نواف بغضب وكفه تهز شارة الشرطة أمام موظف الاستقبال في فندق مئة وتسعة، والذي بدوره هزّ كتفيه معبرًا عن قلة حيلته، وهو يجيبه:

- كم مرةً عليّ أن أكرر حديثي؟ عليك أن تستوعب: جميع الكاميرات الموجودة خارج الفندق هيَ للعرض فقط؛ أيْ مزيفة.

غرق قلب نواف في غمٍّ أصاب أكرم أشد منه، وهو يتحسر على الساعات الخمس ونصف الساعة التي أضاعوها بالبحث عن مايا وخاطفها خارج الفندق..

«امنحنا إذًا أسماء نُزلاء الفندق؛ فقد يكون ذلك المجرم أحدهم».

أصرَّ نواف بإلحاح فتنهد الموظف بتعب:

- ألا تعلمان؟! هذا الفندق يستقبل النزلاء إذا ما دفعوا المال ولا نهتم بتسجيل هوياتهم ولا تفقدها.. يكفينا الاسم فقط والذي ليس بالضرورة أن يكون صحيحًا.

شحب وجه أكرم وعقله يُفكر: هل في مثل هذا الفندق قد يوجد صابون إعادة الشباب؟!

١٠٩

فيما أدار نواف بصره في ما حوله، مستنكرًا؛ كيف لم يلاحظ؟! جميع النزلاء في الفندق يبدون من المشبوهين، ولا تتجول فيه عجوز حتى، فكيف بشابة؟!

والأغرب أنه لاحظ حينما كان يبحث عن مايا وخاطفها في الخارج وجود لافتة ضخمة على واجهة الفندق تضم اسمين؛ الأول كُتب بخط عريض وضخم: (فندق السحاب) والثاني كُتب من أسفل منه بخط باهت اللون بالكاد يُرى من مسافة أربعة أمتار: (١٠٩).

ارتفع صوت أكرم فجأة بعصبية وقد عكس وجهه استنكاره الشديد لتهاون الشرطة معهم:

- ألم تفكر الشرطة بإغلاقه من قبل؟

- على الإطلاق.

أجابه الموظف وعيناه تُشيعان ثلاثة من الرجال الخارجين من الفندق، ثم أردف باستهتار:

- لأن بعض نزلائه هم من رجال الشرطة.

وعندها أدرك نواف السر في هدوء وارتياح موظف الاستقبال رغم أنه قد أخرج شارة الشرطة أمامه.. قد سمع من قبل أنه دائمًا ما تكون القرى على حدود أي بلد مرتعًا خصبًا للفسدة والجشعين من المسؤولين، ولكنه لم يشهد ذلك بنفسه إلا الآن؛ إذًا هذا هو السبب في أنه لم يطل أرض قرية السنابل أي من العمران والرفاهية كاللذين نعمت بهما العاصمة وما حولها..

هم مشغولون بالتأكيد بأشياء أهم كتقاسم أموال تطويرها بدلًا من الالتفات إلى هذا الفندق المشبوه إن لم يكن هم من يستفيد منه ويدعمه.

«اعذروني.. لديَّ أعمال أخرى يجب أن أهتم بها».

قال الموظف، وهو يتراجع إلى الخلف، وكفه اليمنى تتحرك بإشارة استجاب لها اثنان من الرجال الضخام الجثة، فوقفا عن يمينه ويساره وعندها علم أكرم ونواف الطريقة التي ينتزعون بها المال من نزلاء الفندق أو بالأصح المجرمين..

تحرك الاثنان إلى زاوية يتناجيان فيها سرًّا حول الخيَارات الأخيرة المتاحة لهما لإنقاذ ابنيْ أمجد من الخاطف نفسه، وإن خامر قلبيهما اليأس من وجود حل.

«ماذا نفعل الآن؟!»

سأله أكرم، فعقد نواف حاجبيه بحيرة:

- ذلك الرجل الذي اختطفها لم يظهر من جسده سوى عينيه، وبسبب المسافة الكبيرة بيننا لم أستطع التمييز إن كان هو نفسه خاطف أخيها أم أنه مجرد رجل من نزلاء هذا الفندق المشبوهين.

التهم الندم مشاعر أكرم، وجرَّمته نفسه لما حدث لها، ثم قال:

- كيف له أن يستعد بكل ذاك التخفي إن لم يكن هو نفسه؟!

- أنت محق في هذا.

- إذًا، ما رأيك بأن نتبع خطتها؟

اتسعت عينا نوف بدهشة: «ماذا تعني؟!».

- أن نختطف صديقه.. فإن كان هو الخاطف نفسه يمكننا بذلك إنقاذ الأخوين معًا.

بلل نواف شفتيه الجافتين بريقه، والحيرة تُرهق أعصابه، وتفجّر في ذاكرته الماضي المؤلم حينما خسرا رفيقهما أمجد في وباء السجن.

«سأفعل المستحيل لأُنقذ ابنيه».

عبارته عكست موافقته لأكرم الذي ابتسم براحة، وكأنه ليس من رفض خطتها سابقًا!

ذلك الخاطف لم يترك لهما خيارًا سوى اللعب بالنيران مثله.

قال نواف فجأة بحذر:

- لنبحث للمرةِ الأخيرة حول الفندق.. فأنت تعلم طَبع مايا ومزاجها الناريّ الحاد، لن تخضع لخاطفها بسهولة وقد تجد وسيلة للاتصال بنا.

واتجه إلى الخارج، ولكن أكرم استوقفه بعجلة: «انتظر لحظة!».

ثم هرع أمام عينيه المتسعتين نحو موظف الاستقبال مجددًا ليسأله بخفوت:

- هل يمكنني شراء صابون إعادة الشباب؟ أُريدُ اثنين!

عكس وجه الموظف استهجانًا شديدًا رُسم مُماثل له على وجهي حارسيه.. فهمس أكرم:

- أجب أرجوك.. أنا في عجلة من أمري.

- لماذا تظن أنه قد يُباع مثل هذا الشيء في هذا الفندق؟!

سأله الموظف بدهشةٍ أكبر فامتقع وجه أكرم وقد فهم فحوى سؤاله.. بالتأكيد، لن يوجد ما يسمى بصابون إعادة الشباب هنا! كان عليه أن يدرك ذلك منذ وقعت عيناه على نزلاء الفندق.

«بُؤسًا لي!.. أوقعتُ الجميع في مصيبة، ولن أنجو من زوجتي أيضًا».

تمتم بها، ثم عاد راكضًا نحو نواف، دون أن ينتبه إلى نادر الذي خرج بهدوء من المصعد، شاتمًا مسخ الموضة لنسيانه أن يأخذ منها نقود الملابس التي سيشتريها لها.

لكنه بمجرد أن رأى الرجلين تقهقر بسرعة إلى الخلف، وكاد يسقط في المصعد، لم يظن أبدًا أنهما لا يزالان في الفندق، ولكن مغادرتهما السريعة نبأته بأنهما على الحال نفسه، تائهان، دون خيط قد يقودهما إليه!

تسلل بهدوء وراح يراقبهما بحذر حتى غابا عن ناظريه، فما زال يرتدي الملابس نفسها التي رأياه فيها صباحًا حين اختطف مايا، وانتبه فجأة لتلك العربة الفندقية الحاملة لثلاث حقائب، إحداهما كانت ذات لون أحمر صارخ.

ابتسم بعبث، الحظُّ في صفه، ولم يتوانَ عن الذهاب نحوها ثم اختطفها من بينها بسعادة غامرة كما اختطف صاحبتها.

«ارفقا بحاليكما.. مصيبة وقد خلصتكما منها».

تمتم ساخرًا وهو يجر الحقيبة من خلفه نحو المصعد ليعود إلى الشقة مجددًا.

****

عبوس الوجه هو المظهر المشترك الوحيد بين الثلاثة: فاضل، ومحاميه بدر، ونائب رئيس الشرطة صفوان، الذين جلسوا على أرائك فخمة في قاعة استقبال الضيوف في قصر فاضل، لم تمتد أيديهم إلى كؤوس القهوة، أو أصناف الحلويات، التي وضعها الخدم أمامهم على الطاولة ظنًّا منهم

أنها كالزيارات المعتادة لفاضل من كبار التجار والتي يجب أن تحظى بأكبر قدر من الاهتمام والترحيب.

فقدان شهيتهم لما أمامهم كان سببه الأكبر النقاش الذي انتهى باهتزاز صوت صفوان غضبًا:

- ليس سامر عبد الرحمن.. بل فارس أمجد بسام ثروت.. كاد الاسم المزيف الذي وضعته على الإعلان المنشور أن يخدعني لولا تفلت لسان رئيس الشرطة المتواطئ معك باسمه الحقيقي في أثناء حديثه معي.. هو الطفل نفسه الذي حققت في قضية مقتل أخته قبل سنوات ثم نسبنا الجريمة إليه؟

ظل فاضل على عبوسه، فيما ابتلع محاميه ريقه وما خُبئ لوقت طويل يظهر في حديث صفوان الحذر:

- دفعت لي المال لأُغلق القضية، ثم طمأنتني بعد شهر أن الفتى قد انتحر، وأن إرث والدك قد عاد إليك، ولم يعد هناك أي داعٍ للقلق من أن تُستأنف القضية من قِبَل عائلة راكان المتبنية له.. والآن بعد ما أصبحت على بعد خطوة واحدة من تولي منصب رئيس الشرطة أجد أن قضيتي هذه على وشك أن تفتح من جديد.

وتراجع للخلف يتفحص أوجههم بغيظ تسلل إلى نبرته:

- إذًا من هو الطفل المحترق في القبر؟

لم يجبه فاضل، وكفه تمتد أخيرًا إلى كوب قهوته، راح يحتسيه بهدوء فتيقن صفوان أن تلك القضية قد امتدت لأمد طويل وتمادى فيها فاضل إلى حد قد يُسقطه معه..

تطوع محاميه ليوقف هذا الشقاق بينهما؛ فما هم فيه الآن لا يحتمل الزيادة في عدد الأطراف المُعادية لفاضل، لا سيما بعد فقدانهم لحليفهم الأول مدير مستشفى الصحة النفسية:

- كان هناك شرط سُجل في الوصية.. وهو أن استلام الورث يرتبط ببلوغ الفتى سن الثامنة عشرة.
- وكأنك تعجز عن وضع وصية مزورة.. هذا هراء!
- بالتأكيد أنا قادر على ذلك.. ولكننا لا نملك الوصية الحقيقية.. هي مع شخص آخر ولو حضر إلى المحكمة عند بلوغ الفتى الثامنة عشرة ولم يجده حيًّا فقد تؤول جميع ممتلكات وأموال بسام ثروت إلى الجمعيات الخيرية.
- لهذا قررتما الاحتفاظ بالطفل حيًّا.. ولكن كيف ستحصل على ماله وقد قتلتماه في جميع أوراقه الرسمية؟
- لم يمت.. الذي مات هو فارس راكان عبد السلام.. والذي سيعيش هو فارس أمجد بسام ثروت.
- تعني بالميت الطفل البديل الذي وضعتماه في القبر! سحقًا لكما.. لقد باشرت الأمر بنفسي، وتابعت مع فريقي واقعة الحجرة المحترقة في القصر وانتشال جثة الطفل منها، ولكنني لم أعلم إلا الآن أنه ليس هو.. لقد كذبت عليّ أنا أيضًا وجعلتني متواطئًا معك دون أن أعلم.

وتفاجأ قبل أن يتابع ثورته باعتراف فاضل:

- نعم.. قد فعلت.. لذا توقف عن الحديث وكأنك الضحية

الوحيدة هنا.. إن سقطت فهذا يعني سقوطي أنا أيضًا.. كلانا نعاني، لذا بدلًا من تذمرك من الخير لك أن تجد الفتى وتُعيده إليّ كي يُغلق ذلك الملف إلى الأبد.

تفلتت ضحكة خافتة من بين شفتي صفوان فها هو يسعى لاستغلاله بما أن مصالحهما مشتركة، ولكن ليس وكأنه جاء بحثًا عن اعتذار منه لغدره به، فقال:

- بقاء الفتى حيًّا يعني فتح قضيتي من جديد..

ارتجف الكوب في يد فاضل وقد أدرك مغزى عبارته، فيما اندفع المحامي يُطمئنه:

- أتظنه سيكون قادرًا على وصف الجريمة التي قُتلت فيها أخته فيوقع بك؟ الفتى مجرد حطام.. لا يُعتد بشهادته.. ولا يُحسن الحديث حتى.. لديه اضطراب عقلي يجعله يهاجم كل من يراه.

- ومع ذلك الحذر واجب.

قالها وابتسم فضاقت عينا فاضل؛ فصفوان لم يأتِ إلا وقد جمع المعلومات حول ما قد يُسقطه في هاوية، وكيف يُنقذ نفسه منها.. فقال بحدة:

- تُريد مالًا؟

- بالتأكيد.. ولكن ليس ثمن البحث عن الفتى فقط، أنت ما زلت مدينًا لي بقضية الطفل في القبر.. وأريد تعويضًا أيضًا عن استهتارك بي.

تراجع المحامي بصدمة لظنه الخاطئ بأن صفوان لن يقف في صفهما، على حين ابتسم فاضل أخيرًا:

- المال يحل كل شيء.. سأمنحك الآن نصف المبلغ والنصف الآخر بعد إيجاد الفتى.

- اتفقنا.

وامتد ذلك النقاش، وفرغت كؤوس القهوة، وانتهى أخيرًا بقول صفوان بحسم:

- كلا.. لن أبحث عن ياسر.. قتله للفتى لن يضرني.. فبموته ستُدفن القضية التي تلاعبتُ بها، وإن لم يقتله ووجدت الفتى قبله فسأكسب المال منك.. لا منفعة لي من ياسر هذا، هو مهمتك أنت ولا شأن لي به.

صاح فاضل بيأس:

- بحث رجالي عنه في كل مكان اشتبهوا باختبائه فيه لكنهم لم يجدوه ولا أستطيع أن أبلغ عنه للشرطة أيضًا.

- بالطبع لن تستطيع الإبلاغ عنه لأنهم إن قبضوا عليه سيأخذك معه إلى الجحيم.. لذا تولَّ أمره بنفسك.. ولا تشتتني عن مهمة البحث عن الفتى.. أريد التركيز على هدف واحد فقط.

لم يكن قد أتم حديثه بعد حين ارتفع بغتة رنين هاتفه فالتقطه بسرعة ليُجيب أحد رجال فريق التحقيق المسؤولين عن تفحص تسجيلات الفيديو والتدقيق فيها، ودقيقة فقط، وتحركت شفتاه بابتسامة، ثم غادر

قصر فاضل وطنين لرسالة يرتفع من هاتفه بالمبلغ المتفق عليه فتألقت عيناه خبثًا وجشعًا..

****

ارتفع في أرجاء الشقة صوت فتح قفل الشقة الإلكتروني، دخل نادر جارًّا حقيبة مايا من خلفه، وقد غطت شفتيه ابتسامة مُتشفية؛ ستُصعق بالتأكيد حين تفتح حقيبتها فتجد كُلَّ أحذيتها مكسورة الكعب.

كسا وجهه الحرج فجأة، فلم يكن هدفه من فتح الحقيبة أن ترى عيناه بعض الأشياء، لكنه كان مضطرًّا إلى تفتيشها من أجل التثبت مما إذا كانت تُخبئ فيها سلاحًا أو هاتفًا آخر.

وقف في منتصف صالة الجلوس وانتبه فجأة للهدوء المُسيطر على الشقة فثار قلق جنوني في نفسه..

لم يغب إلا لنصف ساعة، فهل استطاعت الهرب؟ وأخذت فارس معها؟!

ذلك الخاطر أفزعه إلى الحد الذي أفلت معه الحقيبة بعنف، ثم ركض نحو الحجرة ذات الباب المخلوع، فوجد فارس مُستلقيًا فوق سريره دون لحاف، ومُغمض العينين، بينما السرير الآخر قد اختبأ أسفل لحافه جسدُ مايا.

حنى نظراته إلى الأسفل بحرج، وتراجع بخطواته سريعًا إلى الخلف.. استلقاؤها بهذه الهيئة المكشوفة لغريب مثله زاد من ارتباكه وتأنيب ضميره، لكنه لم يكن ليُتلف باب الحجرة لولا أنه لم يستطع الثقة بها بعد، وهي بشخصيتها الغريبة لا تساعده.

«ولكن كيف ناما بهذه السرعة؟!».

استنكر بشدة، فمن المستحيل أن تكون نصف ساعة كافية لهما ليناما!

صحيح، من المحتمل أن فارس قد يغلبه النوم فهو لم ينم إلا لساعتين منذ الأمس، ولكن ما هو سببها؟

تذكر فجأة أنها كانت مسافرة لوقت طويل، ولكن هل بلغت بها بلادة الإحساس أن تكون قادرة على النوم في شقة هِيَ مُختطفة فيها؟!

لم يكن قد أتمَّ تساؤله بعد حين ذكَّره عقله بجرأتها عليه، ودوسها على قدمه للمرة الثانية، نعم، طوال الوقت لم تتوانَ عن استفزازه، لذا فهي قد تفعلها وتنام.

ظل يقف قريبًا من الحجرة مقاومًا شعورًا غريبًا في داخله يحثه على العودة إلى الحجرة كي يوقظ فارس ويطلب منه أن ينام في حجرته بدلاً من بقائه معها..

وبعد بضع دقائق أطلق زفرة طويلة، ثم جر نفسه ليستلقي على الأريكة بهدف مراقبة الحجرة، نومهما سيضيع الكثير من الساعات التي كان من الممكن أن يستغلها للتيقن من نيتها الحقيقية.

نظر إلى السقف بشرود، فالفكرة المبدئية التي كونها عنها هي أنها إما أن تكون ماكرة للغاية، وقادرة على التمثيل، كياسر، فعقله يكاد يُصدق كل عاطفة بثتها نحو أخيها، أو أنها حقيقةً ذات نية طيبة، وتملك عاطفة كبيرة نحو أخيها، وتصرفها معه باستهتار رغم أنها مُختطفة لأنها فقط تتبع شعورها اللحظي دون أن تكون قادرة على استشارة حذر ينهاها ويُنبهها لسوء العاقبة بعد انتهاء نوبة طيشها.

وإذا ما كانت الأخيرة هي الصحيحة فهذا يعني أنها بالتأكيد: «بلهـــــاء». قال فجأة وأحد حاجبيه يرتفع بشك.

ظلَّ يُفكر ويُفكر والنعاس يُداهم عينيه المجهدتين، لتُغلقا بغتة رغمًا عنه، ويسقط في نوم عميق حُرم منه لما يقرب من العشرين ساعة.

كم مرَّ على نومه؟ لا يعلم...

ولكن تسلل إلى أذنيه فجأة صوت شجار بالخارج لعدد من الرجال من نزلاء الفندق، عبس بشدة، وغرس وجهه في لين الأريكة يُريد النوم أكثر، ولكن ازدادت تلك الأصوات حدةً.

فتح جفنيه فجأة بعد أن دقّ ناقوس الخطر في أعماقه، مُعيدًا الوعي إلى عقله، فهبَّ جالسًا، ونظره يتجه إلى مصدر الصوت وعندها رأى باب الشقة المفتوح على مصراعيه ونزلاء الفندق في الممر يتشاجرون ويتعاركون كعادتهم.

«فـــارس».

صاح بفزع وعقله يُخمن أنها قد استغلت نومه ونجحت بالهرب، تحرك جسده لا شعوريًّا، وقلبه يتخيلها تُذيقه المصير نفسه الذي أذاقه فاضل له، سترميه في مستشفًى للأمراض العقلية ومن ثم ستقتله بعد انتهاء حاجتها إليه.

ركض إلى الخارج بلا تردد، دون حذاء، ووقع بصره على الرف المجاور لباب الشقة.. لقد سرقت مفتاح سيارته، هِيَ أخطر ممَّا تصور... لقد استطاعت حتى فتح القفل الرقمي للشقة!

لم يتردد للحظة عن السعيِ خلفها. استقل المصعد ليصل إلى الطابق

الأرضي، وقد أضمر في نفسه أنه لو استطاع اللحاق بها قبل هروبها سيتصرف معها بأشد عنفٍ قد تواجهه في حياتها كلها، سينتزع فارس الساذج من بين يديها، حتى لو أبى ذلك؛ فسلامته أهم.

وفُتح باب المصعد وظهر أمامه عدد كبير من السيارات، ولكنه لم يركض إلا إلى موقع واحد، إلى سيارته...

حتى لو اتصلت في طريق خروجها برجال الشرطة، أو رفيقيها، لن يمنحها فارس أبدًا، صحيح أن عقله لا يملك خطةً بعد للتعامل مع مستقبل جديد لفارس دون عائلته، ولكن خطته الآن هي إنقاذهُ فقط.

وداست قدماه الحافيتان نتوءات أرضية مرآب السيارات الخشنة، ورغم تألمه تابع الجري، ليجد سيارته ما زالت ساكنة في مكانها.

ملأت الدهشة عسليتيه، فذلك لم يتوقعه أبدًا، ولم يكد يقف أمام زجاجها الأمامي حتى رأى مايا تجلس خلف المقود بوجهٍ شاحب، عيناها تسكبان الدموع، وشفتاها منفرجتان بأقصى ما تستطيعه، ولكن زجاج السيارة حجب عنه صوت صراخها وبكائها.

لم يهتم لما رآه، وعيناه تبحثان عن شخصٍ واحد فقط، تفقد مقعد الراكب، تجول حول السيارة، لكنه ليس فيها، ناداه بأعلى صوته، ولكن لم يُجبه أحد!

لم يستطع تخمين ما حدث أو أين هو فارس، فعاد بنظراته المُحمرَّة غضبًا نحو مايا فرآها تسحب من مناديل سيارته لتفرغ فيها دموعها ومخاطها، بينما شفتاها تُطلقان شتائم متتابعة قد تكون موجهة له.

تقدم بعصبية أكثر نحو السيارة، حاول فتح باب السائق، ولكنه كان

مغلقًا من الداخل، بينما انغمست هي في حزنها تمامًا إلى الحد الذي لم تلحظ وجوده.

«أنا السبب.. أنا السبب.. ليتني لم أرحل.. سحقًا لفاضل.. تبًّا للمجرم ياسر.. حدث ما حدث له لأنني تركته.. أنا حمقاء.. أنا أخت عديمة الفائدة سابقًا.. والآن أيضًا».

هدأ غضب نادر بعد أن قرأ حركة شفتيها.. مستغربًا، هل كبحت انهيارها وتقريعها لذاتها في الشقة كي تُطلقهما دفعةً واحدة هنا؟!

في سيارته؟!

زاد صراخها وبكاؤها حدة حتى أن وجهها الأبيض أصبح أحمرَ بالكامل، عيناها ذابلتان، صدرها يعلو ويهبط بأنفاس متسارعة لاهثة و..

طرق نادر زجاج النافذة فجأة فالتفتت نحوه بعينين ضيقتين حاقدتين.

نصف دقيقة مرت بينهما، يتبادلان فيها النظرات، ثم طرق مُجددًا، والأغرب أنها ضغطت زر فتح النافذة لتسمح بفرجة صغيرة أعلى النافذة دون أن يظهر عليها خوفها منه، وعندها أشار بسبابته إلى الخارج قائلًا:

- ضعي مخاطك وقذارتك في مكان آخر غير سيارتي.

انفرجت شفتاها بغيظ، وبالفعل غابت الحكمة عن رأسها، فأغلقت النافذة، ثم سحبت كومة من المناديل راحت تمسح بها أنفها ووجهها ثم رمتها في كل زواية من السيارة. بل والأسوأ أمام جمرتيه المشتعلتين راحت تبصق فوق تابلوه السيارة وفوق المقاعد.

«أيتها القذرة!».

صرخ بثورة.. ولكن النافذة مُغلقة، السيارة بكاملها مُغلقة، ومفتاح السيارة بحوزتها فازدادت ثورته.

تلك المدة التي تبادلا فيها النظرات كانت كافية له ليحلل ما رآه، السؤال الأول الذي تبادر إلى ذهنه وقتها هو: لماذا لم تهرب؟!

يُمكنها أن تهرب بعيدًا مستغلة سيارته، ولكنها لم تهرب!

الغبية، لم تُنقذ نفسها من خاطفها!

قد امتلكت الفرصة بالكامل، ولكنها ضيعتها مُختارةً أن تحتجز نفسها فيها وتبكي بقلة حيلة.

لثانية واحدة فقط رفع عينيه إلى الأعلى وعقله يطرح عليه سؤالًا غير منطقي: هل من الممكن أن فارس لا يزال في الشقة؟!

هل رفض الهرب معها كما رفض طاعتها بتحطيم رأسه بالمقعد؟!

وارتخى جفناه وعقله يُرجح تخمينه، ففارس لن يخرج ما دام نادر قد حذره مُسبقًا من أن خروجه قد يؤذيه ويرمي به في السجن..

لا بد أنه قد كرر تصرفه بالامتناع عن الخروج، كما فعل من قبل عندما لم يغادر حقل التفاح وقرر دفن حافظة ريم بدلًا من إعطائها لها؛ خوفًا عليه وحمايةً له.

أعاد عينيه نحوها مُتفاجئًا، فلو كان هدفها الورث لتركت فارس خلفها، فحياتها أهم من المال وأثمن من بقائها برفقة رجل غريب اختطفها!

«فـــارس.. فـــارس.. فـــارس».

١٠٩

كررت بقلب مُنفطر وشهقاتها الباكية المتتابعة تعكس ذعرها وقلقها عليه.

ابتسم براحة، لقد بقيت من أجل فارس، فِعلُهَا هذا كان أكثر من كافٍ ليُدرك أنها لا تسعى ولن تسعى لإيذائه، وبمجرد أن اطمأن إلى أن فارس بخير، لاحظ فجأة قذارتها التي كانت تلوث بها سيارته العزيزة وعندها ثار عليها..

.

.

كرر طرقاته الغاضبة للنافذة، وهو يشتمها بصوت يكاد يجلب كل من في الفندق.

إلا أنها تجاهلته تمامًا بعد ما انتهت من بصاقها، ثم عادت لتُردد اسم فارس دون أن تقوَى على إخراج نفسها من كآبتها وبؤسها. كانت خطتها مُتكاملة:

تفتح باب الشقة، تأخذ فارس، ويغادران على سيارة خاطفهما و(نهاية سعيدة).

لكنها، ولأول مرة في حياتها تختبر الرفض الجاد من فارس.. حاولت.. توسلت إليه.. لكنه ظلَّ على رفضه، فلم يكن أمامها خيَار آخر سوى تركه والنزول للبحث عن هاتف، ثم أدركت لاحقًا مدى غبائها حينما تذكرت أنها لا تحفظ أرقام أكرم ونواف..

أرادت الاتصال بالشرطة، ولكن عقلها رفض ذلك فوصاية فارس بيد فاضل وسينتزعه منها.

وعندها قررت ركوب السيارة وحدها للبحث عن أكرم ونواف ليساعداها في سحب فارس رغمًا عنه، ولكن ماذا لو في غيابها البسيط استيقظ الخاطف فاكتشف هربها؟

بالتأكيد سيعتريه الخوف من إبلاغها عنه للشرطة فيقتل أخاها بهدف إخفاء أدلة إدانته.

زاد بُكاؤها التعيس حدةً حتى أن قدميها راحتا تضربان أسفل المقعد في ثورة، فالخاطف قد أفشل خطتها دون أن يُحرك أصبعًا واحدًا حتى.. دفعت فجأة باب السيارة ليرتطم بقوة بنادر، ثم وقفت أمامه بكل تلك الملامح الفوضوية، قائلة بخنوع:

- سأعود.. فقط لا تؤذه.

ضربته بباب السيارة وتطلب منه ألا يؤذي أخاها! هِيَ مجنونة بالكامل، بل ورمت نحوه بمفتاح سيارته ليتلقاه بكفه واستدارت ماشية نحو الفندق مجددًا.

«كلا».

قال فجأة فتوقفت ثم استدارت نحوه بدهشة فتحركت خصلات شعرها المموجة بعيدًا عن وجهها الأحمر كالطماطم..

- نظفي قذارتك من سيارتي أولًا.

قال، وعقد ذراعيه أمام صدره فوقفت شامخة تَرمُقه باستخفاف:

- إن كُنتُ قد وسختها مُتعمّدة فلماذا سأُنظفها؟!

- حقًّا؟! لا بأس، سأُجبر فارس على تنظيفها.

ردَّ بابتسامة عابثة فتلاشى عندئذ كُلُّ شموخها وعنادها وصرخت:

- لا.. دع أخي وشأنه.

ثم عادت نحو السيارة وقد حمَل وجهها انكسارًا شديدًا ومدت كفها إليه تُريد المفتاح لتنظف و.. لم يُعطِه لَهَا!

بل بدلًا من ذلك مشى بهدوء ثم تجاوزها مُبتسمًا، وقد تيقن أخيرًا من عمق حبها لفارس حتى أن (الأنا) الخاص بها قد داسته أمام راحة وكرامة أخيها.

ظلت متجمدة خلفه لثوانٍ ثم لم تلبث أن مشت وهي تصيح:

- هل كنت تتلاعب بي؟!.. أنت مختل.. لم أكن سأُنظفها أصلًا.. والمليونان لن أُعطيك إياهما كاملين، سأخصم منهما و...

ثرثرت كثيرًا، ولكنها ظلت تتبعه نحو سجنها دون حاجة منه لأن يَجُرّها أو يُهددها، حُبها لأخيها قيّدها بالكامل.. وقفا أمام المصعد ثم دخلا معًا، ليُكتب تشاركهما الأول له، بصمت، دون أن يؤذي أحدهما الآخر بالكلام أو الفعل!

فقط عيناها الواسعتان ظلتا مسلّطتين عليه ببغض شديد فهو الشخص الأول الذي ينجح بالتسبب بخصام كبير بينها وبين أخيها فارس.

وفُتح باب المصعد على الطابق التاسع فرأى نادر ذلك الشجار لا يزال مُستمرًّا، تحرك نحو الشقة وهِيَ من خلفه شاردة ودون أن تنتبه اصطدمت برجل ضخم ملأت جسده الوشوم..

نظر الرجل للأسفل نحوها، ولكنها لم تعتذر، بل عكس وجهها عبوسًا كبيرًا وهي تنظر بشراسة مُستفزة للأعلى حيث عينا الرجل وكأنه

هو المُخطئ. هِيَ تبحث فقط عن كائن حي لتُفرغ فيه غضبها وبؤسها!

«هِيَ معي».

قال نادر فجأة، وجسده يقف حائلًا بينها وبين الرجل الذي أراد أن يبطش بها، بينما نظر جميع الرجال نحوها، وقد أثار وجودها في هذا الفندق استغرابهم.. بل وجماها!

«وماذا يعني لو كانت معك؟!».

ردَّ الرجل بحدة فزفر نادر غضبًا، فهو ليس بحاجة لمشكلات أكبر، والأسوأ رغم أن جسده حجب جسدها بالكامل عن الرجل، وحماها، إلا أنها همست من خلفه باستهزاء:

- مُختَطِف وشهم!

استجدته كل خلية من جسده أن يُفرغ الطريق أمام الرجل، ويرتكن عند إحدى الزوايا ويستمتع بما سيحدث لها، ولكن تأذيها لن يُزعج إلا فارس.

لذا فقد سحبها فجأة من سترتها نحو الشقة مُردفًا: «هِيَ عمياء».

الجميع مع الرجل فغروا أفواههم بشفقة، فيما تجهم وجهها لكذبته، فرفعت كفها وهما يدخلان إلى الشقة تُريد صفع يده الجاذبة لسترتها، لكنه أفلَتها هو أولًا بسرعة وارتباك، فخفضت بدورها كفها، ونظرت إلى حيث ينظر فرأت فارس يقف في الصالة بهدوء.

أغلق نادر باب الشقة متمنيًا أنه لم يرَ جرَّةُ لها، فيما ظلت هِيَ واقفة مكانها تنظر إليه بعتاب..

و...

لم يتحرك...

لم يتكلم...

ظلَّ فقط ساكنًا في موقعه دون ردة فعل...

حاله الغريب نجح في إثارة استغرابهما فتحرك الاثنان نحوه، واتسعت عينا نادر بخوف حين انتبه لعينيه الجامدتين المحدقتين في الفضاء، وازداد توتره مع ملاحظته لأطراف أصابعه المتدلِّيَة والمهتزة بتزامن واحد.

«لا ... لا... لا..».

رددها بقلق عنيف أفزع مايا، ثم جرى نحوه، ولكن قبل وصوله إليه كان قد سقط من وقفته بالكامل إلى الخلف مرتطمًا ظهره ورأسه بالطاولة المُستديرة والمقعد وصولًا إلى بلاط الصالة المصنوع من السيراميك الناعم..

شهقت مايا بهلع وجرت نحوه هِيَ الأخرى دون أن تعلم ما أصابه، رأت جسده يستقر أخيرًا على الأرضية بينما ذراعاه وساقاه ما زالت تهتز اهتزازات حادة ومُتزامنة في نوبة صرع قوية، وعيناه المفتوحتان تنظران إلى السقف بوعي شبه مغيب.

دفع نادر المقعد والطاولة بعيدًا عنه، ثم انحنى على ركبته أمامه بعد أن نزع سترته، وأسرع يطويها ثم وضعها تحت رأسه حتى يقلل من أثر ارتطامات رأسه المتتالية بالأرضية الناعمة على حين أغرقت الدموع عيني مايا وانحنت نحوه هِيَ الأخرى و...

«لا تلمسيه».

صاح نادر بقوة موقفًا حركتها، بينما يداه تفتحان الأزرار العلوية

لقميص فارس، ولم تهدأ تلك النوبة، ظلت مُسيطرة على جسده حتى أن بعض اللعاب بدأ بالتسرب من إحدى زوايتي فمه، وعندها صاح نادر وعسليتاه تُظلمان:

- ماذا فعلتِ به؟

ارتجفت بخوف:

- لم أفعل شيئًا.

- مُستحيل! لم يُصب بها من قبل.. أنتِ! هل هددتِه بإرجاعه إلى المستشفى؟ إلى فاضل؟

اصفَرَّ وجهها، واتسعت عيناها مُستغربة؛ لماذا قد تهدده بمثل هذا الهراء؟! لماذا هِيَ قد تؤذيه من الأصل؟!

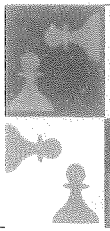
ثم تذكرت فجأة محاولاتها المستميتة معه أن يهرب برفقتها، فصاحت فجأة بنبرة مذعورة:

- لقد أخبرته أن يختار بيننا.. إما أنا عائلته أو أنت الغريب.. وإن لم يخترني أنا فلينسَ أنه قد يراني مُجددًا.

انتفخ عرق جبينه بغضب، وضغط أضراسه غيظًا، فبطيشها قد دفعته إلى حافة ضغط نفسي عنيف لم يحتمله جسده، وأسقط عسليتيه المشفقتين على جسده المهتز دون توقف، ثم ردد بأسًى كبير:

- هذه العائلة لا تُجيد إلا إيذاءك...

****



ما الخطأ بي؟!

-١٣-

١٥ أكتوبر- ٥ مساءً

اقترب شاب قمحي البشرة، ذو شعر قصير داكن، مستقيم الأنف، غائر العينين يغلب على جسده النحول، من رجل في آخر عقده الخامس يعمل كاستشاري لأمراض الباطنة والكلى. ارتسم على فم الشاب المتوسط الاتساع ابتسامة خجلة وهو يوازيه بالمشي، قائلًا بنبرة يغلب عليها التهذيب:

- سيد جاسم.. هل يمكنني الحصول على استشارة سريعة منك؟

أوقف جاسم خطواته ونظر إليه بتعالٍ، مستنكرًا إقدامه على الحصول على استشارة مجانية متجاوزًا قوانين المستشفى، ولكن بمجرد رؤيته لاستشاري أمراض الأطفال الذي لوح له بكفه من خلف الشاب علم أن الشاب قد أقدم على هذا الفعل الجريء بتوصية من رئيسه في العمل.. ولم يرغب جاسم بإثارة عداء مع زميل قديم له في العمل، وإلا فسيكون نتيجة ذلك فقدانه الدائم لعلاج أطفاله المجاني عند هذا الاستشاري الماهر والكفؤ في عمله.

- لا بأس.. تعال معي.. لم أتناول طعام الغداء بعد.. يمكنني خدمتك في هذا الوقت، ولكن من أنت؟

- اسمي أحمد.. طبيب متدرب عند استشاري الأطفال.

- أنت هو المتدرب النابغة.. لطالما أزعجنا رئيسك بإعجابه بدقتك ودماثة خلقك.. أتعلم أنه كان ينوي عرض ابنته عليك للزواج لولا علمه في ما بعد أنك قد خطبت متدربة رفيقة لك في العمل؟

عكس وجه أحمد ذهوله: «لم أكن أعلم!».

- بالطبع لن يُخبرك.

ابتلع أحمد ريقه، لا يرغب في تعقيد عمله مع رئيسه، ومع ذلك سرَّ قلبه أن يدور عنه حديث طيب في غيابه فهذا هو المِصدَاق للأثر الجميل بعد الرحيل.. كان يبتسم حين فتح جاسم باب حجرته المكتبية فدخل من خلفه واحتل المقعد المقابل لمكتبه.

- حسنًا.. ما هو سؤالك؟

- أعدك، لن آخذ من وقتك الكثير.. هو استفسار بسيط.. لو تعرض شخص لضرب متكرر على موضع كليته لمدًى طويل قد يصل إلى تسع سنوات فهل من الممكن أن يسبب ذلك له مشكلات صحية فيها؟

تراجع الاستشاري إلى الخلف وأحد حاجبيه يرتفع لسؤاله الغريب، ورغم ذلك أجابه:

- بالتأكيد، الضرب المزمن، حتى لو كان خفيفًا أو متوسطًا قد يسبب مشكلات صحية خطيرة، والضرر المتكرر قد يُضعف من قدرة الكلية على تنقية الدم وقد تتكون أكياس دموية أو التهابات في الكلى ومن الممكن حتى عند الإصابة المباشرة قد تتمزق الأنسجة

الدقيقة في الكلى ويحدث نزيف داخلي أو تليف وندبات في الكلية مع الوقت.

وصوَّب نظره على ساعة الحائط بانتظار طعامه المتأخر، وهو يضيف بهدوء:

- وفي أسوأ الحالات إن استمر الضرر دون تدخل أو تقييم طبي فمن الممكن أن يؤدي إلى فشل كلوي جزئي أو كامل في الكلية المصابة.

علا الحزن وجه أحمد وانقبض قلبه لهذا الحديث غير المُبشر على الإطلاق، وإن غلب على مشاعره الإشفاق على الفتى الذي تعرض لهذا العذاب منذ التاسعة من عمره، والآن أيضًا لم ينجُ من تبعاته رغم هربه..

قاوم عاطفته المُشفقة واندفع يسأله بلهفة:

- إن كان هذا الفتى مريضًا نفسيًّا ويضطر لتناول أدوية فهل من الممكن أن تزيد من تضرر الكلى؟

لثانية فقط اتسعت عينا جاسم ثم عادتا إلى طبيعتهما، وهو يجيبه:

- نعم، الكلى مسؤولة عن تنقية الجسم من الأدوية والسموم، وبعض هذه الأدوية يُطرح عن طريق الكلى، ولو كانت وظائف الكلى ضعيفة فقد يتراكم ويسبب سمّية دوائية أو يُفاقم من ضرر وتلف الكلى وخاصة لو أن هناك تداخلات دوائية متعددة في الوقت ذاته لذا من الخير له أن يتم تقييم سلامة كليتيه أولًا قبل الاستمرار أو البدء في أي دواء نفسي جديد.. ومن الأفضل أن يتم تعديل الجرعات أو تغيير الدواء بالتعاون بين الطبيب النفسي وطبيب الكلى.

ظهر الهم والضيق على وجه أحمد، وتذكر الكدر الذي ملأ وجه نادر حينما أخبره قبل ثلاثة أيام بقراره بإيقاف الأدوية، الآن تيقن أنه لم يتخذ قراره ذاك من حذر مفرط أو لمجرد وساوس مُقلقة.

وخامر قلبه بعض الأمل وهو يسأله باندفاع:

- لو عرضت عليك أدويته فهل من الممكن أن تُحدد أيُّها آمن على الكلى؟

- ما حاجتنا لفعل ذلك؟ أحضره إلى هنا وسأجري له تحاليل شاملة لوظائف الكلى وسأتعاون مع طبيبه النفسي.

وصمت وعيناه تدرسان ذاك الذعر الذي حلَّ في وجه أحمد، وهو يتراجع إلى الخلف بعد أن كان يهّم بمناولته هاتفه الحاملة شاشته ملفًّا سُجل عليه الأدوية والجرعات التي تلقاها فارس على مدى الخمسة الأشهر الماضية.

تحركت شفتا الاستشاري بابتسامة جانبية:

- هل هناك ما يمنع إخراجه وإحضاره إلى هنا؟ هل عائلته هي المتسببة في إيذائه؟

زاد الاصفرار في وجه أحمد، وأجابه بارتباك:

- لا.. الفتى يعيش في الجنوب ولا يمكن إحضاره إلى العاصمة.

- أوه.. هذا هو السبب إذًا.. لا بأس دعني أرَ ما يمكنني مساعدتك به.

عاد الارتياح إلى وجه أحمد وناوله هاتفه وبعد أن قرأ جاسم الأدوية ردد بخفوت:

- مضادات للذهان وأدوية مهدئة.. لا يبدو اضطرابه بسيطًا وأغلبها تتعارض كليًا مع صحة كليتيه والبعض الآخر جرعاتها الدائمة قد تقتله وبالطبع هذا في حال كان تخمينك صحيحًا بأن إحدى كليتيه قد تضررت من العنف الذي لازمه لسنوات...

تابع حديثه، وأحمد يُصغي له بإنصات، وذاكرته تسجل ما يقوله بالحرف الواحد؛ فعليه لاحقًا أن ينقله دون خطأ إلى نادر، ولكنه لن يتصل به، بل سيبعث إليه برسالة شديدة الجفاء فما زالت مشاعره مُتأذية بعد تجاهله له..

وبعد انتهاء الاستشارة أسرف أحمد في شكر جاسم والثناء عليه، ثم غادر المستشفى واستقل سيارته إلى المطعم، كان يتفقد هاتفه ما بين لحظةٍ وأخرى، ولكن متحجر القلب ذاك لم يتصل به أو يعتذر منه.

- حمدًا لله.. على الأقل هو بخير بعد وفاة والديه.

قال بارتياح عميق، ووصل إلى المطعم. أوقف سيارته ثم ترجل خارجها.. كان في طريقه إلى الدخول حين استوقفه رجل مُسِنٌّ بدا عليه التوتر:

- لقد فقدتُ هاتفي.. هل تسمح لي بإجراء مكالمة من هاتفك؟ أريد من ابني أن يأتي ليُقلني وقد يتدبر الأمر فيحدد موقعه ونذهب لأخذه.

لم يتردد أحمد لثانية واحدة عن منحه هاتفه، وظل يقف إلى جواره بانتظار أن يُنهي اتصاله ثم يُعيده إليه، ولكن الرجل استرسل في حديثه مع ابنه، وراح يخبره بالتفصيل عن مصيبته وعن المواقع المحتملة من

السوق التي فقد هاتفه فيها، وخلال حديثه كان يمشي وأحمد يتبعه.. أراد إيقافه، ولكن الرجل بدا وكأنه نسي تمامًا أنه استعار هاتف شخص آخر وعقله مُنغمس في إيجاد حل ودخل فجأة إلى زقاق ضيق يقع على يمين المطعم ودخل أحمد من خلفه.

****

كان جسد فارس تحت سيطرة تلك النوبة بالكامل.. لها حق البدء والانتهاء وليس لأحد القدرة على التَحَكُّم بها..

عضلاته تنقبض وترتخي في تتابع مؤلم، وأصابعه المضمومة تكاد أظافرها تثقب باطني كفيه من شدة انغراسها فيهما، وعلى الرغم من وعيه شبه المغيب، إلا أن عينيه المشوشتين أبصرتا ظلين يتحركان حوله.

كان مستلقِيًا على ظهره، ولكن فجأة تحول جسده إلى الجانب الأيمن بفعل كفَّيْ نادر اللتين أمالتا أيضًا رأسه قليلًا إلى الخلف كي يتسع مجرى تنفسه ولا يختنق بلعابه.

بينما امتدت نحو فمه أنامل مايا المُرتجفة لتمسح بوشاحها زاويتي شفتيه المبتلتين بلعابه.. ورغم توبيخ نادر لها لتبتعد إلا أنها ظلت مُلتصقة به وعيناها تعكسان هلعها عليه.

وبعد دقيقة وخمس ثوانٍ خفت وطأة نوبته بالتدريج، وبدأ جسده يستقر، وعندها ارتد رأسه إلى الخلف لا إراديًّا، ممددًا عنقه أكثر، ليستنشق عبر فمه نفسًا عميقًا ملأ به رئتيه، لم يلبث أن أخرجه في صوتٍ مسموع..

وانتفضت أطرافه بفزع بعد ما بدأ وعيه رحلته إلى العودة، لكنه أحسَّ بغتة بملمسٍ لكفٍّ كبيرةٍ ربتت على جبينه برفق، مما جعله يهدأ رغمًا عنه،

وصاحبها يقول:

- لا بأس.. لا تخف.. كل شيء على ما يُرام.

ورصدت عينا فارس وجه نادر في الأعلى، يتحدث معه بكلمات لم يفهمها، وكل ما استطاع عقله استيعابه هو سؤال واحد: لِمَاذا هو مُستلقٍ على الأرضية؟!

ظل مستلقيًا، يشهق أنفاسه بتعب، والخمول يصيب عينيه...

«هل تذكر أين أنت؟!».

تسلل صوت نادر موقظًا ما تبقى من وعيه، أراد إجابته، ولكن خلايا جسده المُجهدة لم تُطعه للحركة فتقوست شفتاه.

- لا عليك.. ما دمت قد استوعبت فهذا يكفي.

قال نادر براحةٍ كبيرة، وهو يرى عينيه المتعبتين تحدقان به، وكأنهما تسألانه عما به، ثم رأى فيهما خيبته وحزنه لعجزه عن النطق، فسأله برفق:

- هل تعلم من أنت؟

لم يكن سؤالاً يحتاج للنطق، فهز رأسه بـ (نعم) فعَلت شفتي نادر ابتسامة رُسم طيف مشابه لها على شفتي فارس، ثم سأله فجأة:

- وأنا.. هل تعلم من أنا؟

لم يكن لسؤاله حاجة؛ فقد اتسعت شفتا فارس تلقائيًا بابتسامة أكبر وهو يومئ بـ (نعم) أمام عينيْ مايا المفزوعتين المبللتين واللتين ظلت تنقلهما بينهما بتوتر.

«هل هو بخير؟!».

همست بقلق، إلا أن نادر لم يهتم بإجابتها، واهتمامه كُله يوليه للزرقاوين المُعلقتين به.

«هل أنت بخير؟!».

سأله نادر فأرسلت له عيناه الخاملتان الجواب أولًا، ثم أومأ برأسه بـ (لا)، وهو يرفع نصفه العلوي محاولًا النهوض، ولكن نادر منعه بضغطه لكتفيه مُردفًا:

- لا تُجهد نفسك.. امنح جسدك وقتًا أكبر ليسترخي.

لم يُعارضه، ورأسه يعود للاسترخاء فوق سترته المطوية أسفله..

ظل يحدق في السقف، وأنفاسه تهدأ ببطء، لم يَدرِ كم مرَّ من الدقائق حتى بدأ يزول تشوش عقله أخيرًا، بينما داهم عينيه نعاس ما بعد الصرع..

وقفز إلى ذاكرته فجأة تلك المُحادثة المشحونة بينه وبين مايا، فعقد حاجبيه بألم.

- فارس.. استيقظ.. لقد نام الرجل.. إنها فرصتنا للهرب.

- الهرب! ماذا تعنين؟! إلى أين؟

- نغادر هذه الشقة العفنة إلى عائلتنا.

- انتظري.. سأوقظ نادر.

- كلا.. أنا وأنت فقط.

- ماذا؟

- دعه ينمْ..

- كلا.. لماذا تفعلين هذا؟!.. مايا، لقد قُلتِ إنكِ بحاجة للنوم، وهو أيضًا قد ظل مستيقظًا بسبب إزعاجنا ولم ينم منذ وقت طويل.

- نعم.. ولقد نجحت الخطة ونام.

ثم أمسكت بذراعه تَشُدُّهُ بالقوّة كي يغادر معها الحجرة فصاح بذعر:

- لا.. يجب أن لا أخرج.. إن خرجت فقد يُسجن نادر ويتأذى.. هذا ما حذرني منه.

- إنها مُشكلته فليَحُلَّها بنفسه.

تلعثم أمام منطقها، صحيح ليست مشكلته، ولكن هو لا يُريد لنادر أن يتأذى، فاستجداها:

- مايا.. أرجوكِ لا.

سحبته بأقصى قوتها، ولكنه ظل يقف، عيناه تعكسان رفضه، وقلبه يؤلمه؛ فبالكاد التقاها ولا يُريد إغضابها منه، ولكنها استمرت في شدِّ ذراعيه، وعيناها تعكسان هلعها وخوفها عليه..

عصيانه لها أجبرها أن تكشف له ما خبأته عنه:

- فارس، هذا الرجل مُحتل، لقد اختطفني لألتقيك.. يجب أن لا تبقى مع رجل سيئ مثله.. إنه يسعى للحصول على المال، وعلى أشياء أخرى، لهذا أخرجك من المستشفى..

قاطعها بغضب:

- ليس صحيحًا.. أنتِ لا تعلمين شيئًا عنه.. فقط دعي يدي وسأُثبتُ لكِ أنه شخص جيد.

وحاول إبعاد كفيها، وثقته بنادر تفوق تُهمها، إلا أنها تشبثت به أكثر، وعيناها العاجزتان تتبللان بدمعٍ متوسل:

- أخي.. أرجوك.. أنا أريد إنقاذك فقط.. ألا تثق بمايا؟

سؤالها ودموعها أوجعت قلبه المُحب لها فأسرع يقول بندم:

- بلى.. بالتأكيد أنا أثقُ بكِ، ولـكن..

قاطعته:

- ما دمت تثق بي فتوقف إذًا عن الدفاع عنه وتعال معي.. لقد فتحت القفل الرقمي لباب الشقة.

وضعُف أمام دموعها فمشى خلفها لتقف به قدماه أمام عتبة باب حجرته، وعندها رأى النائم هناك بسكون.. أرجح بصره بينهما وبدلًا من سحبها هِيَ له إلى الخارج جذبها هو إلى الحجرة مرةً أخرى وتوسل إليها بعينيه قبل شفتيه:

- مايا.. لا تذهبي.. ابقي معي.

ارتسمت الصدمة على وجهها بعد ما رأته يختار الخاطف بدلًا منها، بل بأنانية طفولية يتشبث بها.. يُريد الاثنين معًا! هِيَ ونادر!

أما زال يأمل أن تبقى برفقته بعد أن رفض الهرب معها؟

وعندها انتهرته بحزمٍ:

- كلا.. عليك أن تختار.. إما أنا عائلتك أو هذا الغريب.. ومن تختاره ستبقى معه والآخر سيرحل.. وإن لم تختر أنا فانسَ عندها أن تراني مجددًا.

بهتت عيناه وارتخت كفاه وقولها يُحدث في أعماقه فوضى كبيرة.. بقي ينظر إليها دون أن ينطق بحرفٍ واحد، وبعد عدة دقائق من صمته سحبت كفيها من بين كفيه الباردتين وأسرعت إلى الخارج..

غادرت كما غادر فاضل..

أدارت ظهرها له كما أدار فاضل ظهره له..

أراد اللحاق بها، ثنيها عن هجره، ولكن عقله المشغول بالموازنة بينها وبين نادر لم يأمر قدميه بالتحرك خلفها..

ولم ترجح في قلبه أيّ من الكفتين رغم مرور خمسِ دقائق قضتها هِيَ – دون أن يعلم – باكية أمام باب الشقة بانتظار قدومه وحين لم يلحق بها علمت قراره..

بينما انتفض جسده أخيرًا حينما مالت كفة الترجيح بتواطؤ من قلبه وعقله إلى نادر، ولكن هذا لم يُقلل من حجم وعُمق الوحدة التي هاجمت روحه، وحدة شبيهة بما أصابته بعد خروج فاضل، ولكنها بصورةٍ أشدَّ وطأةً وأعمق أثرًا طعنت كل ذرة من روحه..

لأن من اختفى هذه المرة هِيَ مايا!

وقف، ووقف، ولم يقوَ على السير، وحين استطاع بعد مُدة أن يجرَّ نفسه إلى صالة الجلوس، نحو نادر، ليشتكي إليه مُصابه وجد الأريكة التي ينام عليها فارغة!

وعندئذ لم يعد يرَ شيئًا، أظلم كُلُّ ما أمامه، و... ها هو الآن فوق الأرضية مستلقِيًا يُعاني الألم في عضلاته دون أن يعلم ما حدث له...

ومع تذكره لظهر مايا المبتعدةِ عنه بعد ساعات قلائل من لقائه بها، وقبل أن يَرتوي ظمأ قلبه المشتاقِ لها، أطلق جيش دموعه..

ارتفع صوت نشيجه الباكي وعيناه الزرقاوان تتجهان نحو العسليتين شاكيتين خذلانًا جديدًا فأبصر نظرة نادر المُتعاطفة معه وعندها ازداد بكاؤه حدة..

وقبل أن يعي وجد وجهه يُضغط على كتف نادر ودموعه تغرق قميصه، متى سحبه نحوه؟ وكيف؟! لا يعلم..

شعر بكفه الممسِّدة ظهره في محاولة منه للتخفيف من ذلك الخواء الذي هاجم روحه بعد فقدانه لأخته مايا التي ظل يحترق رغبةً لعشر سنوات من أجل لقائها، وقد يكون زاد من تعاطف نادر معه شعوره بأنه هو سبب ما مرَّ به لأنه اختاره دونها.

ارتفعت كفا فارس المتحررة حركتهما أخيرًا لتتشبثا بقميصه وكأنه يخشى رحيله، بل حقيقةً هو ظن أنه قد فقده هو الآخر عندما وجد نفسه وحيدًا في الشقة، لم يكن يظن أن تلبية نادر لرغبته في أن يجمعُه بأخته قد تعرّض نادر للخطر وتزيد من احتمال أن تقبض الشرطة عليه..

وعكست عينا نادر إشفاقًا أشد، وهو يرى فيه صورة الطفل نفسه الذي التقاه أول مرة في المستشفى، وصوته المخنوق ببكائه يصل إلى سمعه:

- لم.. لم.. أُطع.. مايا.. أنا.. أنا قد أغضبتها فرحلت.. لم.. لم أرد.. أن تتأذى..

وازداد تشبثه به إلى الحد الذي شعر نادر أنها أشدّ لحظاته ألمًا بعد مقتل لَمى حين ردد:

- ولكن أنا.. لماذا هم.. لماذا هم من السهل عليهم التخلي عني ونبذي؟ أبي، أمي، والآن مايا.. ما الخطأُ بي؟ أنا شخص سيئ بالتأكيد..

- أي هراءٍ هذا الذي تقوله؟! من الذي نبذك؟

استقبلت أُذناه عبارة نادر الموبخة له فأوقف شكواه، فيما تابع نادر بابتسامة واسعة:

- الخطأ بك! حسنًا.. قد يكون أن لديك مُستقبلًا قاتمًا في تحطيم قلوب الفتيات.

خف عندها نشيجه الباكي، ووجد نفسه يَعُود إلى الخلف محاولًا فهم ما يعنيه، فاستطرد نادر بسخرية:

- البلهاء تُحبك أكثر من حُبك لها.. وعلى الرغم من اختيارك لي فقد اختارت العودة إليك.. كرجل.. نجحت وبامتياز.

(البلهاء! كرجل! نجحت): لم يبدُ على فارس الغباء أكثر من لحظته هذه؛ فوضع نادر يده فجأة على رأسه ثم حركه إلى الجانب الأيمن قائلًا:

- انظر.

وبالفعل انعكست على عينيه المبللتين صورة مايا الجالسة على الأرض على ركبتيها، وكفاها تعتصران الوشاح الذي مسحت به شفتيه قبل قليل، وقد غرق وجهها بدموع انهمرت بلا توقف بعد سماعها لشهقات بكائه وشكواه منها، لم تسمع صوت بكائه ولو بخفوت حين التقته أول مرة،

ولكنه بدا لها الآن كشخص آخر تمامًا.. الآن فقط عايشت عيانًا بعضَ ما حكاه نادر لها عن وحدة أخيها وحاجته هو إليه، وليس العكس.

وعلى الرغم من معرفتها بنيتها الطيبة وأنها لم ترد إلا إنقاذه من خاطفه، إلا أن قلبها جَرَّمَهَا لما حدث له، وراحت سياط ضميرها اللائم تجلد كل ذرة من روحها رغم أنها قد عادت من أجله، عادت بقدميها صاغرة ذليلة إلى سجن خاطفها، لتتفاجأ بالحقيقة؛ حقيقة أن من أرادت حمايته قد مسّه الأذى منها هي دون غيرها.

«آسفة». قالت واهتز كتفاها ببكاء: «لم أُرد إيذاءك.. آسفة.. أردتُ حمايتك فقط ولم أعلم أنك قد تتأذى ويزيد من مرضك».

رؤيتها، سماع صوتها، جلوسها أمامه بعثت بفرحة كبيرة إلى قلب فارس الذي صاح باسمها ثم تحرك نحوها ليضمها بحرارة وقد تفلتت من بين شفتيه ضحكة عالية.

كررت أسفها وذراعاها ترتفعان لتضمهُ هيَ الأخرى بقوة، وعقلها لا يكاد يتخيل حاله لو أنها لم تعد إليه فازداد حزنها وخوفها عليه.. صوت أسفها النابع من قلبها المُحب له نجح في إزالة كآبته بالكامل، فهتف بسعادةٍ:

- مايا لقد عُدتِ.. شكرًا لكِ.. شكرًا لأنكِ عُدتِ.

تنهد نادر براحة كبيرة، وهو يُبصر تلاشي الحزن من وجه فارس، ولكن لم يرتح عقله لهذه التقلبات المفاجئة في صحته، هو بحاجة عاجلة للعلاج، ونظر إلى مايا، صحيح هو اطمأن أخيرًا إلى أنها تسعى لحماية فارس، ولكن هل من الجيد أن يأتمن شخصًا مثلها عليه؟!

وارتفع أحد حاجبيه بسخط عندما جلس فارس أمامها كطفلٍ مذنب، ليقول بنبرة غلب عليها وجله:

- أسف.. أسف.. أسف لأني لم أُطعكِ.

لم تهتم وقلبها يَغمُره الفرح لرؤيته بخير ثم ابتسمت ابتسامة ساحرة وسط وجهها المحمر فازداد وجله منها، بينما قالت: «لا بأس». وأمالت رأسها: «سأردّها لك بعد تعافيك».

ورغم تعبه وإجهاده ضحك وهو يقول: «كنت أعلم أنكِ لن تفوتيها».

هزت كتفيها: «وهل ثمن كبريائي الجريح رخيص؟!».

انتزاعها لضحكته بعد إيلامه لم يشفع لها عند نادر، ويبدو أن مايا قد حملت الفكرة نفسها عنه فقد سلطت عليه فجأة نظرات كالحمم اشتعالاً؛ فالوغد هو السبب الحقيقي في إيذائها لأخيها ومع ذلك ظلّت ساحته بيضاء مُشرقة!

والأسوأ: دموعها الثمينة، متى ستتوقف عن الانسكاب أمام عسليتيه؟ لقد رآها باكية لثلاث مرات في يومٍ واحد، وبصورةٍ هستيرية، وغبية! لن يختفي شعورها بالخزي إلا باختفائه.. بتلاشيه.. فليمت وحسب!

ولكن، وعقدت حاجبيها فجأة وعيناها تتفحصانه من رأسه إلى أخمص قدميه بجرأة؛ فما حدث أمامها قبل قليل ليس بطبيعي على الإطلاق!

لم يُعرها نادر أدنى اهتمام وهو يقف تاركًا سترته المُعذبة على الأرض فهو لم يعد يرغب بها بعد أن ملأها لُعاب فارس، وسمع الاثنان فجأة

١٠٩

ضحك فارس ببهجة، وهو يناوب بصره بين الاثنين اللذين تواجدا حوله مُجددًا..

ابتسمت مايا له بحب ثم وقفت وأمسكت بكفه لتساعده على النهوض، وقبل أن يقف تمامًا تهاوى جسده فجأة ساقطًا بتعب على ركبتيه، ودخل فجأة جسد نادر بينهما وقد عكس وجهه نفس ما رأته وهو يعتني به وقت نوبته ثم وبخه بقلق:

- ما زالت عضلات جسدك مُجهدة.

وانحنى نحوه ليسنده بقوة، ثم ساعده ليجلس برفق على الأريكة القريبة.

اتسعت عينا مايا بدهشة، ثم ضاقتا بصمت، وهي ترى فارس متجاوبًا معه كمن اعتاد رعايته، ثم ارتفع صوت فارس المصدوم حين انتبه لقميص نادر:

- قميصك، انظر، تمزق من الأعلى!

وامتدت سبابته بجرأة تشير لأحد أزرار ياقته العلوية:

- هنا تمزق وهنا ارتخى..

وخفت صوته فجأة حين أبصر عينيْ نادر المظلمتين، فسأل بذعر:

- أنا؟

- ومن غيرك؟

لفظها بأنفاس حارقة، فقفزت ابتسامة متورطة إلى شفتي فارس وهو يتذكر، أكان في تشبثه به مُبالغًا إلى هذا الحد؟!

فيما رتب نادر قميصه مُتمتمًا بغيظ:

- أنت لن ترضى بكمِّ الضحايا حتى تجعل مني ضحيتك أخيرًا أو أجعلك أنا ضحيتي.

ضحك بقوة، وكفاه ترتفعان تلقائيًّا ليُغطي رأسه من ضربة نادر المُعتادة، إلا أنه وبغرابة لم يضربه، بل بدلًا من ذلك اقترب منه أمام عينيْ مايا المراقبتين، وتفحص رأسه قائلًا:

- هل تشعر بأيِّ ألم في رأسك أو ظهرك؟ لقد سقطت إلى الخلف.

أنزل فارس كفيه، وأومأ برأسه نافيًا، فتلقى رأسه المكشوف ضربة نادر المعتادة، وعندئذ شهقت مايا بغضب، وانحنت لتنزع حذاءها المتسخ، ثم تحركت نحوه، ستدكُّ رأسه بكَعبِ الحذاء كما ضرب رأس أخيها.

«كُنتُ سأجعل مايا تخيطها لك».

قال فارس فجأة، وكفَّاه تُدلكان رأسه بعبوس، فيما تجمدت كفُّ مايا بصدمة، فحوّل نادر نظره نحوها فرأى عبوس وجهها، وجسدها المائل لانتعالها حذاءً عاليًا واحدًا، وكفها الحاملة للحذاء الآخر ثم...: «لا.. شكرًا..».

واصفَرَّ وجهها بالكامل؛ يا للجرأة!

أخوها يعرض خدماتها دون استشارة، والوغد يرفضها بوقاحة..

والأغرب بعد أن اعتدى نادر على رأس أخيها الذي فوت ضربته دون أن يقتص لنفسه منه، راح نادر يسحب ذراعه فجأة متمتمًا بسخط:

- توقف عن التصرف كالجانحين.. تقليدك لهم لا يعني أنك قوي.. ثم الجو بارد.

وكعادته راح يفتح طيات كُمِّ قميصه لتُغطي ساعده الأيمن وجزءًا من كفه.

«واااو.. الجو يزدادُ برودة حقًّا».

ردَّ فارس عليه، وهو يمنحه ذراعه الأخرى بوقاحة ليُرخي له طياتها هيَ الأخرى وسط ذهول مايا وصمتها..

هل ما يحدث أمامها صحيح بأيِّ وجه من الأوجه؟! لماذا هو قلق من إصابته بالبرد حتى؟!

«لن تُخمن!». قال فارس فجأة بسعادة، فرفع نادر عينيه نحوه: «ماذا؟».

- مايا أخبرتني أن لديَّ أختين توءمتين.
- أنت تمزح! مثل أولئك البغيضين؟
- كلا.. ليستا قبيحتين.

وضحك وهو يتذكر طارق وثامر ثم أضاف:

- ما زالتا صغيرتين في الرابعة فقط.
- إذًا ستكون أنت الأخ الوحيد الذكر في عائلتك.
- نعم.. هل هذا سيئ؟
- يعتمد.. إن كانتا شبيهتين بالمسخ فستحصل على الكثير من وجع الرأس.

لم يفهم فارس ما يعنيه، ولم يُتعب نفسه بالسؤال، وتابع سكب كل ما أخبرته به مايا في رأس نادر دون تردد:

- مايا أصبحت مُحامية شهيرة جدًّا.. لقد كسبت الكثير من المال وحدها.. ووالدي راكان خسر بعض الوزن وأمي انضمت إلى مسابقة في الطهي و...

طوال حديثه كان نادر يومئ له برأسه مرة، ويرمي له ببعض الكلمات المُنبهرة في مرات أخرى وسط هدوء مايا الغريب، والتي جرّت قدميها لتجلس على مقعد قريب مراقبةً للاثنين، وكأنها قد نقت عقلها تمامًا من أيِّ شوائب أو أحكام مُسبقة ليستقبل عقلها فرضيات جديدة.

وفجأة قال فارس بدهشة:

- ولكن، ما الذي حدث لي؟! أنا لا أذكر شيئًا.

ردَّ نادر وهو يكبح الضيق من أن يعلو وجهه:

- شيء بسيط.. لا تقلق.

ثم انتبه فجأة أن الحديث قد اقتصر عليه هو وفارس فقط، ومن المستحيل أن تهدأ تلك الشيطانة! التفت نحوها فوجدها تجلس بصمت ثم ابتسمت له.

تراجع إلى الخلف بحذر، وعسليتاه تنظران إلى حذائها هل ستدوس على قدمه مرة أخرى؟

لكنها حافظت على ابتسامتها الغامضة، جاعلة بينها وبين الاثنين مسافة، وصدح صوت فارس فجأة قائلًا بانزعاج كبير:

- هذا النعاس غريب!

كان بالكاد يحافظ على استقامة جسده من فرط التعب والخمول الذي داهمه، فقال نادر برفق:

- هو ناتج عما أصابك قبل قليل، كما أنك لم تنم جيدًا منذ الأمس، وليس من الجيد مقاومتك له.

نبرته الحازمة جعلت فارس يُدرك أنه لا أمل له في الاختيار، فنظر نحو مايا هاتفًا بحماس:

- مايا.. هل ننام الآن حقًّا؟

ابتسمت له وهيَ ترى تعبه: «نعم، ولمَ لا؟!». فاهتز حاجبا نادر الذي أدرك من سؤال فارس أنهما كانا من قبل يخدعانه بنومهما.

عادت شرارة البغضاء للاشتعال بينهما، ولم تتردد مايا في إخراجها بتذمرها:

- ولكن كيف لي أن أنام في حجرة دون باب وهناك رجل غريب يتجول في الشقة نفسها؟!

ورغم أن ما قالته منطقي للغاية، لكن نادر لم يستطع كبح نفسه عن معاندتها:

- يمكنك أن تستأجري شقة أخرى لنفسك.. فهذه لي أنا.

هي تعلم وهو يعلم أن بقاءها في هذه الشقة هو الخيَار الوحيد المتاح لها لأن فارس قد اختاره ولن يخرج معها لو خرجت إلى شقة أخرى، لكنها لم تستطع كبح دهشتها؛ لماذا الخاطف يعرض عليها مثل هذا العرض الغريب وكأنه لم يعد مُهتمًّا بتضييق الخناق عليها أو حبسها؟!

وأُسقط في يد الاثنين عندما تحدث فارس فجأة بلهجةٍ جادة:

- مايا.. يُمكنه أن ينام في الشقة نفسها معنا.. أنا الآن رجل ومحرم لكِ.

فتح الاثنان شفاههما بصدمة، كلاهما أراد معارضته، والقول إنه ما زال طفلًا، ولكن من منهما سيجرؤ على كسر قلبه؟! وتمَّ له ما أراد، فقد انتقل هو ومايا إلى تلك الحجرة، بينما انشغل نادر بإصلاح المسمار الذي أتلفه سابقًا وكم كره نفسه لزيادة نفسه أعباء دون داعٍ.

وبالفعل خلال ساعتين كان فارس يغطُّ في نوم عميق، فنهضت مايا من استلقائها على السرير الآخر وجلست على طرف سريره ثم نظرت إلى الباب المغلق من الداخل، أخيرًا سمح لها مُختَطِفها ببعض الخصوصية مع أخيها.

سحبت اللحاف لتغطي به جسد فارس، ثم ضمت ركبتيها إلى صدرها بذراعيها، واتكأت بذقنها على قمتها، تنظر إليه بحب كبير، وقد أحاط شعرها الفاحم المتموج بجانبي وجهها الأبيض، وارتمت أطرافه لتلامس الفراش من خلفها.

مدت كفها لتُبعد خصلات متمردة عن جبينه، هِيَ في حلم جميل لا يُعكره إلا هذا الرجل الغريب في الخارج..

تأملته، وتأملته، ثم امتلأت عيناها فجأة بالدموع حزنًا وأسفًا على ما قاساه بمفرده لأكثر من تسع سنوات، تقوست شفتاها وانهمرت دموعها أنهارًا مُغرقة وجهها..

بكت، وبكت، وبكت، حتى لم يعد قلبها يقوَى على البكاء أكثر وجفت عيناها.

«نم قرير العين.. فلن يمسَّك سوء بعد الآن بإذن الله».

وعكست عيناها نظرةً قويةً يستحيل كسرها، ثم نظرت إلى الساعة فوجدتها تشير إلى الحادية عشرة مساءً. مسحت وجهها ثم تحركت نحو النافذه لتنظر إلى المساحة الخالية حول الفندق..

الرجل قد اختار موقعه بمنتهى الدقة فحتى لو أنها لوحت بذراعيها لمن في الخارج، أو أسقطت ورقة كرسالة كي يُنقذوها منه لم يكن لينتبه لها أحد، ولكن المُدهش في هذا كُلّه أنها لم تعد تفكر بالهرب!

عقدت حاجبيها الجميلين حتى كادا يلتحمان، وهِيَ تعود بنظرها إلى فارس، فبعد ما رأت العسليتين العفويتين والصادقتين بقلقها عليه خلال نوبة الصرع استلمت فارس قبل أن ينام بالعديد من الأسئلة، حتى المُحرج منها، وجميعها كانت إجابته لها بالنفي.

لم يستغل نادر سذاجته في عمل مشبوه، ولم يمسّ براءته بسوء، ولم يُسلمه إلى فاضل مقابل المكافأة التي أعلن عنها رغم حاجته إلى المال وآثر تسليمهُ لها هِيَ..

بعد مقابلة فارس لهذا الرجل تحسّنت حياته، ولولا أنه أخرجه من المستشفى لم تكن لتعلم أبدًا أنه حي.. بل في مقطع الفيديو شاهدت بنفسها كيف كاد نادر يقتل مُعذب أخيها ضربًا لولا سلاح كاظم المصوب إليه.

جميع الدلائل والحقائق تُشير إلى أنه جيد كما قال أخوها، ولكن، فقط، هناك سؤال واحد لم تستطع الجزم بإجابته: لماذا اختطفها؟!

حمل عقلها تخمينين له كجواب، والغريب أن كليهما أغبى من الآخر،

الأول اشمأز منه عقلها وقلبها، بينما الآخر رفضه عقلها، ولكن قلبها مال إليه.

«هو إما معتوه أو متهور مقامر؟!».

تمتمت وهي تبتسم الابتسامةُ ذاتها التي منحتها لنادر مُسبقًا، ثم سحبت من فوق كراس فارس قلم الرَّصاص لتستخدمه في لملمة شعرها الكثيف في قبة أعلى رأسها. وتحركت إلى الخارج.. نحو مُختَطِفها...

وفي صالة الجلوس، فوق الأريكة بالضبط كان نادر مُستلقيًا على ظهره، قد جفا عينيه المحدقتين بالسقف النوم، لم يكن سبب أرقه خوفه من هربها مجددًا، بل ذاك الفقد الموجع الذي هاجم قلبه فجأة بعد اختلائه بنفسه وتذكره لوالديه.

رفع ساعده ليُغطي عينيه، وعندئذ برز وجهها فجأة أمام عينيه فشهق ذُعرًا وهبَّ جالسًا ليُصدم بوقوفها إلى جوار أريكته.

«ماذا؟!».

سأل بحدة، وأنفه يهتز بتقزز؛ فما زالت ترتدي الملابس نفسها المتسخة ببقايا المشروب الغازي والصوص الحار.. هذه العائلة، هل جميعهم لا يستحمون؟!

قالت برزانة وهيَ تتحرك لتجلس أمام الطاولة المستديرة: «لنتفاوض».

رد بغلظة: «حول ماذا؟!».

- حول المال و... أمور أخرى!

ذكرها لـ (المال) كان كافيًا ليشاركها جديتها، فلقد اطمأن لنيتها، لذا يجب أن تستعجل بإعطائه مكافأته، ولكن الكلمات التي خرجت من

فمه هِيَ:

- ألستِ جريئة جدًّا؟ تخرجين للحديث مع رجل بمفردك؟ وفي منتصف الليل؟!

- هل تظن أنني أجلس الآن هنا دون أن أحتاط لذلك؟!

قولها جعله ينتبه لقلم الرصاص أعلى رأسها.. (سلاح أخيها من قبل)، كما وأن لباسها ذو جيوب كثيرة يُمكنها أن تُخبئ فيه الكثير والكثير، ومع ذلك قال:

- لا تثقي بحظكِ كثيرًا.

ونهض ليفاوضها إلا أنها سألت باستخفاف:

- تتحدث وكأنك ستؤذيني.. هل ستفعل؟

تغيرت ملامحه وسؤالها الجريء يصدمه فقال:

- نعم قد أفعل.. كما اختطفتك.

- أجل.. لا أُنكر وقاحتك وجُرأتك ومع ذلك فقد عضضتُ كفك إلى درجة أن خَلَّفَت عضتي أثرًا داميًا فيها، ودستُ قدمك مرتين ولم ترد لي ذلك بعنف مماثل!

أظلمت عسليتاه غيظًا، فيما وضعت ساقًا فوق الأخرى ثم أطلقت السؤال المحتبس في صدرها:

- لماذا اختطفتني؟!

وفي أقل من جزء من الثانية تخيل عقله ردة فعلها لو علمت أنه اختطفها لأجل أن يطمئن لنيتها فقط، وبالطبع لم يكن ليضع نفسه في

مثل هذا الموقف السخيف، فقال:

- لا أرانا نتفاوض حول المال.. هل تستمتعين بالحديث معي؟

أهتز حاجبها الرقيق، وبصعوبة حافظت على تماسك أعصابها، وهي تستدرجه ليعترف:

- عندما أُصيب أخي بالنوبة قلت: إن هذه العائلة لا تُجيد إلا إيذاءك!.. فهل ظننت أنني قد أوذي أخي مُتعمدة؟

احتل مقعدًا في مواجهتها دون أن يُجيب، فيما تابعت بذكاء:

- لقد ظننت أيضًا أنني قد أُهدده بإرجاعه إلى فاضل أو إلى المستشفى الذي تأذى فيه!

للحق هِيَ تستحق اعتذارًا منه على سوء فهمه لها، لقد اكتشف خطأه، ولكن أن يعترف بفمه! ذلك هو المستحيل بعينه، سيقطع لسانه قبل أن ينطق بذلك..

وبدلًا من ذلك وجد نفسه يقول:

- ألم تؤذيه؟! تلك النوبة لم تحدث له إلا بعد ما التقى بكِ!

ارتخت ملامحها، وهِيَ تتذكر سقوطه للخلف واهتزاز جسده، وكلا!، لن تسمح له أن يصرف بالها عن الحقائق، فقالت:

- أنت السبب.. لقد فعلت ما فعلت لأنني أردتُ إنقاذه منك.

ورصدت عيناها اتساعًا في عينيه، وكأنه للتو انتبه أن جزءًا من الخطأ يقع عليه، ولكن سرعان ما سيْطر على انفعاله وراح يتأمل بصمت تلك الابتسامة المنتصرة التي تصارع بقوة لتعلو شفتيها، وهي تعود بظهرها

للخلف، ثم بدأت مفاوضتها أخيرًا قائلة بنبرة جادة:

- ما دمنا لا نُجيد إلا إيذاءه فما الذي تُجيده أنت ونحن لا نُجيده؟!

نظر نحوها باستنكار، فحديثهما يُصبح أكثر غرابة، ولم تتطرق للمال أبدًا، فقال وهو يقف:

- ظننتُ الأمر جادًّا.. غادري أريدُ أن أنام.

- حمايته والعناية به مثلًا!

أجابت بدلًا عنه فتفاجأت بتصلب كتفيه من الخلف مما جعل شكها يزداد يقينًا فأردفت بسرعة:

- أُريدك أن تعلمني ما تُجيده كي أُجيده أنا أيضًا.

اهتز حاجباه بصدمة لجُرأتها على الطلب منه بعد ما عانت من اختطافه لها، فأعاد بصره المتسع نحوها ليُصدم أكثر من عينيها الجادتين، فقال ساخرًا:

- هل أُصبتِ بمتلازمة ستوكهولم؟

تصاعد حرج كبير إلى وجهها، وصاحت:

- أنا جادة.

- وأنا جاد.

ولوح بكفه نحو حجرتها، قائلًا بصرامة:

- هيا.. لا وقت لديَّ لكِ، ولا لمرضك!

- لقد تسببتُ بالأذى لأخي لأنني لم أعلم أن ما قلته قد يؤذيه،

ولكنك بمجرد رؤيتك له ينهار استطعت أن تُدرك أنه قد تعرض لضغطٍ ما.. لذا عليك مساعدتي.

- كونكِ غبية مُشكلتك.

- من الخير لك أن تُعلمني العنايةَ به بطيب نفس، وإلا فسأُجبرك!

نطقتها بعناد وتحدٍّ جعلا شفتيه تنفرجان، وعينيه تصبحان أشدَّ اسوداداً، هيَ طائشة لأبعد حد. تحرك جانب فمه بابتسامة مستخفة:

- وكيف ستُجبرينني؟

- في الغد ستفهم.

قالت، ونهضت أمام عينيه الحذرتين لتعود إلى الحجرة، وابتسامة كبيرة تتراقص على شفتيها الورديتين..

كمحامية تعاملت مع مختلف الأنماط من المجرمين - بعضهم رافقته، والبعض الآخر استجوبته قبل الدفاع عنه لتتحقق إن كان مذنبًا أم بريئًا، والقسم الأكبر منهم دافعت عن الضحايا ضدهم - لكنها لم ترَ بينهم من هو أغبى منه..

لقد فضح نفسه بالكامل: يُعامل أخاها بلطف، ويُظهر قلقه الشديد عليه، ثم يعتريه شعور بالذنب حينما اتهمته بأنه السبب في إصابته بنوبة الصرع!

والأشدُّ طرافةً أنه في خضمِّ نقاشه معها قد أكّد لها أنه لم يتّخذه رهينةً على الإطلاق، بل كان يحميه ويعتني به على عكس عائلتها...

الآن يُمكنها أن تنام براحةٍ وهناء..

ولكنه لن يُفلت من انتقامها القاسي أبدًا، هِيَ لم تتسامح يومًا مع شخص تجرأ عليها، فكيف بمن اختطفها؟!

كما أنها ما زالت تعاني المرارة بعد ما فضَّلَهُ فارس عليها، لذا لن يهدأ لها بال حتى تكسر الرابط بين أخيها وبين رجل متهور ووقح مثله تجرأ عليها..

مكانتها في قلب فارس لن تسمح بأن يحتلها أحد غيرها..

شيعها نادر بنظرة عصبية حانقة وقد تملكه شعور غريب كما لو أنه عارٍ تمامًا أمامها..

«تبًّا!» همس بها، ولكن أليس هذا هو الأفضل؟ يُمكنه الآن تسليم فارس إليها، وإنهاء هذه المُعضلة التي أثقلت كتفيه لوقت طويل.

زفر بقوة، ولم يقلل من غضبه إلا رؤيته لها تجرّ حقيبتها الحمراء نحو الحجرة، ثم أغلقت الباب خلفها..

وبعد دقائق قليلة، خرجت تحمل في كفّيها ثلاثة أزواج من الأحذية المكسورة الكعب، فابتسم باستفزاز، ولكن.. لماذا يبدو وجهها شاحبًا؟ ألا يُفترض بها أن تكون غاضبة فقط؟!

رأى وجنتيها تضجّان حُمرةً، وعينيها ترتجفان، ثم صاحت أخيرًا:

- كيف تجرؤ على فتح حقيبتي؟!
- وما الذي سيمنعني من فتحها؟ أن أطلب الإذن منكِ مثلًا!
- كُنتُ أعلم أنك وغد مُحتل.. ولكن منحرف أيضًا!

كلمتها الأخيرة جعلت وجهه يشتعلُ غضبًا، وانتبه فجأة إلى ما تعنيه، فامتقع وجهه بالكامل، وأشاح بعينيه بعيدًا عنها بحرج:

- لم أقصد.

- يجب أن تموت.

- وكأن السوق ليس ممتلئًا بها ونراها فيه دائمًا!

- ليست الخاصة بي!

- قُلتُ لكِ لم أقصد.

قالها بتذمر، فمرّ إلى جوار رأسه حذاؤها المكسور، اتسعت عيناه ونظر نحوها بسخط، فوجدها ترفع الآخر ثم بأقصى قوتها رمته به، فانحنى بسرعة ليُحلق من فوق رأسه واصطدم بالحائط من خلفه محدثًا ضجيجًا عاليًا.

كان لا يزال في صدمته، غير مستوعب أنها ترميه بأحذيتها التي حطمها.

الحمقاء، لقد أخبرها أنه لم يقصد، فلماذا تُبالغ إلى هذا الحد؟ كيف له أن يتذكر أن النساء لهن أشياؤهن الخاصة؟! لم يكن لديه سوى والدة عجوز، فما الذي سيجعله يفكر في مثل هذه الأشياء عندما قرر فتح حقيبتها؟!

ومر الثالث جوار كتفه، فأظلم وجهه وأخذ جهاز التحكم بالتلفاز، ضربة واحدة في منتصف جبهتها ستُرقدها إلى الغد.

وكان حُسن الحظ إلى صفه فهي لا تُجيد التصويب كفارس فالأحذية جميعها تمر من حوله، لكنه بالتأكيد لن يُخطئ، وصوّب بدقة نحو رأسها.

«مايا.. ماذا يحدث؟!».

ظهر صوت فارس الناعس من خلفها بعد ما أزعجه الضجيج، فتحولت تلك الشرسة إلى مخلوق آخر تمامًا، وهي تُجيبه بلطف:

- فأر في الخارج حاولتُ قتله.

- حقًّا؟! سأساعدك..

- لا عليك.. لقد هرب.

ورمت نظرة حاقدة نحو نادر المتجمد بصدمة؛ هل شبهته بالفأر؟

ثم أغلقت الباب، بينما ظل جهاز التحكم معلّقًا لثانية وسط كفه المرفوعة، ثم لم يلبث أن قذفه صارخًا بثورة:

- لهذا أكره النساء.. إن انتصفنا لأنفسنا منهن فنحن المخطئون.. يبدأن بالضرب، وإن رددنا الضربة لهن فقد أسأنا إلى رجولتنا.. هنّ الضعيفات ونحن الأقوياء.. والبغيضات قادرات على قتل أُمةٍ بألسنتهـــ...

ثرثر كثيرًا شاتمًا لها وللنساء عامة، وكم تمنى لو صبر واختطف راكان بدلًا منها..

في الغد، سيُسلّم فارس إليها، وتُسلّمه المال، ثم سينهي جميع علاقاته بهذه العائلة... وللأبد.

****

- ١٢:٣٠ فجرًا -

لم يسلم شبرٌ واحد من أرض حقل التفاح من قدمي نواف وأكرم، اللذين تفحصاه بدقة كبيرة تضاهي دقتهما في نبش كوخ العجوزين، الذي أضحى رأسًا على عقب، ولكنهما لم يجدا أثرًا لا للخاطف، ولا للمُختطفة..

زلزل الخوف قلبيهما، وكلاهما متوجسٌ من قدوم صباح يحمل معه هول وبشاعة ليلة قضتها شابة جميلة كمايا برفقة شاب ذي سمعة قبيحة ومُرَوِّعة كنادر..

ولم يشارك أيّ منهما الآخر مخاوفه، وهما يسعيان باستماتة لحل هذه الأزمة قبل انتهاء الليلة، تمامًا كما سعى الآخران (سامي، وسعد) بدورهما في العاصمة.

وبعد ثلاث ساعات من البحث انهار نواف على الأريكة في كوخ العجوزين، يلتقط أنفاسه المتقطّعة ببطءٍ شديد، على حين بقي أكرم الذي استعار مسدسه يبحث بجدٍّ وحزم عن أثر لهما في الإصطبل المهجور بالخارج..

«أين؟ أين؟!».

ردد نواف بانفعال، وقدماه تعودان إلى حمله مجددًا ليبحث في تلك الحجرة الغريبة، التي غطّت كل زاوية من زواياها الأربعة شباك العنكبوت، وكأنها لم يسكنها أحدٌ ما منذ عقود.

قادته خطواته إلى منتصفها، فرأى الفوضى التي عمّت المكان: كتب الطب الساقطة، المقاعد المقلوبة، والملابس القديمة المكوّمة على جانب

السرير، وأخيرًا الخزانة الحديدية المفتوحة، والتي انتشر إلى جوارها العديد من الصناديق الصغيرة الفارغة، وكأنما هناك من تعمّد إفراغها، أو بالأصح نهب محتوياتها..

لم يكن هذا هو حال الحجرة سابقًا، عندما اقتحموا الكوخ فجرًا هو ومايا وأكرم للبحث عن فارس، فاضطر إلى كسر قفلها الصدئ لتفقد إن كان نادر يحتجز الفتى فيها.

قد كان الأثاث رغم الغبار الذي يغطيه منظمًا وفي موقعه الصحيح، أما الآن فبالإضافة إلى البعثرة التي طالت ما احتوته الحجرة يوجد الكثير من آثار الأقدام المطبوعة على أرضيتها، أحدها يعود بالتأكيد لشابة؛ فكعب حذائها النسائي الرفيع واضح، بينما الآخران قد يكونان لمراهقين، أحدهما أعرج فقد خلّف سحبه لقدمه الحافية أثرًا طويلًا على الأرضية المغبرة، أما الرابع فهو لشاب ينتعل حذاءً رسميًّا..

تلك التفاصيل الصغيرة لم يكن لينتبه نواف لها لولا الخبرة التي اكتسبها من عمله في سلك الشرطة، وكان ذلك كافيًا له ليتأكد من أن صاحب هذا الكوخ لديه الكثير غيرهما ممن يحملون ضغينة وحقدًا ضده، أو فضولًا على أحسن الظن..

****

-١٤-

(قبل ٢٨ عامًا)

أقبل صباح اليوم التالي سريعًا، سمعت ليلى زقزقة العصافير، فعلمت أنها أمضت ليلتها - التي سُرقت فيها حُليّها الذهبية - دون نوم.. أخرجت من حقيبتها ما تبقى لها من المال فلم تجد إلا ما سيُمكنها من العيش لعدة أيام..

صلت الفجر ثم أخرجت ما تبدأ به صباحها، بضع تمرات، وطُرق بابها فجأة.. اعترتها الدهشة فعائلة أخيها لم تطرق بابها يومًا؛ قد جعلوا من حجرتها امتدادًا لمنزلهم يستبيحون الدخول إليه دون أذن.

أنهت تمرتها السابعة، ثم أسرعت لتفتح الباب، وكم كان وقع المفاجأة على نفسها كبيرًا حينما رأت أخت زوجها المتوفى (مروة)..

بادرتها بدموع، جادت عينا مروة بمثلها، وكلتاهما تُعانق الأخرى بحرارة شوقٍ غذاها فراق عامٍ بأكمله..

كانت مروة في الثالثةِ عشرة من عمرها حين التقت ليلى أول مرة، لم تكن ليلى صديقة فحسب، بل أختًا تشاركا المنزل نفسه خمس سنوات، ثم تزوجت مروة في الثامنة عشرة من عمرها، ولم تنقطع عن منزل والديها الذي سكنته ليلى زوجة أخيها البكر..

سمعت ليلى صوت رجال في الخارج، يمشون بصحبة أخيها (والد

سمير)، وهو يتلقاهم بغاية الترحيب، فتكلمت مروة:

- إنه أخي شهاب وابنه سلمان قد جاءا ليناقشاك في نصيبك بعد أن قسم الشيخ ميراث زوجك.. أرادا السفر وحدهما ولقاءك، ولكنني ما أن علمت حتى جفا النوم عينيّ شوقًا إليكِ فاستأذنت من زوجي ليسمح لي بأن أراكِ.

كانت تتحدث فيما تولّت عيناها تفحُّص وجه ليلى فميّزت الفرق بين ليلى قديمًا والآن.. نحولها، وجهها الشاحب، والهالات أسفل عينيها لطول بكائها.. أين هي ليلى المُشرقة؟

ففترت في حديثها المتحمس وقررت منح ليلى الوقت كلَّهُ للحديث بدلًا منها ولم تكتُمها ليلى سرَّها، بل بثته كلَّهُ عندها كما لو أنها بالون احتاج إلى رأس دبوس لينفجر مفرغًا ما فيه. امتزج صوتها ببكائها وألمها فأنصتت مروة بكل ما فيها لقصتها..

ذلك الحديث أخذ منها ساعة انتهى بوجوم مروة وصدمتها الذاهلة.. تلك المرأة الأصيلة المُنعمة في بيت أخيها قد مرت بكل هذا وأُذلت!

وكان قرارها حاسمًا لم تدع لليلى فرصةً فيه:

- سترحلين معنا.

- أنا غريبة عنكم، لا محرم لي بينكم.

- لستِ غريبة.. أنتِ عمة أبنائي وزوجة خالهم المتوفى.

- لا يصح.. أين سأسكن؟

- بيت والدي رحمه الله مفتوح لكِ.. أُمي قد ذوت شوقًا إليكِ.

- سأُعيق زيارة أبنائها لها وسيكثر الحديث عني وعنهم بالسوء.
- أتظنينني هنا لأنني فقط اشتقتُ إليكِ.. أنا مُرسلة من الله لكِ.. ألم تدعي بالفرج؟
- بلى دعوت.
- فلا تضيعي فرصة قد منحها الله لكِ.. فوالله إلى الآن لا أصدق أن زوجي قد وافق على سفري، وما زلت مندهشة من موافقة أخي على أخذي معه رغم سوء الطريق ومشقته.. أراد الله بكِ خيرًا بأن يُخرجك من هذا الظلم ولا ينبغي لكِ أن تبقي في مكانٍ تتأذين فيه وقد طرق الفرج الجميل بابك وإلا فستكونين أنتِ الظالمة لنفسك.. ليلى، أنتِ امرأة عاقلة، تُدرك أنها ليست راحلة إلى غرباء، بل إلى أهلٍ من بلدك نفسه، تعرفين فيهم من الخير ومخافة الله ما أنتِ أدرى به..
- وأترك يا مروة منزل أخي؟

ربتت على كتفها:

- ليلى، إن محرم المرأة أيًّا كان، والدها، أخاها، زوجها هو من يُحسن إليها ويصونها ويبرُّ بها ويحميها، ولكنْ أخوك خان الأمانة، سرق مالك باسم أنه الولي عليكِ، وأغلق باب منزله عليكِ باسم الشرف.. فليرحمنا الله، أخوكِ قد أنزل أمر الله - الذي وضعه رحمة بالمرأة - في غير محلّه، واستغله للظلم والأذى بدلًا من النفع والرعاية، كم من الغضب سيحلُّ به..
- لكنه سيصنع مشكلة لو أبلغته برغبتي في الرحيل معكم.

- دعي أمره للرجال..

ارتدت حجابها، ونادت أخاها شهاب من خلف الباب فلبّى نداءها، ولم تكن إلا دقائق عشر ففهم الوقائع ونصب المكائد..

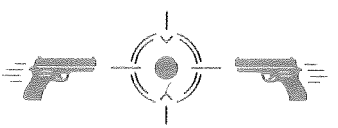
عاد إلى والد سمير ليُحدثه عن حاجتهم لأخته لتوقع أوراق نصيبها من الميراث ولأنه محرمها الوحيد فهو مُرحب به ليرافقهم في طريق السفر وقد كان لهم ما أرادوا..

صحبها طمعًا في مالها، وهناك اصطف عليه الرجال وانتُزعت منه أخته رغمًا عنه، والتي بكت عند رحيله، ليس عليه، ولكن على طفله:

- قد أنقذني الله من وحشين لم يردعهما مخافة الله.. ولكن ذلك الطفل من سينقذه منهما؟!

بكت براءته الملوثة وبؤسه القادم مع والدين هما الشيطان بعينه.

****



الحبُّ سِحال

«اليوم الرابع من إيقاف أدوية اضطراب متلازمة فريجولي»

«الغاية لا تُبرر الوسيلة»



-١٥-

- ٦ صباحًا - ١٦ أكتوبر

حركت الرياح الداخلة من النافذة المفتوحة خصلات شعر نادر الكستنائية، وبعثت ببرودة قارسة انتصبت لها شعيرات جسده بالكامل، فأزاح قناع العينين لينظر إلى الخيوط الأولى لشروق شمس يوم جديد.

«حلّت النهاية أخيرًا».

قال براحة وهو يُلقي نظرة على باب حجرته المُغلق من الداخل.. لماذا أغلقه؟ لأنه يثق أن فارس سيكون في أمان مع تلك المرأة، ولكن ليس هو، فما أدراه أنها لن تطعنه وهو نائم!

نهض ليستحم ثم ارتدى بنطالًا أزرق واسعًا مكويًّا بعناية يعلوه سترة من الصوف الرقيق بجيوب أمامية بلون الحليب أدخل فيها رأسه بالقوة ثم أدى صلاة الفجر بعد أن غلبه نوم عميق لم يحظَ بمثله منذ وفاة والديه.

استخرج من حقيبته ملفًّا ضخمًا، فقد كان جادًّا جدًّا في ما عزم عليه. اتجه إلى الباب ليفتحه وعلى وجهه تعبيرُ ضَجَرٍ فلا بد من أن عليه الانتظار لبعض الوقت قبل أن تفيق مايا وفارس، لكنه لم يكد يضع أولى خطواته خارج حجرته حتى ارتد فجأة إلى الخلف مستنكرًا ما تراه عيناه...

تلك الطاولة المُستديرة الخاصة بالمفاوضات ارتصَّ عليها عدد كبير من الأطعمة وجميعها (بُرقر)!

١٠٩

تابعت مايا تجولها حولها بتنورة زرقاء واسعة وطويلة يعلوها سترة باللون العاجي غطت ياقتها نصف عُنقها، بينما لم يظهر من أكمامها الواسعة والطويلة إلا نصف كفيها، وقد انتعلت نعالاً خفيفة.

استمرت بوضع ما تبقى من (البُرقر) فوق الطاولة وكأنها في منزلها، دون أن يعلو وجهها أيّ خوف من خاطفها الذي شحب وجهه للا مبالاتها؛ فهو لم يخبرها بعد لماذا اختطفها، يُفترض بها أن تخاف منه.. بُؤسًا.. فلتتظاهر على الأقل!

ولكنها وضعت قبضتها أسفل ذقنها متفحصة صنيعها ثم ابتسمت وصاحت:

- فارس يمكنك أن تخرج.

وعلى الفور فُتح باب الحجرة ثم خرج منها فارس يتوهّج وجهه حماسة، قد ارتدى طقمًا أسود اللون مكونًا من بنطال وسترة ذات قبعة انسدلت للخلف وتأرجحت أربطتها البيضاء أمام صدره، تَناسَبَ لونها مع خصلات شعره الفاحمة السواد التي انسدل بعضها فوق جبينه الأبيض.

سألها بلهفة:

- أنتهيتِ؟

- أجل.

وابتعدت عن الطاولة فاتسع فمه بفرحة دفعتها لتُضيف بفخر:

- أخبرتُك ستُعجبك المُفاجأة.

تنقلت عيناه بينها، كانت بأحجام وأصناف وألوان متعددة، فقال بلهفة:

- لم يكن أبي يسمح سوى بما يُطبخ في المنزل؟

- لو استطعت أن أجلب أكثر لفعلت.. ولكن هذا الفندق العفن لم يوفر غير هذه!

- سآكلها كُلها.

صاح وهو يجلس أمام الطاولة فيما جلست مايا مُراقبة له، على حين عاد نادر بخطواته إلى حجرته ليتحقق إن كانت قد سرقت هاتفها.. ولكن هاتفه، وهاتف فارس، وهاتفها أيضًا، جميعُها معه!

كيف جلبت الطعام إذًا؟!

مشى بخطوات هادئة نحو باب الشقة فوجده مُغلقًا. كان مُتيقنًا تمامًا أنه لم يُكرر خطأ الأمس بضغط أرقام القفل الرقمي أمام عينيها، بل من شدة حرصه قد غيّره إلى جديد للمرة الثالثة قبل نومه، فكيف علمت بالجديد إذًا؟!

«لقد فتحته ونزلت وبعد أن اشتريت عدتُ مجددًا».

سمعها من خلفه فعاد بنظراته المتسعة نحوها، وظل مدهوشًا للحظة قبل أن يسألها:

- كيف فتحته؟!

- ولماذا قد أُخبرك؟

تلفَّت حوله بحذر، لا بد من أنها قد استخدمت الهاتف الخاص بالفندق في مكالمة الرجلين كي يأتيا وينقذاها منه، فحتى إن وثقت بأنه لا ينوي إيذاء أخيها فهذا لا ينفي حقيقة أنه قد اختطفها، ولكن، وبغرابة، الشقة لا يوجد فيها غيرهم هم الثلاثة، فقال باستنكار:

- لماذا لم يأتِ الرجلان؟!

رأى شفتيها المنزويتين بغيظ، فقال بصدمة: «لا تحفظين رقميهما؟!».

رمقته بنظرة ساخطه نبأته بصدق استنتاجه فحرك رأسه ببطء:

- غبية!

- لستُ غبية! لقد جئتُ من لندن منذ أيامٍ فقط، ولا أعرف أحدًا في هذا المكان، وهاتفي معك ولا أحفظ إلا رقم فاضـ..

وصمتت بسرعة فأدرك على الفور أنها لا تُريد الاتصال بفاضل لأنها صدقت ما قاله لها عنه.. ولكن كان يُمكنها الاتصال بالشرطة بدلًا من فاضل، وتبادر إلى ذهنه خاطر مُقلق جعله يسألها بوجل:

- لا تُخبريني أن راكان قد منح فاضل الوصاية الدائمة عليه؟

إلقاؤه للسؤال بهذا القدر من الصراحة جعل وجهها يشحب بالكامل، فيما تصاعد إلى وجه نادر جدية شديدة، وسأل بقلق:

- ألا تُلغى بوفاته المُزيفة؟

ملأ الإرهاق وجهها وكأنها لم تنم بالأمس، ثم أجابت:

- راكان ليس هنا ليُلغيها، كما أن بسام لم يكن ليُسجل ثروته إلا باسم فارس يتبعه اسم والدي.

- إذًا تظنين أن فاضل يملك هوية جديدة له باسم عائلتكم! ولكن كيف سيُغير نسبه دون إثبات القرابة؟

- هذا ما أحتاج إلى معرفته.

ردّت بغلظة بعد أن عكّر مزاج حفلتها الصغيرة مع أخيها.

«لو ارتديتما في الأعلى درجة اللون نفسها لكان ذلك أجمل».

قال فارس فجأة قاطعًا ذاك الجو المشحون، فنظر الاثنان نحو بعضهما بعضًا باستهجان شديد، لكن فارس لم يلبث أن استدرك بحماسة ولهفة:

- كلا.. المرةَ القادمة لا تتفقا من دوني، أنا أيضًا أُريد أن ألبس اللون نفسه معكما.

احمرت وجنتاها بالكامل فيما تصاعد غضب كبير إلى وجه نادر وهما ينتبهان لتطابق الألوان غير المقصود. قال نادر بتقزز:

- لن ألبس هذا الطقم مجددًا.. هو لك بالكامل.

- وأنا سأُحرقه.

ردت هِيَ الأخرى بامتعاض تام.

تصعيد هذه الملاحظة التافهة بصورة غير مبررة أكَّدَ لهما أن حجم النفور في قلب كل منهما نحو الآخر أعظم من أن يُجاملا قائلها.

«حقًّا! ستُعطيني؟».

صاح فارس وعيناه مُسلطتان بحماس على سُترة نادر الثمينة، ثم حملت كفه بُرقر مد به نحوه بامتنان شديد، فأسرعت مايا تمنعه بانفعال:

- كلا.. هو ليس جائعًا.. إنها مائدة عائلية فقط.

- لن يُفسدها أخذي لاثنين.

وأخذه من يد فارس ثم جلس إلى جواره يأكل بجرأة. فاحتقن وجهها، ونخرت من فتحتي أنفها إلا أنه تجاهلها تمامًا، وهو يسحب

مشروبًا ليتابع إفطاره وسط فرحة فارس وحديثه الماتع معه ولم تجرؤ على أن تكون هي السبب في تعكير سعادته.

وبمجرد إنهائهم للإفطار أخرج نادر هاتف فارس، ثم منحه له، فاتسعت عينا مايا دهشةً، وخلال دقائق قليلة كان فارس قد انشغل بهاتفه كما توقع نادر تمامًا، وعندئذ وضع الملف أمام مايا على الطاولة، ثم جلس في مواجهتها وقد عكست عسليتاه جدية شديدة:

- هذا الملف يحوي أسماء جميع الأطباء الذين تولوا علاجه في التسع السنوات الماضية.

كسا عينيها اهتمام مماثل لاهتمامه وهي تأخذه منه، ثم راحت تقلب صفحاته ليصدمها عددهم الكبير، ولكن لا أحد منهم قد اهتم بما تعرض له أخوها من تعذيب على يد المجرم، ولم يُبلّغ أحدهم الشرطة عن غرابة ما يحدث له.. فسألته بهدوء:

- لماذا تمنحهُ لي؟

- ألستِ تسعين لإنقاذ أخيكِ والعناية به كما تقولين؟! قد يشهد أحدهم مع فاضل أنه تلقى رعاية جيدة.

- وما شأنُكَ أنت؟

سألت مُجددًا ووجهها يعكس غضبها، فعقد حاجبيه مُستغربًا تعبيرها، ثم سحبه قائلًا:

- لا تُريدينه.. لا بأس.. سأرميه في القمامـة..

بتر حديثه بدهشة عندما سحبته من كفيه بقوة وقد غطى عينيها ذعر كبير، فابتسم مستفزًّا لها:

- ما دُمتِ تريدينه! فلِمَ هذا التكبر؟!

اهتز حاجباها بحنق ثم سألت:

- لماذا تكبدت عناء نسخه وإحضاره لي؟

- ولماذا تكليف نفسي بصنع نسخة منه يُقلقك؟

- ألا تريد عليه مالًا؟!

- فقط يكفيني مال المُكافأة.

تأملته، هو الوحيد من بين جميع الأسماء في هذا الملف من بادر بإخراج فارس وأوصله إليها، بل وقدّم لها الأدلة أيضًا! سألته فجأة بلهفة:

- والفيديو! كم ثمنه؟

لكنه ظل على هدوئه وهو يعود بظهره للخلف مجيبًا:

- لا بأس.. حين تُسلمينني مال المكافأة سأعطيه لك مع فارس.

- عجبًا.. ألم تقل إن ثمنه غالٍ؟

- لماذا تُطيلين النقاش؟

- أُريدُ أن أعلم.. ما هو ثمنه؟

- خذيه وانتهى الأمر.

رمته بنظرة مُرتعبة لم تلبث أن تنهدت بعدها براحة، فاهتز أحد حاجبيه وسألها بانزعاج:

- ما الذي فكرتِ فيه؟!

- أن تطلب ثمن الأدلة وإطلاق سراحي أن أوافق على الزواج منك.

أجابته بصراحة والدماء تعود إلى وجهها؛ إذًا تخمينها الأول الذي اشمأز منه عقلها وقلبها حول السبب في اختطافه لها لم يكن صحيحًا..

على حين عض نادر شفته السفلى ثم قال بغيظ:

- توقفي عن تشويه صورة الزواج الجميلة.. لو أردتُ الزواج فلن تكوني أنتِ بالتأكيد.

- هذا مُريح أكثر.

وتنهدت مُجددًا وهِيَ تضع الملف على الطاولة لتتصفحه بعد أن أشعلت في أعماقه نيران غيظ أشد؛ هو يُقدّم لها الأدلة على طبق من ذهب وهِيَ لا تفكر إلا برفضه، الغبية هو لم يطلب يدها أصلًا!

وعلى الأريكة التي انبطح فارس فوقها، وأصابعه تلمس شاشة هاتفه بالتتابع ليفوز في لعبة ما ويتجاوز إحدى مراحلها، استرق بغتة نظرة مليئة بالتأثر نحو الاثنين اللذين يتحدثان معًا بانسجام، ثم ملأت الراحةُ قلبه بأن مشكلة الأمس قد انتهت ولم تعد مايا تفكر برفض نادر أو الهرب منه إلى مكان آخر..

وحين عاد ليتابع لعبته شعر فجأة بألم مفاجئ يعود إلى جانب بطنه حيث تلقى ضربة التوءمين فانحنى برأسه نحو الأسفل مطبقًا شفتيه بقوة؛ فهناك مُتع قادمة برفقة نادر ومايا تستحق صبره وجَلَدَه..

وعلى الجانب الآخر قالت مايا بغتة وما زالت عيناها على أوراق الملف:

- هل أنت أحمق؟

عقد نادر حاجبيه بغضب فيما رفعت رأسها مُردفة:

- حينما آذيتَ الفتى الذي شتمك أنت وعائلتك، لماذا لم تحل القضية بالمال بدلًا من دخول السجن؟

سؤالها جعل عينيه تتسعان، وسألها باندفاع:

- هل كان من الممكن حل القضية بالمال؟!

- بالتأكيد.. ولكن يبدو أن والِدَيكَ قد كلفا محامِيًا غبيًّا لقضيتك.

ضاقت عيناه وهو يحاول التذكر.. من كان مُحاميه وقتها؟!

- بل بدلًا من إيذائه بالشوكة كان يُمكنك أن ترفع قضية عليه لاتهامه لك ولوالدك بالسوء وتسلب أموال عائلته بالكامل وتجعله فقيرًا.

ثم تنهدت بتعب:

- أنت مُغفل بالكامل.

أغمض عينيه بحنق، ثم لم يلبث أن حولها بعصبية نحو فارس المنشغل باللعب.. فالمشاكس قد سكب كل ما في رأسه إلى رأسها دفعةً واحدة دون أن يُبقي قطرة واحدة تبقى سرهما المشترك.

ثم وجَّه نظره نحو مايا مجددًا قائلًا بحدة:

- هل تظنين أنكِ في لندن؟

نظرت نحوه بغير فهم، فاستطرد بغلظة:

- مثل هذه الشائعات لا تُمحى.. يميل الناس لتصديق السيئ منها، ولا يُمكن ردعهم إلا برد الإهانة لهم كأن يُجلد قائلها تطبيقًا لشرع الله أمام الناس، ولكن الشرع لا يُطبق في هذا البلد... ثم كيف

لفتًى صغير مثلي في السابعة عشرة من عمره أن يمتلك فهمًا بكيفية أخذ حقه برفع قضيـ..

قاطعته بصدمة:

- كُنتَ في السابعة عشرة؟!

انتبه فجأة لغبائه.. لماذا هو يتبادل الحديث معها حول نفسه؟! وتنبَّا.. كان مدار حوارهما حول فارس فقط.. وهنا أدرك أن حماقتها مُعدية، فقال بسخط:

- شؤوني الخاصة.. لا شأن لكِ بها.

رمقته بطرفي عينيها بتكبر، وهي تضع ساقًا فوق أخرى.. نظرتها، هدوؤها، صمتها، ثقتها، لم تُعجبه، وكأنما هِيَ من تُمسك بزمام الأمور لا هو!

وعندها أدرك أن ساعة التخلص منها ومن هذه المعضلة بالكامل قد حانت، فمنحها مُذَكِّرة صغيرة قد دوَّنها من قبل بخط يده، ثم قال:

- في هذه المُذَكِّرة ستجدين جميع الأدوية التي استخدمتها لعلاجه، أسماءها ومقدار الجرعات التي تلقاها، كما أنني دوّنت بعض ما يجب أن تتجنبيه حتى لا تتفاقم حالته، فمثلًا هو يُعاني من فوبيا الأماكن المُغلقة، لكنه لا يعلم بعد، لذا من الأفضل ألا يُغلق عليه باب إلا ومعه شخص آخر يرافقه أو إبقاؤه مفتوحًا ولا بأس لو أغلقه هو بنفسه.. وأيضًا لديه خلل في حسِّ الاتجاهات لطول سجنه، لكن هذا كله يُعدُّ ثانويًّا مقارنة بحاجته العاجلة لأخذ فحص دقيق لقدرة كليتيه على تحمل الأدوية واختيار المناسب

منها، والأسوأ أنه من المحتمل قد يحتاج إلى علاج عضوي لهما لو كان تضررهما شديدًا لذا في طريق سفرك من الضروري التوقف عند أي مستشفًى لإجراء فحص له فهـ..

استمر في التكلم بالكثير والكثير بينما عيناها تتسعان، هو مُلِمّ بأدق التفاصيل عن أخيها، قد تجشَّم عناء كتابة هذه المُذكرة حماية له من أن يتأذى مرة أخرى وهو بعيد عنه، ثم منحها إياها بالمجان. هو قد أصبح كالكتاب المفتوح أمامها بمجرد عودتها صاغرة إلى الشقة.. فهل السبب هو تيقُّنه من محبَّتها لفارس؟!

- أنتَ! بدأتُ أُصدق تفكيري السخيف بأنك لم تختطفني لأجل الزواج مني.. بل فقط لتتيقن من صدق نيتي تجاه أخي وأنني لن أوذيه كفاضل؟!

أغمض عينيه تصبرًا ونخر بقوة، لقد لَمَّحت بالأمس إلى هذا، لكنه نجح في صرف تفكيرها، أما الآن فقد ألقته في وجهه بكل وقاحة وصراحة...

هو لن يعترف.. لن يعترف.. لن يعترف...

«أنت تمزح؟!».

بفم متسع نطقتها والصدمة تشلُّ كيانها فوجهه المُحتقن كشف ما يُخبئه حتى لو لم ينطق.

- ألم تستمعِي لما قلته حول مرض أخيكِ؟

- لا.

- أنتن النساء ألا يمكننا أن نسير في خط واحد دون تفرع كالأخطبوط؟!

- ليس هناك حاجة لأسمعك.

اتسعت عيناه بينما عكست عيناها جدية وإصرارًا أشدَّ من الأمس، وهي تستطرد:

- أخبرتك أن تُعلمني بنفسك ما تُجيده كي أتجنب أن أوذيه مجددًا.

- وها أنا ذا أُعلمك!

- أريد رؤيته عمليًّا.

- أنتِ.. ما الذي تسعين إليه؟!

- أوصلني وأخي إلى العاصمة.

ارتد نادر للخلف بصدمة، فيما هزت كتفيها وكأنها تفاوضه:

- نجاحك بالتنقل به من العاصمة إلى قرية السنابل لم يكن مصادفة، لا بد وأن لديك طريقة لذا أريد استخدامها.

- قولي تريدين استغلالي.

- كلا.. الاستفادةَ منك فلديّ مُسنان غبيان لا ينفعان لشيء وأظنهما الآن يبحثان عني أبعد ما يكون عن الفندق، بل وتركا لك الحقيبة ليكتمل المشهد الغبي.

ضاقت عيناه بصمت فيما تابعت:

- انقلنا إلى العاصمة وسأجعل المليونين أربعة.

ارتفع حاجباه لاستهتارها بالمال:

- هل تظنين أنه يمكنك شراء أيّ شيء بالمال؟

- أنا لا أظنُّ شيئًا.. أنا أقدم عرضي وأنت حر بالاختيار.

احتدت نظراته.. أهكذا المحامون يفاوضون؟!

ولم يأخذ منه التفكير وقتًا طويلًا فأخرج محفظته ثم منحها هوية فارس المزورة:

- يمكنك التنقل به عن طريقها واستقلا سيارة بدلًا من الطائرة.

عكست عيناها مفاجأتها الشديدة، لقد صنع حتى هوية لأخيها، لقد أخذ إخراجه على محمل الجد وخطط له ببراعه كبيرة.. (خبير مثله بالطرق غير القانونية) يجب أن لا تتركه، ستستغله بالكامل.

- أنت مُتأكد من إعطائها لي؟! مليونان آخران صفقة رابحة من الغباء تفويتها.

زفر بقوة، عليها أن تكون ممتنة لما فعله لأخيها، لكنها لا تكف عن إثارة المشكلات، وفجأة انحنت نحوه هامسة:

- لماذا تبدو وكأنك تحاول التخلص من أخي؟

بهتت عيناه صدمة ثم حولهما نحو فارس قلقًا من سماعهِ لها، ولكن صوت ما يشاهده في هاتفه كان يغطي على صوتها معًا، ثم عاد بنظره نحوها فأردفت بجرأة:

- الجندي الذي يفر من معركة يتخلص من كل ما يثقله كسيفه ودرعه، وأنت دون أن أطلب منك أجدك تُسلمني كل ما يخصه بسهولة شديدة وترفض مقابلًا له إلى درجة أنك جعلتني أشعر وكأنك تريد الفرار منه!

- لم تحتمله عائلته فلمَ عليَّ احتماله؟

تجمدت عيناها وانفرجت شفتاها فيما ابتسم وهو يسترق بطرفي عينيه نظرة إلى فارس حرصًا ألا يسمعه ثم تابع:

- أنتم كالفقاعة إن لم أُدخله فيها سريعًا وأرحل فستنفجر في أيِّ ثانية.

- لستُ فقاعة!

- بل فقاعة فارغة من الداخل.. تلاعبتم بحياته ونسبتموه إلى غير والده.. هو لا يعلم حتى أن والده الحقيقي أمجد وليس راكان.

- فعلنا ذلك لحمايته.

ردَّت بنبره مُرتجفة وعقلها يستنكر معرفته بهذا الكم من المعلومات حول عائلتها، حتى فارس نفسه لا يعلم ذلك.

- وهل نجحتم بحمايته؟

ارتدت للخلف وازدردت لعابها فيما تابع بغلظة:

- تسع سنوات يتعذب.. فهل نجحتِ أنتِ كعائلة له في حمايته؟!

اشتدت أصابعها في قبضة حتى ابيضت، وغزا قلبها الألم، وبقوة صمدت لتردَّ مُبررة:

- أنت لا تعلم شيئًا.

- بل أعلم كُل شيء عنه.

- عنهُ هو.. وليسَ عني.

وازداد وجهها احتقانًا ورمش جفناها بسرعة وهي تضيف:

- فلا تتجرأ على لومي ثانيةً وكأنني غادرتُ لألعب.

- حقًّا؟! إذًا لماذا يبدو لي وكأنكِ تلومين نفسك؟ لو لم تكوني مُخطئة لم تكوني لتلـ..

توقف عن الكلام حين وضعت الملف والمُذكِّرة على الطاولة، ثم اتجهت إلى المطبخ، قائلة:

- فارس.. تُريدُ مُثلجات؟

«هل اشتريتها هيَ الأخرى؟!».

صاح بسعادة فأجابته: «وبكل النكهات التي تُحبها».

حكّ نادر مؤخرة عنقه بعد أن أجهده الحديث معها، هِيَ تأخذه إلى اتجاه لم يُرد التطرق إليه. ألقى نظره على فارس الذي أراد اللحاق بها إلى المطبخ، لكنه لم يلبث أن أوقف خطواته ثم ذهب راكضًا إلى دورة المياه.

داهم عينيه حزن عميق؛ ففراقهما سيحدث عاجلًا أم آجلًا لذا لا حاجة للمماطلة أكثر، ومن الأرجح أنه سيكون أخف وطأة وأيسر على نفسه عندما يقرر هو وقته، ولكن الغبية نكأت جُرحَهُ بكلماتها سيئةِ الظن به وآلمته لذا هاجمها.

أغمض عينيه وأطلق تنهيدة عميقة قبل أن ينهض ليجلب هاتفها كي تعطيه مال المكافأة، وبعد ذلك سيخبر فارس عن حاجته الماسة للرحيل.

مرَّ بها وهي خارجة من المطبخ فضاقت حدقتاه؛ لِمَاذا هي مُبتسمة؟! فقد آذاها قبل قليل!

تبعها بنظراته إلا أنها وقفت أمام الأريكة الفارغة ثم رأت فارس يخرج من دورة المياه ببطء، ولكنه لم يكد يرى ما تحمله كفاها، حتى غلب

عليه حماسه، فأسرع نحوها. ضحكت وهي ترى لهفته ثم شاركته متعته الأولى مع المثلجات بعد سجنه الطويل.

فيما عقد نادر حاجبيه فجأة وقد استوقف عقله شيء واحد، قد تعلم هِيَ الآن عنه وعن فارس كل شيء.. ولكنهما هو وفارس لا يعلمان عنها شيئًا!

هو رجل غريب لم يلتقِها حقيقةً إلا منذ يوم، بينما فارس لم يكن وقت صحبته لها سوى طفل!

واصفَرَّ وجهه فجأة، هل هو الآن يُحللها؟

تفلتت من بين شفتيه «تبًّا!» ساخطة؛ فعلى عقله أن يتوقف في التحليل عند فارس فقط، ولا أحد بعده، لا سيّما شخص مستفز مثلها.

أخذ هاتفها من حجرته، ثم عاد نحوهما، فسمع صوتها الغاضب: «لستُ مثلها».

ردَّ فارس بثقة: «بل مثلها تمامًا».

عبس نادر بشدة، لماذا هو الجاد الوحيد وسط هذه العائلة؟!

سحب فارس قلمه الرصاص من شعرها، فانسدل على كتفيها، ثم قال:

- أنا واثق.. ضعيه أمام وجهك.

ودون تردد انحنت للأمام، ثم دفعت شعرها بالكامل ليُغطي وجهها ونصفها الأمامي، وهي تصيح به:

- صورني بهاتفك.

قفز فارس إلى الخلف، ثم التقط عدة صور لها، قبل أن يلتفت إلى الواقف بجمود، وقال:

- أليست مُخيفة؟

لم يُجبه نادر وهو ينظر إلى البلهاء التي أبعدت شعرها بإهمال، ثم قالت:

- دعني أرَ.

قفز فارس إلى جوارها، وراح يعرض الصور أمامها، فضحكت:

- من الآن وصاعدًا لن تهنأ بنومك.. لن تستيقظ كل صباح إلا على هذا المشهد.

شحب وجه فارس وهو يتخيّل المنظر، أن يحسّ بيديها تهزان كتفيه كل صباح فيفتح عينيه على مرأى سواد شعرها وأطرافه تلامس بشرة وجهه.

- لا تفعلي.

- بل سأفعل.. ما كان عليك أن تُذكرني.

ردت بضحكة مليئة بالشر، وشفتاها تعودان لمعانقة عود مثلجها، بينما تجاهل نادر كل هذا السخف، ولم ينتبه إلا للمغلف الثالث الذي فتحه فارس، فقال بحدة:

- هذا يكفي.. جسدك ليس بخير لتعبث به.

شحب وجه مايا، وصاحت بقلق:

- هل ستضره؟!

ردَّ ساخرًا: «كلا ستُدفئه في هذا الجو اللطيف!».

ازداد وجهها شحوبًا وسحبته من يد فارس الذي عكس وجهه جزعه

ورفضه، إلا أنها أخذت كل ما فوق الطاولة ثم رمته في سلة مُهملات قريبة.

«هل هِيَ طبيعية؟!».

بتنهيدة ضجر قال نادر وهو ينظر إلى فارس المزرق الشفتين، فهو ليس ببنية صحية جيدة كي يكتسب مرضًا جديدًا، وأيضًا أمامه أيام سفر إلى العاصمة يحتاج فيها أن يكون بخير.. ولكن كيف لم تنتبه هذه البلهاء إلى ذلك؟

وعندها بدأ عقله يتساءل بجدية: هل هِيَ حقًّا لا تعرف كيف تعتني به؟!

حدج فارس الاثنين - المتفقين على حرمانه من متعته - بنظرات غاضبة ثم أخذ هاتفه، واتجه إلى حجرته، معاقبًا لهما بتجاهلهما، فتمتمت فجأة بقلق وقدماها تتحركان للحاق به كي تُهدئه:

- هل منعي له من المثلجات سيُسبب له ضغطًا قد يؤذيه؟!

أوقفها قول نادر بانزعاج: «هل أنتِ بلهاء؟!».

استدارت نحوه بوجه مُندهش: «ماذا تعني؟!».

- هو لن يتأثر بمثل هذا الهراء.

تحول قلقها إلى ارتياح عميق صدم نادر، هِيَ جادة بالفعل بطلبها أن يُعلمها كيف تعتني به..

(ليست مشكلتي.. ليست مشكلتي.. ليست مشكلتي) ظلت أعماقه تُرددها وهو يمنحها ظهره، ولكنها نطقت من خلفه بإلحاح:

- أخبرتك.. أنا لا أُجيد الاعتناء به ولهذا طلبتُ منك تعليمي.

«ألستِ امرأة؟!».

سألها بحدة، وهو يستدير نحوها، فترددت لثانية قبل أن تُجيب، غير مُدركة غايته من السؤال:

- بلى.

فأردف بتبرم:

- أليس هذا ما يُجيده النساء؟ الاعتناء بالآخرين!

تغضن جبينها بغضب ثم كتفت ذراعيها فجأة، قائلة: «ألست رجلًا؟!».

صمت وعسليتاه تحدجانها بحذر، ولكن ما الذي قد يخدش رجولته؟! بالتأكيد لا شيء، وعندها أجاب بهدوء:

- بلى.

- لماذا تُجيد الاعتناء به إذًا؟! هل أنت امرأة في صورة رجل؟!

بهتت عيناه وأراد صفعها، هو سيصفعها لولا فارس... لو يختفي فارس فقط لصفعها... بينما عادت إلى عينيها الواسعتين جديتها وقالت:

- لا تُعمم.. ليس كل النساء سواء، ولا الرجال أيضًا سواء.

ردَّ بغلظة:

- من الطبيعي أن يُجيد أيُّ مُعالج نفسي الاعتناء بالآخرين.

- إلى حد أن يختطف أخته ليتحقق إن كانت ستؤذيه؟! ألا تظن هذا مُبالغًا قليلًا؟

تجمد لجزء من الثانية والغضب يتصاعد إلى وجهه ثم أنكر:

- المُبالغ به هو تفكيرك السخيف هذا.

- إذًا أخبرني لماذا اختطفتني؟

صمت وصمتت وطال الصمت بينهما، الذي قطعته هي أولًا بتمتمتها بحيرة حقيقية:

- مهما فكرت وفكرت.. الوحيد الذي أجدني عاجزة عن إيجاد إجابة له هو اختطافك لي.. لماذا اختطفتني؟!

اسود وجهه، وتضخم عرق جبينه، ولكن نظرتها المرتابةَ به فجرت غضبه المكبوت بقوة:

- حتى لو كُنتِ على النقيض من عمك الحثالة فاضل وكانت نيتك هي حمايته عوضًا عن إيذائه، هل كُنتِ ستظنين أن مُجرمًا مثلي هو من أنقذه ه بدلًا من اختطافه؟ هو من اعتنى به بدلًا من تعذيبه؟

كشفت ملامحها الممتقعة عن ردِّها، فيما ازدادت نبرته ثورة:

- هل كُنتِ ستمنحينني جزءًا من وقتك وتستمعين لكُل ما قلته حول فاضل لولا اختطافي وتقييدي لكِ؟!

ظلت على صمتها ولم تجبه فاستطرد بسخرية مريرة:

- أخبريني.. كيف كُنتم تتهيؤون للقاء فارس وهو معي؟.. بقتلي!.. برميي في السجن!.. مُجرم مثلي هل كان سيُمنح فرصة لتبرير ما حدث قبل أن يُشهر السلاح في وجهه؟!

ازداد جفناها ارتخاءً وقوله يصعقُها، لولا هربه لآذاه نواف بسلاحه،

لانتزعت أخاها من بين يديه دون أن يُمنح الفرصة ليُقنعهم بأنه بريء وأن فاضل هو المجرم، ولم تكن لتحصل منه على هذه الأدلة التي قدمها لها بطيب نفس، والتي ستكون وسيلتها مستقبلًا في إسقاط فاضل.

ولم تتوقف ثورته:

- لأصدقك القول.. لا يُهمني رأيكِ ولا رأي الآخرين بي.. في تلك اللحظة كل ما كان يُهمني حتى لو اتبعت أغرب الوسائل وأبشعها هو أن أطمئن أنه لن يوجد خطر سيُهدد حياته مجددًا لو سلمته إليكِ، وأن تُدرك جاهلة مثلكِ من المجرم الحقيقي الذي يجب أن تحميه منه.

وصمت أخيرًا ليأخذ نفسًا عميقًا، وقد تيقن أنه في اليوم والأمس قد تحدث لما يساوي عمره بأكمله.. لقد استطاعت إخراج ما اختزنه في أعماقه بالكامل بإلحاحها المستمر وتكرارها لسؤالها المباشر.

نظر نحوها بحقد فوجدها تبتسم، وعندئذ تحطمت ثورته بالكامل، وارتسم على وجهه استفهام كبير.. ثم أحدثت بكفيها صفقة قوية عكست حماسها وهتفت:

- لقد قررت.

صمتت لثانية تابعت بعدها بحزم:

- لن ينقلنا إلى العاصمة غيرك.

وأدارت ظهرها مغادرة، وكأن الأمر مفروغ منه، فبهتت عيناه، من دعا عليه ليختطفها؟

نظر إلى هاتفها، هِيَ لم تعد تطلبه منه لتتصل بالرجلين، وانقبض قلبه

لغرابتها؛ فمنذ أن تيقنت أنه لا ينوي شرًّا بها ولا بأخيها أصبحت تتحرك وكأنها هي المسيطرة عليه لا هو.

تناهى إلى سمعه من حجرة فارس البعيدة صوت ضحكاتها وشجارها معه، فأدرك أنه قد سقط وسط عائلة أنانية لا يُهمها إلا نفسها؛ ففارس قد أعلن في المستشفى في أول لقاء بينهما عن قراره بتزويجه لها، بينما صرحت هي الأخرى عن قرارها التعسفي بأنه سيكون سائقها إلى العاصمة، وكلاهما لم يسألاه عن رأيه أولًا.

شعر بأعماقه تغلي من الداخل، تلك الرغبة الشيطانية بالقتل هو يكبحها الآن بالقوة...

وفجأة ارتفع صوت تنبيه خافت يُعلن عن وصول رسالة إلى هاتفه، انتشلته مما هو فيه، وذكّرته بتأخّره الطويل عن الاتصال بأحمد، فأسرع يبتعد عن تلك الحجرة المستفزة بمن فيها، وأعماقه تُعلن حالة الطوارئ، يجب أن يتحدث مع شخص طبيعي من خارج هذه الأسرة.

أخرج هاتفه ثم أجرى اتصاله بأحمد، مرة، مرتين، وثلاثًا.. لكنه لم يَرُد..

هو بحاجة لصمام أمان يوقفه عن جنونه قبل أن يفتح باب الشقة ثم يغادرها متنازلًا عن المليونين.. لو رحل فلن تكون مرته الأولى في إحباط رفاق زنزانته، لذا لا بأس، فما زال لديه من المال الذي منحه فاضل ما يكفيه ليعيش لعدة أسابيع، ولم يعد يملك أهدافًا مهمة كشراء حقل التفاح، ووالداه أيضًا قد توفيا.

وارتفع مجددًا صوت طنين وصول رسالة أخرى إلى هاتفه، فعقد

حاجبيه مُستنكرًا؛ ففي الوقت ذاته وصلت رسالة إلى هاتف مايا الذي أعاد تشغيله، ولكن على عكس نغمته الخافتة فقد كانت نغمتها صاخبة جدًّا.

لم يهتم بهاتفها، وهو يُلقي نظره سريعة على الرسائل التي توالت على هاتفه، فامتقع وجهه بشدة وانفرجت شفتاه بصدمة وعسليتاه تُحدقان بالصورة المُرسلة إليه من رقم أحمد.

كانت الصورة لأحمد، لكنه بدا فيها فاقدًا للوعي؛ بدماء تنساب من رأسه وتُغرق وجهه، وكفاه المقيدتان بدتا محطمتين، وقد تلطخت ملابسه هي الأخرى ببقعٍ من دماء سالت من جروح متفرقة على جسده.

****

-١٦-

«قبل ٢٨ عامًا»

ثلاثة أشهرٍ مرت مُنذ أن غادرت ليلى منزل أخيها (والد سمير)، غابت، فغاب معها شماعةُ أم سمير التي تُعلق عليها أخطاءها وأخطاء زوجها..

ومن اعتاد مكبًّا بالمجان يُفرغ فيه عقده النفسية لن يستقر حتى يجد غيره..

وبالفعل لم تلبث أم سمير أن رمت بلاء ما هي فيه على جارتها وصديقتها المُقربة، فعينُها الحارة لم ينجُ منها أحد، وبالتأكيد لم ينجُ منها زوجها (والد سمير)..

مشت بشكواها بين الجارات تلومها لإهمال زوجها لها واتخاذه خليلات غيرها؛ فمنذ أن صاحبتها وأدخلتها إلى منزلها أصابها سوء الحظ وحلّت لعنة الفرقة بينها وبين زوجها..

وكما الأم كما الولد المُصاحب لها في زياراتها، فكان ما كان من إنزاله الويل والنكال بابن جارته الدارس معه في فصله الدراسي نفسه؛ انتقامًا لأمه..

ركله كما ركلت أمه ليلى، وسرق ماله كما علمته أن يسرق مال ليلى..

ولكن الحال لم يشبه ما سبقه من حال، فالابن ذو أب وأسرة يؤذيها تأذيه ويُبكيها ما يُبكيه..

قدّم والد الطفل شكوى على سمير عند مدير المدرسة فأقسم له الأيمان أنه سينقل سمير من فصله، ولن يلمسه مجددًا، ولم يكتفِ الوالد بذلك فطفله إن لم يرَ حقه يؤخذ أمامه فسيكون جبانًا ما بقي من عمره..

أبقى ابنه معه في سيارته خارج المدرسة، وأنزل أخويه الكبيرين اللذين تراوحت أعمارهما ما بين الثالثة عشرة والثانية عشرة ليُريا أخاهما كيف يأخذ حقه. وبالفعل كانت معركة من جانب واحد فقط، كُسر فيها كبرياءُ سمير ذي السنوات الثماني، وحُطَّ فيها وجهه على الأرض، ثم خرج ابن جارته من السيارة ليضع قدمه على رأسه ومنحه عدة ضربات أرضى بها قلبه..

ورحل الأب بأبنائه تاركين سمير بجراحه الدامية على الأرض لا يقوى على النهوض والحراك لولا أن رآه أحد المعلمين الذي سارع لمساعدته، وداوى جراحه في أقرب مركز صحي، ووثق ذلك الحدث بتقرير طبي أعطاه له ليقدمه لوالده وقد بلغ به الغضب مبلغه فكيف يَجرُؤ رجل بالغ على الاعتداء على طفل؟!

عاد سمير إلى منزله بعد مرور ساعتين في حالٍ بائس ليشكو لأمه مُصابه ناشدًا انتصاف عائلته له كما انتصفت عائلة ذلك الطفل منه..

ولكن لم تملك أمه تعاطفًا له يفوق تعاطفها مع نفسها المكلومة بهجران زوجها لها، ولم يرَ والده في شكواه سوى موقفٍ كان ابنه الخاسر فيه مما بعث بنفور وخجل إلى وجهه منه..

****

-١٧-

- ٩ صباحًا -

وقف رجل جَسيم القامة أمام موظف الاستقبال في فندق مئة وتسعة فشحب وجه هذا الأخير لمنظر وجهه البارزة فيه عظامه، بدا له رأسه كجمجمة يكسوها جلد ليس إلا!

مومياء! وأفاق للتو من تابوته!

ولم يكن ذلك ما أفزعه فقط، بل النظرة التي عكستها حدقتاه الجاحظتان الأشبه بحدقتي سمكة غادرت الحياة مُنذُ زمن.

«أُريدُ حجرة واحدة لستِّ ساعات».

حمل صوته إرهاقه الشديد وهو يتمايل ناعسًا وبصعوبة حافظ على اتزانه.

«ألديك صفقة؟ أم تنتظر رفقة؟ أو فقط بمفردك؟».

سأله الموظف وقد أخذ حِذرَهُ بالكامل ممَّن أمامه؛ فعلى الرغم من مخالطته لشتى الفئات من المجرمين، إلا أن هذا هو أخطرهم، وحدسه لا يُخطئ أبدًا؛ فهناك عدد ليس بقليل من المجرمين الذين يتجولون بين الأبرياء بسجلات جنائية نظيفة وهم في حقيقة الأمر يُعدّون أكثر سوءًا وشرًّا بعشرات المرات ممّن ذاقوا عقوبات أفعالهم بالسجن.

«لا.. بمفردي». ردَّ بهدوء.

ناوله عندها موظف الاستقبال مفتاحًا أنيقًا:

- الطابق التاسع مُناسب لك.. هو مُتاح لمن لا يحبذون تطفل الآخرين عليهم، ولكنني لن أضمن لك أن مُرتادي الطابق نفسه لن يتسببوا بإزعاجك.

وتردد ثانية قبل أن يستطرد: «ولا نقبل أيَّ شكوى».

تأمله الرجل وحدقتاه تضيقان بشدة.. مستغربًا: ما قصة هذا الفندق الغريب؟ فهو لم يطلب منه ما يُثبت هويته الشخصية حتى!

لكنه لم يكترث كثيرًا للأمر، فما يهم الآن أنه قد وجده قبل وصوله إلى قرية السنابل بعد ما قاد سيارته ليومين ونصف اليوم متتالية لم يحظَ فيها براحة كافية، عليه أن يستجمع ولو القليل من طاقته وقوته قبل أن يلتقي بالطبيب المزيف نادر عبد المجيد..

أخذ مفتاح الحجرة ثم حمل حقيبة الظهر الخفيفة على كتفه ومع دلوفه إلى المصعد ارتفع رنين هاتفه فسحبه من جيب سترته و.. (رئيسه فاضل).

فأجاب ببرود: «نعم؟».

قابله صوته السعيد من الجانب الآخر: «لقد نجح المحامي في تأجيل الجلسة لشهر».

«هذا جيد».

«نعم.. لقد حصلنا على المزيد من الوقت» وتنهد براحة ثم سأله: «ولكن أين أنت الآن؟!».

«بالقرب من قرية السنابل».

«أنت تعلم أنني لا أستغني عنك.. أنهِ شكك المُبالغ فيه هذا ثم عد بسرعة».

«بالتأكيد لن أتأخر».

تابع ردوده المقتضبة وباب المصعد يُفتح على الطابق التاسع. اتجه مباشرة إلى حجرته على الجانب الأيسر من المصعد متتبعًا الأرقام على أبواب الممر وهو يفكر بأن يُقلل من فترة نومه حتى يُنهي المهمة سريعًا ويعود إلى العاصمة.

****

كان نادر ما زال مذهولًا بما رآه، قد خمن من قبل أن أول من سيقع في قبضة فاضل إذا ما كُشفت خطته هو أحمد، ولكن حين أصبحت واقعًا أمامه وجد أن القلق الذي حلَّ به قد تجاوز ما تخيّله فقد عجزت قدماه عن أن تحملاه، وهتف بانفعال شديد:

- سحقًا.. وتبًّا.. الأحمق! لهذا لم أرد أن أُشركه في الخطة.

تهاوى جسده ساقطًا على الأريكة من خلفه وكفه تشتد على هاتفه حتى كاد يُحطمه، بينما عصفت برأسه عشرات الأفكار والأفكار لإيجاد حل عاجل لهذه المصيبة..

ثلاثة أيام ستكون كافية ليبلغ العاصمة، ولكن هل سيحتمل جسد أحمد الدامي هذه الأيام القليلة حتى يصل إليه وينقذه؟

بل بالتأكيد لن تكون هذه الإصابات هي الأخيرة التي سيتلقاها..

عاد ينظر إلى الرسالة التي لم تكن سوى صورة دون نص فكانت كافية بالنسبة له ليفهم أنهم لن يتوانوا عن قتله.

الآن أدرك لماذا لم يعاود الاتصال به مجددًا..

بدا وكأن الزمن قد توقف به فجأة والذكريات القديمة تتهافت على ذاكرته فحتّى لو نجا أحمد من قتلهم فلديه والدة مُتعلقة به أشد التعلق، ماذا قد يصيبها من بعده لو علمت بتأذيه؟

أو يصيبه هو من بعدها لو تسبب بأذًى لها؟

ماذا لو أدخله فاضل إلى السجن بتهمة اختطاف الفتى؟!

مستقبله، تدريبه في المستشفى، وخطيبته المهووس بها و.. و..

قد يختفي حينئذٍ أحمد ويولد أحمد آخر لا يشترك مع أحمد القديم في شيء..

مسح وجهه محاولًا تهدئة عقله الذي تمادى في خياله المشؤوم، بينما غلت في عروقه دماء من غضب أغرقت جبينه بقطرات من العرق رغم برودة الجو..

لن يكون هناك سبيل لنجاة أحمد إلا بتسليم فارس إلى فاضل، لكنه لن يُسَلِّمَهُ إليه، ولن يتنازل أيضًا عن أحمد، حتى لو اضطر إلى عرض نفسه بديلًا عنه بخطة خبيثة يُقنعه فيها بتركه، ثم يغدر به فلولاه لما تورط أحمد منذ البداية.

«أعد لي هاتفي».

صوت أنثوي اخترق فوضى أفكاره ومشاعره، فرفع رأسه، وعندها رأت مايا وجهه العاكس ألمًا نفسيًّا كبيرًا فزاد صوتُها حدة: «أعطني إياه».

عكست عسليتاه نظرة عصبية قاتمة بعثت بالوجل إلى أعماقها، ورغم ذلك قاومت خوفها ومدت يدها نحو الهاتف بجرأة:

- هاته.

- اغربي عن وجهي!

نبرته القاسية حملت إليها تهديدًا مُبطنًا بأنه لن يكون معها بصبره المعتاد، لكنها قالت مهددة:

- إذًا سيؤذونه أكثر.

وابتسمت برضًا حينما رصدت اتساعًا بعينيه، كان لثانية واحدة فقط، ثم ضاقتا بشدة وهو يتتبع عينيها فاكتشف أنها تنظر إلى شاشة هاتفه الممتلئة بصورة أحمد..

وانفرجت شفتاه غيرَ مُصدق ما قادته إليه أفكاره، فيما عقدت ذراعيها أمام صدرها مُتباهية:

- لهذا كُنتُ هادئة، التحلِّي بالصبر هو ما ينتصر أخيرًا، كُنتُ أعلم أنهم حينما ييأسون من إيجادي سينفذون خطتي ويختطفون صديقـ..

وبترت عبارتها بوجل عندما وقف أمامها فجأة بقامته الفارعة، وقد حملت عيناه نظرة شيطانية، وما كبحه لوقت طويل يخرجه بلا تردد؛ فالخبيثة قد استطاعت خداعه إذًا، هي منذ البداية في صف فاضل، ولكنها نجحت في التلاعب به، وامتدت كفه إلى ياقتها ليلويها بعنف فاختنقت بأنفاسها واحمَرَّ وجهها الأبيض.

«دعني».

صاحت بقوة إلا أنه زاد من شدّ قبضته فازداد وجهها احمرارًا، وفقط، ينقصه شوكة لينفذ جريمته الجديدة.

- أيتها الحقيرة.. لا تُقحمي شخصًا بريئًا في ما فعلته بمحض إرادتي.

- لا يُهمني، حتى لو دستُ العالم كُله لأنقذ أخي.

واحتدت مُقلتاها الناظرتان داخل عينيه بتحدٍّ رغم تألمها، فسأل بصدمة:

- لتنقذي أخاكِ؟! إن لم تكوني في صف فاضل فما حاجتكِ لفعل هذا بأحمد؟

أجابت بغضب:

- بالطبع لستُ مع فاضل.. لقد قررت اختطافه عندما ظننت أنك اختطفت أخي.

خفَّ غضبه وهو يتذكر استشعاره هذا الخطر لحظة ذكرها لاسم أحمد في أول تفاوض بينهما فأنزل كفه عن ياقتها ثم منحها هاتفها وهو يأمرها بصرامة:

- أنتِ تعلمين الآن أنني لم أختطفه.. اتصلي بحثالتك وأخبريهم أن يخلوا سبيله ويوصلوه إلى أقرب مستشفًى.

عدلت من وضع سترتها المجعدة، وفركت عنقها بألم قبل أن تأخذ الهاتف من يده، وتتصل بهم أمام جمرتيه المُراقبتين لها وهو يُحذرها:

- فعّلي مكبّر الصوت، أريد سماع حديثكما.

أطاعت أمره بلا تردد فارتفع رنين الهاتف، ثم صدح فجأة صوت سعد ـ صديق والدها ـ يصيح بقلق:

- مايا يا ابنتي.. هل هذه أنتِ؟ هل أنتِ بخير؟ لم يؤذكِ الرجل..

أخبرني..

قاطعته بنبرة حازمة:

- إن لم أُهاتفك كُلَّ ساعتين فاقتل أحمد.

شهقتان ارتفعتا في آنٍ واحد، واحدة عبر الهاتف، والأخرى من بين شفتيْ نادر، فيما قفزت ابتسامة منتصرة إلى شفتيها، وهي تتابع بجدية تامة:

- الخاطف الآن يسمعك.. ليكن تواصلنا في كل مرة مُكالمة فيديو حتى أُثبت لك أنه لم يمسني بسوء.. سألتقيك في العاصمة وعندها نُسلم إليه صديقه.

أحسَّ نادر بقصف قلبه المتسارع النبضات يكاد يُسمع من الخارج، ولم يجزم إن كان السبب قلقه على أحمد، أم غضبه الذي سيطر عليه، فقد قالت سابقًا إنها قادرة على أن تُجبره، ولكنه لم يكترث..

لم يخطر على باله أبدًا أنها ستنتهج هذا النهج..

هِيَ أسوأ مما تصور، فحينما وثقت بأن أخاها في أمان معه قررت استغلاله بأبشع الطرق لمصلحتها...

وهوت قبضته بعنف نحوها، فأحمد لن يكون ضمن الصفقة أبدًا..

وسمع الاثنان فجأة صوت مقبض باب حجرة فارس يُفتح...

«فارس لا تخرج».. «ابقَ في الحجرة».

صرختان عصبيتان ارتفعتا في آنٍ واحد، هِيَ بالأولى ونادر بالثانية.. فتوقف المقبض عن الحركة.

- هل قُلتِ فارس؟ أهو حي؟ أخوكِ حي؟!

ارتفع صوت سامي (خبير الحاسوب) مع صوت سعد، فأجابتهما بابتسامة: «نعم.. هو حي».

ورغم سماعها لصيحاتهما السعيدة تابعت بسرعة:

- أنا بحاجة لنقله إلى العاصمة، ومن المستحيل أن أنجح في ذلك مع أكرم ونواف فقط؛ فحالته الصحية تستدعي وجود طبيب نفسي عالم بمرضه لذا سيتكفل مُختطفي بنقلنا إليها والعناية به طوال الطريق.

تلك القبضة ما زالت مُرتفعة، ثائرة، تحمل عداونية عنيفة، ولكنه لم يجرؤ؛ سيتأذى أحمد..

بينما سألها سعد بقلق:

- مايا.. هل فقدتِ صوابك؟! كيف تثقين برجل اختطفك؟

- لا أثق به، ولكنني مُضطرة، لذا أحتاجُ إليكم جميعًا لتتولوا أمر صديقه وتحرصوا على سلامتنا.

- لا تقلقي أبدًا.. لن يبقى حيًّا لا هو ولا صديقه لو مسَّكما أنتِ وأخاكِ بسوء.. ولكن دعي أكرم ونواف يرافقاكِ لنطمئن عليكما.

يتحدثون، يقررون مصيره، يتلاعبون به وهو عاجز تمامًا عن تحطيم رأسها وهِيَ أمامه، هِيَ حقًّا تدوس على الجميع لأجل أن تُحقق أهدافها.. بالتأكيد هِيَ من نسل بسام ثروت، ولكنه للأسف لم ينتبه إلا الآن!

- كلا.. لستُ بحاجة لهما ليرافقانا في السيارة نفسها، ولكن سأفعّل خدمة تحديد الموقع على هاتفي وليتتبعا بسيارتهما مسار رحلتنا

نحو العاصمة.. فأنا بحاجة لتعلم بعض الأشياء من الرجل في كيفية العناية بأخي.

- حسنًا.. ما دُمتِ ترين ذلك، ولكن سأحذرهما بأن لا تغيب السيارة عن نظرهما، ويتدخلا فورًا إذا ما توقف تطبيق الموقع عن العمل.

- جيد.

وابتسمت براحة، فيما ارتفع صوت سامي فجأة:

- مايا، لقد وجدنا في هاتف صديقه فيديو مُسجلًا لفاضل.. ذلك الوغد لقد كان يتلاعب بأخيكِ.

اهتزت عيناها، وهي تسأله:

- عم سامي.. أليسَ مُزيفًا؟!

كلمتها الأولى جعلت قلبه يُشفق عليها، ومع ذلك أجاب:

- بل هو حقيقي.

كانت تُدرك ذلك، تعلم أنه حقيقي، لم تُصدق ما قاله نادر عبثًا أو سذاجةً؛ فهناك جثة محترقة لطفل صغير إلى جوار قبر والدها، فاضل هو من قدم هذه الجثة إليهم ودُفنت أمام أعين الجميع على أنها تخصُّ أخاها فارس، ولكنها وجدت فارس حيًّا!

كونه حيًّا فقط، يُثبت دناءة عمها، إلا أن قلبها كان يأمل أن ينفي سامي خبير الحاسوب ذلك الشر عنه، ولكنه، وللأسف أجابها بما أكَّدَه لها عقلها مُسبقًا.

وعندئذ قالت بانفعال:

- سرِّب مقطع الفيديو إلى وسائل الإعلام.

- ماذا؟!

صاح سامي بدهشة، فيما أدار نادر عينيه المُحتقنتين نحوها بعد أن حطم بقبضته إحدى اللوح المُعلقة حتى إنَّ أصابعه قد دَمِيتْ على زجاجها.

تابعت بحزم:

- احجب جميع الأوجه في الفيديو ما عدا وجه فاضل وانشره.

«هل أنتِ جادة؟!».

عارضها سعد بدوره، فأجابت بحدة:

- نعم، لن أهرب منه.. سأشوّه صورته قبل أن أبلغ العاصمة.. سيتساءل الجميع عن الفيديو وصحته، وستهاجمه الصحافة، وستتوالى التكهنات بشأن بقية الأشخاص الظاهرين في المقطع.. سيُحدث ذلك فوضى كبيرة سأستغلها لاحقًا للطعن في وصايته على أخي.. سأمنح الرأي العام حكمًا مُسبقًا عليه بالسوء، وأحتلّ قاعة المحكمة قبل أن تطأها قدماي.

اتسعت عينا نادر، ورغم ما جعلته يُعانيه لم يستطع منع نظرة منذهلة من أن تتجه نحوها.. متى خططت لكُلِ هذا؟!

فيما سألها سعد: «والورث؟ ورث بسام ثروت الذي تحدث عنه في الفيديو!».

قالت بغيظ: «سيستولي عليه أخي بالكامل».

«دعيه وشأنه.. أبعديه عن مشكلاتكم القذرة أنتِ وأسرتك».

صرخ نادر بقوة ارتج لها جسدها فزعًا من غضبه الذي تضاعف ألف مرة، ولكنها لم تتضعضع، بل صاحت هِيَ الأخرى بحقد عظيم:

- لن أسمح بأن يكسب بسّام أجر الصدقة بذهاب المال إلى الجمعيات الخيرية.. فليحترق في جهنم.. لن أسامحه على ما ألحقه بأبي من سجن، ولا على وصيته الجائرة التي ظلم بها أخي.. سيأخذ أخي الإرث الذي عُذِّب من أجله دون أن يدري، والقرار الأخير له، إن أراد أن يحرقه فليحرقه، وإن أراد التصدق به فليكن ذلك باسمه لينال هو الأجر.. لن يقتل قلب فاضل ويعذِّب روحه الفاسدة إلا أن يرى أخي يأخذ منه الإرث الذي سعى من أجله لتسع سنوات..

ضاقت عسليتاه، وهو يرى عينيها تلتهبان بحمرة شديدة، وقد كبتت بالقوة دمعها الغزير، ثم تمالكت نفسها لتوجه حديثها إلى سعد:

- قد تستغرق رحلتنا إلى العاصمة على أقصى حد أربعة أيام.. سأستغلها في التحدث مع إخوة راكان لتهيئة مسكن لنا قبل الوصول، وسأسعى للمطالبة بإعادة فتح قضية أختي لَمى.

- ألن تطعني مُباشرة في وصاية فاضل على أخيكِ وتأخذيها لنفسك؟

- لا.. ليس قبل أن ينتشر الفيديو أولًا.. ثم أُريدُ التحقق مما إذا كان يملك هوية لأخي باسم عائلتي.

- حسنًا.. كما تشائين.

هدأ صوتها أخيرًا وهي تودعه: «سأُغلق الخط واتصل بي بعد ساعتين».

- حسنًا يا صغيرتي.. جميعنا تحت أمرك.

(صغيرتي).. كلمة والدها المُعتادة.. بعثت بشعور جميل إلى أعماقها فارتسمت ابتسامة دافئة على شفتيها، وهي تقول:

- شكرًا لكما، بفضل من الله ثم بمساعدتكما التقيتُ بأخي أخيرًا.

بثتهما مشاعرها المُمتنة، التي حررتها أخيرًا من قلقهما عليها، فبادلاها بكلمات امتلأت بفرحتهما لنجاح مسعاها، فكان هذا لها بمثابة الاحتفال الأول بعودة أخيها، ثم راحا يشجعانها لتُكمل خطتها التي سيساندانها فيها إلى النهاية.

أغلقت الخط والابتسامة لا تزال تُعانق شفتيها، ثم دحرجت عينيها الوجلتين لتنظر إلى ذاك الجالس على الأريكة بصمت وهدوء وعيناه تكادان تخترقانها.. لقد روضتهُ أخيرًا، ولم تندم، فهو يستحقُ ذلك، لقد تجرأ عليها واختطفها.

وعادت الجدية لتكسو وجهها وهي تختار أحد الأرقام لتتصل به، رقم في بريطانيا، وثوانٍ فقط ورد صاحبه عليها صائحًا بلهفة:

- مايا.. أهذه أنتِ؟ متى رحلتِ إلى الوطن؟ كادت أُمكِ تُجنّ قلقًا عليكِ عندما لم تجدك عند سلوى.

ازدردت لعابها مانعة غصتها المحتبسة من الخروج، ثم قالت بألم:

- أنت من منح فاضل الوصاية على أخي.

أجابها بصمتٍ مذهول غير مُدرك مغزاها من ذكر الماضي، فأتمت

عتابها له بمرارة شديدة:

- إن كُنتَ تدَّعي أنك بمثابة الأب لأخي فارس فعد إلى الوطن، فأخي حي، لكنه قد تعرض لإذلال على يد فاضل، وما زال يريد فعل ذلك به.. وإن لم ترجع فاعلم بأنك ستكون خائنًا للأمانة التي ألزمك بها أبي قبل موته.

وأطبقت شفتيها لتحتجز نوبة بكاء تكاد تخونها، وعندها سمعت صوت راكان المتهدج من الطرف الآخر:

- مايا يا ابنتي.. لا تتلاعبي بقلبي الضعيف.. فأنا بالكادِ تقبلتُ موته.

خانها تماسكها وحمل صوتها بُكاءها وهي تصرخ:

- بل هو حي.. ولن أسمح له بأن يلتقيك أبدًا ما لم تؤدِّ واجبك تجاهه جيدًا.

- يا ابنتي.. إن حُبكِ وتعلقك به أوهمـ..

قاطعته بنبرة كئيبة:

- على الرغم من ظني أن بؤسنا سينتهي بموت ذلك الوحش بسام إلا أن أذاه قد امتد إلى أخي حتّى بعد موته.. ولن أهتم لو امتدَّ لي أنا الأخرى ما دمتُ سأُنقذ أخـ..

قاطعتها شهقته العالية التي لم تدرِ لها سببًا، فصمتت دون أن تُدرك أنها قد كررت نفس ما قاله والدها قبل موته بالوباء، وعندها صاح راكان بحزم:

- ابقي على تواصل معي.. لن يمسَّكِ سوء بإذن الله.. سأُحرك عائلتي في العاصمة.

ابتسمت بفرحة، بينما تغيرت نبرته لتحمل إليها حبه الكبير:

- أنا أفعل ذلك لأجلك أنتِ، فأنتِ ابنتي أيضًا شئتِ أم أبيتِ.. ولن أسمح بتأذيك فأنا لم أرتح لفاضل أبدًا.. سألحق بكِ على أول طائرة.

«حسنًا».

ردت بانشراح وسرور عظيم وهي تغلق الخط.. كُلُّ شيء سار كما خططت له في الليلة الماضية بعد نومِ فارس. وضعت الهاتف في جيبِ سترتها، فبالتأكيد لن يأخذهُ الخاطف منها بعد ما أخضعته بصديقه.

التفتت نحوه فرأته لا يزال يجلس بصمت، ولكن تعلو شفتيه ابتسامة غريبة.. تلك الابتسامة جعلت قلبها ينقبض بخوف، يُفترض أنه غاضب، ثائر، ولكنه هادئ بغموض.

«كُل شيء سار كما خططتِ؟» قال بغتة، وابتسامته الغريبة تتسع، فأحسَّت بالهلع يدبُّ في أوصالها ومع ذلك أجابته بـ «نعم».

«ما كان عليَّ أن أُقلل من شأنك».

اعتراف صريح منه بقدرتها على المكر به، وبدلًا من أن يُسعدها ذلك زاد من قلقها وهي تراه يستعير هدوءها، وثقتها، وعجرفتها، وهو يضيف ساخرًا:

- لقد جعلتني ضمن خُطتك دون أن تستشيريني!

- لقد استشرتك وعرضتُ عليك المال، ولكنك رفضت، ولهذا سأُجبرك.

وقف وكفاه مُندستان في جيبي بنطاله:

- من يُجبرانني على شيء لا أُريده.. للأسف.. قد ماتا.

شحب وجهها وتراجعت إلى الخلف بحكمة، وحدسها يُخبرها أنه من الأفضل لها أن تعود إلى حجرة فارس لترافقه، فبمجرد أن يهدأ غضبه ويُدرك عجزه سينصاع لخطتها بالكامل.

إلا أنه ازداد قربًا منها للحد الذي أرجف قلبها، وهمس:

- لستِ وحدك من يحمل الضغائن.. أنا أيضًا.

وارتفع أحد حاجبيه وهو يردف:

- لا تنسي أبدًا أنني كُنتُ مُتسامحًا معكِ من قبل.

ازدردت ريقها، ونفسها تُذكرها بأنه لم يمسَّ جزءًا واحدًا من جسدها، فرغم سيطرة غضبه الشديد عليه قبل قليل، وظنه أنها متواطئة مع فاضل، لكنه تجنب لمسها واكتفى بشد ياقتها، وأيضًا حينما اختطفها كان يلبس القفازات..

سلوكه هذا لم تُفسره إلا بشيء واحد فقط.. أنه على الرغم من سجنه لعامين، يظلُّ رجلًا ذا مبادئ يقدسها ولم يتنازل عنها، مبادئ إسلامية تنص على حُرمة لمس الرجل لجسد المرأة لذا لن يمسها الآن من أجل مبادئه ومن أجل صديقه المحتجز أيضًا..

وعندها تجرأت لتقول:

- نجاةُ صديقك تعتمد أيضًا على كسر الرابط بينك وبين أخي.. أنت تُدرك أنك لن تكون طبيبه ولست مناسبًا أيضًا كصديق، لذا في سفرنا احرص على العناية به فقط، وقلل من حديثك وقربك منه حتى يتقبل فراقك..

وعكست عيناها الواسعتان فجأة نظرة فاضت تحدِّيًا وعزمًا:

- وإياك والتلاعب به.. فإن اختارك مرةً فلن تكون الأخرى لك.. والحُبُّ سِجَال.

انفرجت شفتاه بضحكة ساخرة لجُرأتها على إمطاره بسيل من الأوامر، ثم أدار ظهره لها، ليمشي إلى خارج الشقة ونبرته المهددة ترتفع:

- لا أحد.. لا أحد يعبث مع نادر عبد المجيد.

شيعته بنظرات قلقة متشككة، ولكن ما الذي يستطيع فعله؟ ثم شمخت برأسها للأعلى، وعادت نحو فارس.

****

-١٨-

(قبل ٢٥ عامًا)

بلغ سمير الحادية عشرة من عمره. مر على تلك الحادثة التي ضُرب فيها ثلاث سنوات كانت هي المرةَ الأولى والأخيرة التي يتعرض فيها للإذلال، ولم يكن سبب نجاته أن قلبي والِدَيهِ قد حنَّا عليه فهبَّا للدفاع عنه، أو أنه قد استطاع أخذ حقه بنفسه، بل لأنه لم يعد فردًا وحيدًا بين أقرانه؛ فقد وظف المهارة التي تعلمها من أمه في تطبيقها على من حوله، ولم يحتج بعدها للدفاع عن نفسه بيده..

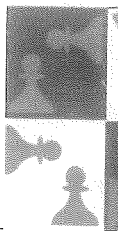
الكثير من الأيدي ستمتد على من تجرأ ومد يده عليه، مزيَّة عرف قيمتها وقوتها حينما نفذ نهج أمه القديم مع ليلى بتضييقها الخناق عليها عن طريق تأليب الجارات ضدها..

وهذا ما حدث بعد ما بنى له جماعة ورفاقًا استغلهم في تضييق الخناق على ابن جارته فنُبذ داخل فصله، ومن ثم في المدرسة كلها، مما أَزَّمَهُ نفسيًّا، ولم يلبث والده أن اضطر لنقله إلى مدرسة أخرى، فأعداء ابنه كثير، ولم يعلم أخواه من يضربان من أجله ومن يتركان، ورحلت العائلة بالكامل بطفلها إلى مدينة أخرى..

انتصر سمير على ابن جارته، ولكن انتصاره جَرَّ خسارة على أمه التي فقدت من تلومه على مصيبتها عندما تزور جاراتها..

اختفت شماعتها الثانية، فتعطَّش قلبُها وعقلها المريضان للبحث عن شماعة أخرى، وإلا لتآكلت من الداخل إذا ما اعترفت لنفسها أنها قد هُجرت لِهَوانِ قَدرِها عند زوجها... على حين كانت جماعة ابنها سمير مع مرور الأيام تكبر وتكبر، ودائرة علاقاته في اتساع مستمر.

****



-١٩-

- ١١ صباحًا -

ساعة ونصف الساعة مضتا مُنذُ خرج نادر من الشقة، استغرقتها مايا في إجراء عدة مُكالمات - غير آبهةٍ به - أنجزت فيها المتبقي من متطلبات خطتها.

- نعم سلوى.. أُريده بعينه.. الطبيب النفسي بيتر سيلفيا.. أريده أن يستقبلنا في العاصمة بعد أربعة أيام.. أجل، تَوَلَّيْ كافَّةَ تكاليف سفره من لندن إلى العاصمة، وسأهتم أنا بالباقي عند وصولي.

ثم تبخرت جديتها بعد حديث رفيقتها، فصاحت بسخط:

- سلوى، أنا جادة! هل تعملين أم تُضيعين الوقت في مشاهدة المسلسلات الدرامية التافهة؟! حتى لو أظهر بعض التقرب إليّ، ذلك لا يعني أني مهتمة به فتوقفي عن تخيلاتك البلهاء.. تبًّا سلوى.. ماذا؟.. نصفيَ المفقود!.. أَنا أَتولّى قَضاياه مُقابِل تكفُّلِهِ بِالإِشراف على علاجِ أَخي، فأين موقع الحب في هذا؟ أجل، يربطنا مصالح مُتبادلة لا أكثر!

وتناهى إلى سمعها صوت رفيقتها تَصوغُ دراما جديدة، فأغلقت الخط في وجهها، وتنهدت بملل، صحيح أن نية بيتر جلية وعيناه تفضحان إعجابه بها، ولكن البلاء لم يكن إلا بسلوى التي لا تتوقف عن الربط بينها وبين أيِّ رجل، حتى لو مرّ إلى جوارها ليس إلا!

«لِمَاذا لا يشغل بالها إلا نصفيَ المفقود؟! سحقًا.. فليبقَ المفقود مفقودًا».

وأعادت خصلة متمردة خلف أذنها، انتفض جسدها بعدها من شدة البرد.

«بـــرد؟!».

قالت بتعجب وعيناها تتفحصان ما حولها، فجميع النوافذ مُغلقة!، ثم مشت نحو حجرة فارس وصحَّ تخمينها فها هو يدفع بنصف جسده العلوي خارج إطار النافذة المفتوحة ورأسه يدور يمنةً ويسرة، لم تنتهره أو تحذره من السقوط، بل بدلًا من ذلك شاركته تهوره فبرزت بنصف جسدها هِيَ الأخرى تنظر بفضول إلى ما ينظر إليه.

انتبهت فجأة لتقول:

- السياج الحديدي من الممكن فتحه!

ضحك فارس على صرختها الغريبة، ثم أشار إلى مزلاج سفلي:

- بالطبع.. بل ومن السهل فتحه أيضًا، ولكنني كسرته بالخطأ.

لم يداوِ جرح معرفتها المتأخرة بأنه يُفتح سوى إدراكها بأنه لم يكن ليكون ذا فائدة؛ فالهرب بالقفز من الطابق التاسع هو انتحار صريح، وأبصرت عينيْ فارس اللتين ما زالتا تتجولان يمنة ويسرة، فسألته:

- عمّ تبحث؟!

أجابها بحماس شعّ من عينيه الزرقاوين المبتهجتين، وسبابته تشير إلى بقع مختلفة:

- لو أنشؤوا حديقة هنا يجاورها مبنًى من ثلاثة طوابق هناك تغطيه واجهة زجاجية عاكسة، ويقابله من الطرف الآخر مبنًى ذو تصميم هندسي يعلوه سقف مثلث الشكل ويلتصق به محل للتبضع ذو . . .

حديثه جعل عينيها تتسعان ثم سألته بدهشة:

- لماذا أنت مهتم بمثل هذا الهراء؟

- عندما كنت في المستشفى لم يُتح لي الخروج لسنوات كثيرة لذا كنت أقضي معظم الوقت أمام النافذة فكان أكثر ما يزعجني هو الفوضى في تصميمات المباني وغياب التناسق في ألوانها والمساحات الفاصلة بينها و. . .

وغرق في وصف ما كان يراه، فانقبض قلبُها لهاجس قديم خَطَرَ ببالها، لكنها لم تلبث أن تجاهلته تمامًا، كما تجاهلت باقي حديثه الذي انتقل فجأة ليصف أكواخ ومباني قرية السنابل التي سحرت عينيه وسلبت لبّه. . .

تأملت بحب ابتسامته وتفاصيل وجهه المتحمس، ثم مدت سبابتها لتلمس بين حاجبيه قائلة بحنان:

- لطالما أسر عينيك كل ما هو جميل.

رد بانبهار:

- نادر أيضًا، لم أرَ أفضل منه، لديه ذوق في الملابس لا يسعكِ إلا أن تُعجبي به.

تجهم وجهها، وتصدّرت ذاكرتها (مسخ الموضة)، ولم يقرأ عقلها من عبارته الممتدحة لنادر إلا أن عليها أن تراجع ذوقها بجدية؛ فنادر ذو رأي في الملابس يُعتدُّ به، وهو من المؤهلين للحكم على ذوق الآخرين، ولسوء

الحظ فقد تلقت حكمًا مُسبقًا منه بكلمات كانت هي الأبشع في سنوات حياتها كلها.

«الوغد!».

تمتمت بها شفتاها بهمسٍ خافت فهي ليست بالغباء لتجهر بها فتُكدِّرَ مزاج فارس بعد أن أدركتْ من خلال أقسى الطرق (نوبة الصرع) مقدار حبه الشديد له، صحيح، هو أنقذ فارس، ولكن من منحه الحق ليؤذيها من أجل إنقاذه؟

من المحتمل أنه لو اختطف شخصًا غيرها وعرف غايته الطيبة لهرع راكضًا نحوه يلهج بشكره، ولكن ليس هِيَ، لو أنها رجل وليست امرأة لكان الأمر أيسر على نفسها، ولكن ذنبه أعظم لأنها امرأة.

«العائلة أولًا وأولًا ثم أولًا».

قالتها وأضراسها تطحن بعضها بعضًا، فلقد تسبب أيضًا بخلل في المبادئ التي حرصت على غرسها في أخيها منذ صغره، بأن أحرز غريب مثله درجة تفوّق بها عليها جعلت فارس يُفضِّلهُ علَيْها.

«قلتِ إن نادر سيعود خلال ساعتين، لقد تأخر أليس كذلك؟!».

انتشلها بسؤاله من بحر ضغينتها فرفعت أحد حاجبيها، وقد تذكرت فجأة لتسأله:

- ألست منزعجًا لأننا صرخنا معًا ومنعناك من الخروج؟

تحرك ليجلس على سريره، وطيف من الضيق يختفي من وجهه بسرعة ظهوره نفسها، وهو يجيبها بتأثر:

- في البداية بلى، ولكن تذكرت حديث جدتي جواهر معي قبل موتها وعندها انتبهت أنه الاتفاق الأول بينكِ وبين نادر.

وابتسم بحماس:

- فكنتُ سعيدًا أكثر.

امتقع وجهها، وكادت تصرخ غاضبة، لكنها تمالكت نفسها، وعَزَت الأمر إلى أن مرض سلوى قد يكون مُعديًا حتى عبر الهاتف، وإلا فلماذا أخوها هو الآخر منشغل بنصفها الآخر؟!

نهضت، واتجهت إلى حقيبة سفرها لترتبها من أجل الرحيل وهي تجيب سؤاله السابق بثقة:

- لا، لم يتأخر، قلت لك إنه سيعود قبل انتهاء الساعتين ولم تنتهِيا بعد.

وشمخت برأسها فإن كان يعلم مصلحة نفسه فسيعود بالتأكيد قبل موعد مهاتفة سعد لها؛ ليضمن سلامة رفيقه.

سألها فارس بتوتر وهو يتجه إلى حقيبة سفره:

- ولكن هل أنتِ موافقة على السفر معه في سيارة واحدة؟!

- بالتأكيد، ما دام ذلك يُرضي أخي ويُسعده.

أجابته بابتسامة زائفة سرعان ما رحلت عن شفتيها، لكنها نجحت في إبهاج فارس وطمأنته بعد ما أثقلت صدره بالحزن والهمّ بالأمس بسبب موقفها حينما أرادت أن تأخذه بعيدًا عن نادر.

وانشغل فارس هو الآخر بترتيب حقيبته بهدوء، ثم لاحظ بغتة رميها لملابسها بإهمال داخل حقيبتها، ظلت تُكدس الواحد فوق الآخر قبل أن تزفر بسخط، ثم ضغطت برُكبتها عليها بأقصى قوتها من أجل إغلاقها، وأغلقتها أخيرًا.

تنهدت براحة، وعيناها تتجهان للنظر إلى فارس، فرأت عينيه المسمرتين عليها بدهشة، وعقله يستنكر: هل كانت بهذا التكاسل قديمًا؟!

ثم انتفض جسده بفزع للشتيمة التي أطلقتها وهي تمر إلى جواره بسرعة، لتصطاد أحد الأوشحة القطنية الجديدة الذي نسيته على سريرها.

رفعته، واحتقن وجهها، وراوحت بصرها بينه وبين حقيبتها المغلقة، فهتف فارس مُنقذًا لها:

- لا عليكِ، أنا سأضعه في حقيبتك ثم أغلقها بنفسي.

منحته ابتسامة هادئة غريبة: «لا حاجة لذلك».

ثم مشت نحو المطبخ ورمت به في أحد أركانه، ليجاور منشفة قديمة مهترئة أُعدت للتنظيف. كانت تبتسم وهي تضرب كفًّا بأخرى قائلة:

- الآن انتهينا.. نحن جاهزون للرحيل.

بينما ظل فارس غارقًا في صدمته متخيلًا ردة فعل جواهر لو رأت مدى دلالها وعبثها باستغنائها عن وشاح بدا فاخرًا للغاية وباهظ الثمن! بالتأكيد تلك العصا لن تُخطئ ظهرها أبدًا!

«ألن تجمع هذه؟!».

قالت وهي تنظر بفضول إلى سريره الذي انتثر فوقه أوراق قديمة، بالإضافة إلى أشياء غريبة لم تُمَيِّز ما هي، لكنها جميعًا قد خرجت من حقيبة ظهره المفتوحة..

وعندما مدت يدها نحو إحدى تلك الأوراق فاجأها فارس باندفاعته الغريبة ليختطف الحقيبة ثم راح يجمع فيها تلك الأشياء قائلًا بانفعال: «إنه سر!».

اتسعت عيناها، وظلت واقفة لنصف دقيقة بهدوء ثم عم وجهها الفوضى بغتة وصرخت: «لا». فارتفعت ضحكاته بعد ما تيقن من أنها لم تتخلص من عادتها القديمة.

- ماذا يوجد بها؟ أنت تعلم أن نقطة ضعفي هي كلمة (سر) ومع ذلك تنطقها بكل جرأة أمامي.. أنت المذنب.

ومدت كفيها نحو الحقيبة لتأخذها منه، فازدادت ضحكاته وهو يرفعها للأعلى، وانتبه فجأة أن ذراعيه قد تجاوزتا في طولها طول ذراعيها الممتدتين إليه..

وعندئذ تعمّد إغاظتها بأن حرك ذراعه اليسرى الممسكة بالحقيبة إلى الخلف، بينما أنزل الأخرى لتُمسك بكتفها موقفًا اندفاعتها فانتبهت لقبضته القوية مقارنة بقبضته عندما كان طفلًا تنتزع منه أشياءه دون تعب.

تقوست شفتاها وغشى الحزن قلبها، فعندما رحلت لم يكن طوله يتجاوز خصرها حتّى، لقد فاتها الكثير والكثير...

فاض قلبها بمشاعرها التي لم تستطع أن تجزم أيّها تفوق على الآخر، حسرتها وأساها على التغيير الذي فاتها، أم فرحتها وامتنانها لأنه يقف أمامها الآن، حيًّا، يضحك، ويشاكسان بعضهما بعضًا كالسابق..

تلألأت عيناها بدمع خفيف، وهي تذكر لحظة مولده، لم تكن هي الأخرى ساعتها سوى طفلة صغيرة ملأ قلبها الفرح لمشاركة طفل آخر لها المنزل بعد وحدتها بين والديها لتسع سنوات...

وارتسم ذلك المشهد القديم أمام عينيها..

.

.

أحمر.. أخضر.. أزرق.. أصفر..

شمسنا صفراء...

أحمر.. أخضر.. أصفر.. أزرق..

سماؤنا زرقاء...

أحمر.. أصفر.. أزرق.. أخضر..

عُشبنا أخضر...

أصفر.. أخضر.. أزرق.. أحمر..

عيوننـــــا حمـــــراء...

أنشدت الأخيرة بنبرة ممتدة، مُحلقة كفيها كالمنظار حول عينيها السماويّتي اللّون، وقدماها تواصلان القفز فوق الأحجار المرصوفة على جانب الواجهة الأمامية للمستشفى العام.

مرَّ إلى جوارها العديد من الأشخاص، منهم الأطباء، والمرضى، وزوار المستشفى، وكُلَما وقعت عيونهم على ابتسامتها الجميلة، أو بلغ سمعهم كلمات أغنيتها المرحة ابتسمت شفاههم.

امرأة فقط تجرأت لتقترب من الطفلة ذات الأعوام التسعة، ثم جلست أمامها القرفصاء لتسألها بلطف: «ما هو اسمكِ؟».

توقفت عن القفز وابتسمت للغريبة: «مايا!».

تأملت المرأة شعرها غير المُرتب، والمجموع على جانبي رأسها بشريطتين مختلفتين لونًا وخامةً، ثم فستانها الأزرق المنسدل إلى نصفي ساقيها، وحذاءها الأخضر البارزة من أعلاه جوارب صفراء..

فوضى في الألوان لم تتقبلها عينا السيدة التي هزت رأسها باستياء، ولم تلبث أن سألتها بلطف:

- أين والدتك؟

أشارت بذراعها كاملةً نحو المستشفى:

- هناك.. تَلِدُ أخي فارس.

بدا الإشفاق في عيني المرأة بعد أن تفهمت السبب في هيئتها هذه؛ فبالتأكيد هي من سرحت شعرها واختارت ملابسها.. فقالت:

- ادخلي إلى المستشفى.. الشمسُ قوية وقد تُصابين بضربة شمس.

اتسعت شفتاها وعيناها معًا، وسألت:

- الشمسُ تضرب؟

ضحكت المرأة لبلاهتها، ولم تملك نفسها أن أمسكت بكفها وجذبتها نحو المستشفى مُجيبة:

- نعم.. حين تبقين تحتها لوقت طويل تنزعج وتقول من الذي يتحداني و.. بوووووم.

ظنتها ستفزع، ولكن عينيها ظلتا متسعتين بانبهار لثانيتين، ارتفعت بعدها إلى الأعلى، تنظر إلى الشمس بانتظار ضربتها..

أدخلتها المرأة إلى المستشفى ثم تجولت بنظرها في كل ما حولها، تبحث عن مكان تُجلسها فيه، وقد خمنت أن لهذه الفتاة عائلة غير مسؤولة؛ فحتى لو كانت والدتها تلد فأين والدها؟!

لم تكن قد قررت أين تُجلسها بعد، حين تفلتت مايا الصغيرة من كفها ثم ركضت نحو المصعد المفتوح لتحشر جسدها الصغير بين عدد من الأطباء، والمراجعين، ورغم نداء المرأة لها إلا أنها تجاهلتها ودفّتا المصعد تُغلقان ثم تحرك نحو الطابق.. نعم.. لم تكن تعلم إلى أين هو متجه حتى!

بدأ عدد الناس في المصعد يتناقص شيئًا فشيئًا، وهي لا تخرج، حتى فُتح أخيرًا على طابق بدا مألوفًا لها، فخرجت برفقة أحد الأطباء الذي لحق بها بغية الإمساك بها؛ فهو قسم (النساء والولادة) ويجب على طفلة مثلها عدم البقاء فيه.

ولكن ارتفعت ضحكاتها بغتة لرؤيتها رجلًا مُكتنزًا يقف أمام باب أزرق من دَلْفَة واحدة فصرخت وهي تقفز أمامه: «وجدتك!».

نظر بتعب إلى وجهها المرتفع نحوه والمتسخ ببقايا الشوكولا، على حين انتبهت مايا لذلك الشيء الصغير الذي يحمله بين ذراعيه، ثم سمعت فجأة من تلك الحجرة صراخ امرأة بانهيار:

- لا أُريده.. لا أُريد رؤيته.. راكان أبعده عني.

انفرجت شفتا مايا بدهشة لصوت والدتها الذي ميزته، فيما ازدرد راكان لعابه، وبدا متورطًا فهو لم يحمل طفلًا من قبل، بل ولم يتزوج حتى!

«أنا أُريده».

أنزل عينيه الحمراوين نحو مايا الصغيرة فرأى ابتسامتها المُتلهفة،

وعينيها البراقتين بحماس، وهي ترتدف:

- ماما لا تُريده.. أنا أريد فارس.

بدا وجودها هو المواساة الوحيدة له وسط أزمته هذه، ولم يقوَ قلبه على الرفض أمام الذراعين الصغيرتين الممتدتين نحوه، فنظر يمنةً ويسرة خشية توبيخ أحد الأطباء له، ثم انحنى نحوها ليضعه فوق ذراعيها..

شعرت مايا بثقله، وبالكاد ذراعاها ضمَّتاهُ، فارتفعت ضحكاتها النقية لرؤيتها ذلك الرأس الصغير المغطى بالشعر يتحرك بخفة، بينما شفتاه المدورتان تتسعان وتضيقان ببطء، ولم تملك نفسها أن وضعت سبابتها بينهما.

«ليس هكذا».

قال راكان موبخًا لها، وتلقَّت على أنفها صفعة لطيفة من تلك اليد الصغيرة، فتلألأت عيناها كالنجوم، ووقعت لسحره، وصاحت:

- عم راكان.. خذني إلى السجن.. أريدُ أن أُريه لبابا.

لم تكن قد أتمت طلبها بعد، حتّى تغيّر وجهه، وانحنى على ركبتيه ليضمّ الاثنين معًا إلى صدره، وانهارت دموعه، وعلا صوت نشيجه الباكي..

لم تعلم سبب بكائه وقتها، لكنها بعد عدة أيام علمت أن والدها قد مات بوباء السجن قبل مولد أخيها فارس ببضع ساعات..

ذلك اليوم هو اليوم الذي انقلبت فيه حياة العائلة بالكامل، (عائلة أمجد)، فأمها قد فقدت زوجها وحبيبها لتحمل مُسمى الأم فقط للطفل الذي أنجبته في نفس يوم موت والده، وأصبحت ابنتها ذات السنوات

التسع هي المسؤولة عن رعاية هذا المولود الصغير الذي كان فيه عزاءٌ وتسلية لها عن فقدها لوالدها.

طفلة تُربي طفلًا! لن ينضج ذلك الطفل بالتأكيد، هذا ما أدركه راكان بعد مرور شهر من زواجه من فاتن وبلوغ فارس عمر الشهرين..

هذا الزواج تسبب بانقلاب في حياة عائلة أمجد من الفقر إلى الثراء المفاجئ.. ولكن ما لم يتغير هو أن مايا الصغيرة أصرت على البقاء مع فارس في حجرة واحدة يرافقهما المربيات المتعددات إلى أن بلغت الثانية عشرة من عمرها، وعندها اضطرت إلى الخروج لأن لَمى انضمت إلى فارس لتشاركه الحجرة نفسها ولم تدرك مايا أنها لم تكن إلا خدعة من راكان؛ فلَمَى لم تنم برفقة الطفل فارس إلا لعدة أيام وبعدها شاركت والدها ووالدتها الحجرة نفسها.

كان دافع راكان الحقيقي هو رغبته بأن تعيش مايا طفولتها وتلهو مع رفيقاتها، وأن تُريح أخاها من حملها الخاطئ له، ومن لعبها المجنون به، والذي أرهق المربيات..

وبالفعل قضت عامين في حجرة بمفردها، ولكنها لم تبتعد عن فارس إلا في وقت نومهما، وعندما بلغ الخامسة انقلب الحال، فأصبح طفل الخامسة فارس هو من يغادر حجرته ليلًا لينام برفقتها غيرةً من أخته لَمى التي تترك حجرتها لتنام برفقة والديها..

الحب الذي حظيت به مايا من والدها أمجد قبل موته، ومن فاتن التي أغدقت عليها حبًّا وحنانًا أكبر بعشرات المرات؛ رأفةً بها لفقدانها والدها،

ومن راكان الذي ضمها إليه وكأنها ابنته، ذلك الحب كُلُّه الذي تشبع قلبها به قد جعلته بكامله لأخيها الوحيد من أبيها وأمها.. لفارس...)

«مايا».

انتشلها من بحر ذكرياتها صوت فارس الذي انتبه لعينيها اللامعتين، فعكس وجهه قلقه عليها، وهو يضع الحقيبة على السرير ثم سألها:

- هل أنتِ بخير؟

ازداد تقوس شفتيها لنبرته التي حملت اهتمامًا بها، فهزت رأسها مجيبةً له بـ «نعم». وعندها تغير وجهه بالكامل وصاح بذعر:

- إذًا هل هو نادر؟ ألهذا لم يعد بعد؟! هل هو بخير؟

مُسح تأثرها، وحلّ محلّه عبوس كبير، فلماذا قد يكون حزنها مرتبطًا به؟! ولم تملك نفسها أن تذمرت بغضب:

- لماذا لا يمكننا أن نتبادل الحديث دون أن تتطرق إليه؟ ألا يوجد في الكون غيره؟

تلعثم محاولًا الإجابة على سؤالها الذي لم يُدرك غيرتها المريرة المختبئة خلفه، لكن ما عرفه عن نفسه هو أنه لا يهتم إلا لهما، هي ونادر، وعندها أمسكت مايا بكفه وجرّته ليشاركها الجلوس على السرير، ثم قالت بانفعال:

- لتعلم فقط.. هذا الرجل استطاع مساعدتك وإنقاذك لأنني كنت بعيدة عنك ولو كنت أنا الموجودة لم يكن لينقذك غيري.. هل فهمت؟

تأمل فارس وجهها الجاد بشرود، ثم شهق بذعر:

- من الجيد أنكِ لم تُنقذيني!

اصفرّ وجهها، واتسعت عيناها صدمة:

- لماذا؟

فأجابها بسرعة:

- لأنه عندها لم أكن لألتقي بنادر!

خيَّم صمت قاتل على الشقة، غالبت فيه نفسها ألا تُطلق ما بداخلها عليه. وقد أثار غيرتها أضعافًا مضاعفة، على أحد أن يُخرسه قبل أن تقتله أو تقتل ذلك الوغد نادر.

بل إمعانًا في السخرية والاستفزاز أردف بتفكيره البسيط:

- صحيح.. في جميع الأحوال لا يمكنك الاستغناء عنه.. فأنتِ لستِ طبيبة مثله لذا لم يكن بإمكانك علاجي دون مساعدته ومن ثم إخراجي.

اهتز حاجباها الرقيقان بسخط، فكيف له بمثل هذا الوجه البريء أن يرمي هذه الحقيقة المُرة في وجهها بهذا القدر من الصراحة والوقاحة معًا جارحًا كبرياءها العميق.. ألا يملك مشاعر؟!

والأسوأ أن كرامتها ستكون على المحك لو علم أنه حتّى بعد أن نجح نادر في الجمع بينهما لم تستطع الاستغناء عنه، وقد اضطرت مُكرهة لإدراجه في خطتها.

هِيَ الآن، عاطفيًّا: تُريد أخذ أخيها والهرب به مئات الأميال بعيدًا عن نادر.

لكن، منطقيًّا: هِيَ بحاجة لهذا المعالج النفسي المتطفل للعناية به طوال الأربعة الأيام حتى يصلا إلى العاصمة ومن ثم تُسلِّمه إلى الطبيب بيتر، بل ولا تنكر حاجتها إلى خبرته في التكفل بنقاط الشرطة طوال سفرهم..

خلاصة الأمر: هِيَ (تحتاجه ولا تُريده).. والسبب فارس.

ركلت فجأة بقدميها الأرض في نوبة غضب عنيفة، هي لن تتردد أبدًا، ستستغل هذه الأيام القليلة في التقليل من عمق العلاقة بين أخيها ومُعالجه النفسي حتى يتهيأ قلب أخيها الهش لوداعه، ومن ثم يعود حبه إليها وحدها كالسابق.

سمعت ضحكاته الصاخبة جوارها فالتفتت نحوه بحنق:

- ماذا؟

- الآن علمتُ لماذا كان والدي يُناديك ماشا وليس مايا.

احمر وجهها لذلك اللقب القديم الذي عاد مجددًا فرفعت كفيها نحو وجنتيه لتقرصهما، ولكنه قفز هاربًا قبل أن تصل إليه وقد زادت ضحكاته..

وارتفع فجأة رنين هاتفها قاطعًا شجارهما، فتوقفت عن مشاكستها معه وكسا وجهها جدية شديدة جعلته يهدأ ويبقى واقفًا في موقعه ينظر إلى حالها الذي تبدل تمامًا كعادتها قديمًا حين تكون مع شخص غيره..

التقطت هاتفها ثم بدأت بمحادثة المتصل بنبرة عصبية:

- ما معنى هذا؟!.. ستتأخران!

اتسعت عيناها عن آخرهما وهي تغادر الحجرة، ثم تذمرت:

- أكرم، نواف.. كم عمركما؟ إن كانت علقت السيارة في طين القرية فكيف انتهى بها المطاف بالارتطام في جدران أحد المنازل؟!.. ماذا؟!.. أكرم ضغط على دواسة الوقود بإفراط!

لم يهتم فارس بالاستماع إلى مُحادثتها، وعقله تستولي عليه فكرة بدت ممتعة، فيما ذرعت مايا الصالة جيئة وذهابًا صائحة بعصبية:

- لا.. هل سأضطر للانتظار إلى صباح الغد؟!.. كُلَ دقيقة تتأخران فيها تؤخر من علاج أخي.. اسمعا جيدًا لقد أغلقتُ حقيبتي.. بالتأكيد، لا أُريدُ فتحها.

وازداد غيظها لحد توبيخهما:

- بل مُنذ البداية، لماذا قررتما البحث عني في قرية السنابل؟! بالتأكيد، لم يكن ليأخذني إلى منزله.. هو أذكى منكما.. هل علمتُما الآن لماذا أضفته إلى خطتي ؟!.. ماذا؟!.. عليكما أن تتقبلاه فقد تنقَّلَ بأخي لأربعة أيام دون أن توقفه سيارة شرطة واحدة.. نعم أخي بحاجة إلى عنايةٍ خاصة منه.. توقفا عن إظهار قلقكما علينا على حين أنه اختطفني أمام أعينكما.

وأغلقت الخط بغضب مفرط لتركل بعنف طاولة قريبة.. لماذا هما بهذه السذاجة ؟!.. هما كأحجار الشطرنج يحتاجان إلى خطة، وإلى يد تُحركهما، وإلا فسيبقيان تائهين ببلاهة في موقع واحد فقط.. الآن علمت حجم العبء الذي كان يُثقل كتفي والدها قديمًا.

وبمناسبة رفضهما للغريب، رمت نظرة ساخطة نحو باب الشقة، مستنكرة: لماذا لم يرجع هذا المتغطرس بعد؟ هل هو يتحداها؟

نظرت إلى ساعتها فوجدت أنه لم يتبقَّ سوى نصف ساعة على انقضاء الساعتين، فقالت:

- لن يلبث أن يستسلم ويعود كالدمية أحركه كيفما أشاء.

ثم غمغمت باستخفاف:

- ما كان عليه رفض المال الذي عرضته عليه.. الرجال وكبرياؤهم الغبي!

أصدر هاتفها بغتة صوت تنبيه بوصول رسالة إليه، ففتحتها بسرعة، وعندئذ زال ضيقها بالكامل، وحمدت الله أن المُسِنّين في العاصمة ليسا كرفيقيهما السابقين.

ضغطت على الرابط الإلكتروني في آخر الرسالة فانتقل بها مُباشرة إلى حدث يُبث على إحدى القنوات الرسمية لبلدها، ظلت تتابع ما يُعرض بحَماسَة ثم اتسعت شفتاها بابتسامة لرجال الصحافة والمصورين الذين غطوا المدخل الرئيس لشركة فاضل، وجميعهم يسعون خلف الهدف نفسه؛ الفوز بسبق صحفي حول مقطع الفيديو المنتشر والحصول على توضيح من رئيس الشركة نفسه.

«رائع سامي».

هتفت بسرور، وهي ترى المقطع - الذي لم يمرَّ على تسريبه أكثر من ساعتين - يتم تداوله عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وكلٌّ يُدلي فيه بدلوه، ويحلله بغباء، ومهما استماتوا للوصول إلى حقيقة قصته فلن يفطن إليها إلا من كان فيه فقط.

أسعدتها التساؤلات المطروحة حول المستشفى، وموقعه، ومن

مديره، فيما أبدى البعض خوفهم من تأذي مرضى آخرين.. على حين لم ينتبه البعض الآخر إلا للرجال المحجوبة أوجههم عدا فاضل فتكهنوا حول هويتهم وأظهروا استهجانًا شديدًا للحديث الشائك المتبادل بينهم حول مال الفتى..

ضحكت بفرحة لهدفها الذي تحقق، لقد فتحت أمام فاضل جبهات أخرى للقتال بدلًا من واحدة كان يوجهها نحو أخيها فقط..

الآن سيرتاب في كل من معه في الفيديو دون استثناء، ما دام هو الوحيد المكشوف الوجه والمفضوح الهوية، سيشك في مدير المستشفى وسالم وياسر ونادر وحتى حارسه.. لن يكون لهذا الفيديو أثر طفيف عليه لأنه يعلم أنه حقيقي لذا سيرتكب الكثير من الأخطاء التي ستكون ذات نفع لها لاحقًا.

أحسَّت فجأة وهي تتابع الفيديو بانزلاق شيء على وجنتيها رفعت كفها لتمسحها فوجدت قطرات من الدموع قد تفلتت من مُقلتيها بالرغم عنها..

تأملت كفها المبللة بصمت..

وظلت صامتة، وصامتة، قبل أن يرتفع صدرها ويهبط بنفس عميق..

لِمَ هيَ مُبتلاة بهذه العائلة المشؤومة؟

الكلٌّ يسعى لإيذاء الآخر دون ضمير، بدءًا بجدها ووالدها وانتهاءً بعمها الآن.. إلى متى ستظل هذه العائلة تنحط أكثر وأكثر؟!

ألا يدركون حجم البؤس والذل اللذين جعلوها تعيشهما؟! فهي الآن تحمي أخاها من عائلته الحقيقية تحت مُسمى عائلة أخرى.

بل فاضل.. عمها اللطيف! والوحيد من بقي لها من عائلتها، وشابهها في الاسم.. كيف استطاع قلبه ارتكاب مثل هذه الجرائم في حق ابن أخيه؟!

هل يستحق المال هذا؟ أن يكون بهذا القدر من الدناءة والحقارة لأجل الحصول عليه فقط؟!

تنهدت بألم وحسرة، ففي كل مرة تتقبل الانتماء إليهم يدفعونها للاشمئزاز من اسم عائلتها أكثر وأكثر!

بالكاد نسي العالم حادثة والدها وجدها بجهد من فاضل الذي لَمَّعَ اسْم العَائلة لتجده الآن هو من يُمرغ رأسهم مرة أخرى في الوحل.

غطت شفتيها ابتسامة كئيبة؛ إلى أي درجة بلغ بها جهلها وحزنها حتى أنها لم تنتبه لما يفعله من خلفها بأخيها، هل السبب أنها كانت تجد فيه ذكرى والدها الراحل؟!

وفجأة غمر قلبها شيء من الرضا؛ فمن الجيد أن فارس لن يحمل اسم هذه العائلة المُخزية الظالِمة.. يكفي هِيَ وحدها.. ولذا سترُدُّ عليهم بمستوى القذارة نفسه دون قلق من أن يمسَّ صورة فارس أوسمعته شيء في المستقبل.

استفاقت من غمرة حزنها وكآبتها على صوت غريب صدر عن حجرة فارس ففزع هلع شديد إلى وجهها خشية سقوطه من النافذة، ركضت نحوها ليصدمها أن مصدر الصوت كان ناتجًا عن حقيبة الظهر التي رماها على الأرضية بين السريرين وقد ملأ وجهه شحوب لم ترَ عليه مثله من قبل..

«ما الأمر؟!».

سألته بقلق وهي ترى جموده، وقد توسطت كفَّيه أوراق بان قِدَمُها من لونها المُصفرّ الشاحب.. لم تكن قد أتمت سؤالها بعد حين فاجأها بانتفاضته وكأنه للتو أدرك دخولها، أسرع يضع الأوراق إلى حد تجعيدها في ملف بلاستيكي ثم أخفاه في فراغ الحقيبة الساقطة وأغلق السَّحَّاب بقوة.

ما فعله زاد من استغرابها وقلقها، أرادت استجوابه عنها، أخذها منه، والنظر فيها، ولكن عينيه الزرقاوين عكستا رفضًا مُشابهًا لرفضه حين كانت تجره إلى الخارج للهرب من نادر، وعندها قررت عدم الضغط عليه خشية تكرار نوبته.

بقيت متوترة وهي تراه يرفع الحقيبة ليحتضنها بقوة بينما تحركت عيناه للأسفل، وقد اشتدّتَا حُمرةً حتى أن شفتيه قد اهتزتا مما جعلها تفزع.

«فارس.. أنت بخير؟!».

سألت، وكفُّها تمتد لتربت على كتفه، ففاجأها التماع زاويتي عينيه الممتلئتين جزعًا ببعض الدموع التي بالكاد كبحها عن النزول فسألته بدهشة:

- ماذا يوجد في هذه الأوراق؟ هل هو شيء سيئ؟ أخبرني سأُساعدك.

- لا أستطيع إخبارك.

ردَّ فجأة بخفوت باعثًا قلقًا أعمق في نفسها، ولم تُلح عليه كالسابق، بل داست مُرغمة على كبريائها لتقول:

- لا بأس إذًا ما رأيك أن تخبر طبيبك نادر حين يعود؟

والغريب أنه بدلًا من أن يهدأ، زاد ذلك من فزعه، وصاح:

- لا.. لا.. يجب أن لا يعلم أبدًا.

امتقع وجهها من رفضه الغريب، ولم يُسعفها عقلها بحلٍّ آخر، لكنه سألها فجأة:

- كم بقي على رجوعه؟

- أقلُّ من نصف ساعة.. أنا مُتيقنة من ذلك.

- كلا.. أُريدُه الآن.

- ماذا؟

لم يُجبها، بل أظهر لها ذلك الوجه الذي دومًا ما أذعنت له فصاحت:

- لا بأس سأذهب لإحضاره.. لن أتأخر.

وخرجت أمام عينيه المراقبتين لها ولم يكد يسمع صوت باب الشقة الذي أغلقته خلفها حتى فتح الحقيبة ثم أخذ الملف البلاستيكي الممتلئ بالأوراق وركض نحو المطبخ.

أغلق الباب على نفسه ثم سحب قداحة من أحد الأدراج ورمى بالأوراق في منتصف الأرضية وبدأ بإشعالها الواحدة تلو الأخرى.

وفي الخارج جرت مايا في الممرات ونظرتها العصبية تكاد تقتل كل من تقع عليه.. بحثت بعينيها عنه هنا وهناك وحين لم تجده استقلت المصعد إلى الأسفل، ولكن لا أثر له لا في الطابق الأول ولا الطابق الأرضي أيضًا..

وانقبض قلبها فحتى سيارته ليست بموقعها.. هل هرب وترك رفيقه خلفه؟

«سحقًا!» صاحت بأعلى صوتها، وهي تعود راكضة إلى فارس، وقد أخبرها حدسها بأنه ليس عليها أن تتركه بمفرده كما تركته بالأمس فأصابته النوبة.

****

-٢٠-

(قبل ٢٤ عامًا).

«امرأة كئيبة!».

تبادلت الجارات الحديث في ما بينهن، في جمعٍ اتفقن عليه دون علم أم سمير، بشئن فيه مكنون أنفسهن بعضهن لبعضٍ حول استثقالهن لزيارتها المتكررةِ لهن..

- في كل مرة تأتي أطرد زوجي من المنزل.. ماذا لو أصابتنا بعينها؟
- زوجي يرفض مجيئها فسمعة زوجها قد أضحت علكة لاكها الناس حتى فقدت طعمها..
- هي بلا ذرة حياء! كيف لا تزال باقية معه رغم سمعته؟
- تعلمين كم تعشق المال وقد وفَّرهُ لها، ولكن الثمن فقدانها له..
- فليجعلني الله أفقده.. رجل بأخلاقه لا أسف عليه ولا على ماله الحرام.
- أتظنين أنها قد ظلمت ليلى حين قالت عنها إنها كانت تسعى لترتبط بزوج واحدة منا؟
- الله أعلم بحقيقتها.. هذه العائلة قد تكون ملوثة بأكملها..

تحركت امرأة بعيدًا عن باب المنزل الذي جلست الجارات في فنائه يسمرن ويتحدثن عنها. شدت عباءتها حولها مُتيقنة أن ليلى هي من

أصابتها بسوء الحظ فمنذ لحظة دخولها إلى منزلها وحالها يتردى من سيئٍ إلى أسوأ..

- أستحق ما حصل لي.. أنا من استقبلتها بكل طيبة في منزلي.

قالتها بحسرة وهي تدلف إلى منزلها، وقد استسلمت أخيرًا لفكرة أن علاقتها بالناس لم تعد تتعدى محيط منزلها..

سمعت ضحكات ابنها سمير في الحجرة التي كانت تسكنها ليلى، كالعادة هو برفقة زملائه من المدرسة يسمرون ويلعبون الألعاب الإلكترونية، بينما أكياس الأطعمة والمشروبات في ازدياد؛ فالشيء الوحيد الذي امتلكه سمير من والده هو المال، والذي أغدقه عليه بإسراف في كل مرة يزوره في مزرعته بهدف تأخير قدومه التالي، وأيضًا ليكسبه في صفه ضد والدته فيرتاح من مشكلات أحد أفراد أسرته، وقد استغل سمير ذلك أيما استغلال..

فكَّرت الأم أنه لا ضير من صنع بعض (الفشار) تشارك به ابنها سعادته.

كانت في طريقها إلى داخل المنزل حينما ارتفع صوت جرس الباب فجأة.. أسرعت لتفتحه فوجدت أن إمام المسجد هو الزائر لهم، بدت الدهشة عليها، بينما ألقى سلامه بأدب، ثم ناولها صندوقًا غريبًا، وهو يقول:

- زوجتي كانت في حلقة التحفيظ التي تزورها ليلى، وقد أرسلت إليها ليلى بهذا مع مُسافر من مدينتهم لتوصله إلى ابنك سمير، إنه هدية منها إليه.

شحب وجهها، فمنذ متى كانت علاقة ابنها بهذه المرأة جيدة؟

أخذت الصندوق منه ثم ركضت إلى داخل المنزل لتفتحه وترى ما فيه..

****

-٢١-

جلس رجل قد تجاوز العقد الخامس من عمره على مقعد جلدي خلف مكتب قديم انتشر فوقه عدد كبير من السجائر المطفأة، والتي ما زالت تعلو سحب الدخان من بعضها، كان مرفقه الأيمن يتكئ على ساعد يده اليسرى المرتاحة على كرشه الضخمة، بينما قبضته اليمنى تغطي فمه وجزءًا من أنفه؛ لتمنع صوت ضحكاته من الخروج.

ظل جسده يهتز لدقيقة بأكملها قبل أن تنفجر ضحكاته لتملأ المكان كُلّه، فالتفت نادر نحوه بوجه غاضب وجبين مقطب دفعاه ليحرك كفيه أمام وجهه قائلًا:

- عذرًا.. ولكن هي المرةُ الأولى التي أراك فيها بهذا الحُمق!

احمَرَّ وجه نادر، وضغطت سبابته بعنف على زر آلة القهوة ليحصل على كوبه الثالث فنهض الرجل بسرعة وأبعد كفه عنها قائلًا بتعب:

- لا تكسرها، سأعدّ لك واحدًا بنفسي.

تنحى إلى الجانب، وقد أدرك أنه على وشك تحطيمها بالفعل، كان ما زال يغلي من الداخل، فهو لم يُقلِّل حَذَرَه من قبل، لا في السجن، ولا بعد خروجه من السجن...

لم يثق بأحد، ولم يتهاون مع رفاقه حتّى...

ومع ذلك فقد قلّل من حذره مع امرأة، ظنها بلهاء، ولكنها استطاعت

أن تلوي ذراعه بعد عدة ساعات من لقائه بها بواسطة شخص بريء يبعد عنهما مئات الأميال.

أخرج هاتفه ونظر للصورة مجددًا فازدادت النيران في أعماقه اضطرامًا، الأوغاد لم يتهاونوا معه أبدًا، واستبدَّ به قلق شديد وهو ينظر إلى الحبال الموثقة لذراعي أحمد وساقيه وقد حفرت أثرًا في جلده من شدة انغراسها فيه.

«هل هو يعلم حتّى لماذا اختطفوه؟».

تساءل بإشفاق، فلقد حذّره من قبل من فاضل، ولكن الخطر الحقيقي أتاهما من حيث لم يحتسبا، من أخت فارس!

صرَّ على أضراسه غيظًا وقد قرر الخضوع لها، فأحمد يستحيل أن يُخلِّص نفسه بنفسه. لو كان المُقيَّد أحد رفاق زنزانته لما كان بهذا القلق، ولكنه ذلك الساذج أحمد الذي لم يبدأ في حياته شجارًا قط.. قد يكون أتقن خلال سنوات صداقتهما شيئًا من الدفاع عن نفسه، ولكن بالطبع بيدين حُرتين وليستا مكبلتين!

فهل سيقوى على الصمود الآن أمام تنمرهم المتواصل إلى أن يُخلّصه؟

أطلق زفرة عميقة ونفسه تحَرِّضُهُ للصعود إلى الشقة حيث تلك المسخ ليُذيقها جحيم غدرها به، ولكنْ شيء من الحكمة ردعه فما زال أمرُ أحمد بيدها، كما أن فارس لا ذنبَ له في ما فعلت ولن يُطيق إيذاء قلبه بإيذاء أخته.

«بالتأكيد لا يكون الانتقام دومًا باليد».

قالها وحرك عُنقه يمنة ويسرة مصدرًا صوت فرقعة عاليًا، ورسم عقله

خطته، فلسوء حظها قد تحدثت أمامه بالكثير والكثير وكشف وجهها من التعابير ما جعله يعلم ما يزعجها و... (يؤلمها).

لكنه لم يلبث أن أغمض عينيه بسخط، فهو مضطر الآن إلى كسر موعده مع ريم، ولكن لماذا لديه موعد معها؟

لأنها قد أرسلت إليه في صباح هذا اليوم الجميل مقترحها الذي لم يستطع رفضه، بل وبهره للغاية..

أخبرته بأنها تعلم أنه لن يبيع إرثه من والديه، المتناقل عبر الأجيال، وفي الوقت ذاته تُدرك أنه لا يرغب بالعودة إلى هذه القرية؛ لذا بدلًا من تركه للحقل والكوخ مُهملين اقترحت أن يسمح لها بترميم الكوخ وأن تضيف إليه عدة طوابق لتستقبل السيّاح فيه على حين يؤجر حقل التفاح لأحد المزارعين ويقتسمان ربح المحصول بينهما بالمناصفة.

صفقة مُربحة يكسب منها مالًا وفيرًا وهو بعيد عن قرية السنابل بينما يكون لها هِيَ نصيب من الربح بصفتها مسؤولة العقارات التي ستتكفل بكل شيء..

مشروع لم يشوهه تغنجها، ولم تخلطه بكلمات حبها، ولا توسلها عودته أو الزواج منه.. كانت كشخص يسعى للربح ليس إلا..

وبالفعل اتفق على اللقاء بها بعد أن يأخذ مكافأته من مايا، سيوقع معها بعض الأوراق ثم سيزور قبر والديه، وقد يصنع لهما بجزء من مال المكافأة خيرًا يعود بالنفع عليهما في آخرتهما ثم سيغادر القرية للأبد ليُحقق ببقية المال بعضَ رغباته المكبوتة..

حياة جديدة لا موقع لعائلة بسام ثروت فيها، ولا لفاضل، ولا لمايا

و... ولا لفارس حتى.. وغمر قلبه حزن انعكس بعضُه على عسليتيه..

الحقيقة التي لا مفر منها أنه مَهما خَلَّقَ فارس في تَخَيُّلَاتِه فسيظل هو الشخص المنطقي والواقعي الذي يعلم أنه بوصول فارس إلى أسرته لم يعد هناك سبب ولو ضئيل لبقائهما بعضهما مع بعض..

وبالفعل كان قبل عدة ساعات منشغلًا بالتفكير في أنجح الخطط وأخفها وقعًا على نفس فارس كي يتقبل فراقه، ولكن مخططه هذا قد تحطم بالكامل بفعل شيطانة اسمها مايا...

- عائلة بسام ثروت لا تمزح.

تمتم بغضب تأجج من جديد وكوب القهوة يكاد يُكسر بين أصابعه، وعندها سمع الضحكات التي عادت لتجلجل مرة أخرى، فجرّ نفسه ليجلس على مقعد قريب من مدير الفندق الذي اختنقت ضحكاته في حلقه، وهو يسرع ليختطف طبقًا معدنيًا من على مكتبه، ثم أبعده عن نادر الذي لم يستطع كبح ابتسامة متفاجئة، وقال:

- لم تنسَ بعد!

- من الخير لي ألا أنسى فلم تكن تُفرغ غضبك في السجن إلا بضرب أفواه الآخرين به.

- يبدو لي وكأنك تتحرق رغبة منذ عشر سنوات لرؤيتي بهذا الحال البائس! أنت مستمتع وكأن الطبق المعدني ما زال يؤلم فمك.

- أيها الوغد!

قال وهو يفرك فكه بغيظ، فيما تفقد نادر ساعة هاتفه، ليجد أنه لم يعد يفصله سوى عشرِ دقائق عن الوقت المحدد له من مايا، وعندها أسرع

يرتشف من قهوته، بينما قال مدير الفندق بجدية:

- اختطافك لامرأة قد تسبب بفوضى كبيرة بين موظفيّ، قد يُدار تحت سقف هذا الفندق العديد من الصفقات غير القانونية، ولكنها لم ترتبط بامرأة من قبل، ما زال بعض الرجال هنا يملكون مروءة وشهامة.

- إذًا كيف تصرفت معهم؟

سأله نادر وما زالت تلك الابتسامة تغطي شفتيه فرد المدير بهدوء:

- أخبرتهم أنك لست بالدناءة التي يظنونها وأنني أعرفك جيدًا.. فلا بد لك من سبب.

ولم ينتظر شكرًا أو امتنانًا منه لدفاعه عنه، بل مال نحوه فجأة قائلًا بسخرية:

- ولكن المرأة تبقى امرأة.. انظر كيف جعلتك تخرج من شقتك كتنين هائج.. لقد بتُّ لليلتين خارج المنزل بسبب غضب زوجتي.. لا أعلم لماذا مهما بلغ بنا الذكاء نبقى أغبياء أمامهن؟

- لا تهوِّن مصيبتك في نفسك بأن تُسقط غباءك عليَّ.. ثم كم مرة سأكرر؟ هذه المرأة ليست زوجتي لذا توقف عن استدراجي.. لن أخبرك بشيء.

- حسنًا، هذا منطقي أكثر؛ فرجل ذكي مثلك لن أستبعد عزوفه عن الزواج.. ولكن إلى متى ستُبقي صديقك ذاك قريبًا منك؟ نادر، إنها المرةُ الثانية التي تقع في المصائب بسببه.. لقد كنت تُعيل والديك من عملك بهذا الفندق لسبعة أشهر كاملة، ولكنه ظل

ملتصقًا بك ويزورك بتهور وهو يعلم أن اثنين من إخوته من رجال الشرطة، وبعض رواد الفندق قد سجنوا بسببهما وأرادوا الانتقام من أخويه فيه.. الوغد، بسببه اضطررت للشجار معهم ثم تركت العمل عندي حتى تقطع سبب زيارته للفندق وهذا أكثر ما أغضبني.. فمهما بحثت لم أجد مُحاسبًا ومؤتمنًا على المال مثلك تأخذه بالعدد نفسه وتوصله نفسه.

أطلق نادر تنهيدة عميقة وذاك الماضي يتشكل أمام عينيه، صحيح، كل ما أراده هو إعالة والديه بعد خروجه من السجن، ولكن من الذي سيوظف خريج سجن مثله؟

لذا فقد اضطر للعمل لعامين كاملين في كل الوظائف بأنواعها، ولكنه لم يقبض مالًا كافيًا أخرجه من أزمته إلا في تلك المدة، التي عمل فيها في هذا الفندق، الذي استقبله فيه مديره الذي خرج بعده من السجن بعام، ولم يكن توظيفه له كرمًا منه، بل بطلب من زوجته مالكة الفندق التي كانت تؤجر أحد منازلها لوالديه، كانت تلك المرأة في حالة من العجز والحرج عن خدمة نفسها وأطفالها وقبض المال من المستأجرين الذين ماطلوها واستضعفوها فكان لمساعدته لها أثرٌ في نفسها عاد عليه بالخير حينما أرغمت زوجها على قبوله في الفندق ليكون مسؤولًا عن جمع مالها.

ارتشف نادر آخر رشفة من قهوته وهو يسأله:

- ولكن ما بال هذا الاسم الغبي للفندق؟.. كانت زوجتك قد أسمته بفندق السحاب فما الذي أرداه إلى القاع لينتشر بهذا الاسم؟ كما أنه من الغريب أن النسبة قد ارتفعت من ٣٠٪ إلى

٩٩٪ بأن يكون معظم نزلائه هم من الأشخاص المشبوهين وخريجي السجون؟!

ضاقت عينا مدير الفندق، واشتدت أصابعه على الطبق المعدني:

- أيها الوغد! لم يَنحَس اسمهُ غيرك.. هل نسيت كيف تجادلتُ معك أمام باب الفندق قبل تركك للعمل فقلت بملء فمك: «لن أخدمك لا أنت ولا هم بعد الآن.. فلتذهب أنت وقذارة ١٠٩ إلى الجحيم»؟

اتسعت عينا نادر صدمة، فهل كان لقوله مثل هذا الأثر؟ فيما تابع مدير الفندق بسخط:

- كل الزنزانات في البلد تنتهي عند الرقم ١٠٩ ولذا كانت صيحتك كدعوة لمن لم يعرف عنه أن يعرف وحينها ودون تأخر تدفق علينا خريجو السجون من كل البلاد وازداد عدد الصفقات المشبوهة التي تتم فيه.. صحيح أن ذلك قد أنعش صندوق المال هنا، ولكن لم يمنحه ازدواجية الاسم غيرك أنت فلا تنحسه الآن بأي كلمة قبل رحيلك.. واحرص كما وعدتني أنك سترد لي هذا المعروف يومًا ما.. فلم يكن استقبالك سهلًا علي.

- بالتأكيد.. اطمئن، لن أخبر زوجتك بأن لديك زوجة أخرى.

احتدت نظرة مدير الفندق لذكره معروفه القديم بحفظه لسرِّه، والذي بدا أشبه بتهديد مُبطن، فيما ارتفع بغتة صوت طنين يُعلن عن وصول رسالة إلى هاتف نادر جعلته يتجاهل مدير الفندق بالكامل ليمنح كامل تركيزه للصورة التي توسطت شاشة هاتفه، ثم تألقت عسليتاه

فجأة، وعاد له هدوؤه ورباطة جأشه، اللذان يعرفهما مدير الفندق جيدًا؛ فقد كان عدوه في السجن لستة أشهر ثم ما بين ليلة وضحاها بخطة غير متوقعة جعل منه نادر حليفًا له هو ورفاقه من صغار السن، خطة أبهره فيها بعظم مكره ودهائه..

وأيضًا هو لا ينكر أن في صحبته كانت هناك مُتعة وطدت من علاقتهما..

رآه يتحرك إلى الخارج فقال بجدية شديدة:

- نادر، لقد وثقتُ بك.. لا توقعني في مشكلة مع رجال الشرطة ولا مع من في فندقي من نزلاء أو موظفين.

منحه ابتسامة مستفزة وهو يفتح الباب:

- حتى لو حدث ذلك.. أعلم أنك لست شخصًا سهلًا ويمكنك أن تُخرج نفسك مهما كان حجم المشكلة.

ثم غادر، فامتقع وجه مدير الفندق للحظة لم تلبث أن انشرحت أساريره بعدها وقال بقلة حيلة:

- الوغد، يُجيد اختيار كلماته.

وعاد ليتابع عبر الكاميرات السرية ما يحدث في كل شبر من الفندق، متجاهلًا فقط الطابق التاسع حيث دلف نادر إلى تلك الشقة في الموعد نفسه المحدد له من مايا.

****

١٦ أكتوبر - ١١:٢٥ صباحًا

كان الصمت يعمُّ أرجاء الشقة حين دخل نادر إليها فعقد حاجبيه دهشة؛ فشخصان بطباعِ مايا وفارس يستحيل أن ينسجما مع حالة تسمى (الهدوء).

ولم يكد يُتم ثلاث خطوات داخل الشقة حتى تسللت إلى أنفه رائحة غريبة جعلت وجهه يعلوه فزع عظيم، فجرى إلى صالة الجلوس، وهو يغمغم بوجل:

- شيءٌ ما يحترق!

رأى سحب الدخان المتسربة من أسفل باب المطبخ الخشبي المتين، كان لا يزال يحاول استيعاب ما يراه حين دخل إلى مجال رؤيته فجأة جسد مايا، كانت تحاول عبثًا فتح الباب بعد ما كسرت مقبضة بعبوة لمطفأة حريق استقرت إلى جوار قدميها.

ثم انتقلت إلى دكِّ الباب بكتفها وهي تصيح بصوت بلغ به الهلع مبلغه، قد بُحَّ من النداء والدخان معًا:

- فارس.. أتوسل إليك افتح الباب.. أخي أرجوك.

ولكن لم يجاوبها إلا الصمت، ذلك وحده استطاع انتشال نادر من صدمته ليهرع نحوها، وقد انتفخ عرق جبينه بغضب، لم يغب إلا لساعتين، فما مقدار بلاهتها لترتكب خطأ جديدًا في هذا الوقت القصير؟

صاح بغلظة: «ابتعدي!».

صوته الآمر من خلفها جعل الأمل يعود إلى وجهها، لم تُناقشه

لتأخره، أو تشتمه لصراخه بها... ابتعدت فقط عن طريقه بعد ما عجزت عن فتح الباب بنفسها.

وبدفعتين متتابعتين ومؤلمتين من كتفه كُسر الباب أخيرًا كاشفًا عن سحب من الدخان تملأ فضاء المطبخ بأكمله لم يستطيعا بسببها رؤية جسد فارس.

اخترقها نادر باحثًا عنه، فيما حملت مايا مطفأة الحريق ودخلت من خلفه فرأت بعض النيران ما زالت تشتعل في منتصف أرضية المطبخ.

«فـــارس!».

ناداه نادر بأعلى صوته بينما ضغطت مايا مكبس مطفأة الحريق ووجهته نحو الملف البلاستيكي وقطع الورق الممزقة فغمرتها إلى آخرها بالبودرة البيضاء.

«فـــارس!».

ناداه نادر مُجددًا، فوقعت عيناه فجأة على جسده الملتصق بالحائط وقد تلوَّن وجهه بلون الدخان، بينما بان في عينيه الزرقاوين شيءٌ من وجله منه.

كان سيتجه نحوه لولا استمرار مايا بنفث تلك البودرة البيضاء الجافة، ويداها لا تزالان تهتزان من شدة فزعها، فسحب مطفأة الحريق من يدها بخشونة وانتهرها: «يكفي!».

لكنها ردت بحدة:

- كلا.. يجب أن تُطفأ بالكامل.

لاحظ أن ما أفزعها هو خرطوم الغاز القريب من النار، ومع ذلك

لم يعد هناك ما يستحق إطفاءه فقد اختفت الكومة بالكامل أسفل المادة البيضاء، فقال بعصبية:

- ما فات رئتيه من الدخان فأنتِ تعوضينه بهذا الغبار الكثيف.. ألا ترينَ المكان مغلقًا؟! جميعنا سنموت اختناقًا.

ازداد وجهها شحوبًا فيما وضع نادر المطفأة بعيدًا عنها، ثم بعد أن تيقن من انطفاء النار تمامًا اتجه ليفتح النافذة سامحًا لسحب الدخان بالانقشاع.

عدة ثوان واتضحت الرؤية لهما. كان فارس يحشر نفسه في زاوية المطبخ البعيدة، بينما ما زالت القداحة بين كفيه الضاغطتين على فمه وأنفه من الدخان.

تحرك نادر نحوه بعد ما ملأ رئتيه بنفس عميق ثم أخرجه براحة، فرؤيته بخير ولم يُمسَّ بأذًى كانت كافِيَةً بالنسبة له..

أخذ القداحة من بين كفيه، ولم يبُدِ فارس أي اعتراض، وهو يُسرع لمسح وجهه الذي اسودّ بياقة قميصه، بينما طرح نادر عليه سؤاله:

- أنت بخير؟

ولأنه لم يوبخه، أو ينتهره، بعث ذلك بالراحة إلى قلبه فأجابه بـ: «نعم».

اقتربت مايا هِيَ الأخرى لتطمئن عليه، ولكن نادر حالَ فجأة بينها وبين جسده، فصاحت بغضب:

- ابتعد!

لم يبتعد، ظلَّ يقف ينظر نحوها بغضب عنيف، ثم همس:

- ماذا فعلتِ به هذه المرة؟!

تأملت عينيه المليئتين بالحقد عليها ثم ردت: «لا شيء».

- لا شيء!. لا شيء!.. ما نحن فيه الآن هل هو (لا شيء) بالنسبة لكِ؟! لا أكادُ أغيب عنه للحظات إلا وأجدك قد آذيته.. لماذا أنتِ بلهاء وعديمة فائدة في التعامل معه إلى هذا الحد؟!

تجهم وجهها من عدم تصديقه لها، ورفعت كفها المرتجفة لتبعده بالقوة كي تطمئن على أخيها إلا أنه واصل ثورته:

- غادري!

تجمدت بصدمة، على حين حُجب عن عيني فارس المتأثرتين بالدخان رؤية ما يحدث، وانشغل بمسحهما، ومايا ترد بتهديد على همسه المشحون:

- إياك أن تأمرني!

- بالطبع.

أجابها بخضوع مُريب أثار دهشتها، لكنه لم يلبث أن استطرد بسخرية:

- فلا أحد يأمر حفيدة بسام ثروت.

تلونت عيناها بلون الدم القاني لهذ اللقب المُريع، وبصعوبة كبحت صوتها من أن يعلو:

- لا تُضف اسمي لمتحجر القلب بسام.

«لماذا؟ ألستِ مثله؟». وابتعد سامحًا لها برؤية فارس: «هيا.. دمري ما تبقى منه.. أكملي عمل جدك وعمك».

امتقع وجهها وقد نجحت عبارته في إيذاء قلبها رغم تيقنها من أنها

لم تُخطئ في شيء.. ولم تكد عيناها تقعان على جسد أخيها المرتجف حتى أدركت أن ما يحتاجه فارس في هذه اللحظة هو معالجه النفسي، وليس هِيَ، فسحبت خطواتها إلى الخارج خاضعة لأمره.

«عديمة فائدة!».

تمتم نادر ووجهه يعكس غضبه عليها، ثم التفت إلى فارس القابع في الزاوية، وانحنى نحوه سائلًا بهدوء:

- ماذا حدث؟!

ابتلع فارس ريقه، ورسم ابتسامة قلقة: «لا شيء».

- لا شيء مجددًا! إذًا هل قفزت القداحة إلى يدك بعد احتراق تلك الـ..

ولم يُتم عبارته وقد انتبه عقله فجأة للكومة الغريبة التي حاول فارس إحراقها.. نهض نحوها، ولكنه فوجئ بتصرف فارس الغريب حين قفز إليها قبله ثم جمعها بين كفيه!

لم تكن سوى رماد ومع ذلك بدا في عيني فارس فزع عظيم وهو يتراجع إلى الخلف وكأنه لا يُريد لنادر رؤيتها.

«ما هذه؟!» سأله نادر بصدمة.

«لا شيء».

كرر إجابته بارتباك مفضوح، وقبل أن يهمَّ نادر بأخذها منه جرى إلى النافذة المفتوحة، ثم رمى بما يحمله خارجها مُفجرًا صدمة أكبر في وجه نادر الذي لم يرَ فارس يتصرف بمثلِ هذا الطيش من قبل.

«لِمَاذا فعلت ذلك؟!».

هتف بعصبية أفزعت فارس الذي زاد من تراجعه دون أن تعكس عيناه أيَّ ندم، بل بدا مستعدًّا حتى لتلقي أيِّ عقاب مما زاد من دهشة نادر واستنكاره..

فبطيشه وتهوره كاد يُحرق الشقة، واضطَرَّهُ إلى كسر الباب، وقد يأتي موظفو الفندق يطالبون بتفقدها إذا ما رأى أحدهم الدخان المتصاعد من النافذة، ولن يتنازل مدير الفندق عن مطالبته بتعويض يفوق الضرر، ومع ذلك فهو لا يُظهر أدنى أسف على عبثه هذا!

ولم يُنجه من غضب نادر إلا صوت شهقات أنفاسه العالية المتسارعة، التي نبأت نادر أن رئتيه ما زالتا تعانيان من الدخان، وعندها لم يفوت فرصة وقوفه أمام النافذة المفتوحة فأمره بحزم: «خذ نفسًا عميقًا».

ولم يتردد فارس في طاعته، بل فعلها مرات ومرات، وحينما لاحظ نادر أن اللون قد عاد إلى وجهه، وأنفاسه قد انتظمت، وبدا أكثر هدوءًا، كرر سؤاله الفضولي:

- أخبرني، ماذا أحرقت؟

- لا أستطيع إخبارك.

ضاقت عينا نادر غيظًا، ورغم ذلك فقد قرأ في عيني فارس اللتين عكستا جرأة كبيرة تصميمه على حفظ هذا السر إلى آخر عمره.

- حسنًا.. هل هذا السر سيؤذيك كتمانه؟

- لا.. لا.. لا..

كرر فارس واللين يعود إلى ملامحه، فاتسعت عينا نادر باستغراب ثم

غيَّر سؤاله:

- إذًا، هل إفشاؤه قد يؤذيك؟!

فاجأته الدموع التي خطت على وجنتي فارس المسودتين وهو يرفع ذراعيه بغتة ليعانق جسد نادر الذي شحب وجهه بالكامل.. فقط، فليخبره أحد.. ما الذي حدث في غيابه؟!

«تبًّا!.. لم تُصر على فعلها دومًا وأنت متسخ.. هيا ابتعد».

وحاول إبعاده إلا أن تلك الذراعين ظلتا متشبثتين به بعَطْفٍ غريب. عَطْف يشبه ذلك الذي منحه إياه والده عبد المجيد قبل موته حين كانت عاطفته في أوجها لسببٍ لم يعرفه نادر آنذاك.

«يكفي.. يكفي!».

وأبعده للخلف، وعندها أبصر ابتسامته المشاكسة.. أليس من المفترض أن يعاقبه كعادته؟!

بالفعل هو يستحق التأديب، على إثارة خوفه، وعلى آلام كتفه بعد تحطيمه لباب المطبخ، وعلى استفزازه بحرق هراء لا يُخبره عنه، وعلى توسيخه أيضًا لمعطفه، لكنه بدلًا من ذلك وجد نفسه ينهار جالسًا على الأرض بتعب؛ فلم يمر أكثر من ساعتين على فزعه على أحمد ليجد نفسه مفزوعًا عليه هو الآخر.

وبلا أدنى مبالاة جلس فارس أمامه بتربع، وما زالت الابتسامة مُعلقة بشفتيه لنجاحه في ما فعل، ثم أخرج من جيب قميصه إحدى بسكويتات جواهر، فتح مغلفها وراح يأكل منه، ثم مدّ بعدد منها إلى نادر، وهو يسأله فجأة:

- نادر.. أتظنُّ جدتي جواهر تعرف القراءة؟

ارتفع أحد حاجبي نادر بعد ما أدرك أن ما حمله فارس في حقيبة ظهره هو مغلفات البسكويت، ثم رد بوجوم:

- لا.. هيَ ترسم فقط.. أو حسب ما تظنّ هيَ.

قفزت ابتسامة مُرتاحة لشفتي فارس، وخيّل إلى نادر أنه قد رأى تحرك شفتيه بـ (الحمد لله) فالتحم حاجباه بحيرة.. لمَاذا ألقى عليه مثلَ هذا السؤال الغريب؟!

ولكن عقله استولى عليه السؤال الأهم: ما هو الشيء الذي أحرقه؟

وآثر بدوره أن يقضم بعضَ تلك الكسرات المحلاة التي نجحت بأن حسّنت من مزاجه، وبمجرد شعوره أن اتزانه قد عاد وغضبه قد هدأ تحركت يده بلا تردد ليسحب ملعقة خشبية قريبة، وبطرفها العلوي المتين نقر قفا يد فارس الممتدة نحوه بقطعتين جديدتين فصاح ألمًا لهذه الضربة القوية المباغتة، والتي تمنى نادر لو أنه يكررها أيضًا على رأس مايا..

أسقط فارس ما في يده ليحتضن قفا كفه المحمر بكفه الأخرى، وقد عكست عيناه وجعًا شديدًا فهيَ الضربة الأشد التي يتلقاها جسده من نادر، ورغم تدليكه لها لم يخف ألمها، على حين قال نادر بصرامة مخيفة:

- إن تجرأت وكررت عبثك هذا بالنار فأُقسم أن أُعيد لك ذكرى جواهر وعصاها.

تهديده الغاضب بدا كسوط آلم روح فارس أكثر من ضربته، فتمتم باعتذار:

- أسف.. أسف.. أسف.

- أسفك هذا لن ينفع أحدًا لو مت محترقًا أو مختنقًا بالدخان.

- لم أكن أظن أنه سيكون خانقًا هكذا.

- على الأقل أتمنى أن يكون الشيء الذي أحرقته يستحق ما فعلت.

- هو يستحق بالفعل.

وحنى عينيه للأسفل، بعد أن أشعل بقوله هذا فضول نادر من جديد.. ورغم تألمه ومسحه السريع لعينيه لم يَظهر على نادر أدنى ندم، وهو يسأله:

- أهيَ رسوماتك؟

لم يجبه فارس، واكتفى بالصمت مثيرًا استفزازه أكثر وأكثر، فأردف بسخرية:

- ماذا ستكون قد رسمت مثلًا ويستحق إحراقه قبل أن نراه؟! لن يكون بالتأكيد إلا شيئًا سخيفًا كرسـ...

وتغيّر لون وجهه، وأطرق برأسه متأملًا الزرقاوين.. ثم ضاقت عيناه و.. مستحيل! فهو في تلك السن حيث يميلون لأشياء...

وسرعان ما تنازل عن خاطرته المشينة حينما وقعت عينا فارس على شيءٍ ما، فنسي ألمه، وارتفعت سبابته لتشير بكل براءة إلى زاوية المطبخ، ثم أخبره بصوتٍ خافت:

- ذلك الوشاح الجديد هناك هو لمايا.. هي من رمته، لن تصدق لقد..

أخذ يقص عليه ما حدث منذ خروجه وإلى حين عودته في الوقت

الذي تسلل فيه القليل، القليل فقط، من الشعور بالذنب إلى نفس نادر، رغم ثقته أنه كان لينًا معه، وإلا لكانت تلك الضربة قادرة على كسر يده لو أنه أودع فيها قوته بالكامل..

وبعد ذكر فارس لمايا تذكر فجأة أن يلتفت إلى باب المطبخ باحثًا عنها، وحين لم يرها نهض ثم مشى مرورًا بنادر الذي انتهره:

- إلى أين؟! نظف وجهك وكفيك أولًا.

نظر إلى كفيه فرآهما ملطختين بمزيج من الدخان، ورماد الأوراق، ومخاطه، ودموعه فضاقت عيناه باشمئزاز، ثم قفز إلى ذاكرته مشهد قديم، وبمكر مد يده المتسخه نحو نادر ليساعده على الوقوف، لكن نادر صاح بتقزز وغلظة:

- إياك أن تلمسني!

وبدلًا من بكائه بانكسار كالحادثة القديمة التي تقيأ فيها، ارتفعت ضحكاته المشاكسة ثم خرج يعدو نحو دورة المياه لينظف نفسه.

وفي طريقه وقعت عيناه على مايا الجالسة على الأريكة فانحرف في ركضه نحوها صائحًا:

- مايا.. أنا بخير.

أطبقت شفتيها الجافتين، وتأملته من رأسه إلى أخمص قدميه، ثم أجابته:

- آآ.. هذا جيد.

تلاشى مرحه بالكامل بعد أن رأى هدوءها الغريب. أراد الجلوس على الأريكة جوارها لولا صوت نادر:

- لا.. النظافة أولًا.

وقف مُترددًا للحظه قبل أن يركض إلى دورة المياه، فيما رفعت مايا كفها لتضغط على صدرها الذي لم تهدأ نبضاته بعد.. ما زالت أناملها ترتجف من شدة خوفها عليه، وتلك الرجفة قد أصابت قدميها هيَ الأخرى.

كاد أن يقتلها فزعًا عليه.. لو كان طبيعيًّا لعاقبته وعرَّفتْهُ حجم خَطئِه، ولكن لعله تصرف هكذا فقط لأنه مريض!

غزا الهمُّ عينيها، ماذا لو لم يأتِ نادر ويكسر الباب؟ هل ستكون قادرة بمفردها على جعل مثل هذا الحدث يمر بسلام كما فعل هو الآن؟!

لقد استطاع في دقائق معدودة تهدئته وعقابه ومن ثم انتزاع ضحكته... واستسلمت أخيرًا لحقيقة أنها عاجزة عن أن تكون مثله.

جلس نادر على الأريكة الأخرى مُقابلًا لها، وأدهشه حالها الخارجي الهادئ والمتماسك رغم ما حدث قبل قليل، ثم سألها بحدة:

- ما تلك الأوراق التي أحرقها؟

- وما أدراني؟

- أنتِ من كُنتِ برفقته!

- ومن أنت لتستجوبني؟

وأخذت نفسًا عميقًا ثم أطلقته وهي تخرج هاتفها ووقفت وسط نظراته المُتسعة قائلة بجفاء:

- لقد قمت بمهمتك تجاهه جيدًا فلا تتدخل بما لا يعنيك.. وحافظ

على مسافة بينك وبينه كما اتفقنا.. وإلا فأنت تعلم النتيجة السيئة لمخالفتك شروطي.

قفزت ابتسامة جانبية لشفتيه فكيف لها أن تُهدده بصديقه وهو أنقذ أخاها قبل قليل؟!

وجذب الاثنين فجأة صوت قدمي فارس الحافيتين الراكضتين على أرضية الصالة، ولم تكد تقع عيناه على مايا الماشية بهدوء نحو الحجرة حتى ناداها بجزع:

- مايـــا!

إلا أنها لم ترد عليه، فصُدمت من وقوفه أمامها مانعًا لها من تجاوزه، وهو يكرر:

- أسف..

ومع ذلك لم ترد ولم تدفعه بعيدًا عن طريقها أيضًا. ظلت تقف وعيناها مستقرتان عليه ببرود. كان نادر يتابع ذلك المشهد باستخفاف، لكن ما لبث أن حملت شفتاه ابتسامة مُستهجنة، وهو يرى فارس يتابع اعتذاره دون توقف؛ ألم تُدرك أن ما أصابه في المقام الأول كان بسبب إهمالها له؟!

«مايا.. أنا حقًّا أسف».

قال وكفاه تمتدان نحو ذراعيها ليتشبث بها بعناد، فيما أثارت المتحجرة استياء نادر أكثر وأكثر فرغم ملاحظتها لعينيه النادمتين، ولوجهه المحتقن، واحمرار أرنبة أنفه فقد ظلت كما هي تقف بصمت دون أن تقبل اعتذاره.

وهمَّ نادر بالنهوض لولا تحرر لسانها أخيرًا: «لماذا تعتذر؟!».

ارتخت كفا فارس، وتلعثم عدة مرات، ولكن تحديقها به جعله يجمع عدة كلمات علّها تُسامحه:

- لأني لم أرد عليكِ حين كُنتِ تطرقين الباب.

- فقط؟

- ولأني أغلقتُ الباب.

ضاقت عيناها، وعبست فتابع بوجل:

- ولأني أرسلتك بعيدًا لمناداة نادر وبعدها ذهبتُ لأُحرق الأوراق.

ارتخى جفناها بحزن فأدرك فارس حينها أن هذا أكثر ما أغضبها منه.. (خداعه واستغلاله لها).. فصاح بندم:

- أسف.. مايا.. أنا أسف.. كُنتُ سيئًا حقًّا.. أنا أسف.

استرخى نادر في جلسته، وقد ارتفع أحد حاجبيه؛ فالآن علم كيف استطاع فارس استغفالها وارتكاب فعله الخطير ذاك.. (لأنه أرسلها بعيدًا).. بينما تابعت مايا فجأة:

- ليس هذا فحسب.. ماذا أيضًا؟

تجمدت ملامح فارس وعقله لا يتذكر شيئًا فعقدت حاجبيها بغضب ولم تلبث أن صرخت بأعلى صوتها:

- فارس.. افتح الباب.. أتوسلُ إليك!

انتفض الاثنان معًا بفزع من صوتها الصاخب فيما زمت شفتيها، وعقدت ذراعيها أمام صدرها، فتمتم فارس بخوف: «إفزاعك؟!».

- بالتأكيد إفزاعك لي.. أتعلم ما رأيت على الجانب الآخر؟!..

دخانًا متصاعدًا من أسفل الباب.. بابًا مغلقًا.. وأنت وسط حريق ودخان قد تختنق به.. أخي الذي التقيته بعد أكثر من تسع سنوات أكاد أفقده، وأنا عاجزة عن كسر الباب وإخراجه.. ذلك ليس شعورًا جيدًا على الإطلاق.

حديثها جعله يعيش حقًّا الموقف الذي وضعها فيه فملأ وجهه الشعور بالذنب، فيما تابعت فجأة بمرارة:

- أتعلم؟.. إن أكثر ما أحزنني هو أنك لم تكن مكترثًا لحياتك.. ما هو الشيء الذي يعتبر أثمن منك لتفعل هذا من أجله؟! وكأن الحياة التي مُنحت لك من الله ليست بتلك الأهمية لتحافظ عليها.. لقد كررت الآن حماقة شبيهة بحماقة أبي حينما رمى بنفسه في السجن وسط الوباء ومات من أجل سببٍ لا يستحق.

أحسَّ فارس بقدر ألمها ومرارة شعورها مع عبارتها الأخيرة المتهدجة، فازدادت حدة الذنب في عينيه، ولم يعد يجرؤ حتى على الاعتذار منها لقبح ما صنعه بها، فلانت ملامحها قليلًا وهي تستحثه بحزن:

- عدني أنك لن تُفزعني عليك مجددًا ولن تخدعني.. لقد ذقتُ الفقد ثلاث مرات، أبي، وأنت، ولمى... ولا أريد أن أجربه مرتين فيك.

كلماتها التي عكست حبها العميق له جعلته يصيح بحزم:

- أعدك لن أفعل ذلك مُجددًا.. كنتُ متهورًا بحق.. مايا، أنا حقًّا أسف.

وهناك، على الأريكة، ظل نادر يراقبهما دون أن يقوَى عقله على إنكار أن أسلوبها قد أثار شيئًا من استحسانه فقد أوصلت إلى فارس مدى

بشاعة ما صنعه، وجعلته يعيش مرارة الحادثة، ولكن من جانبها هي، ومن المستبعد بعد هذا أن يكرّر مثل هذا الفعل الطائش مرة أخرى.

أخذته فجأة في حضن قوي وكأنها تحتفل بنجاته، ثم مالت على أذنه هامسة:

- لم أُخبره أن الأوراق التي أحرقتها تخصّهُ.

اصفَرَّ وجهه بشدة فحررته مُردفة بابتسامة:

- ولو سألتني لكُنتُ سأحرقها معك.. أنا بصفك ولستُ بصفه.

ازدرد ريقه بتوتر، وعقله يحاول التوصل إلى كيفية معرفتها بمحتوى الأوراق، ولكن اشتدت كفها فجأة على كفه وسحبته نحو الأريكة قائلة:

- أرأيت؟ لقد جاء قبل انتهاء الساعتين.

عكست عينا فارس انبهاره بدقتها وقال:

- صحيح، كما قُلتِ تمامًا.

اتسعت ابتسامتها المتعجرفة فيما ضاقت عينا نادر، فهل خدش كبرياء الرجال والتلاعب بهم يُعدُّ هينًا بالنسبة لها؟

وقفزت ابتسامة عابثة إلى شفتيه بعد أن اتخذ قراره: لن يعاملها كامرأة بعد الآن... بل نِدًّ لِند، ومن لديه مشكلة مع ذلك فليمت.

****

-٢٢-

(قبل ٢٤ عامًا).

على أرضية صالة الجلوس انتشر حطام الصندوق بعد أن قذفته (أم سمير) على الحائط إثر نوبة الغضب العارمة التي اعترتها، فيما ظلت كفها الأخرى تشدُّ بعنف على الورقة التي استخرجتها منه فتجعدت بين أصابعها مرات ومرات، وفوق حجرها استقرت صورة فوتوغرافية زادت من غيظها وألمها أضعافًا مضاعفة..

بأفكارنا نختار نوع الشعور الذي سيعترينا في ما نستقبله من الخارج، قد نجعله ماءً باردًا يُطفئ نار قلوبنا، أو وقودًا يغذيها ويزيدها اشتعالاً..

وقد اختارت أم سمير شعورها السابق بعد ما قرأت رسالة ليلى التي أرسلتها لابن أخيها:

(حبيبي سمير: كيف حالك؟

أظنك الآن قد بلغت الثانية عشرة من عمرك. لا تعلم كم تعبت حتى وجدت من يوصل إليك رسالتي هذه..

يوجد في الصندوق ساعة، وقبعة رياضية، وغيرها من الهدايا اشتريتُها لك، هذه هدايا نجاحك.. عن كل عامٍ هدية..

بالتأكيد عمتك تُحبك.. حتى لو كنتَ قاسيًا معي فلم تكن إلا طفلًا..

لم أنسَ جلوسك على سريري تراقبني عندما كنت أصلي قيام الليل،

أعلم أنك كنت تُقلد وجهي حينما أدعو وأبكي، فتضحك مع نفسك، لكنك ما زلت تأتي لتراني، وتصمت بأدب، ولم تشوش عليَّ فشكرًا لك..

أنت الآن بالطبع من المحافظين على الصلاة، فقد بلغت الثانية عشرة.. ادعُ لنفسك ولي يا بُني في سجودك..

ولعلك لم تعلم، فبعد خروجي من عندكم بخمسةِ أشهر قد تزوجت من رجلٍ أرمل عمره اثنان وخمسون عامًا قد تزوج كل أبنائه وبقي وحيدًا في منزله..

كان تصميمه كبيرًا على موافقتي، تردد على عائلة مروة ست مرات، وحين وافقت جاء إلى منزلكم وأحضر والدك معه، وقد طلب والدك منه مهرًا فأعطاه له كاملًا.. لا أعلم إن كان والدك قد أخبركم بهذا أم لا ولكن لم أكن أظن يا حبيبي سمير أنني قد أُرزق بالولد في عمر السابعة والأربعين..

أنجبتُ توءمين صبيًّا وبنتًا قد جعلا حياتي مُشرقة ممتعة، إلا أن والدهما قال إنه قد تعب من كثرة الأبناء وكان يريد حياة هادئة، لكنه لم يلبث أن ضحك لضحكهما، وسعد بسعادتهما، وكأنما دبّت روح الشباب في جسده..

هو طيّب ولطيف، لكنه يُكثر الشجار مع أحفاده من أجل طفلينا فأضطر لفك الشجار بينهم...

وأبناؤه مضحكون مشاكسون، يتسلون بذلك.. ولكثرة قدومهم ومحبتهم لزيارتنا والسمر معنا وظفوا لنا خادمة وسائقًا ليساعدانا.. يا لقلوبهم الكبيرة.

سمير..

سأخبر طفليّ عنك دومًا.. عن أن أمهما لها ابن أخ اسمه سمير عليهما صلته ولقاؤه حين يكبران..

سأزورك يومًا ما برفقتهما فزوجي لا يقوى على السفر، ولذا سأظل أُرسل لك رسائلي وصوري أنا وابنيّ، وهداياي كي لا تنسى عمتك ليلى..

أتعلم يا بُني؟ لم تكنِ مُصَادفة حين زارتني مروة، بل فرصة من الله، أحمد الله أن انتهزتها ولم أعرض عنها..

وأرجو أن أكون أنا فرصتك في هذه الحياة يا بُنيّ..

في حفظ الله..

ولا تفرط في صلاتك).

.

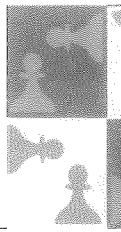
.

من الغريب أن تكون سعادة أحدهم مصدر بؤسٍ لآخر..

كيف اختل ميزان السعادة في قلوب مرضى النفوس ليرتبط بضده من الشعور؟

وهذا ما حدث حين صرخت أم سمير وصرخت وصرخت في حقد وحسد.. فكيف لمن دمرت بيتها بيالها أن تعيش السعادة عوضًا عنها؟!

****



زَلَّةُ عَقْل

-٢٣-

١٦ أكتوبر - ١٢:٣٠ ظهرًا

بعد انتهاء حادثة الحريق اجتمع الثلاثة مجددًا في سلام لم ينعم به سوى فارس الذي قرر الانضمام إلى نادر على الأريكة نفسها، وابتسامته تتسع، بينما ارتفع صوت تنبيه من هاتف مايا يُعلن عن وصول رسالة إليه فأسرعت إلى فتحها، وعندها غمر قلبها الفرح لقبول الطبيب النفسي بيتر سيلفيا تولي حالة فارس، بل وأبلغها بنفسه بأنه يستعد للرحيل من لندن إلى العاصمة.

شقت وجهها ابتسامة استبشار كبيرة؛ فخطتها تكاد تصل إلى الكمال. رفعت عينيها تنظر إلى فارس بعد أن أطلق عقلها صفارة الإنذار، لن تتركهما بمفردهما فما أدراها أن هذا الغريب لن يكسر شرطها فيُعلق أخاها به أكثر وأكثر؟

مشت مرورًا بهما لتستقر على الأريكة المقابلة، وعندها انقبض قلبها حين سمعت حديث نادر معه والابتسامة العابثة لا تزال عالقة بشفتيه:

- أجل.. ولكن من هو جد أختك مايا؟

أجابه فارس ببساطة:

- بسام ثروت.

ظهر الغضب جليًّا على وجهها لهذا الحديث الغامض الذي لم تعلم

غاية نادر منه، فحدجته بنظرة عدائية دفعت فارس ليسألها بارتباك:

- مايا.. هل قُلتُ شيئًا خاطئًا؟

ما قاله هو الحقيقة بعينها.. إنها حفيدة ذلك الحثالة بسام ثروت الذي نبذ والدها خارج منزله، وجعله هو وعائلته يُعانون الفقر والجوع، واضطرّهُ بخبثه ومكره إلى السرقة منه، ثم أدخله السجن ليقضي نحبه فيه بعيدًا عن أحبائه..

هِيَ حفيدته بالفعل، ولكنها لا تُريدُ ذلك ولا تعترف به.

«أبدًا، لم تقل شيئًا خاطئًا».

طمأنه نادر ببرود، فهدأ قلقه، بينما اضطرم قلب مايا بحقدٍ أشد، وتساءلت في نفسها: هل هِيَ بحاجة لإخضاعه أكثر؟

اشتدت أصابعها على هاتفها.. وعندئذ قدم لها نادر الصدمة الأكبر حين سأل فارس:

- صحيح.. ولكن من هو جدك يا فارس؟

والتقطت عسليتاه البهوت الذي ملأ عينيها، وشفتاها تنفرجان بجزع، وقد تبدد غضبها بالكامل ليحلَّ محله فزع عظيم.. ومن خلف فارس أرسلت إليه نظرة مُستعطفة راجية أن يتوقف عن إقحام أخيها في مشكلات البالغين.

ورغم ذلك كرر سؤاله بعبثية:

- أختك مايا جدها بسام فمن جدك أنت؟

ازداد هلعها، بينما أجابه فارس بسعادة:

- جواهر وعبد المجيد.

عكس وجهها دهشتها، بينما تجمّد نادر لعدة ثوانٍ قبل أن تعكس عسليتاه دفئًا كبيرًا نحو الجالس بقربه ينظر نحوه بمودة، ولم ينتبها لاقتراب مايا منهما، وفارس يُردف بحماس:

- هل نسيت؟ لقد أخبرتك من قبل.. لا جَدَّايَ لأمي حيان ولا جَدَّايَ لأبي حيان.. ومن بقي هم..

وخفتت نبرته فجأة بعد أن تسلل حزن عميق إلى قلبه حين تذكر أنه حتى من نطق اسميهما قبل قليل ـ هما الآخران ـ لم يعودا على قيد الحياة.

حزنه أحيَا حُزن نادر الذي أدرك ما فكَّر به، ورغم ذلك ارتفع أحد حاجبيه ليقول ساخرًا:

- إذًا فجَدّاك عبد المجيد وجواهر هما الوحيدان من كانا سيئي الحظ بمعالجتهما لمشاكستك وجنونك.

رفع رأسه معترضًا: «لا.. ليس صحيحًا.. بل كنا جميعًا سعيدي الحظ».

- ماذا؟ هل انتقل غرورها إليك؟

عضت شفتها السفلى في غيظ لشتمه لها.. فيما أجابه فارس بحب:

- بل هما حتى أحباني.. هل نسيت؟ جدتي أعطتني مغلفات بسكويت أكثر منك.. وأعطتني طبقك الكبير، وأجبرتك لتأخذني إلى السوق، وضربتك بالعصا مرةً من أجلي و...

ثرثرة علم نادر أنها قد تنتهي بفضحه أمام تلك المتعجرفة فأسرع يقاطعه: «فهمت.. فهمت».

ثم تفاجأ بجذب مايا لذراع فارس قائلة:

- فارس.. أحتاج للحديث معه.. هل يمكنك البقاء في حجرتك لبعض الوقت؟

بدا الانزعاج في عيني فارس وهو يقول: «لماذا؟ أنا أيضًا أريد مشاركتكما الحديث».

احمَرَّ وجهها وكأنه يتهمها برغبتها بالاختلاء بمفردها مع نادر، وكادت تنفي ذلك بغضب لولا عيناه الحزينتان البريئتان اللتان عكستا رغبته ببقائه معهما ليس إلا.

فحوّلت نظرة حانقة نحو نادر لتجد الابتسامة الهادئة تُزين ثغره، وعاد إلى عبثه السابق فقال:

- فارس.. ألم يرد أحمد على اتصالك به؟

تغير الجو، وأصبح أثقل بعد ما حَملت نبرته شيئًا من غضبه عليها، فتوترت ملامحها مستغربة تصرفه فقد كان في غاية اللطف مع أخيها ولم يقحمه من قبل في حربهما الخفية.. على حين أجابه فارس بخيبة:

- لا.. مهما اتصلت لا يَرُد.

- مؤسف.. أنا أيضًا لا يرد عليَّ.

ابتلعت ريقها ولم تتوقع أبدًا أن فارس قد كان ذا معرفة بأحمد، بينما انعكس قلق شديد على وجه فارس ورفع هاتفه محاولًا الاتصال به.. مرة.. مرتين.. وثلاثًا وأربعًا...

فحركت عينيها الوجلتين نحو نادر خوفًا من أن يُفضي بسرها إلى أخيها فيشوه صورتها أمامه، ولكنه قال بغتة بحزم:

- لا بأس.. سأحاول أنا لاحقًا.. ولكن هلا بقيت في الحجرة قليلًا؟.. لديَّ حديث مع أختك.

قالها وعقد كفيه أسفل ذقنه ليُدرك فارس جديته فأجاب بسرعة: «حسنًا».

وكادت تموتُ غيظًا وهي تُشيع فارس المتجه إلى حجرته بعينين متسعتين؛ لماذا يُطيعه ولم يُطعها؟ ولم يكد يختفي خلف باب حجرته حتى نهضت ومدت قدمها لتدوس قدم نادر بعنف، وهي تهمس:

- إياك أن تُقحم أخـ..

- افعليها وسيكون سرك القذر عنده.

تصلبت قدمها ورفعت رأسها من انحناءتها فرأت وجهه الهادئ.. عيناه فقط كانتا تبرقان ضدها بحقدٍ كبير.. المسافة القصيرة بين وجهيهما أربكتها فتراجعت إلى الخلف، فيما اتكأ بظهره على ظهر الأريكة مستطردًا:

- هل جُرِحَ كبرياؤكِ عندما ابتززتك بسرِّك؟

- لا أنتَ ولا غيرك قادر على مسِّ كبريائي.

- مهلًا.. هل كُنت أتوهم إذًا أني رأيتك تتوسَّلين إليّ من خلفه ألا أخبره؟

زاد غضبها وحرجها وهذا الرجل يغدو مختلفًا أكثر عنه قبل ساعتين؛ فمُنذ وطئت قدماه أرض الشقة وهو يتلاعب بانفعالاتها، ولم يمنحها الفرصة لالتقاط أنفاسها حتى.

تذكرت فجأة مصدر قوتها فابتسمت وهي تجلس على الأريكة المقابلة له، ثم وضعت ساقًا فوق أخرى، ولوحت بهاتفها:

- التزم حدودك فلا يزال لديك ما تخسره.

اعتصرت قلبه قبضة قوية حين ذَكَّرته بحال أحمد المؤلم بسببها، ثم بعد هذا يجدها تُهدده بأنها قادرة على فعل الأسوأ به... لكنه تمتم ببرود اعتاد اصطناعه:

- وما أدراكِ أن مُجرمًا مثلي حين يُدرك أن صديقه يسبب إزعاجًا له لن يتنازل عنه؟

منعت بالقوة اتساع عينيها، وهي تتفحصه بقلق فإن كان صادقًا فما فعلته سيكون بلا فائدة، ستخسر من يعتني بأخيها.. كلا.. ما زالت لم تُعطِه مال المكافأة.

عاد لها هدوؤها وظلت ممسكة بهاتفها بانتظار أن يستجديها أن تُطمئن رجالها أنها بخير، وأن لا يؤذوا أحمد، إلا أنه بقي صامتًا ببرود أثار توترها أكثر وأكثر، بينما عيناه المسلطتان عليها بدتا لها وكأنما تقرأان ما بداخلها.

وتحدث أخيرًا بعد طول صمت طاعنًا قلبها بكلماته:

- أنتِ حثالة كجدكِ تمامًا.. حين رفضتُ عرضك المغري مقابل أخذكما إلى العاصمة حاولتِ جَرّي بأقذر الطرق لأخضع لمطالبك.. بالضبط، كما تَمَرَّدَ والدكِ أمجد على والده بسام فعاقبه بأن عرقل تجارته ومن ثم رمى به في السجن.

ارتخت أصابع كفها من حول الهاتف؛ لماذا يُصِرُّ دومًا على تشبيهها ببسام؟!

وبصعوبة سيطرت على صوتها حتى لا يختلط بنبرة عاطفتها المتوجعة وهي تُجيبه:

- حقًّا؟! أنا حثالة! وما فعلته أنت بالأمس خيرٌ وفضيلة؟!

عقد حاجبيه بعدم فهم فيما تابعت:

- من منحك الحق لتؤذيني من أجل إنقاذ أخي؟ نيتك الطيبة لا تبرر سوء سلوكك معي.. أنا أيضًا إنسانة مثله تتملكها مشاعر الخوف والقلق.

سكنت حركته بالكامل، بينما بالكاد اهتز صوتها:

- لو كانت قصة أخي سَتُروَى بلسانك فلن يسع الجميع إلا أن يُعجبوا بك، ولكن ماذا سيكون رأيهم لو أنا من رَوَيتُهَا؟.. بالتأكيد، لن يسعهم عندها إلا أن يروا القبح في ما فعلت.. حين التقيتك بالأمس لم يكن في مخزون ذاكرتي عنك سوى أنك رجل غريب، لديه سجل إجرامي بمحاولة قتل فاشلة، حُبس لعامين في السجن، ثم كنت ذا جرأة عجيبة ومخيفة لتختطفني أمام رجلين أحدهما شرطي، وحبستني برفقتك في شقة كانت أشبه بسجن تم تصميمه من أجلك ولم يسعني الهرب منه.

وارتجفت عيناها لثانية:

- أتظن أن ما كان يخيفني هو إيذاؤك لأخي فقط؟.. كلا.. أيها الوغد، أنا امرأة لديها ما تعتز به، وإن فقدته فقدت معه كرامتها وكبرياءها، والأشدُّ بؤسًا أنك جعلتني في لحظة ما أدعو الله ألا يحدث ذلك أمام أخي.

خفت بريق عينيه، وأنزل ساقًا عن الأخرى، لا يحق لها اتهامه فلم يكن ينوي الاعتداء عليها أبدًا، ولكن هي لم تكن تعلم.. منع بصعوبة

ردة فعله المصدومة، وللتو أدرك حديث مدير الفندق حين لَمَّح له بأنها امرأة.

ولأول مرة لم يستطع نظم كلمات يدافع بها عن نفسه، فيما أردفت بنبرة حملت تعاسة الأمس:

- ساعات الأمس، كلا، بل دقائقه لم تمر عليَّ بالبساطة التي تظُنها.. أخي مريض وأنا الوحيدة البالغة المتاحة لإنقاذه مِمَّنْ؟ منك أنت! سوء الفهم العميق الذي وضعتني فيه وإن كان مبررًا عندك فقد جعلني أعيش أشدّ بؤس عشته في حياتي.. أنا أسعى لإخراجه وتهريبه منك وهو يرفضني ويبتعد عني ولو كنت بقوة رجل لجررته رغمًا عنه غير مُدركة حقيقة الأمر.. وبعد فشلي في إنقاذه لم أستطع الهرب والنجاة بنفسي فعدتُ إلى سجنك بقدميَّ صاغرة ذليلة بعد ترددي وبكائي كالمجنونة في سيارتك.. عدتُ ومع كل خطوة أقترب فيها من شقتك يرسم خيالي عشرات السيناريوهات حول ما قد يفعله شاب غامض ومتناقض مثلك لشابة مثلي تتبعه بطاعة إلى مأواه الخاص به.

وتفلتت ضحكة مريرة من بين شفتيها وهي تستدرك بندم:

- والأسوأ عندما رجعت وجدتُ أنني قد آذَيْتُ أخي بدلًا من حِمايتِه.

كانت الوحيدة من تتكلم، من تبثه ما في قلبها، فيما ظَلَّ هو وللمرة الأولى المُستمع المُنصِت حين يُلام ويُهاجم.

وضعت مرفقيها على ركبتيها وأسندت ذقنها على قمة كفيها المعقودتين

مُردفة بشبه ابتسامة ساخرة:

- تجربة تمنيت أن تخوض مثلها فقد جعلتني أستمتع كثيـرًا.

لم يمر في حياته بتجربتها، لكنها بحديثها جعلته يعيش هو الآخر حالها الذي وضعها فيه كما جعلت فارس قبل قليل يعيش موقفها حين أفزعها بالحريق..

وطال سكوتهما، وهدوؤهما، وكلاهما ينظر إلى الآخر بنظرة يستحيل كشف ما خلفها.. وفجأة أطلقت تنهيدة قوية تخلصت فيها من مشاعرها الفوضوية، ثم قالت بحدة:

- ما أبحته لنفسك أبحته لنفسي.. اختطفتني لتنقذ أخي واختطفتك من أجل أخي أيضًا، ولكن على عكسك لقد عَرَضتُ عليك الرحيل معنا طوعًا وقدمت لك الكثير من المغريات فبقيت ترفض بتكَبُّر وعجرفة.. فلا تجعل مني هنا الشريرة في قصتك.

وخرج عن صمته أخيرًا قائلًا بانفعال:

- في قصتي، لم يكن ولن يكون هناك أي ضحية، لا أنتِ ولا فارس.

زفرت بامتعاض:

- ليسَ وكأننا سنؤذيك! ستوصلنا إلى العاصمة ثم تذهب في طريقك.. فلا تتصرف وكأنك ذاهب إلى موتك.

انتفخ عرق جبينه بغضب عنيف وقد نسي تمامًا الشعور الذي أثارته فيه قبل قليل:

- وأحمد! هل نسيتِه؟! ضحيتك الحقيقية!

ارتفع حاجباها؛ فلقد نسيته بالفعل، ثم زفرت بملل، وهي تمنحه نظرة لا مبالية ولم تعتذر حتى، مما عمَّق من حدة غضبه وأسفه على أحمد، فقال بازدراء:

- كدتُ أذرف الدموع للمأساة التي حكيتها قبل قليل، ولكن حقيقة الأمر أنكِ لا ترين أبعد من أنفك.. إيذاؤك غير مقبول، ولكنّكِ لأجلِ أن تُحقّقي أهدافكِ لا تُبالينَ بإيذاء رجلٍ بريء، ولو تماديتِ إلى قتله.

وعندما استمرت في برودها وصمتها، عادت إليه قسوته دفعةً واحدة فقال:

- هذا النسل القذر، لا يستحق فتًى مثل فارس أن ينتمي إليه.

نجحت عبارته في استفزازها بالكامل، ونكأت جرح قلبها المُخبأ ليعود للنزف مرة أخرى.. فلا أسوأ من أن يواجهك الآخرون بما آمنت به، ولكنها لم تنهض ثائرة صائحة إلا من أجل من أحبته من كل قلبها فصرخت:

- ليس أبي.. توقف.. أنت تُسيء إليه بقولك هذا.

شتم شخص ميت!

لم يتعمّد هذا على الإطلاق، وللحق فقد يكون أمجد هو الشخص الجيد من بين جميع أسرته؛ فسرقته من والده كانت بسبب تضييق والده عليه وإفساده لتجارته، ومع ذلك فهو ليس بمزاج جيد للاعتراف..

فيما انتبهت هي للحقيقة.. حقيقة أنه لماذا عليها احتمال كلماته الجارحة والوقحة بينما يمكنها إخراسه وإخضاعه بمكالمة واحدة؟

وعلى الفور رفعت هاتفها ثم اتصلت بسعد، مرة ومرتين وثلاثًا وأكثر، ولكن لا مجيب..

أنزلت هاتفها لتختار رقم سامي، وعندئذ سقطت عيناها على وجه نادر فرأت الابتسامة الخفيفة التي تحركت بها شفتاه وهو ينظر إلى شاشة هاتفه..

تلك الابتسامة أثارت قلقها، فمشت مبتعدة عنه ونبضات قلبها تتسارع بوجل؛ فمن المستحيل أن يتجاهل سعد وسامي اتصالها حرصًا على سلامتها إلا لو أنهما...

وأعادت نظرها المتسع نحو الجالس بهدوء فمنذ دخل إلى الشقة لم يبدُ عليه القلق ولا الخوف، وكأن السيطرة قد انتقلت إليه هو بدلًا منها...

لم يطلب منها الاتصال بالرجلين رغم انتهاء المدة، وأخذ متعمدًا يستفزها مرارًا وتكرارًا، ثم جرّها بلا أدنى حكمة إلى حديث لا معنى له.. وانقبض قلبها بخوف؛ ماذا لو أنها وقعت في فخ مماطلة صنعه عن عمد؟

لم تستسلم لفكرتها المُقلقة، وهي تكرر الاتصال بهما، وفجأة ارتفع من هاتفها صوت نغمة صاخبة يُعلن عن وصول رسالة إليه، أسرعت لتفتحها ولم تكد تنظر إليها حتى عجزت قدماها عن حملها فانهارت جالسة على الأريكة خلفها...

نظرت ونظرت ثم رفعت عينيها الواسعتين وقد تبللتا بدموعها: «أنت مجنون!».

ضحك بعد أن أعاد لها شيئًا مما فعلته ورد ساخرًا:

- لماذا؟! يجب أن يكون في قصتي ضحية أنا أيضًا.

«تعني ضحيتين!».

قالت وعادت تنظر إلى صورة زوجة أكرم الجالسة بسكينة على أريكة في منزلها، بينما ابنتها ذات الاثنتي عشرة عامًا تجلس أمام طاولة الطعام تتناول غداءها بهدوء.

أدركت على الفور أن هناك رجلًا التقط الصورة لهما من داخل المنزل، وأي تصرف خاطئ منها قد يجُرُّ الأذى على الاثنتين!

إذًا هذا هو الهدف من مماطلته لها؛ لديه رجال في العاصمة يأتمرون بأمره، ويطيعونه بتهور.

شحب وجهها فزعًا، ماذا يجب أن تفعل؟ وكيف ستحمي عائلة أكرم؟ وتذكرت فجأة سعد وسامي فصاحت بانفعال:

- دع زوجة أكرم وابنته في حالهما، وإلا فإنّي سآمرُ رجالي بإيذاء رفيقك.

اتسعت ابتسامة نادر الساخرة:

- أما زلتِ تظنين أنهما في انتظار أمرك ليقتلاه؟! ألم تُدركي الأمر بعد؟ ليس لديك شيء تفاوضين عليه.

اصفرَّ وجهها وازداد ذُعرها فعادت للاتصال بسعد بعد أن أثار قلقها عليهما هما الآخرين، واستجاب أخيرًا لها، فصاحت بجزع:

- عم سعد.. عم سامي.. هل أنتما بخير؟

«مرحبًا».

تسلل إلى سمعها صوت رجل غريب جعل عينيها تتجمدان للحظة ثم لم تلبث أن سألته بهلع:

- من.. من أنت؟! أين سعد وسامي؟

- حسنًا.. أنا فاعل خير، لقد تكفلت بالرد بدلًا منهما لأنهما لا يستطيعان حمل الهاتف.

صاحت بخوف:

- لماذا؟!

- لأن أذرعهما مقيدة، وأيضًا أقدامهما.

غادر اللون وجهها وألقت نظرة قلقة مرتبكة على نادر، فكان هدوؤه وابتسامته المستمتعة كفيلين بأن يجعلاها تُدرك أنه هو السبب أيضًا فيما حدث لهما.. لقد أخبرها من قبل ألا تعبث معه، ولكنها لم تهتم ولذا عبث بأعز من بقي لها بعد وفاة والدها.. (صديقيه).

وفجأة تحركت نحوه ثم وقفت أمامه لتقول باضطراب:

- لا تؤذهما أرجوك.

تراجع نادر للخلف وقد بدت الدهشة عليه من تحولها الغريب، ولكن الشاب على الهاتف أجاب بدلًا منه:

- للأسف، حتى لو أمر الزعيم بذلك فقد فات الأوان.. فأحدهما فاقد للوعي بينما الآخر قد كُسرت ذراعاه.

تقوست شفتاها وأُسقط في يدها، الأشخاص الذين ضحى والدها

بحياته من أجل إنقاذهم جاءت هي من بعده لتدمرهم، كلا، بل هي أسوأ فقد امتد الأذى إلى عائلاتهم كزوجة أكرم وابنته الصغيرة.. وانتبهت فجأة أنهما ما زالتا في الصورة بخير فصاحت:

- أيها الوغد.. لا تتمادَ.. فأنت لن تعلم حجم المصيبة التي ستقع على رأسك لو مسست زوجة أكرم أو ابنته بسوء.. سأقاضيـــ..

وخُطف هاتفها من كفها فجأة فنظرت بجمرتين من جحيم إلى نادر الواقف إلى جوارها، والذي وضعه على أذنه قائلًا بكل جرأة:

- مرحبًا.. أحمد، هل هذا أنت؟

اتسع فمُها بصدمة وذعر، هل كانت طوال الوقت تتحدث مع الشخص الذي اختطفه سعد وسامي، وتجرّأ عليه؟!

بالتأكيد لن يتسامح معهما ولا معها!

بينما جلس نادر على الأريكة قائلًا بهدوء:

- من الجيد أنك تخلصت من القيد.. ماذا؟ تقول إنه دورك للانتقام منهما!

لم تقاطعه، ظلت واقفة تُراقبه بضياع وقلبها يرتجف بهلع على المُسِنّين الغبيين.. كيف سمحا له بالتغلب عليهما؟!

على حين أردف نادر ببرود:

- حطمت ذراعيه! أعلم ما كان عليهما اختطافك.. تُرضي نفسك ليس إلا.. ماذا؟ هل عليك التمادي إلى هذا الحد؟ حقًّا! أحرقهما أو اقتلهما، لا شأن لي.. افعل ما تريـ..

وتلبسها ذاك الحال الغريب مجددًا فاقتربت منه صائحة بتوسل:

- لا.. أخبره بألا يؤذيها.. سأُلبي له ما يريد.

كتم نادر ابتسامته وغطى الهاتف بيده مُجيبًا لها بقلة حيلة:

- مهما قلتُ له لن يستجيب.. هو هكذا لا يتسامح.

- سأمنحه المال.. بل ما يُريد.. أعطني الهاتف فحسب.. سأتفاوض معه.

لم يمنحها الهاتف، بل وضعه على مكبّر الصوت مستمتعًا بتعابيرها القلقة.. ألم تقل إنها ستدوس العالم من أجل أخيها؟! لماذا هي مهتمة إذًا بهذين المُسِنّين؟!

انحنت أمامه نحو الهاتف لتقول باستعطاف:

- أنا من أجبرتها على اختطافك.. لديّ ما أبتزها به لذا إن كانت لديك ضغينة ضد أحد فهو أنا.

- ماذا تعنين؟!

- استبدلني بها، ودع زوجة أكرم وابنته في حالهما.

اتسعت عينا نادر لعظم غبائها في ما قالت، بينما بالكاد تماسك الشخص على الجانب الآخر أمام قولها الذي يعاكس الفكرة التي تشكلت في رأسه عن دهائها بعد حديث نادر عنها..

وازدادت دهشة نادر عندما أكملت بنبرة مهتزة:

- الرجلان، سامي وسعد كلٌّ منهما لديه زوجة وأطفال.. لا ذنب لهما.. أنا المَلُومة.. لن تستطيع عائلاتهما العيش من دوني..

ونظرت فجأة إلى الحجرة البعيدة بارتباك، وقد تذكرت فجأة مصيبتها هي الأخرى؛ فإن سلمت نفسها إلى أحمد فمن الذي سيحمي أخاها من فاضل؟

- أحمد.. انتظر.. سأنقذ أخي وبعدها أسلم نفسي لك.. آ.. آ.. أقصد.. فكّ قيـ.. لا..

واحتبست الكلمات في حلقها حين نضبت الأفكار من رأسها؛ فهيَ اعتادت الفوز دائمًا، ولكن عندما تضع خطة، والخطة في العادة تستغرق من وقتها وعقلها عدة ساعات.. وارتجال كهذا صعبٌ عليها!

دحرجت عينيها السماويّتين الموشكتين على الفيضان نحو العسليتين تخبره بعجزها وتنشده مُساعدتها.. ولم يكن نادر ليفعل ذلك أبدًا، لم يكن ليستجدي المساعدة من عدو، ولكن نظرتها أوحت إليه بمدى بؤسها ويأسها.. أو أنها حقيقةً لا تنظر إليه كعدو!

المتعة التي استشعرها في البداية أضحت الآن غريبة ومزعجة نوعًا ما، بينما تابع الرجل على الجانب الآخر بعبث:

- أنتظرك لتسلمي نفسكِ إلي!.. أنا لن أكسر ذراعي وقدمي امرأة بالطبع.. مهلًا.. هل كُنتَ تُلمحين إلى شيء آخر؟ يا لجرأتك!.. أنا لديّ خطية لن أخونها.

«خطية مُسِنّة!».

تمتم شخص بالقرب منه، بينما احمرّ وجه مايا بالكامل بعد ما أدركت أخيرًا حماقة ما تفوهت به؛ فقبل قليل كانت توبخ نادر على اختطافه لها والآن تُخبر رجلًا غريبًا أمامه عن استعدادها لتسليم نفسها إليه!

الآن فقط صدقت تحذير صديقتها سلوى لها بألا ترتجل خطة أبدًا وإلا فإنها ستُدرك لاحقًا عظم بلاهتها...

وأيضًا متى سيتوقف عقلها عن تجاهل حقيقة أنها امرأة؟!

تلون وجهها بغضب عنيف، تفجر أعظم منه على وجه نادر لتهادي الرجل بكلامه، وقبل أن ينتهره ارتفع صوتها قائلة بثورة:

- أيها الوغد القذر.. تتصرف وكأن لك الحق في إيذائهما.. هما أضعف وأرحم من أن يوجها صفعة إلى وجهك، وليتهما صفعاك.. من يسمع شكواك يظن أنهما قد سحقا عظامك والبائسان كل ما استطاعا فعله هو اختطافك ومن ثم تقييدك وأرسلا صورة معدّلة رقميًّا لتهديد صديقـ...

قاطعها الرجل بصرخة متوترة:

- هل تستهينين بما فعلاه بي؟! ما زالا في قبضتي ويمكنني قتلهما الآن فلا تستفزينـ..

عاد لها جزعها وخوفها:

- لا.. أنا أسفة...

تُجادله، تناقشه بغباء محاولة حماية الرجلين فيما ظلت (صورة معدّلة رقميًّا) يتردد صداها في عقل نادر قبل أن يُخرج هاتفه من جيب قميصه ليُحدق بصورة أحمد..

وتجمد لنصف دقيقة ينظر إليها بتركيز شديد ثم لم يلبث أن اصفر وجهه وفغر فاه مصدومًا.. لم يكن سوى اختلاف ضئيل، لكنه استطاع تمييزه فبنية الجسد في الصورة أقل نحولًا من بنية جسد أحمد الذي

يعرفه جيدًا.. تذكر أن مايا قد أخبرته من قبل أنه يدعمها رجل محترف في الحاسوب لذا بالتأكيد هو من صنع من أجلها هذه الصورة المزيفة لتخدعه بها...

قد قال أمامها بتعاسة وحزن إن هناك ضحية في قصتها، لكنها أبدت مللها واستسخافها لتذمره لأنها كانت تدرك منذ البداية أنها كذبة..

عقله! عقله الذي لطالما أدهشه هو نفسه بذكائه، من تجرأ وأطفأ زره وقتها؟

رفع بصره الشاخص نحوها فوجدها ما زالت تتوسل إلى الرجل، وعندما انتبهت إلى نظرته البائسة منحته ابتسامه مرتبكة، ففاجأها باختطاف الهاتف من يدها، ثم ألقى سؤالًا هادئًا بشكل مخيف:

- ماذا تُخبئون عني؟!

وأوقف تسرب الصوت عبر المكبّر بالضغط على شاشة الهاتف بعنف حتى لا تسمع صوت رفاقه الذين تباينت ردودهم ما بين الشهقات والتنهدات المستاءة، ثم تطوع حاتم للأجابة بعد أن فضحتهم تلك الغبية:

- صدقني.. كان الأمر عسيرًا علينا نحن أيضًا.. أنت لم تُخدع يومًا ولذا لم نرد إيذاء مشاعـ..

«لن أكرر سؤالي».

بنبرة أشدَّ غضبًا ألقاها فارتجفت قلوب الثلاثة على الجانب الآخر حتى مايا ابتعدت عنه وهيَ تُبصر عينيه القانيتين حمرةً..

زفر زيد بإشفاق، بينما قال حاتم بانفعال:

- حسنًا.. حسنًا.. لا تغضب، سأخبرك.. لقد عرف زيد أن الصورة

مزيفة بمجرد أن دقق نظره فيها قليلًا.. ثقتنا بدهائك وبدقة ملاحظتك هي ما أوقعنا من بعدك.. بجدية، إنها المرة الأولى التي أراك فيها مغفلًا للغاية، وليتني انتبهت لذلك مبكرًا فبسببك قد فقدت...

(قبل ساعتين ونصف الساعة:

كان الثلاثة بلا استثناء، حاتم وزيد وتميم، قد تلقوا صدمة أخرستهم لعدة دقائق بعد انتهاء المكالمة، لم يتخيلوا يومًا أن نادر قد يتنازل عن كبريائه ويطلب منهم خدمة دون ابتزاز.. صوته المثقل بالضيق نقل قلقه بالكامل إلى نفوسهم فتساءلوا بوجل: أي عدو هذا الذي هو قادر على هز اتزان الزعيم وجعله يلتمس عونهم بنبرة أقرب إلى الرجاء كي يحرروا رفيقه الساذج من القيد؟!

بلغ سمع وقلب كل فردٍ منهم الألم الذي قاساه، وما زال يقاسيه، فتحركوا، ليس رغبة في المال، ولا في امتداحه لهم كما تمنوا دائمًا، بل من أجل الزعيم فقط سيوسعون ذلك الأبله أحمد ضربًا بعد أن يحرروه من قيد الرجلين فكيف له أن يكون بهذا الغباء ليُقبض عليه بهذه السهولة؟!

جلب تميم شاحنته، فيما أخرج زيد حاسوبه المحمول، وانتشل حاتم العقد الذي سرقه بالأمس من مخبئه في جيب داخلي لبنطاله وجميعهم غادروا محل الإلكترونيات..

وترأس زيد عملية الإنقاذ تلك ببراعة:

- أرى أن تتبع عنوان بروتوكول الإنترنت المُرسلة منه الصورة

يكاد يكون مستحيلًا.. هو يستخدم شبكة خاصة ويوجهها عبر عناوين دولية، إنه أشد حذرًا وذكاءً مقارنة به قبل عدة أيام لذا تتبعه خلال يوم واحد أجده صعبًا للغاية.

- إلى أن تجد موقعهم سأرتجل هذه الخطة.

قال حاتم وعيناه تكادان تبكيان العقد، فقد أخبر زوجة أكرم بالأمس بعد محادثة طويلة أنه سيُسعره لها في السوق، وقد طلب منه نادر الآن أن يختلق سببًا لدخول منزلها، وأن يأخذ صورة لها دون أن يمسَّها بسوء كخطة بديلة في حال فشلهما في تتبع موقع الرجلين، ولكن نبرته المتألمة جعلته يرتجلها الآن..

ولسوء الحظ لم يكن لديه سبب مُقنع سيُدخله إلى منزلها غير هذا العقد..

وبالفعل استقبلته وقد عكس وجهها تفاجؤها لعودته، ثم أخبرته بصراحة أنها قد أساءت الظن فيه بعد أن زارتها في الليلة الماضية ابنة نواف (مي) فتجاذبتا معًا أطراف الحديث، وبعد أن قصت عليها قصة العقد أخبرتها أن تنسى أنه سيُعيده إليها فمثله محتال بالتأكيد..

حتى أن ابنتها ذات الاثني عشر ربيعًا حين رأته يزور والدتها حاملًا العقد بدت مصدومة للغاية واعتذرت منه لأنها شككت في نزاهته واعتذرت لأمها لأنها وسمتها بالسذاجة والغباء..

وعندها التقط الصورة لهما في غفلة منهما، ثم أرسلها إلى هاتف زيد، الذي ينتظره في الخارج برفقة تميم في الشاحنة..

وبدوره أرسلها إلى هاتف نادر الذي تلقاها وهو في حجرة مدير الفندق وقد كان فيها مصدر قوة له دفعته للعودة إلى الشقة ومن ثم المماطلة إلى حين اكتشافهم لموقع أحمد ومن ثم تخليصه.

«أتظن أنهما الرجلان أنفسهما من السابق؟!».

قال تميم فجأة مقاطعًا تركيز زيد الذي رفع رأسه ونظر إلى منزل أكرم الذي يختفي حاتم داخله، ثم إلى الموقع الذي التقيا فيه قبل يومين بسعد وسامي..

قفزت فكرة غريبة إلى رأسه، وعندها أرسل صورة أحمد إلى حاسوبه الشخصي ليدقق النظر فيها، وثانية فقط وامتقع وجهه بعد أن أدرك زيفها، ثقته المفرطة بالزعيم غطت على خبرته ولولا أنه رأى السذاجة في وجه الاثنين لم يكن ليرتاب بها على الإطلاق.

«الوغد!»

صرخ بغيظ دفع تميم ليعتدل في جلسته صائحًا بتحفز:

- ماذا؟

- الصورة مزيفة بالكامل.. قد يكونان اختطفاه ثم قيداه والتقطا صورة له استخدماها في صناعة هذه الصورة المُفبركة.. من المحتمل أنه لم يتأذَّ أبدًا.

ارتسم الذهول على وجه تميم ولم يستسغ عقله أن يقع نادر في مثل هذا الفخ الغبي، فيما تجرأ زيد تحت غضبه لينتهج نهج حاتم المتهور فأرسل صورة زوجة أكرم وابنتها إلى رقم الهاتف ذاته الذي أُرسلت منه صورة أحمد المزيفة إلى نادر، ودقائق فقط وكان سعد قد خرج يركض بفزع من

المستودع الملاصق لمنزل أكرم ليطمئن عليهما، فصاح زيد بجزع:

- تميم.. يجب أن لا يدخل إلى منزل أكرم سيُفسد الخطة بأكملها.

إفساد خطة الزعيم لم يكن ليسمح تميم بأن يحدث ذلك أبدًا. ترجل من السيارة، وبجسده الضخم استطاع القبض على سعد ثم جره بخشونة إلى المستودع وهناك رأى هو وزيد ما جمدهما..

لم يكن في المستودع سوى اثنين: سامي، وسعد الذي جرّاه قبل قليل، ولا وجود لشخص ثالث مُختطف ومُقيد اسمه أحمد!

وبعد خمس عشرة دقيقة كان قد لحق بهما حاتم فوجد الرجلين مربوطين بحبال شُدت بعنف حول أطرافهما، بينما زيد وتميم يقفان إلى جوارهما ينظران بوجوم إلى هاتف أحمد المسروق الذي قد يكون صاحبه مُنعمًا ومستمتعًا في مكان آخر، ومن غير المستبعد أنه بحلول الآن قد ابتاع لنفسه هاتفًا جديدًا، لكنه لم يفكر بمهاتفة الزعيم، بل بالأصح كيف سيخطر بباله أن يُطمئنه عن نفسه إن لم يكن يعلم أنه مخطوف؟!

وهنا كان على أحدهم أن يُنقذ الرجلين من ثورة حاتم بعد أن فقد (العقد) للا شيء سوى لسذاجة الزعيم..

وانتهى الحدث بأكمله - بعد نقاش حاد وعنيف بين الثلاثة استمر لنصف ساعة - باتفاقهم على حفظ ماء وجه الزعيم وعدم إخباره بأن المُختطف لم يكن كائنًا حيًّا، وإن كان حاتم يُعدُّ العضو غير الموثوق به في حفظ السر، ولكنه بغرابة قد وفى باتفاقهم).

«أوه!.. هذا ما حدث إذًا».

قالها نادر بنبرة تضطرم غضبًا وَخِزْيًا، وعيناه المتقدتان احمرارًا تتجهان

نحو مايا، التي ارتجفت خوفًا منه، ثم نقلها إلى شاشة هاتفه، وكأنه يُبصر أوجه رفاقه الثلاثة الذين تمادوا مع كذبة مايا فكذبوا عليه هم أيضًا وتلاعبوا به قائلين إنهم أنقذوا أحمد المُعذب من قبضة الرجلين!

إذًا، من بين الجميع، هو الوحيد من كان يعاني دون أن يتكرم أحد ويُنير عقله الغبي.

«لا تفك قيد الرجلين».

قال فجأة بنبرة جادة صارمة جعلت الثلاثة يلتزمون الأدب معه، ويجيبون بالموافقة في وقت واحد.

وظهر صوت تميم فجأة يثقله الندم:

- أسف لأني لم أخبرك.

- لا عليك.. منذ البداية، الخطأ هو خطئي أنا.. لم يكن عليَّ أن أطلبها كخدمة.. لو ابتززتكم كالعادة لكنتم وفرتم هذا العطف والشفقة لأنفسكم.. ثم من تظنونني؟! تحفظون ماء وجهي! أيها الحمقى! أنا لن أتأثر بمثل هذا الهراء.. ثم.. ثم..

وصمت، والخجل يتصاعد ليكسو كامل وجهه وقد أدرك أنه مع كل كلمة سيدافع بها عن نفسه سيكشف لهم عن خزيه ليس أكثر و... أغلق الخط في أوجههم.

صاحت مايا مُغضبة:

- لا.. اطلب منهم ألا يؤذوا المُسِنّين.. لقد علمت الآن أنها كانت مجرد كذبة ولم يؤذيا رفيقك.

ومدت يدها لتأخذ هاتفها منه إلا أنه رفعه إلى أعلى امتداد تسمح به ذراعه فتجمدت في موقعها مستنكرة تصرفه فهو المنتصر عليها، لقد قيد رجليها وأفشل مخططها، ومع ذلك بدا يغلي غضبًا من شيء لا تدري ما هو و... فجأة أسقط هاتفها ثم دعسه بحذائه ليتحطم بالكامل.

شهقت بجزع وانحنت نحوه لتنقذ ما تبقى منه بينما ظلَّ هو مُحدق النظر بها، وما فعله بهاتفها لم يشفِ غليل قلبه بعد..

ثلاث ساعات من عمره أرهق فيها عقله ليضع خطة لم تكن ذات داعٍ من الأصل، ثلاث ساعات قضاها وسط معمعة لا معنى لها، وأهدرها في معركة نفسية متبادلة بينهما عنوانها (الهراء بعينه!) فلا هي أرادت إيذاء أحمد منذ البداية ولا هو أراد إيذاء زوجة أكرم وابنته..

تلك الساعات استُفتحت بتهديد أجوف منها ليخضع لرغبتها بنقلها إلى العاصمة وانتهت بتهديد أخرق منه لينقذ أحمد منها.. وكلاهما كاذبان!

فلم يكن هناك ضحية في قصة أي منهما!

يستحيل أن يكون هذا الشخص الغبي هو! لا بد أن مدير الفندق هو من نحسه بغبائه!

ألم يقل إنه مهما بلغ بهم الذكاء يبقون أغبياء أمامهن؟!

نعم، ذلك ينطبق على مدير الفندق وليس على شخص يحمل اسم نادر!

ولكنها.. استطاعت الكذب عليه واستفزازه إلى حد فقدانه لرجاحة

عقله، فتماشى كالأبله مع ثورتها وصدق تهديدها، رغم أنها قد أخبرته من قبل أنه لا يَدعَمُها إلا مُستَّون أغبياء وعديمو الفائدة، وإلا فلماذا قد تحتاج إليه؟!

عقله لم يسترجع هذه المعلومة المهمة إلا الآن!

الوغد أسقطها ثم راح يلهث كالمتسوِّل ليطلب خدمة من رِفاقه...

صوته! صوته الحزين حين حادثهم.. كيف يمكنه إرجاع شريط الماضي وقصُّه؟!.. أراد إذلالها فإذا به الآن هو الغارق في حرجه.. صورته أمام رفاقه كيف يمكنه تلميعها من جديد؟!

«تبًّا! أنا لا أحفظ أيّ رقم».

صاحت فجأة بتبرم وفتات جريمته فوق كفيها.. فعض شفته السفلى بغيظ وحقد.. ليس عدلًا؛ يجب أن تشعر هي الأخرى بالذل والخزي كاللذين يذوق الآن مرارتهما في فمه وقلبه وروحه وعقله وجسده و... و..

لقد نجحت في ما لم ينجح فيه أحد من قبل.. ولن ينساها له حاتم ما حيي..

وعندها تفجرت داخل رأسه فكرة مجنونة لم يتردد في تنفيذها ولو لثانية واحدة.

«فـــارس!».

ناداه بأعلى صوته، وخلال أقل من عشر ثوان كان قد غادر الحجرة يركض نحوه، وقد أسعده سماحه له أخيرًا بأن يرافقهما. وقف أمامه ينظر

نحوه بابتسامة متحمسة، وحينئذ تجرد نادر من نضجه بالكامل فأشار بسبابته نحو مايا الغافلة قائلاً:

«لقد طلبت أختك الزواج مني».

****

-٢٤-

١٦ أكتوبر - ١:٤٥ ظهرًا

في العاصمة عمّت الفوضى على جانبين في كلٍّ من: مستشفى الصحة النفسية الأشهر بالعاصمة، وشركة بسام ثروت للتطوير العقاري.

أما على الجانب الداخلي: فقد علا صخب الموظفين، والعاملين، وحتى المُراجعين، وجميعهم يؤكدون أن الأشخاص في مقطع الفيديو المنتشر هم رؤساؤهم.

بينما في الخارج: التزم بعضهم الصمت عندما تجاوزت أقدامهم عتبة الباب الرئيسي للمبنيين إلا أن البعض الآخر لم يحتمل آلات التصوير الموجهة إليه، والصحافة المترقبة لأي تصريح فدفعهم سعيهم للشهرة ليقدّموا إفادتهم...

«بالتأكيد، أنا متيقن مئة بالمئة، ذلك الشخص هو رئيسنا فاضل والشخص الذي يقف إلى جواره يُشبه في هيئته هيئة حارسه كاظم رغم طمسهم لوجهه». قال الأول.

فيما صرّح الثاني: «شركة بسام ثروت هي من تكفّلَت قبل عشرين عامًا ببناء ذلك المستشفى، ولكن لم أسمع أن العلاقة بين المستشفى والشركة قد امتدت لما بعد الانتهاء من ذلك.. ولا علم لي بالصبي المحتجز في المستشفى!».

أما أكبرهم سنًّا فقال: «نعم.. تقاعدتُ منذ أسبوع.. أنا أعمل فيه مُنذُ أربعين عامًا.. عاصرتُ بسام ثروت.. لديه ابنان: فاضل وأمجد.. لا، مستحيل، أمجد قد قضى نحبه ولم يلبث والده بسام أن لحق به بعد أقل من ثماني سنوات.. طفل ذكر! لا، لأمجد طفلة وليس طفلًا وهي بالمناسبة على علاقة جيدة بعمها وتأتي لزيارته كثيرًا».

اقتحم محفل الصحافة رجل في آخر عقده السابع قد انحنى ظهره وبان في عينيه الكآبةُ والحزن، أسرع يقاطع المتحدث الأخير وهو يواجه آلات التصوير صائحًا بنبرة خنقتها عبراته:

- حفيدي الذي ربيته.. (إياد).. كان يعمل كحارس لفاضل.. رئيسه كان كريمًا معي للغاية ومنحني من المال لقاء عمله ما يجعلني أعيش بكرامة لما تبقى من عمري، ولكن ماذا بقي لي لأعيشه؟ أنا هنا لأنتقد جميع رجال الشرطة؛ متى سيقبضون على الرجل الذي قتل حفيدي في حادث سيارة؟ أخبرتهم: حفيدي كان يمشي على رصيف المشاة والسيارة قد تعمّدته إلا أنهم أبلغوني أنه حسن السلوك ولا يُضْمر أحد له أي عداوات.. لقد رأيت السيارة حين صدمته، بنظري الضعيف هذا رأيتها ووصفتها لهم ولم يكترثوا لي.. أريد القصاص له قبل موتي.. بُؤسًا لرجال الشرطة وللمحققين الفاشلين أسأل الله ألا يذيقهم راحة ولا سعـــ...

تفرق عنه الحشد سواء من رجال الصحافة أو موظفي الشركة وقد داهم قلوب بعضهم الشفقة عليه؛ لقلة حيلته وانعدام السند والمعين له غير الدعاء، لكنه لم يكن بحاجة لشفقتهم لأنه يعلم أنه قد لجأ إلى الركن الشديد الذي لا يُهزم ولا يُغلب، ويُجيب ولو بعد حين.

فيما توالت على جانبيه أضواء آلات التصوير، وانهالت من أفواه حامليها التحليلات والتخمينات حول ما أدلى به هو، أو غيره، لاستقصاء إن كانت ذات علاقة بالفيديو المنتشر أم لا! ليقرروا إذا ما كان يجب أن يؤخذ به أو يتم تجاهله وإهماله.

وداخل شركة بسام ثروت، في طابقها الخامس والعشرين بالتحديد، تنقّل فاضل من نافذة إلى أخرى ينظر إلى تلك الجموع التي لم ترحم زاوية من مبناه رغم ضخامته.

كان للتو بصدد الاحتفال بتأجيل جلسة المحكمة حين اصطدم بغتة بجبلٍ شاهق من العقبات أقامه الفيديو المسرّب بغرابة إلى جميع وسائل التواصل الاجتماعي.

نظر بعينين شاخصتين إلى محاميه بدر، والأمان يفقد طريقه إلى قلبه وروحه:

- أريد كاظم.. أريد حارسي الآن.. مُرْه بالعودة.

اقترب منه المحامي محاولًا تهدئته:

- لا أحد يستطيع إيذاءك ما دمت تلتزم الصمت.. هذا الفيديو لا يُثبت شيئًا ولا يمكن تقديمه كدليل ضدك.

- أنت لا تُدرك المصيبة الحقيقية.. ماذا لو رآه راكان؟ أو مايا؟

وازداد تكدّره وغمّه للسلسلة الغريبة والمتوالية من الأحداث منذ اختفاء الفتى.. هو لم يكتشف بعد من أعلن عن مكافأة المليوني دولار! ليُصدم قبل ساعة من الآن بالفيديو المسرّب والظاهر فيه وجهه من بين الجميع.. فقط من تجرأ على تحديه وفعل ذلك؟!

وداخل مبنى المستشفى النفسي الأشهر في العاصمة، نظر العاملون إلى الصحافة المترصدة خلف الباب الرئيس، ومن بينهم هز عامل النظافة رأسه بأسًى للشهرة الأكبر التي حظِيَ بها مستشفاهم، ولكن على النقيض من سابقتها.

وقفت إلى جواره العاملة في قسم الغسيل وقد عكس وجهها حزنها وضيقها وهي تهمس له:

- لقد رأيته بالتأكيد.. أعني الفيديو! أنا واثقة أنه لم يخفَ عليك أنه الطابق السابع حيث الحجرة التي كان يقطن فيها الفتى العنيف فارس.
- نعم لقد تعَرَّفتُ عليها؛ فقد عملت في خدمة الكادر الطبي فيها لسبع سنوات.
- الأشخاص في الفيديو هم بالتأكيد المدير ورئيس الأطباء والآخران هما طبيبا الفتى نادر وياسر.

حمل صوته استهجانه:

- أتظنين أن ياسر طوال تلك السنوات كان يُعذبه وذلك الوقح نادر قد ضربه من أجله؟ ألا يجب أن يكون العكس؟!

ارتجفت شفتاها وكبحت غُصَّتها بالقوة:

- ما أفكر فيه الآن.. أنه منذ أن جاء إلى هنا طفلًا في التاسعة وإلى أن أصبح مراهقًا هل ظل يدافع عن نفسه ضد شخص يرافقه وملتصق به؟! كُنتُ أراه أحيانًا يبكي بصياح عالٍ، تغطي ذراعيه الكدمات، ويلوث ملابسه التي أغسلها بقع من الدم، فظننته من

آذى نفسه ولم أكن أعلم أنه يتألم من تعنيف شخص له.. أنا الآن لم أعد ألومه لمهاجمتنا!

- المسكين!

ثم صمتا بكآبة، وشعور عميق من الذنب يغزو قلبيهما نحوه، وفجأة صدر بالقرب منهما صوت خافت لإغلاق مسجل صوت رقمي صغير، فالتفتا معًا ليجدا شابة تُخفي نصف وجهها تحت كمّامة طبية، وترتدي زِيًّا شبيهًا بزِيِّهما، وبمجرد حصولها على ما أرادت، ركضت مبتعدة عنهما ببهجة وهي تنزع الكمامة؛ وعندئذ كلاهما عرفاها: إنها الشابة الصحفية (مي) المهووسة بتعقّب الفضائح وكشفها للعامة.

«سحقًا!».

صاح الاثنان بفزع فقد أفشيا بحديثهما كل شيء.. الطابق السابع.. المدير.. رئيس الأطباء.. وياسر ونادر.. والأسوأ أنهما قد كشفا أمامها حتى عن اسم الصبي.

****

١٦ أكتوبر - ١:٥٠ ظهرًا

كانت مايا تبحث عن شريحة الاتصال الخاصة بها من بين قطع هاتفها المكسور حين قصفت أذنيْها عبارة نادر فتساقطت تلك الكسرات من يدها إلى الأرض مجددًا...

بينما ظل فارس متجمدًا بصدمة لثانية صاح بعدها بدهشة: «مايا فعلت ذلك؟!».

كانت هناك ابتسامة تُقاتل لتحتل شفتيه، وهو بانتظار التأكيد من نادر، فوقفت مايا سريعًا وفتحت شفتيها لتنفي تهمة نادر الجائرة، لكن نادر سبقها بالرد قاطعًا أمامها كل سُبل الحياة الكريمة أمام أخيها:

- نعم، وقد قبلت.

وانتصرت تلك الابتسامة فغمر الشقة كلها صدى ضحكات فارس وصرخاته السعيدة، وكاد جسده يرقص برفقة قلبه الذي رقص فرحًا وهو يصيح:

- سنكون عائلة!

بقيت مايا متجمدة تُحدق بحقد في نادر الذي رفع حاجبيه عاليًا ثم أنزلهما بطفولية ومشاكسة قلَّ أن فعلها منذ أن تجاوز العاشرة من عمره..

وهنا فقط أحسَّ قلبه بالرضا، وأعلن عقله الانتصار عليها..

على مدى حياته الحافلة بالصعاب والمآسي لم يُقابل شخصًا يُطبق بدقة وعناد مبدأ واحدة بواحدة مثلها: ظنت أنه اختطف أخاها فاختطفت أحمد، وحين علمت أنه اختطفها من أجل فارس أرادت اختطافه هو الآخر رغمًا عنه من أجل أخيها أيضًا..

ولكن الآن كيف ستتصرف؟

وكيف ستردُّ واحدة بواحدة؟

هل ستصرخ بأنه هو من طلب منها الزواج وقد قبلت؟

بالطبع، سيكون هذا هو المستحيل بعينه، فمُنذُ وقع بصرها عليه وهي ترفضه دون أن يطلب يدها حتى..

وبالفعل، أخذت شفتاها ترتجفان وهي تتابع قفزات فارس السعيد وهتافه الصاخب.. ستُخبره، ستكسر قلبه، وتُحطم فرحته، ولكن إن فعلت ذلك فهل سيُصاب بالنوبة؟!

عليها أن تتيقن أولًا قبل أن تؤذيه، ولكن من الذي سيُطمئنها إن كان طبيبه هو السبب في مصيبتها؟!

«أيها الوغد!».

تمتمت بها وأفكارها تضطرب، لقد أوقع بها، وزاد الأمرُ سوءًا عندما تلقى جسدها عناق فارس الصارخ ببهجة:

- كُنتُ أعلم أنه سيُعجبك وتحبينه.. أنا سعيد للغاية.

ثم أرسلها فجأة:

- ولكن لم أكن أظن أنكِ من ستطلبين الزواج منه أولًا!

ازدحمت قطرات من الدموع في عينيها، والخزي يُغرقها أمام أخيها الذي عاد لمعانقتها مُجددًا وهو يأسرها أكثر عن نكران هذه الكذبة.

بينما عاد إلى نادر أخيرًا اعتزازه بذاته فرفع رأسه بشموخ بعد أن سقاها من كأسها نفسها فمنذ تعرف على رفاقه لم يمرَّ يومًا بمثل هذا الوضع المخزي أمامهم..

وبلغ استمتاعه ذروته وهو يرى قلة حيلتها..

وفي جميع الأحوال لن يخسر شيئًا.. إن واصلت صمتها فسيُذلها أكثر، وإن رفضته أمام فارس فسيجد أخيرًا سببًا مُقنعًا للفراق فهو لن يبقى مُرافقًا لامرأة كسرت قلبه..

وبالتأكيد سيقبل فارس عذره وعندها سيرحل مُلبسًا لها جُرم فراقهما ليظلَّ أخوها عاتبًا عليها أبد الدهر..

كان في طريقه ليتنهد براحة عميقة لانتهاء صراعهما الذي لم يتوقف منذ التقاها بالأمس حينما تفاجأ باندفاع فارس نحوه ليعانقه هو الآخر ويهنئه بهذه المناسبة السعيدة التي لم يسعد بها غيره.

فرفع كفه بسرعة موقفًا اندفاعته المجنونة وهو يقول بارتباك:

- ليس الآن.. بعد أن نعقد قراننا يمكنك تهنئتي.

ضجت وجنتاها حُمرة، فيما قال فارس بحماس: «ومتى ذلك؟!».

«لم نتفق بعد»، «لن أتزوج أبدًا حتى تُشفى».

نطق نادر بالأولى بينما قذفت مايا بالأخرى وأضراسها تطحن بعضها بعضًا، وكم تمنت لو أن رأس نادر بينها لتطحنه بكل وحشية وشراسة، بينما عكست عيناها رحمة وعطفًا بأخيها المخدوع.

عبس فارس بشدة:

- مايا أنا لن أُشفى.. هكذا لن تتزوجا أبدًا.

مطت شفتيها سخطًا فهذا ما قصدته، فيما ازدرد نادر ريقه، وقد علم الآن حجم الورطة التي أوقع نفسه فيها مع فارس.. أراد الاكتفاء بما قال قبل قليل بدلًا من التمادي وشحنه بالأمل أكثر، ولكن كلما اصطدمت عيناه بوجه مايا العابس تذكر جرأتها فنطق:

- صحيح.. يجب أن لا يحدث ذلك سريعًا.. يجب أن أتعرَّف على العروس أكثر فقد أجد ما لا يُعجبني فيها فأُغير رأيي.

«لا!»

صاح فارس بجزع، فتحركت عينا مايا نحوه بعد ما رمت نادر بنظرة قاتلة، وقد تضاعف حرجها ألف مرة من لهفته الغريبة لزواجها، فشدت أنفهُ بقوة:

- توقف عن التصرف كمُسن على مشارف الموت ويريد الاطمئنان على ابنته.

- ولكن ليس لديكِ والد وأنا الرجل الوحيد هنا وقد لا أُشفى.

اتسعت عيناها صدمة من قوله، ولولا الغريب لأطلقت عينيها حزنًا على والدها الميت ببؤس وعلى أخيها المنكوب، ولكن ما هذا الهراء؟!

ما قصتهم بالنظر إليها وكأنها لا تستطيع العناية بنفسها دون رجل؟! بل هِيَ يُمكنها العيش لخمسة قرون بدونهم..

وغلى بركان غضبها من الداخل: إلى متى سيُصر فارس على إظهارها بحال مُثير للشفقه أمام هذا الغريب؟!

أرسلت عيناها نظرة ناقمة ساخطة إلى نادر الذي تلاعب بأخيها، ثم تبدل حالها فجأة لتحمل شفتاها أجمل ابتسامة قد تراها الأعين، وقالت بلطف:

- لا بأس.. بما أنه يريد التعرف عليّ.. فلنبدأ بالقهوة سأصنع له واحدة فقد رأيته مُفرطًا في حبها.

اختفت التعابير من وجه نادر، على حين وقفت فجأة ثم اتجهت إلى المطبخ، مما زاد من هول صدمته فتبادل هو وفارس نظرات ذاهلة، تحدث فارس بعدها بدهشة:

- واو.. هي جادة.. لقد اكتشفت سريعًا ما تُحب كما عرفت بحبي لشرائح البرقر، ولكن في الماضي عندما طبخت لي واحدة كانت كالحجارة في صلابتها.

ظل نادر ينظر نحو المطبخ عدة ثوان بقلق؛ يفكر لو أنه في موقفها ماذا قد يفعل! فشحب وجهه ذعرًا ثم نهض ليقف أمام الباب المكسور متلصصًا عليها فوجد مصداق تخمينه..

فها هي تضرب الأرض بإحدى قدميها، وشفتاها تُطلقان شتائم لاذعة ضده، وكفها تضغط في كوب القهوة الخاص به ليمونة تلو الأخرى فامتقع وجهه.. من أخبرها أن لديه حساسية حمضيات؟

بلا شك، روحه ستفارق جسده في أول يوم من زواجهما.. حقيقة أنها تملك مشاعر محبة نحو أخيها هي معجزة بالتأكيد!

شعرت بحركته أمام الباب، فغمر القهر روحها فقد أفشل خطتها قبل أن تبدأ.. كانت سَتُفقِدُهُ الوَعيَ ومن ثم ستهدد رفاقه به ليطلقوا سراح المُسِنّين، ولن يلومها فارس أبدًا لأنه لن يعلم أنها سبب تأذيه، وتهاوت الأكواب الخزفية تصطدم بحواف الباب وتتحطم بدوي عالٍ كما تجرأت من قبل ورمته بأحذيتها..

أفزع الصوت فارس الذي نهض نحوهما لينظر ولولا كف نادر التي جذبته لكان وجهه يُقبل أحد تلك الأكواب الطائرة، فشهق هلعًا ونادر يدفعه ليصطف إلى جواره خلف الحائط قائلًا بحدة:

- هل أخبرتها أنني أعاني من حساسية الحمضيات؟

- بالطبع.. يجب أن تعلم نقطة ضعفك وتتجنبها.

استشاط غضبًا وتمنى لو يفتح رأسه ليبحث إن كان هناك معلومة ولو صغيرة ما زالت تعيش بأمان بينهما فقط، وفجأة باغته فارس بأن مال على أذنه مفشيًا سرها:

- يجب أن تعلم أيضًا.. مايا تكره أن يصفها أحد بالجميلة.

اتسعت عيناه وردّ بانتقاص:

- ماذا؟! ألديها خلل في ثقتها بشكلها؟!

- كلا.. كلا.. والدي فقط من يعلم السبب ولذا حذرني من ذلك.

وأطلَّ برأسه من حافة باب المطبخ سائلًا بوجل:

- أنت لم تقل لها ذلك فغضبت منك.. صحيح؟

هل يُخبره أنها غضبت لأنه أفشل خطتها بقتله؟ بالتأكيد لا.. وبابتسامة خفيفة حرك رأسه إيجابًا فشعر فارس بالذنب لأنه لم يُحذره مسبقًا..

على حين جلست مايا القرفصاء وأعماقها تتآكل من الداخل.. كسر هاتفها.. أفشل خطتها بأن ينقلها بنفسه إلى العاصمة، ولم يكتفِ بذلك حتى استهزأ بها أمام أخيها وهي عاجزة عن ردعه بسبب فارس وبسبب المُسنّين العديمي الفائدة..

وقفت أخيرًا وقد استعادت رباطة جأشها، ثم مسحت وجهها المحتقن بالماء عدة مرات لتهدأ وشفتاها تكرران:

- أنتِ بخير.. كُلُّ شيء على ما يرام.. لستِ عاجزة، ستتخطين هذا كما تخطيتِ ما هو أسوأ.

وخرجت تحمل كوب القهوة في يدها ثم اتجهت نحو الأريكة، لكنها

وجدتها فارغة، التفتت إلى الخلف فوجدت الاثنين ما زالا يصطفان على الحائط بصمت..

ابتسمت بتكلّف وناولت نادر كوب قهوته فسرت قشعريرة باردة في جسده.. ما مدى جرأتها؟

هل تظنه بذاك الحمق ليشربه؟ ولكنه رأى في عينيها أيضًا فراغ عقلها من كل السبل للانتقام منه سوى رغبة منها بأن يتظاهر بأنه مُختلّ فيشربه مجاراة لها!

أخذه منها، فابتسمت بحماس ثم أعطاه إلى فارس المجاور له متمتمًا:

- لديَّ اضطراب مُفاجئ بالمعدة.

امتقع وجهها لرؤيتها فارس يتلقاه منه بامتنان كبير فسحبته من بين كفيه بقوة حتى أن رذاذه تساقط على الأرض، فبدا فارس ذاهلًا للغاية فيما ارتبكت وهي تحمل الكوب دون أن تجد ما تُبرر به فعلها.

- صحيح صنعته من أجلي.. لم يكن عليّ أن أكون بهذا الجحود.

ألقاها نادر فجأة مُفجرًا بركان غضبها وكادت ترمي الكوب بقهوته الحارة على وجهه لولا:

- ما زالت أقدامهما سليمة.

فتجمدت بذعر من أجل المُسِنّين بينما ظلَّ فارس مصدومًا من غيرتها على نادر منه، لم يظن أبدًا أن الأمر سيصل بينهما إلى هذه المرحلة في أقل من يومين.. تنهد براحة لتلك الفكرة بالسماح لهما بالحديث بمفردهما فلا بد أن هذا هو السر حول تفاهمهما وابتسم برضًا:

- جدتي جواهر على حق.

وتصدّر نادر الموقف بأكمله فجأة بعد ما أخضعها، بأن قال بحزم:

- فارس.. انتعل حذاءك.. واكنس بقايا الأكواب المتكسرة.

ضحك وهو يُسرع لطاعته فأخرج المكنسة فيما وقفت مايا تنظر.. (زوجة وخادم).. هو قد حصل على كُلِّ ما يُريد!

بينما مشى نادر إلى حجرته دون أن يقلّل من حذره منها، وبمجرد دخوله أغلق الباب على نفسه بقوة، وحانت فرصته أخيرًا ليُطلق زفرة عالية ارتاحت بها أعماقه.. انتقم منها.. أحمد بخير.. فقط (مال المُكافأة) وسيعود كُلُّ شيء إلى الحال نفسه قبل عدة ساعات حين همَّ بالرحيل فأعاقته بتلك الصورة المزيفة.

وبالتأكيد ستعطيه المال باستسلام تام ما دامت قلقة على سلامة المُسِنّين.. ولكن كيف سيخرج الآن من ورطته مع فارس بعد أن أخبره بأمر رغبتهما بالزواج من بعضهما البعض؟

استغرق عدة دقائق في التفكير في حل ثم خرج أخيرًا من حجرته. كانت مايا تجلس أمام فارس تستجوبه حول معرفته بأحمد لترسم خطة جديدة تُنقذ بها المُسِنّين منه، عندما فاجأهما نادر بخروجه يرتدي كامل حُلَّته، متأنقًا بشكل لافت، ومعطفه الغالي يُعانق جسده..

حتى أن عطره الذي اعتاده أنف فارس في الأيام الأولى من لقائهما بالمستشفى فاح في فضاء الصالة بأكملها فوقف الاثنان مصدومين من جرِّه لحقيبة سفره خلفه.

«هل سنرحل الآن إلى العاصمة؟».

صاح فارس بسعادة وهو ينهض ليجلب حقيبته وحقيبة مايا لولا أن ردَّ نادر عليه بهدوء: «لا».

بقيت مايا متجمدة بصدمة لا تُدرك ما ينتويه؛ فكيف سيرحل ولم تمنحه المال بعد؟!

كما أنها من المستحيل أن تعطيه إياه وما زال المُسِنّان تحت رحمة رفيقه، ولم ترَ فيه غباءً قد يجعله لا ينتبه لذلك.

عاد فارس يسأله بلهفة: «إذًا متى؟!».

تأمل نادر وجهه المتسائل لثوانٍ دون أن يرد عليه، هو يُدرك الحقيقة، حقيقة أنه ليس مسؤولًا عن فارس ولا تربطه به أي صلة.

وعلى الرغم من قسوة ما صرَّحت به مايا في وجهه إلا أنه اعترف لنفسه قبل أن يلتقيها بأنه لا ينفع كصديق ولن يكون طبيبه أيضًا.

بقاؤه إلى جوار فارس والتصاقه به لن يعودا بالأذى والضرر إلا عليه، لقد نجح أخيرًا في ما عزم عليه وأكمل واجبه تجاهه بأن أوصله إلى شخص يُهمه أمره ويسعى لحمايته وحتى لو كانت أخته فاشلة في العنايةِ به كما قالت فيُمكنها بمكالمة واحدة جلب طبيب آخر، ولكنها فقط رأته الأسهل فاختارته..

ثم حول نظره إليها بانزعاج، لا يوجد سبب يدعوه إلى البقاء معها هي بالذات.. يوم ونصف اليوم كانا كافيين بالنسبة إليه ليعلم أنه سيشهد الجحيم بعينه لو تمادى واقتحم بطيش حدود هذه العائلة فعلى الرغم من أنه أنقذ أخاها وأوصله إليها إلا أنها لم تمنحه شكرًا ولا امتنانًا، ورَسَخَتْ في عقلهِ فكرتها بأنه لا قيمة ولا اعتبار لأي شخص من خارج العائلة.

«اجلس».

قال وهو يجلس على الأريكة فأسرع فارس يجلس في مواجهته، وقد استشعر قلبه أنه سيُقدم على النطق بشيء لن يحبه، وبالفعل:

- أنا مضطر للعودة إلى قرية السنابل.

اتسعت عينا فارس وبدا عليه الرفض تمامًا لفكرته هذه، بينما تابع نادر بهدوء:

- يجب أن لا يبقى منزل والديَّ دون عناية.. أحتاج إلى البحث عن من يتكفل بأمره ويهتمُّ بحقل التفاح و...

- وتعود؟

قاطعه فارس بجزع ثم أردف:

- لا بأس.. سننتظركَ أنا ومايا هنا.

ثم لم يلبث أن عكس وجهه فزعًا عظيمًا فاستدرك:

- لا.. لا.. لا تعد إلى تلك القرية.. سيؤذونك.. بل يجب أن لا تبقى في ذلك الكوخ بمفردك.

ثم التفت بزرقاوين محمّرتين نحو مايا العاقدة ذراعيها أمام صدرها وهي تنظر نحوه بأسف فقال برجاء:

- دعينا نرافقه أولًا ثم نذهب معًا إلى العاصمة.

ظلت صامتة وقد أدركت أن نادر لا يُريد ذلك، ولا هي أيضًا تُريد ذلك، ولكن نادر أجاب قبلها:

- لا.. لا حاجة لأن ترافقاني.. قد يستغرق الأمر بعض الوقت ولا

أريد تأخيرك عن لقاء عائلتك.. وأعدك أنني سأتصلُ بك دائمًا كأحمد وقد أزورك.

«لا!».

بصرخة عالية نطقها مُثيرًا غضب نادر، ثم ارتجفت شفتاه باستياء، فقبل قليل قال إنه سيتزوج مايا! فما هو السبب المُلِحّ لِفرَاقهِ عنهما؟!

«ألم تقل إنك قد قبلت؟!»

سأل فجأة بانزعاج، فتأففت مايا لهذه الكذبة البغيضة، فيما قفزت ابتسامة عابثة لشفتي نادر، وهو يُجيبه:

- ولهذا سأرحل.. أتريد أن أواجه عائلتك دون وظيفة.. دون مال.. أنت لن ترضى بهذا.. ذلك يؤذي كرامتي كرجل.. يجب أن أكون على قدم المساواة معهم.

اتسعت عينا فارس وكأنه أدرك أخيرًا نيته، هو يُريد أن يُهيئ نفسه قبل أن يتقدم لمايا وأن يكون جديرًا بها أمام والديه ليقبلا به..

إذًا لم يكن يرغب بالرحيل عنهما، بل هي خطوة مُحَتَّمة من مشروع كبير ليبقى معهما إلى الأبد..

هاجت زرقاواه باحمرار عنيف وكبت دموعه بالقوة بعدما أفحمه كلام نادر المنطقي. فيما بهت وجه مايا للكذبة التي وظفها في أهدافه لآخر دقيقة من وجوده معهما، لكن رغم اتخاذه لها كعذر للفراق عنه فهي لا تنكر انبهارها بطريقته التي جعلت فارس يستسيغ رحيله.

- عِدني بأنَّك ستهتمَ بصحتك، وتنتظم مع طبيبك الجديد، وأنا أعدك بأنني سأجيب على اتصالاتك دائمًا.

لم يرد فارس عليه، فقط اكتفى بالنظر إلى الأسفل بحزن شديد لعدة دقائق أقلقت الاثنين ثم لم يلبث أن همس بغتة:

- فيديو؟

ضحك نادر رغمًا عنه ومدَّ كفه ليربت على رأسه مُجيبًا: «نعم.. فيديو».

واتسعت عينا مايا صدمةً وهي تُبصر وجه نادر.. هل ارتجفت شفتاه للتو أم خُيِّل إليها؟! بل لماذا جفناه مُرتخيان؟!

ولكن سرعان ما مُسح ذلك التعبير من وجهه، وهو يُعثر شعر فارس مُطلقًا ضحكة خفيفة، ثم قال:

- لقد طال شعرك قليلًا.. يُمكنك بعد الآن قصه كما تُريدُ أنت، ليس كما أُريد أنا.

تقوست شفتا فارس وذلك أحزنه أكثر مما أفرحه، فيما راقبت مايا البرود الذي تَصنَعه لكنه قد عجز عما قدر عليه من قبل، فتعابيره باتت مكشوفة لها بالكامل.

- فارس.. سنلتقي قريبًا، هل فهمت؟ إياك أن تتصرف خلال الأيام القادمة وكأننا لن نلتقي.. وعندما أعود أريد أن أراك قد تحسنت.

حلَّت الكآبة على وجه فارس، قلبه يؤلمه، وعيناه تُحرقانه، وبالتأكيد أخته أيضًا حزينة لفراق نادر فقد باحت بحبها له قبل قليل، حوّل نظره نحوها فرأى وجهها الهادئ دون تعبير، فابتسم برقة تشجيعًا لها فهيَ بالتأكيد تُغالب نفسها لذا سيكون قويًّا من أجلها..

وقف نادر ثم غادر جارًّا حقيبته من خلفه، فاتسعت عينا مايا بفزع.. والمُسِنّان! والمكافأة! ألن يحلَّ هذه الأمور قبل رحيله؟

لحقت بذلك الصقيع فوجدته يقف متكئًا بظهره على حائط مدخل الشقة ينتظرها، فأوقفت خطواتها بصدمة، فيما ابتسم بسخرية:

- إن أردتِ إنقاذهما فأعطي أحمد مال المكافأة.

- وهل سيتركهما؟

- هو صديقي وقد يكون لديَّ بعض التأثير عليه.

تراجعت إلى الخلف وظلت مُترددة لثوانٍ قبل أن تهرع إلى داخل الشقة لتستخرج شيئًا ما من حقيبتها وسط دهشة نادر ثم عادت إليه تحمل دَفْتَرًا مستطيل الشكل فاستندت على الحائط وسجلت فيه بعض الأرقام ذيلتها بتوقيعها ثم نزعت الورقة ومنحتها له.

ظلَّ مذهولًا للحظة، فهل كان يُمكنها منحه المال منذ البداية، ولكنها تلاعبت به؟ رماها بنظرة ساخطة بادلتها مثلها، ثم قالت بعناد:

- هذه مليون والأخرى سأسجلها بعد إطلاق سراحهما.. تحدث إليه الآن وأخبره.

دقيقتان فقط، وكانت تتحدث مع سعد وسامي عبر هاتف نادر، مؤكدين لها سلامتهما، وأنه لم يفقد أحدهما ذراعه ولم يفقد الآخر وعيه كما اعتقدت، فقط قد تم ربطهما بغلظة وقوة، والتصرف معهما بوقاحة، وسمعت هتافات صاخبة لرفاق نادر فرحةً بمال المكافأة وهم يغادرون المستودع.

ولم تُسلم نادر الورقة الأخرى حتى أكَّدَا لها أيضًا سلامة زوجة أكرم وابنته بعد أن غادرا المستودع نحوهما مباشرة وسمعت صوتهما وهما يتحدثان معهما، واقشعر جلدها غضبًا حين علمت أنها كانت تساوم على

هاتف أحمد فقط وأنهما لم ينجحا باختطافه، بل هو لم يكن جزءًا حتى من معمعتهم هذه..

نظرت نحو نادر بحنق وما زال صوت زوجة أكرم يتردد عبر الهاتف تُحدثها عن لطافة حاتم وتقديمه عطرًا فاخرًا لها كهدية، وعن كيف ساعدها في تسعير عقدها، بل واقترح لها صابون إعادة الشباب الذي لا يوجد إلا في فندق مئة وتسعة وعندها علمت سبب وقوفها على أرض هذا الفندق..

إذًا منذ البداية جميع أحبائها في خير حال وأولهم فارس، لأنه هو الآخر مثلها لم يكن ينوي إيذاء أحد، والآن خدعها أيضًا بتهديدها بإبقاء المسنين مقيدين ليحصل على المكافأة فقط..

زفرت بسخط فيما زينت شفتي نادر ابتسامة مستفزة، وهو يُذكرها:

- المليون الآخر! لم يبتعد رفاقي بعد.

سجلته ومنحته هو الآخر له فحمل حقيبته للمغادرة وعندها هتفت باستياء:

- كان يُمكنني الجلوس في إحدى زوايا الشقة واستخدام خدعتك ضدك لأجعلك تجلس مُرغمًا.

- ماذا تعنين؟

سألها باستخفاف.

- قليل من الدموع والصراخ الجازع بأنك ذاهب إلى القرية للقاء الشابة ريم التي تُطاردك، وهجرانك لي، وعندها لن يتسامح فارس معك ولن يتقبل رحيلك.

رفع حاجبيه: «ولِمَاذا لم تفعلي ذلك؟!». ثم ضاقت عيناه فلو فعلت لوقع في مصيدته.. ولكن لماذا هي تعلم عن حياته حتى صغائرها؟!

أجابته بحدة:

- سأبدو مثيرة للشفقة ومسكينة تمَ التخلي عنها.

تجهم وجهه لاعتزازها الشديد بنفسها، فيما أردفت فجأة:

- ولكن قد أفعلها بعد أسبوعين حين يُدرك أنك لن تعود لأجعله يكرهك وينساك.

وضحكت بخفة، بينما عبس بشدة متخيلًا بغض فارس له، لكنه لم يلبث أن انتبه فجأة أن هذا الحديث يَجُرُّ إلى اتجاه لا يُعجبه، ولا معنى له أيضًا، وعندئذ قال بجدية:

- كما قُلت لكِ: خذيه إلى المستشفى لعمل فحص عاجل لكليتيه.. ولا تنسي جميع النصائح التي سجلتها في المذكرة.

- لا شأن لك.. هو مسؤوليتي الآن وسأتكفل بكل شيء حتى في عدم وجودك.

زفر محنقًا وأخفى الشيك في جيب داخلي لمعطفه، ثم سأل:

- ولكن، الرجلان، متى سيأتيان لأخذكما؟

اتسعت عيناها، هل هو الآن يُظهر قلقه عليهما؟ أي وقاحة هذه؟! إن كان قلقًا عليهما كان يجب أن يأخذهما إلى العاصمة بنفسه.

- بعد ساعة.

- هذا جيد.

ولم تكد قدماه تبتعدان ثلاث خطوات عن موقع فارس حتى شعر بأنها الأثقل على نفسه بعد الخطوات التي أبعدته عن قبر العجوزين، وسمع من خلفه فجأة: «شكرًا».

التفت بشبه صدمة فرأى عينيها المهتزتين، وهي تكرر:

- شكرًا لك لأنك أنقذت أخي.

ظل متجمدًا كالجدار المجاور له دون أن يُميز عقله الشخص الواقف أمامه، بدت له بهيئتها هذه تختلف تمامًا عن الشابة التي خاض معها حربًا باردة موترة للأعصاب، فيما كبحت تأثرها بالقوة وما زالت تنظر إلى عينيه المتسعتين مُردفة بامتنان كبير:

- رغم العدد الهائل من الأطباء الذين تجاهلوا معاناته ومرضه إلا أنك لم تتجاهله.. ورغم أنك مُزعج ووقح وطائش باختطافك لي إلا أنني لن أُنكر أنني سأظل ممتنة لك طوال حياتي.

ارتفع أحد حاجبيه، لمدحها له المشُوب بذمِّه، ومع ذلك استشعر قلبه امتنانها الصادق، بينما زينت شفتيها ابتسامة متأثرة:

- أنا لا أشكر أحدًا بسهولة.. ومع ذلك أنت أكثر من تستحقه والأجدر به.

ثم دست يدها في جيب سترتها وأخرجت بطاقة منحتها له قائلة:

- إن دخلتَ السجن مجددًا لإحدى حماقاتك فاتصل بي فقد أكون متفرغة وقتها وبمزاج جيد لأرد لك المعروف..

وبرقت عيناها الواسعتان بتفاخر:

- فأنت لم تختبر بعد أكثر ما أُجيده.

تَأمَّلَ وَجهَها المُحمَرّ، وابتسامتها الرقيقة، وتبًّا!، لماذا هو يشعر بالحرجِ الآن؟ وكعادته رد:

- أنتِ.. هل تريدين بدء علاقة معي بمنح بطاقتك لي؟

وتحطم ذلك الجو العاطفي دفعةً واحدة، فاختفت تلك الشابة وظهرت الأولى وقد تلبسها شيطان غضبها فسحبت البطاقة من كفه الممتدة:

- لهذا أكره الرجال.. أنا المُخطئة فالوقاحة هي ما تستحقون ولا شيء آخر.

تراجع إلى الخلف بحذر، فيما ارتفعت قدمها اليمنى، لكنها بدلًا من أن تدوس قدمه، ركلت باب الشقة، فانصفق في وجهه، وكفه لا تزال ممتدة..

وبمجرد أن اختفى عن نظرها أطلقت زفرة عميقة فرغت فيها غيظها منه، ثم لم تلبث بعد لحظات أن تحررت من بين شفتيها ضحكة خافتة مليئة بالبهجة، صحيح، هي لا تعلم كيف ستتدبر أمر العودة إلى العاصمة من دونه، ولكن خسارتها له تساوي مكسبها برحيله؛ فالآن لن يشاركها أحد في فارس..

عادت إلى صالة الجلوس بخطوات تكاد تكون قافزة لولا تذكرها أن عليها أن تتظاهر بالحزن أمام فارس وأن تشاركه مأساته لكنها وجدتها فارغة، بحثت بعينيها عنه، فرأته يخرج فجأة من دورة المياه بأنف أحمر وعينين ذابلتين، فقالت بصدمة:

- أنت تمزح! لم تتخلص من عادتك هذه؛ ما زلت تبكي في الحمام!

تبخر حزنه ورد بكبرياء:

- كلا.. لم أفعل.

- بل فعلت.

- لستُ غبيًا هو مليء بالشياطين.

- لماذا إذًا تسمح للشياطين برؤية دموعك ولا تسمح لي أنا أختك؟

- قلتُ لكِ لم أفعل.. ولن أذرف دموعي بعبث أمام أيٍّ كان.

- حقًّا؟.. وهل نادر ضمن أيٍّ كان هذه؟!

- مايا.. أنتِ مزعجة!

- أعلمُ ذلك.

وضحكت ضحكة شابها تأثرها لشجارهما الذي يشبه ماضيهما معًا، فيما انزلقت من عيني فارس بعض الدموع رغمًا عنه حزنًا لفراق نادر، فأمسكت بيده ثم جرته ليشاركها الجلوس على الأريكة وعقلها يفكر بأنه من الجيد أن نادر قد منحه أملًا بعودته وإلا لكان من الممكن أن يصاب بتلك النوبة، ثم قررت أن تكون مهمتها الأكبر في الأيام القادمة أن تجعله ينساه ويعتاد غيابه.

وفي الخارج مشى نادر في ممر الطابق التاسع وابتسامة خفيفة تعلو محياه. استقل المصعد إلى الطابق الأرضي حيث سيارته.. وصل إليها وامتدت كفه نحو مقبض بابها ليغادر الفندق بعد ما انتهت قصته أخيرًا مع فارس...

وتلاشت ابتسامته فجأة وما قاتلته أعماقه يطفو على السطح حتى أن

عينيه قد مسَّهما حزنه.. هو ليس بأحمق ليظن للحظة واحدة أن مجرمًا مثله قد يكون ذا مكانة وترحيب وسط أسرة كأسرة فارس!

فتح باب السيارة ثم قذف بحقيبته في المقعد الخلفي، واندس خلف المقود، وشغل محرك السيارة ليقودها نحو قريته.. قرية السنابل.

****

حك سامي ساعده الأيمن بألم بينما انحنى سعد ليفرك أعلى قدميه حيث الأثر الذي تركته الحبال التي رُبطا بها من قِبَل رفاق نادر..

كانت هذه الحادثة بالنسبة لهما هي الأرعب في تاريخهما كله فلهجت ألسنتهما حمدًا لله على نجاتهما من ثورة حاتم..

استقلا معًا السيارة بعد أن اطمأنا على عائلة أكرم. اندس سعد خلف المقود، ثم أدار المحرك، وهو يقول باستغراب:

- نسينا أن نسأل مايا عن هاتف أحمد الممتلئ بصور لابن أمجد.. حقيقةً، لا يبدو لي وكأن نادر هذا قد اختطفه.. فجميع الصور بدا لي وكأن ابن أمجد هو من التقطها بنفسه، مرات بمفرده، ومرات أخرى برفقة ذلك الرجل نادر وعائلته.. ولم أرَ في كل صورة منها إلا الرضا والسرور على وجهه.

جملته دفعت سامي ليخرج هاتفه ثم تأمل الصور التي أخذها سلفًا من هاتف أحمد، فانحدرت دمعات من عينيه، ومال سعد بدوره ينظر إليها، فتبللت عيناه هو الآخر لتذكرهما صديقهما أمجد.. ثم قال سامي بتأثر:

- لو كان سيئًا لم تكن مايا لتحاول إجباره ليأخذها إلى العاصمة وقد عانت

بنفسها من اختطافه.. كما أنه في الفيديو كان هو الوحيد من آذى المجرم الذي عذب فارس، إن معلوماتنا عنه ناقصة مقارنة بها، ولكن...

والتفت بانزعاج نحو سعد:

- ذلك الشاب أحمد الذي أخذنا هاتفه بالأمس.. هل علينا الاعتذار منه؟ كنا سنستعمله فقط ثم نعيده إليه، ولكن أولئك المجانين أخذوه منا.

- يا رجل.. هل نسيت أننا من أجل مايا كنا ننوي اختطافه هو بنفسه لولا الرجل الذي ظهر فجأة؟

- أنت محق.. لقد نجا منا بسببه.. ولكن ما هي علاقته بنائب رئيس شرطة العاصمة (صفوان)؟

بقي سؤالهما معلقًا دون إجابة، ومهما بذلا من جهد فلن يُخمنا الإجابة الصحيحة، لأن العقول السوية قد سلّمت بأن علاقة المواطن مع كل من يتصل بسلك الشرطة ستزيده قوة أو تمنحه أمانًا مضاعفًا..

وهذا ما ظنه أحمد أيضًا، ولكن سرعان ما صفعته الحياة بالنقيض من ذلك فسال دمه وارتمى كجثة على أرضية شقته مقيد الذراعين والقدمين..

لم يكن عذابه للحظات، بل لساعات وساعات بدأت في الأمس بعد أن سُرق منه هاتفه فاضطر للعودة إلى شقته ليجد حلًّا لأزمته..

قبل اثنتين وعشرين ساعة (١٥ أكتوبر ٧ مساءً)

غلب السخط على وجه أحمد وهو يبحث في أدراج خزانته بالشقة عن هاتف قديم يخطط لاستعماله بديلًا عن هاتفه المفقود، فالضائقة المالية التي يُعانيها كافية، لكن المُسِنّ الغريب الذي أثار شفقته كان لديه رأي

آخر وهرب بغنيمته ركضًا إلى إحدى السيارات التي كانت تقف في نهاية الزقاق ينتظره داخلها مُسِنّ آخر.

«لو علم نادر لضحك دهرًا.. لقد خُدعت من مُسِنّين!».

تمتم ساخرًا من نفسه التي تندّر هو بها أولًا قبل الجميع، ووجده أخيرًا؛ هاتف قديم قد ذهب لون هيكله الخلفي وتشوهت شاشته ببعض الشروخ، ورغم ذلك حلَّت الراحة في قلبه وهو ينفضه برفق من الغبار، الآن يمكنه أخذه إلى أقرب محل للهواتف واستخراج شريحة اتصال جديدة تحمل الرقم نفسه الذي سُرق منه، وإبطال القديمة.

وقف ليتهيأ للخروج، لم يتناول غداءه، ولم يرتح منذ انتهاء نوبته في المستشفى قبل أقل من ساعتين، ولكن كان لديه أمل ولو ضعيف أن ذاك المتعجرف قد يتصل به..

كما أن موعد اتصاله المعتاد بوالدته - الذي لم يُفوِّته أبدًا من قبل - سيحلُّ بعد صلاة العشاء ومن الأفضل ألا يُثير قلقها عليه في مثل عمرها الكبير ذاك.

استبدل بملابس وظيفته ملابس أكثر راحة والتقط سلسلة المفاتيح من فوق الرَفّ الضيق المجاور لباب الخروج، ومع فتحه للباب تراجع بفزع إلى الخلف حينما أبصرت عيناه شخصًا غريبًا يقف ملاصقًا لبابه بصمت وهدوء يثير الريبة، ولولا اضطراره للخروج لم يكن ليعلم بوجوده أبدًا.

«بسم الله».

قال أحمد، وهو بالكاد يحافظ على اتزانه بعد أن كاد يقع، فيما لم تصدر

عن الرجل المُريب أي ردة فعل وعيناه تتفحصان وجهه، مما جعل أحمد يسأله بتوتر:

- من أنت؟ ولماذا تقف أمام باب شقتي دون أن تطرق الباب؟

- أنت هو أحمد عبد العزيز؟

«نعم، أنا هو». أجاب أحمد وقلبه ينقبض ثم استدرك بدهشة:

- ولكن كيف تعرف اسمي؟

قال الرجل وعيناه مسمرتان على عينيه بانتظار ردة فعله:

- فارس أمجد بسام ثروت.

لم يكن قد أطبق شفتيه بعد حين انتبه للرعدة التي سرت في جسد أحمد، والاتساع الطفيف الذي أصاب عينيه، اللتين بهت لونهما، وسقطت سلسلة المفاتيح من بين أصابعه لتُحدث صوتًا عند ارتطامها بالأرضية، الصوت فقط هو ما أيقظ أحمد وأعاده إلى صوابه فرسم ابتسامة صفراء وهو ينحني ليلتقطها رادًّا بخفوت:

- من هذا؟! لا يبدو مألوفًا!

ولكن فات أوان المراوغة والتحايُل فتلك الثانية كانت كافية للرجل ليستقبل عودة أحمد من انحناءته بفوهة مسدس التصقت بما بين عينيه، والرجل يُعرّفه عن نفسه:

- نائب رئيس الشرطة (صفوان) المحقق قديمًا في قضية مقتل (لمى) ابنة راكان عبد السلام.

عكس وجه أحمد جزعه، نائب رئيس الشرطة بنفسه هو من يقف في شقته!

إلا أنه لم يفهم المغزى من حديثه الأخير فنادر لم يخبره عن أي تفاصيل حول فارس سوى أن عمه يستغله من أجل الورث بينما أخبره فارس عن مجرم يُطارده وقد قتل أخته من قبل.

ازداد تراجع أحمد بخوف، ولا تزال فوهة المسدس ملتصقة برأسه، والتزم الصمت وهو يرفع كفيه للأعلى، بينما تحركت شفتا صفوان بابتسامة جانبية:

- أين الفتى؟ ولماذا اختطفته؟

سؤاله الأخير نبأ أحمد بأنه يظن أنه الوحيد المتسبب باختفاء فارس، ورغم دقة ما هو فيه إلا أنها بعثت بارتياح عميق إلى نفسه، ثم أجاب بتوتر:

- عن أي فتًى تتحدث؟ لا أعلم ما الذي...

وأطلق شهقة عنيفة للألم الذي هاجمه حين دكَّ صفوان رأسه بمقبض مسدسه، مما أحدث شرخًا في جبينه سال منه الدم، فأسرع يرفع كفيه ليضغط على الجرح فتبللت أصابعه بدمه. نظر بمزيج من الغضب والصدمة للرجل الذي من المفترض أن يكون حاميًا للابرياء، ولكن صفوان بقي هادئًا وهو يكرر سؤاله:

- أين الفتى؟

- قلتُ لك لا أعلم عن ماذا تتحـ..

وضربة أخرى في الموقع ذاته أسقطته أرضًا وفقد معها جزءًا من قوته،

فانحنى صفوان نحوه:

- أنا لا أعبث معك.. أتظنني جئت إليك مجازفة ودون دليل؟ الاستشاري الذي أخبرته عن حاجة مريض نفسي لترك الدواء قد نقل لي بالكامل حديثك معه عن فتًى تعرض للضرب لسنوات ووصف لي الأدوية النفسية التي كان يأخذها ولقد رأى بنفسه عندما منحته هاتفك ليتفقد الأدوية وجرعاتها، رأى اسم المرض المدّون في الأعلى... متلازمة فريجولي.

كبح أحمد أنينه بالقوة، وقلبه يغمره جزع كبير، كيف لم ينتبه لهذا؟! لقد وشى بنادر، لقد تسبب بغبائه بكارثة ستؤدي لتأذيه.. وشى به كما وشت به ريم من قبل..

صحيح، هو لم يُرد إلا الخير، ولكنه بإهماله قد أوقع بنادر ورفاقه...

والأسوأ من كان يظن أن هذه القضية ذات تبعات أخطر مما تخيّله عقله؟ فنائب رئيس الشرطة لم يقتده إلى السجن وإنما يخطط لاستجوابه وتعذيبه في شقته وكأن له مصلحة بعدم إخراجه للعلن.

نزلت قطرات من دمه لتلوث أرضية الشقة وعقله يبحث عن حل و... لا سبيل له للنجاة إلا بتقليد رفيق طفولته وعندها ابتسم:

- ميت!

- ماذا؟!

- كما سمعت.. الفتى ميت.

- مات! ما هي غايتك من اختطافه إذًا؟ أنت لم تطلب فدية حتى من عمه الثري؟

- لا أعلم عنه شيئًا ولا عن ثراء عمه.. الفتى ميت وحسب.

ضاقت حدقتا صفوان ونزل على ركبته ينظر إلى الشاب الذي أخفى الدم الكثير من تقاسيم وجهه، أراد أن يستشف من عينيه كذبته، ولكنه لم يستطع، وقد يكون لرغبته الشديدة بأن يكون ما قاله صحيحًا دور في تصديقه له فاتسعت ابتسامته:

- أخبرني إذًا كيف مات؟

مرت ثوانٍ قبل أن يُجيب أحمد بانفعال أخفى خلفه توتره:

- بالسمية الدوائية.. علاجه النفسي تعارض مع مرضه العضوي فمات بسبب ذلك.

ازداد هدوء صفوان وهو يقلب المعلومات في عقله فلم يكن ليسأل هذا الساذج استشاري الباطنة والكلى لولا حقيقة أن الفتى في حالة صحية خطيرة..

- متى مات؟

انفرجت شفتا أحمد، ولم يَحِر جوابًا، هل يجب أن يخبره عن يوم محدد؟ ولكن النظرة المرتابة في عيني صفوان دفعته ليقول:

- بالأمس.

- أتظن أنني قد أصدق مثل هذا الهراء؟ لقد أبقيته برفقتك لما يقرب الشهر ثم تركته يموت بهذه البساطة دون أن يكون لك مصلحة من اختطافه.

وعندها عاد أحمد لشخصيته الطبيعية فصاح بغضب:

- مصلحة؟! أيجب أن أجني فائدة من إنقاذ فتًى جسده يحكي مأساة للاعتداء عليه لسنوات؟ كان يُعذب داخل مستشفًى ظن الجميع أنه يتلقى فيه أفضل علاج ومعاملة.. لقد أشفقتُ عليه فهربته، ولكنني لم أستطع تقديم العلاج له فمات.

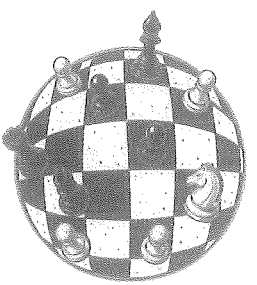
- أيها الوغد!

صاح صفوان وقد صدقه تمامًا فوجههُ يعكسُ نُبلًا وخُلقًا لم يَحظَ بمثلهما طوال حياته، إذًا من أجل رحمة عابرة أفشل جميع خططهم.. وقبضت كفه على ياقة قميصه وسحبه نحوه والعصبية تزلزل كيانه:

- أيها اللعين!.. أتعلم كم من المصالح تدمرت بسببك؟ وكم من الأشخاص تعرضوا للخطر بسبب ما فعلته؟ ألأنك رأيت بعض الكدمات على جسده عندما وصل إلى المستشفى الذي تعمل فيه قررت تهريبه؟!

وفي الوقت الذي كان يصرخ فيه بغضب كانت قبضته اليسرى تعمل، بينما ظلت اليمنى ضاغطة على الزناد للإطلاق، وتلقى جسد أحمد العديد والعديد من الضربات، تمنى وقتها لو أن هاتفه ما زال معه ليُريه الفيديو الذي أخبره نادر أنه سيكون وسيلته لحماية نفسه لو اهتدى أحد إليه.. لكنه للأسف لم يفقده إلا في هذا الوقت العسير.

****



مُهَنْدِسُ الرُّقْعَة

«اليوم الرابع من إيقاف أدوية اضطراب متلازمة فريجولي»

«الولاء لا يُشترى بالمال»



-٢٥-

(قبل ٢٣ عامًا).

وقف سمير أمام باب مزرعة والده، بانتظار عودة العامل الذي أرسله ليخبره عن قدومه. كان قد بلغ الثالثة عشرة من عمره. أخذ ينظر من فرجة الباب للمزروعات اليانعة على مد البصر والتي قد تهيأت جميعها للحصاد..

ولم يلبث أن دفعه فضوله ليفتح الباب، ثم دخل لينظر إلى هذا وذاك، ووقعت عيناه على عدد من النساء، كنّ ثلاثًا، أعمارهن في آخر العقد الثاني، وأول العقد الثالث، يسمرن مع والده ورجل آخر لا يعرفه، يشربون الشيشة في منتصف النهار..

- طفل!

قالت امرأة من بينهم بدهشة فنهض والده نحوه، وقد احتقن وجهه غضبًا، ثم سحبه من ذراعه إلى باب المزرعة، وقذفه خارجها وهو يصرخ:

- ألم أخبرك ألا تدخل وإلا كسرتُ كل عظمة من جسدك؟
- لقد تأخرت.. لماذا عليّ أن أنتظرك كل هذا الوقت؟ إن جاء العامل وأبلغك عن قدومي فلا تتأخر وإلا فستجدني في المرة القادمة أقف وسط مجلسك هذا.

ذُهل والده من نبرته الفظة الحادة، فنظر إليه بغضب شديد، لكن

سمير لم يُظهر أي خوفٍ منه البتة، بل ظل يقف ينظر في عينيه بتحدٍّ ثم مد يده:

- لقد تخرجت من المرحلة الابتدائية، أعطني مالًا أريد قضاء الإجازة مع رفاقي، وأمي تريد مصروفًا للمنزل.. ثم هل في كل مرة سأضطر للقدوم إلى هذا المكان لأخذ المال منك؟ لماذا لا ترسل العامل براتب شهري لي ولوالدتي؟.. وعندها لن ترانا ولن نراك.. أنا لستُ مهتمًّا بما تفعله هنا، ولي حياتي الخاصة التي أريد الاستمتاع بها دون مشكلاتك أنت وأمي.. توقفا عن تعكير مزاجي بسماع هرائكما حول بعضكما بعضًا.

زادت حدة الصدمة في عيني والد سمير؛ لقد كبِر ابنه، ولم يعد ذاك الطفل الخاضع المطيع لأمه، ولا الخائف منه..

ورغم استشعاره مسؤوليته كأبٍ تجاهه إلا أنه لم يقوَ على مفارقة متعته وملاهيه، فاستمر في عادته بأن أخرج محفظته ثم منحه طلبه ليرتاح منه ومن أمه معًا، وفي هذه المرة لم يقبل سمير بما أعطاه، بل تجادل معه كثيرًا حتى رمى له والده في نهاية هذا الجدال بثلاثة آلاف أثارت سعادة سمير فغادر والابتسامة لا تفارق شفتيه..

وضع ورقة نقدية من فئة الخمسمائة في جيبه كمصروف لأمه بينما وضع الباقي في محفظته..

قد علمته أمه من قبل كيف يسرق، لكنه هو من رسَّخ في عقله قاعدة: لك الحق في أخذ أي شيء إذا ما أحسَسْت في داخلك برغبة فيه..

إذًا لم يعد الاحتياج مُبررًا لسلب الآخرين حقوقهم، بل الرغبةُ فقط...

وفي الخارج رأى رفاقه فصاح من بعيد:

- طعام العشاء على حسابي، وأيضًا بطاقات اللعب في مدينة الألعاب.

صرخ تسعة من الأولاد بفرحة عظيمة، وتقافز بعضهم، كانت أعمارهم قد تراوحت ما بين الثانية عشرة والثالثة عشرة، فتقدمهم سمير بالمشي كقائد لهم..

وفي سيرهم، مرَّ إلى جوارهم عدد من الفتيات، فتغامز بعض رفاقه لهن، لكنهن لم ينظرن إلا إلى سمير فرغم صغر سنه كان ذا وسامة ورثها عن والده تجذب أعين الكبار قبل الصغار..

تحدث أحد رفاقه بحماسة:

- بعد شهر ونصف الشهر سنكون في المدرسة الإعدادية.. مبنًى يجمع تحت سقفه ستمائة طالب وطالبة.. يقول أخي إنه هناك تبدأ علاقتنا بهن ونصنع ذكريات جميلة برفقتهن.. أنا واثق أن الفتيات سيصطففن في طابور ليحظين بانتباهك يا سمير.

ضحك سمير وكم كانت حماسته كبيرة ليكون محطّ الأنظار ومركز الاهتمام... أيام معدودة تفصله عن نسيان مدرسته القديمة التي عدد طلابها لا يبلغ المائة، أيام وينتقل إلى حياة جديدة قرر أن يكون فيها ذا شهرة أكبر.

****

-٢٦-

٤:٣٥ مساءً - ١٦ أكتوبر

رغم مرور مدةٍ قاربت ثلاث ساعات مُنذُ مُغادرةِ نادر، إلا أن عينيْ فارس ظلتا يعلوهما الاحمرار؛ فالفراق بعد قرابة نصف عام من التصاقهما بعضهما ببعض جعله يشعر بالغرابة والغُربةِ معًا.. ولولا مُبرر نادر المنطقي لم يكن ليسمح له بالرحيل من دونهما..

ولكن نادر لم يخبره عن المدة... هل ستكون يومين؟ أم أسبوعًا؟ أو أسبوعين؟

وبالتأكيد بحسابه القاصر ظن أن إيجاد وظيفة لن يستغرق أكثر من هذه المدة التي ستكون في أسوأ حالاتها شهرًا...

أفاق من شروده على عود المثلج الذي اهتز أمام عينيه، فنظر إلى مايا بصدمة، فقالت بجذل:

- واحد لن يضر.. هيا استمتع به وانسَ كل شيء آخر.

وبالفعل استطاعت انتزاع ضحكته، فاعتدل في جلسته ثم بدأ بتناوله، بينما جلست إلى جواره تتناول الخاص بها.

«أتعلم ما هو الغد؟». سألته ببهجة كبيرة أثارت استغرابه فأجاب: «لا، ما هو الغد؟».

- هذا أفضل.. سأُخبرك في الغد.

- أخبريني الآن.

- لا.

- مايا!

هزت رأسها رافضة بعبث، مما زاد من فضوله وعبوسه، ثم قالت فجأة بلهفة:

- أخبرني عن الأشياء التي تفتقدها.

- نادر.

أجاب بصراحة، فأظلم وجهها:

- فارس.. أنا أعني ما فاتك وافتقدته أثناء حبسك في المستشفى.

- آه!

ورفع عينيه للأعلى يتذكر السنين التسع التي تمنى فيها الكثير والكثير، ثم غمغم بتأثر:

- أريد زيارة مدينة الألعاب التي ذهبنا إليها معًا من قبل.. أريد الذهاب إلى المدرسة.. قيادة دراجة هوائية وتعلم السير على لوح تزلج.

وسكنت عينيه نظرة حالمة، وهو يضيف:

- أريد عندما يسقط المطر أن أحمل مظلة وأتجول في شوارع العاصمة إلى أن أتعب من المشي.

ارتخى جفناها وغزا الحزن قلبها لأمنياته البسيطة، التي أدركت منها أن الحرمان الذي عاشه كان عميقًا جدًّا إلى حد اكتفائه بمثل هذه الأشياء العادية، والتي لا تُعد رغباتٍ حتى لمن هم في مثل عمره!

اشتدت قبضتها بحسرة.. يجب أن تكون أمنياته أكبر.. السفر.. التجول في أرجاء العالم.. تجربة الطيران الشراعي فوق جبال إنترلاكن السويسرية.. امتلاك سيارة ذات إصدار محدود.. و... و...

لقد نسي فقط من يكون لذا ستتكفل هي بتذكيره بذلك مستغلة ورث بسام ثروت أتم الاستغلال، ومن الجيد أنه لا يزال صغيرًا لذا لم يَفُته الكثير..

تجنبت النقاش معه عن أمنياته لتسأله فجأة بسخرية:

- وماذا عن حلمك بأن تكون جانحًا؟ هل تنازلت عنه؟

اصفَرَّ وجهه وبدا مُرتبكًا: «نادر يرفض ذلك».

تأففت بغيظ، لماذا حديثهما لا يلبث أن يعود إليه؟ ثم قالت بلطف:

- نادر ليس هنا.. افعل ما تُريد! وجرب ما تشاء حتى تتعلم الصواب من الخطأ.

وأمالت رأسها مبتسمة بحب:

- فقط، تجنّب منها ما قد يؤذيك.

ضحك بحماس، ودفع بكميه إلى أعلى مرفقيه، ثم بعثر شعره: «هكذا؟!».

- لا.. لا.. يجب أن تكون بمظهر أسوأ ويخشاك الناس.

عقد حاجبيه، وفكر طويلًا قبل أن يحلّ رباط قميصه الأسود كاشفًا عن عظمتي ترقوته ومقدمة صدره، فصفقت بكفيها:

- أجل.. هكذا.. إياك أن تنسى من أنت ومن هو والدك.. ارفع

رأسك عاليًا، امشِ بين الناس بأنفٍ شامخ، ولا تسمح لأيٍّ كان أن ينظر إليك باستخفاف.

بدا مفتخرًا بنفسه دون أن يُدرك أنها قد نجحت في تشتيته عن حزنه، ثم وقفت فجأة وقد عكست عيناها القوة وهي تضيف:

- أنت الآن في الطريق للخروج إلى العالم.. لذا عليك التماسك واستجمع قوتك؛ فالعالم في الخارج لا يحترم ولا يَقدِر إلا الأقوياء المُعتَدِّينَ بِأَنفُسِهم، والثابتين مهما واجهوا.. في الأيام القادمة سأكون إلى جوارك وأدعمك فلا تخف من شيء، ولكن قد تحلَّ اللحظة التي سأحتاجُ فيها للاعتماد عليك لذا تهيأ لذلك.

وبمجرد أن رأت انفراج شفتيه وإصغاءه باهتمام تام لها، ضحكت رحمةً به:

- انسَ الأمر، عليك أن تنتهز هذه الفرصة التي أمنحها لك لتلهو كما تشاء؛ لأنك بمجرد أن تُشفى لن أتهاون معك.

لكنه لم يضحك وعبارتها (سأحتاج للاعتماد عليك) تعلَق في عقله، فاستقام في جلسته ينظر إليها بتركيز شديد، بدا له فجأة وكأن شفاءه وتقدُّمه في الحياة لم يعودا يخصانه وحده إذا كانت ستنتظره في المستقبل..

أحدثت (أحتاجك) أثرًا داخله استجابت لها كل خلية من جسده، وأيقظت في أعماقه شعورًا قويًّا وحنونًا في الوقت ذاته.. (شعور المسؤولية).

«أتُريدُ أن نختار طعام الغداء معًا؟».

سألته بحماس دون أن تُدرك أثر كلماتها عليه فبادلها حماسها، وما زال يبتسم:

- أجل.

- البس قبعة وكمامة.

«مجددًا؟!». زفر بملل.

- إنه أمر من طبيبك.

تململ، ثم ما لبث أن أسرع ليلبسهما، فيما نظرت إلى هاتفه الذي وضعت فيه شريحة اتصالها، فوجدت رسالة من نواف يخبرها فيها بنجاحهما في انتزاع طبيب نفسي من أحد المستشفيات القريبة من قرية السنابل، وقد وعدهم أنه سيبذل قصارى جهده للعناية بفارس.. فتذمرت بملل وضيق:

- الوغد المتعجرف! هل ثمَّة عدّاد مخفي داخله يَخصم من كبريائه البغيض عدَّة نقاط إن نقلنا إلى العاصمة بنفسه مقابل مبلغٍ أكبر؟!

«مايا ألن تُعيدي إليّ هاتفي؟!».

سمعت صوت فارس المنزعج وهو يقف إلى جوارها فمنحته له قائلة باستخفاف:

- يمكنك استعماله في وجود شريحة الاتصال الخاصة بي؛ فلديك شخصان فقط لتتحدث معهما بينما لدي ما يزيد على ذلك بثلاثة أضعاف.. لا مُقارنة صحيح؟!

مطّ شفتيه:

- ما تفعلينه الآن يُسمى تَنمُّرًا!

- كلا، حين يكون صادرًا من أختك لَا يُعدُّ تنمُّرًا.

وفتحت باب الشقة لتتجه إلى المصعد، وهو يتبعها من خلفها، ثم فجأة شعر بكفها التي دفعته بغلظة إلى الداخل حتى كاد يتعثر.. حوّل نظراته المتسعة العاتبة نحوها فرأى كفها اليسرى التي ما زالت ممتدة خلف ظهرها وقد عقدتها في قبضة ثم لفَّتها بقوة.

تلك الحركة القديمة هو يعرفها تمامًا، ولم يتردد للحظة واحدة في التراجع إلى الخلف ثم عاد إلى حجرته وأغلق بابها على نفسه بالمفتاح، بينما أخذت مايا تتراجع بهدوء وبطء إلى داخل الشقة محاولة عدم إثارة انتباه الشخص القادم بخطوات سريعة نحو المصعد، وهاتفه على أذنه، وقد بان في وجهه النعاس والكدر.

وسقطت عيناه عليها، فتجمد بصدمة لثانية، استغلتها في الدخول إلى الشقة، متظاهرة بأنها لم تنتبه إلى وجوده، ثم أغلقت الباب، ولكن قدمه التي أدخَلها بسرعة في فرجة الباب الضيقة حَالَت دون إغلاقها له.

كان لا يزال في عمق صدمته ومع ذلك بذراع واحدة استطاع دفع الباب، وهو يهتف: «مايا!».

ظلت تنظر نحوه بأنفاس متسارعة مُدركة أن عاصفة على وشك الوقوع بينهما، استرقت نظرة إلى داخل الشقة فوجدت فارس قد اختبأ، وعندها لم يكن أمامها إلا مُجابهته فهو الآن بالفعل معها أمام مدخل الشقة، يقف صامتًا، مُنتظرًا تفسيرًا لوجودها الغريب بالقرب من قرية السنابل.

****

في أحد أرقى أحياء العاصمة: (حي السمو) حيث استقر في وسطه أكبر القصور؛ قصر عبد السلام، قصرٌ ضخم وفاخر، هُجر منذ أكثر من عقد من الزمان بعد موت صاحبه.. توالى الخدم والخادمات في الولوج إليه للاهتمام بتنظيف كل إنشٍ منه استعدادًا لاستقبال الوافد الجديد إليه من خارج البلاد: (راكان عبد السلام).

غمر التأثر عيني (عُدَيّ) وقلبه وهو يُلقي عليهم توجيهاته فيما وقف (حمزة) إلى جواره مبتسمًا براحة:

- أتظن أنه آن أوان اجتماعنا بأخينا الأكبر راكان؟

- لم يخبرني بأنه سيعود هنا بصورة دائمة.. بدا لي وكأنها إقامة مؤقتة لعملٍ ما، ولكن يَسُرني أن منزل والدي سيُسكن من جديد.

- لا أطيق انتظار أن أقضي ليالي الشتاء الطويلة في الشيّ برفقته في باحة هذا المنزل كالسابق.

- لماذا تستبق الأحداث؟ لم يقل إنه سيسـ..

تجاهل (حمزة) باقي حديثه، وقدماه تقودانه لتأمل نافورة المياه الحجرية المتوسطة للباحة، وفجأة تجاوزت البوابة الضخمة سيارة اقتربت منهما بسرعة كبيرة، مما أفزع الاثنين، ثم بالكاد أوقفها سائقها، وترجل منها رجل في آخر عقده الثالث انضم لهما صائحًا بثورة:

- هل شاهدتما الفيديو المنتشر في كل أرجاء العاصمة؟

لم يستوعب لا حمزة ولا عدي حالة الغضب المسيطرة على أخيهما الأصغر (عبد الملك) حتى أن عينيه قد هاجتا بحمرة شديدة بينما اهتزت كفاه في نوبة عصبية لم يشهدا عليه مثلها من قبل، وهو يناولهما

هاتفه ولم يلبث أن أصاب الاثنين ما أصابه، ولكن فاقهما عُدي ثورة وغضبًا..

فالطفل (فارس) حفيد عائلة بسام ثروت الذي تبناه أخوهما راكان، والذي كان باعتقادهما هو المسؤول عن قتل وتشويه جسد الطفلة لَمى أولى أبناء أخيهما الأكبر راكان، لم يمت، بل كان محتجزًا هنا، بالقرب منهما في أشهر مستشفًى للصحة النفسية بالعاصمة بأمر من عمه فاضل..

****

«مايا!».

كرر كاظم تساؤله المصدوم، فعادت مايا بنظرها إليه بعد ما أخفت تعبيرها القلق على أخيها منه، وقد أخبرها حدسها أن سبب وجوده الغريب بالقرب من قرية السنابل هو اهتداؤه إلى أن نادر هو خاطف فارس كما اهتدت هي إلى ذلك من قبل، ولكن لحسن الحظ فقد سبقتهم بخطوة.

ولكن بماذا ستُجيبه إن سألها عن سبب وجودها في هذا المكان المنعزل بدلًا من لندن أو العاصمة حيث منشؤها وولادتها؟

ولسوء الحظ فإيجاد مخرج سريع أمام عقبة مُفاجئة لم يكن ذلك من شيمها على الإطلاق!

ابتلعت ما تبقى من ريقها اليسير، واستدعت أشد تعابيرها تكبرًا وتعجرفًا، فإن لم تجد حلًا فليس أمامها سوى أن تتبع ما اعتاده منها هذا الحثالة:

- كلب بسام ثروت يتجول بمفرده؟! يا للغرابة! هل عمل عمي بنصيحتي أخيرًا فحررك من طوقك؟

عبارتها المزدرية لشخصه صفقت إجلالاً وتقديرًا أمام نظرتها التي أظهرت ازدراءً أشد، مما دفع بذلك الاتساع الطفيف في عيني كاظم - المصدوم برؤيتها - إلى أن يتحول إلى نقيضه تمامًا حتى أن حدقتيه كادتا تختفيان من شدة ضيقهما.

وعلى الرغم من غضبه فقد ظل متماسكًا أمام استفزازها، فأردفت باحتقار:

- الكلب الذي يهجره صاحبه يُصبح ماذا؟ قمامة!

واستطاعت بـ (قُمامة) أن تعبث بأعصابه التي قلَّ أن ينجح أحد باستفزازها فحدجها بنظرة علمت منها أنه لو أطاع نفسه لقتلها دون تردد، ومع ذلك رفعت أحد حاجبيها بتحدٍّ واضح.

«أُنجز مُهمة لعمك».

أجاب ببطء بعد وقت سامحًا لنفسه بأن يأخذ دورها في السؤال:

- لماذا لستِ في لندن؟

أصدرت شفتاها (تشه) ساخرة، ثم عقدت ذراعيها أمام صدرها، وعيناها ترمقانه من رأسه إلى أخمص قدميه:

- ومن أنت لتسألني؟

وكاد الهاتف بين أصابعه أن يتحطم من ضغطه الشديد عليه، على حين استطردت بتَكَبُّرٍ وأنفة لطالما اعتادهما في والدها من قبلها:

- أنت لست إلا مُوَظَّفًا مقابل أجْرٍ تتلقاه من عمي.. فما الذي يمنحك الحق لتتساءل عن تنقلاتي الشخصية؟

وبالفعل، أعادته لمكانته اللاشيء التي شعر بمذاق مرارتها في فمه، ولولا أنها الآن في موقف دقيق لكانت قد استلذت بإهانته أكثر وأكثر، ولأَفرطت؛ فرفقته الدائمة لعمها لطالما حَالَت دون ذلك..

حبل التواصل بينهما قد قطعته قبل أن يبدأ حتى، ولم يعد هناك سبب لبقائه، لكنه ظل يقف أمام الباب بجرأة، لا هي تَفسح له المجال ليدخل، ولا هو قادر على الرحيل ونظرته تكشف عن ارتيابه بها: فلِمَاذا من كل بقاع الوطن ليست إلا بالقرب من قرية السنابل؟!

فكرت بالاستنجاد بموظفي الفندق ليطردوه قبل أن يطول بقاؤه أكثر فيكتشف وجود أخيها، ولكنها تعلم أيضًا أن هذا الفندق بمسؤوليه ونزلائه ليس بطبيعي على الإطلاق.

الدقائق الآخذة في الازدياد، وهما على الحال نفسه، نجحت أخيرًا في استنفاد سيطرتها المتبقية على أعصابها فصاحت:

- لماذا لا ترحل؟! أتطمع أنني قد أسمح لك بالدخول؟ أوه كلا.. أنت معتاد فقط على تلقي الأوامر لذا: اغرب عن وجهي!

ولم يتحرك، ولو إنشًا واحدًا، وقدمه تحول دون إغلاقها للباب، بينما لم تجرؤ على المجازفة بدفعه إلى الخارج.

ثباته المخيف أجبرها على أن تضع كفها في جيب سترتها، تمنت لو أنها لم تحتج إلى هذا، لكن بدا أنه لا سبيل لها للتخلص منه إلا بمواجهته؛ فمن

يدري كم من الوقت سيبقى فارس متحليًا بالصبر دون أن يصدر عنه صوت، أو يخرج بعبث، فتضطر حينئذ للاشتباك مع كاظم أمامه؟

وفجأة تجمد الاثنان معًا لتمتمة غريبة خافتة مزقت الجو المتوتر بينهما، فأطلق كاظم همّة منزعجة لنسيانه المتحدث معه على الهاتف.

على حين شحب وجه مايا، وهي تراه يُجيب على هاتفه:

- نعم سيد فاضل.. لم تُخطئ السمع.. إنها ابنة أخيك مايا.. بالقرب من قرية السنابل وليست في لندن كما ظننا.

اهتزت أطراف أناملها، وقصف قلبُها كالرعد، فعلى عكس كاظم إن سألها فاضل فهي مُلزمة بإجابته، وبالفعل مدّ كاظم بهاتفه نحوها، ونظرته تعكس تحفزه:

- يريد التحدث إليكِ.

استجدت عقلها البائس أن يجد لها مخرجًا وكفها تمتد لتأخذه منه..

ستكون محادثتها الأولى مع عمها بعد اكتشافها لحقيقته.. حقيقته البشعة التي يؤمن بها عقلها، ولكن قلبها ما زال يرفضها.

- عمي فاضل.

- مايا حبيبتي.. ماذا تفعلين في هذا المكان؟

صوته، نبرته الحانية، و(حبيبتي!)، أشعرتها برغبة عارمة في الانخراط بالبكاء، هل يُحبها حقيقةً؟ أم أنه يتظاهر بحبها؟

لم تره يومًا إلا عوضًا وبديلًا عن والدها الغائب!

لماذا هو من بين الجميع من طعنها في ظهرها؟!

أصاب قلبها ضعف تمنت معه لو تستطيع ذاكرتها أن تتناسى وضاعته وفساده، فيسمح لها عقلها عندئذ بأن تبقى مُقرَّبةً منه كما اعتادت في الماضي.. مُقرَّبة إلى درجة أن تشكو إليه الضغط الذي تمر به الآن من وجود حارسه كاظم بالقرب منها وتستنجد به منه!

لكنها على عُمقِ حُبِّها لهُ فهو لم يؤذِ إلا فارس..

أخاها، والأقرب إلى قلبها منه، من جعل جميع لحظاتها فرحًا وبهجة بعد موت والدها..

الطفل الذي كَبِرَ بين ذراعيها، والشريك الوحيد لها في اسم الأب، حتى لو زيّفت السجلات الرسمية اسمه، ونسبته إلى غير والده..

اهتز قلبها بحبٍّ أعظم أطاح معه كل حب سواه، فتردى فاضل إلى هاوية كرهها، لاعنةً جشعه، ومال بسام ثروت، الذي لم يجلب إلا التعاسة لهذه العائلة.

- مايا.. أجيبي!.. لماذا أنتِ بالقرب من قرية السنابل؟

صرخ بغتة بنبرة عصبية أثارت اشمئزازها منه، وكأن هذا الفندق لا يَحُدُّهُ من جِهَاتِهِ الأربع إلا قرية السنابل فقط!

كلاهما، هو وحارسه، فضحا نفسيهما بأنهما يسعيان خلف أخيها ـ الذي زورا موته ـ كي يتوغلا في أذيته أكثر وأكثر ولذا...

- للقاء الطبيب نادر عبد المجيد.

تفلتت شهقة عصبية من بين شفتي فاضل لجوابها الذي أكَّد شُكُوكَه فيها، فيما تحفزت كل خلية من جسد كاظم استعدادًا للانقضاض عليها بعنف لا يُؤخِّرهُ إلا كلمة الإذن مِن فاضل.

على حين عكس وجهها هدوءًا يعاكس ما بداخلها، وهي تستطرد بنبرة لطيفة:

- قال إن لديه شيئًا يُهمني، قد دُفِعَ من أجله الملايين، ولكنني لم ألتقِ به بعد.. عمي فاضل، هل تسمح بمرافقة حارسك كاظم لي؟ أنا خائفة جدًّا من هذا الرجل الذي اشترط أن آتيه بمفردي، ولكن حارسك مُدَرَّب وخبيث لذا لن يجعله يشعر بوجوده.

صمت مُقلق جاوبها من الطرف الآخر للهاتف، التزم كاظم بمثله، والذي ظل مستعدًّا، وهو يناوب بصره بينها وبين الهاتف بانتظار رد فاضل عليها..

ما قالته أكَّدَ ظنهما حول اختطاف نادر للفتى، لكنه في الوقت ذاته يُنذر بمصيبة أعظم ستحلُّ على رؤوسهما لو سمحا لها بمقابلته..

تكلَّفت مايا ابتسامةً رقيقة، وهيَ تستحثه:

- عمي.. أرجوك وافق.. وافق.. وافق.

اشمأزت من نفسها ألف مرة لخنوعها المصطنع أمامهما، وقاومت غثيانها مع نطقها لـ (عمي)، ولكنها لا تحمي نفسها.. لو كان الأمر يتعلق بحياتها لما خضعت، ولكن من أجل فارس ستُبيح كل شيء.

- كلا.. دعي كاظم يتولَّ أمره بمفرده.

قال فاضل أخيرًا فكبحت فرحتها بصعوبة، فيما استطرد بهدوء:

- فهذا الرجل قد أرسل إلينا نحن أيضًا وقد كلَّفتُ كاظم بمهمة تحَرِّي ما لديه.

ضاقت عيناها لكذبته التي صاغها سريعًا؛ فلم تكن تعلم أنه تحت غطاء النقاء الذي يرتديه كان يُخفي موهبة شيطانية.

تأففت ورسمت الإحباط على وجهها: «ألا تثق بي؟!».

- بلى.. ولكن لا أُريدُ أن يُصيبك مكروه.. هيا عودي إلى لندن ولا تتهوري مجددًا.

- حسنًـا.

بنبرة اعتادها أجابته، تمنت لو ينتهي الموقف عند هذا الحد، فيرحل كاظم، ثم تأخذ فارس، وستستقل لو اضطرت أول حافلة مغادرة إلى العاصمة قبل أن يلتقي كاظم بنادر فَيُدرِك عند ذلك كَذِبَهَا، إلا أن فاضل لم يمنحها أمنيتها فقد استرسل فجأة معاتبًا لها بعصبية مفضوحة:

- شهر!.. كان يفصلك عن تولي وظيفة محامية لي شهر واحد فقط.. ألَمْ يَسَعكِ تَحَمُّلُه بالبقاء في لندن إلى حين انتِهَائِه؟

ارتخت أصابعها من حول الهاتف.. نعم، كان عليها التأخر لشهر واحد فقط؛ شهر يستولي فيه على إرث بسام ثروت، ثم يقتل فارس بعد انتهاء حاجته إليه ليستقبلها في شركته فتُدير له أموال أخيها التي سرقها منه!

أهنالك في الحياة ما هو أشد إجرامًا وبشاعةً من نيته هذه؟!

يريد استغلالها بعد ما يَئِدُ قلبها بأخيها دون أدنى شعور بالذنب.. ألا يشعر بالأسف نحوها وهي من شكَت إليه فقدانها له وبكته مرات عدة بين ذراعيه؟!

هل هناك شيطان تتوارثه عائلتها انتقل من جدها إلى عمها؟!

كادت تفضح نفسها وتصرخ شاتمةً له، لولا مباغتة كاظم لها بانتزاعه الهاتف من يدها، فاتسعت عيناها لجرأته، فيما وضع هو الهاتف على أذنه قائلًا:

- سيد فاضل.. بماذا تأمر؟

لمحت في عينيه نيته بعدم التساهل معها، فابتلعت ريقها وجسدها يتهيأ لمقاومته، لكنها سرعان ما استرجعت هدوءها حين قال بحدة:

- سيد فاضل.. هذا لا يصح.. إنها المرةُ الثانية.

وصمت يستمع إلى فاضل عدة ثوان أعلن بعدها بانزعاج:

- لقد حَذَّرتُكَ من قبل.. من الأفضل ألا نترك ثغرة خلفنا.. أعد النظر فقـ..

تابع اعتراضه غير مُدرك أنها قد فهمت كل كلمة نطق بها، هو يُريد التخلص منها بوصفها ثغرة في خطتهم، لكن فاضل يأبى قتلها بما أنها لا تعلم بشيء.. هل بالمصادفة قلبه الميت يُحبها حقًا؟

حركت عينيها لا شعوريًا نحو حجرة فارس وقلبها يتساءل: هل هو بخير؟

ألن يُصاب بالنوبة بعد أن أفزعته وجعلته يركض ليغلق الباب على نفسه؟! ماذا يفعل الآن؟! هل يلهو على هاتفه؟! أم يتنصت لحديثهم؟!

«ابقي هنا إلى أن أعود.. سآخذك معي إلى العاصمة».

قال كاظم وما زالت عيناه تعكسان ارتيابه الشديد بها إلا أنها أطلقت ضحكة خفيفة مستخفة:

- ومن أنت لتأمرني؟

- إنه أمرُ عمك.

- لن أتشارك مع حثالة مثلك سيارة واحدة.

- أمره يمضي على كلينا.

- ولو كان أمره.. لا يُهمني.. أنا أرفض تمامًا.

احتقن وجهه بشدة فيما رفعت عينيها إلى السقف متمتمة بعبثية:

- يا للقرف.. لم تسقط السماء على الأرض بعد ليحدث هذا.

رماها بنظرةٍ حادة، وشَكُّهُ فيها يتناقص، فلو كانت تُخفي شيئًا لم تكن لتواجهه بطبيعتها.. همَّ بالمغادرة، وهو يُضمر في نفسه الالتقاء بنادر ثم سيعود إليها لِيَجُرَّهَا معه فالحذر خيرٌ من الندم لاحقًا..

ولم يكد يمنحها ظهره حتى تسارعت أنفاسها، وازداد ارتجاف أطرافها، كاشفًا عن مقدار الضغط الذي عانته، وفي أعماقها أرسلت اعتذارًا لنادر.. ليس وكأنها من دفعت بكاظم نحوه؛ فهو ابتداءً كان في طريقة إليه على أي حال..

- الطائش، إنَّه خطؤُه لأنَّه لم يُخفِ هُرُوبه جيدًا.

همست بها وعيناها تتابعان كاظم الذي وضع أولى خطواته خارج الشقة.. ثانية واحدة فقط تفصلها عن نهاية هذه الأزمة، وبعدها ستستأجر قاربًا، وتنقل فارس إلى العاصمة بحرًا لو اضطرت..

وفجأة...

توقفت أفكارها ليصفرَّ وجهها، وتوقفت قدم كاظم الأخرى المغادرة

مدخل الشقة بعد ما ارتفع صوت مفاجئ من خلفهما لمقبض باب يُدَار..

وليته اقتصر على ذلك، بل صَحِبَهُ فجأة صوت فارس المنادي:

- مايا.. هل أخرج الآن؟

دقائق الضَّغط والتَّوجُّس والتَّحفُّز المحتبسةِ في أعماق الاثنين نحو بعضهما بعضًا فَقَدَتْ فُرصتها في التلاشي لتتفجر على أشدِّها مع صوت فارس.. تفجرت في هيئة اندفاعة من كاظم نحو تلك الحجرة، على حين صرخت مايا بقوة:

- لا تخرج!

واندفعت هِيَ الأخرى خلف كاظم لتمنعه من الوصول إلى الحجرة التي تُخفي خلف بابها أحب شخص إلى قلبها...

****

-٢٧-

(قبل ٢٣ عامًا).

أسبوع واحد فقط يفصل سمير عن ذهابه إلى مدرسته الجديدة، كانت المشتريات تملأ حجرته، جميع ما اختاره هو الأغلى ثمنًا والأعلى جودة من أحذية رياضية، وقمصان، وبناطيل، وحقائب..

ولم يكتفِ بواحدة أو اثنتين، فلماذا قد يفعل ذلك ولديه الكثير من المال؟

فتح درج خزانته لينظر لمدخراته من المال سيُنفقها جميعًا على كسب قلوب الفتيان والفتيات في مدرسته وسيحرص على أن يكون علمًا يُشار إليه بالبنان في الشهر الأول من دراسته..

وفي خضم انشغاله سمع باب حجرته يُفتح، فأسرع يغلق درج خزانته، والضيق يكسو وجهه؛ فمن سيكون هذا المُتطفل غير أمه؟

دخلت يغطي شفتيها ابتسامة كبيرة، تناقضت مع حالها الرث، والكآبة التي احتلت عينيها وقلبها، وهي تقترب منه:

- آسفة.. لقد تأخرتُ في تقديم هدية لك احتفالًا بانتقالك إلى المرحلة الإعدادية.

زاد انزعاجه وهو يعود بنظره إلى الساعة والقبعة والعطر وغيرها من

الهدايا التي أعطتها له قبل أقل من شهرين، هدية عن كل سنة نجح فيها من المرحلة الابتدائية، ولكنها جميعًا عتيقة لا تُناسب ذوقه، أو بالأصح ليس من عادتها أن تُنفق المال لشراء هدايا لم يطلبها منها..

- شكرًا.

وأخذ الصندوق منها، ولم يفتحه، بينما جلست على طرف سريره تُحدثه:

- أريد الطلاق من والدك.

سقط الصندوق من يده، وبدا مذهولاً:

- ماذا؟ وكيف ستعيشين؟ وأين ستسكنين؟ سيطردك والدي من المنزل.

لم تنتبه من حديثه المذعور إلا لما كسر قلبها:

- هل أفهم من كلامك هذا أنك لن تأتي معي؟

- بالتأكيد لن أفعل.. أنا أحتاج إلى المال وأبي من يعطيني إياه.

- هل تقصد المال الذي يُعطيك لننفقه على احتياجات المنزل فتسرقه لنفسك؟

- تخططين لأخذ مدّخرات ابنك؟.. هذا هو هدفك من إخباري برغبتك في الطلاق.. تريدين إجباري على اقتسام مالي معكِ حتى لا ترحلي.. لماذا لا تتعبين قليلًا وتجربين بنفسك مشقة أن تطلبي المال منه؟

- أتظنني لم أفعل؟ ذهبتُ كثيرًا ويرفض في كل مرة.. يقول لي خذيه من ابنك.

غرق في دهشته، إذًا فقد كان والده يعلم منذ البداية أنه يسرق من نفقة المنزل، لكنه لم يهتم..

- افعلي ما تشائين يا أمي..

قال بلا أدنى مبالاة فما دام والده يعلم بسرقته وما زال يعطيه فلا مشكلة في ما ستختاره والدته في ما يخصُّ مستقبلها.. جلس على المقعد ليجرب حذاءه الرياضي الجديد بينما ظلت أمه تنظر إليه بوجوم.. ألا يملك ذرة محبة لها في قلبه؟ ألا يشعر بالشفقةِ عليها؟

ما الذي نزع الرحمةَ من قلبه؟

ومتى فقدته كابن لها؟

حقيقة الأمر أنها امتلكته إلى الحد الذي ظنت معه أنها لن تفقده، وقد تكون لحظة فقدانها الأولى له، هي ووالده، حين عاد ملطخًا بدمه يشكو لهما أزمته التي كان سببها الأول نُصرته لأُمه من جارتها، فلم يتعاطف أحد منهما معه، وعندها تعلم بالطريقة الصعبة أن الحياة هي أن تعيش لنفسك..

أنت هو المتعاطف الأول معها والذائد عنها والساعي لأجلها.. وغيرك دُمًى في مسرحك تكمن أهميتهم في مقدار ما تناله منهم..

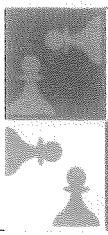
كان بيدقًا في يد أمه تحركه كيفما تشاء وتضعه أينما تشاء.. وحان دوره ليبحث عن البيادق التي تخدمه..

نهضت أم سمير وقد قررت الطلاق؛ فبانفصالها ستمحو السبب

الذي يدفع والد سمير ليكسب رضا ابنها ضدها، وعندئذ سيقطع المال عنه، فيضطر سمير صاغرًا للعودة إليها فيتحدان معًا للحصول على نفقة الطلاق الواجبة عليه لوجود ابنها القاصر معها في المكان نفسه..

ومع فتحها للباب رأت الدخان يملأ المنزل، فصرخت بخوف، ولحق بها سمير مذعورًا إلى المطبخ، الذي انتشرت فيهِ النيران، وثوانٍ فقط وبلغت النار خرطوم الغاز، فانفجر بدوي هائل محرقًا ما تبقى من المنزل بمن فيه...

****



-٢٨-

كان قد بلغ كاظم بركضه منتصف المسافة الفاصلة بينه وبين الحجرة التي يختبئ فيها فارس، عندما شعر فجأة بأداة غريبة تُغرز في أسفل عنقه من الخلف، ولوهلة لم يستوعب عقله أن تلك الشابة قد تتجرأ يومًا ما على مواجهته رغم علمها بقوّته، وبالتدريبات القتالية التي تلقّاها.

وانتفض جسده بعنف بعد أن تدفق سيل من الشحنات الكهربائية إلى جسده من الصاعق الذي ظلت مايا ممسكة بقوة بطرفه السفلي.

كان سيفقد الوعي لولا أن الجزء الأكبر من أقطاب الصاعق الكهربائي قد التصق بياقة معطفه الجلدي الثقيل، وبالكاد لامس جزء ضئيل منه عنقه، تلك الثغرة منحته ثانية تَمَكَّن فيها من القفز إلى الأمام مبتعدًا عنها، ثم استدار نحوها كاشفًا لها عن عينين اتسعتا ألمًا وصدمةً.

رؤيتها لترنحه ووهن جسده بعد الصعقة الكهربائية التي تلقّاها، لم تُخفف من قلقها، فنجاة أخيها تعتمد على فقدان هذا الوغد لوعيه، وهي خير من يعرفه، لن تتغلب عليه في معركة بالأيدي، وعلى الرغم من اعترافها لنفسها بضعفها مقارنة به إلا أنها لم تتراجع إلى الخلف، ولم تتردد في مجابهته..

لن تُسلِّم فارس إليهم، لن تتخلى عنه كالماضي ولو عَنَى ذلك أن تُضحي بنفسها من أجله.. إن أرادوا أن يَحظَوا به فعليهم أن يخطوا هذه المرة على جثتها أولًا...

وأمام عيني كاظم المصدومتين، سحبت من بين خصلات شعرها الدبوس الحاد والرفيع المثبت له للأعلى، فانسدل بفوضوية حول وجهها وفوق كتفيها، ثم بقبضتها اليمنى أمسكت الطرف المستدير منه وركضت لتقف بينه وبين باب حجرة فارس متخذة وضعية قتالية استخدمت فيها طرفه الحاد كسلاح وجهته نحوه...

شراستها، عنفها، وقوة عينيها التي لم يَعْتَدها فيها من قبل فاجأته.. وتفجر مشهد قديم في ذاكرة الاثنين..

مشهد لفتاة صغيرة، خائفة، وباكية، قد ملأت ما حولها صراخًا وهي تقف في مواجهة عملاق طويل، ذي أعين باردة، وقلب ميت الرحمة..

المشهد نفسه يتكرر، لكن الفرق الوحيد هو أن تلك الفتاة لم تعد صغيرة ولا باكية، عيناها الحادتان قد ضجتا بضغينة وعدائية شديدة ضده، ولم تخفَ على كاظم نيتها بأنه لو أتاح لها الفرصة لما توانت عن قتله.

«ليس لأنَّكِ كَبِرتِ قليلًا أو حملتِ بعض السخافات ستتغلبين علي».

قال كاظم وقد استعاد اتزانه وهدوءه، ثم سار نحوها ببرود مخيف، فأجابته والطرف الحاد من دبوسها مُصوب نحو صدره:

- لم أكبر وحدي أيها العجوز.
- تعلمين.. لم يكن تقدم العمر ليؤثر بي!

واندفع نحوها سامحًا لنفسه بإيذائها بعد ما رأى أن في دفاعها المستميت دليلًا جليًّا على أنها تُمثل عقبة أمام نجاح مُخططات عمها، ولأنها تعرفه لم تقلل من حذرها أبدًا.

وَجَّهَ قبضته نحو وجهها، ففاجأته بانحنائها للأسفل لتتكئ على

إحدى ركبتيها مما جعل ذراعه تطيش في الهواء وكاد يفقد توازنه، وعندها أحسَّ بأَشَدِّ ألم قد تلقّاه في حياته كلها حين غرست في قدمه شيئًا حادًّا جعله يشهق ألمًا وينحني ليبطش بها، لكنها بسرعتها نفسها مشت حبوًا بعيدًا عن قدمه فرأى طرف دبوسها البارز من قدمه بينما النصف السفلي منه قد غاب بأكمله داخلها، ولم يتردد للحظة واحدة في سحبه، ثم أطلق أنينًا عاليًا والدم يثعب من جرحه المفتوح ويُغرق الأرضية.

دحرج نحوها كرتين تصرخان وجعًا ونقمةً، فوجدها تقف مجددًا في انتظاره وقد رفعت قبضتيها باستعداد لمواجهة ردة فعله العنيفة..

وارتفع بغتة صوت طرقات على باب الحجرة تبعها صوت فارس الضجر:

- مايا.. ما هذا الصوت؟ ألم تنتهي بعد؟ أريد الخروج.

ورغم الألم الذي يعانيه كاظم، وإصراره الشديد على إحداث عددٍ لا يُحصى من الثقوب في جسدها، بدبوسها، إلا أن صوت فارس قد أعاده إلى هدفه الحقيقي، فالتفت نحوه.

«جرب أن تُدير ظهرك لي مجددًا».

قالت وشفتاها تتحركان بابتسامة مُستفزة دفعته ليبتعد عن الباب ويستدير نحوها وقد أدرك أن عليه ترويضها أولًا، وإلا فإنها قد تُفاجئه مرة أخرى بالصاعق من خلفه.

ومع اقترابه منها صاحت بأعلى صوتها: «لا شأن لك.. أنا بخير».

كلماتها العصبية بعثت بالانزعاج إلى وجه فارس، فتأفف بملل، وابتعد عن باب الحجرة، وكأن ما يحدث لها أمرٌ مُعتاد لا يَستَدْعي قلقه.

على حين وصل كاظم إليها ليُذيقها لكمة من قبضته، وتفجرت من بين شفتيه صرخة عالية بعد ما اصطدم رذاذ غريب بوجهه فأحرق عينيه.. راح يمسح وجهه بكلتا كفيه بفوضوية بينما تراجعت مايا إلى الخلف كاشفة عن راحة يدها التي حملت رشاشًا من الفلفل.

كل تلك الأسلحه الجاهزة للاستخدام، والمخبأة في جيوب سترتها، كانت من أجل نادر.. فليس كُلُّ امرأةٍ تَبيت مع رجل غريب في شقة واحدة ستكون بمأمن.

استدارت تبحث عن شيءٍ ما تضرب به رأسه قبل أن تتعافى عيناه، لكن هذه الشقة لا يوجد بها سوى الأثاث، ومن الصعب عليها حمل شيءٍ منه..

كانت في خضم تخبطها حين سُحبت فجأة من شعرها بعنف، فأطلقت تأوهًا خافتًا بالكاد كتمته حتى لا تُفزع فارس..

«أيتها اللعينة! كان على عمك قتلك بدلًا من نفيك».

انفرجت شفتاها صدمة لغرابة ما قال إلا أن الألم المتصاعد في رأسها جعلها ترفع كفيها كي تُخلص شعرها منه لكنه أدارها بسرعة نحوه لتتلقى وجنتها صفعة عنيفة غاضبة دفعت بدموع الألم إلى عينيها اللتين اتسعتا رُعبًا ودبوسها المتسخ بدمه يتجه إلى عنقها.

سيقتلها لا محالة، ومن ثم سينتقل إلى أخيها...

سيكسر الباب، ثم سَيَجرُّهُ معه إلى الخارج ليُذيقه هو وفاضل ألوان العذاب، وبالطبع لن يتردد أولًا في المرور به على جُثتها المُمدَّدة فيُفزعه للمرةِ الثانية كما أفزعاه من قبل بجثة أخته الصغرى لَمى...

ورغم أنها استنفدت بأسها وبَسَالَتها، لكن هذه الفكرة المخيفة وحدها فَجَّرت في أعماقِها طاقة فاجأتها هِيَ نفسها، فرفعت قدمها لتدوس بكعب حذائها العالي قدمه المصابة مفجرة فيها ألمًا جديدًا صحبه تدفق المزيد من الدم، لكن ذلك لم يُفلح بالكامل في إيقاف الدبوس المتجه نحو عنقها، إلا أنه نجح وبأثر طفيف في جعل كاظم ينحني فاحتك الطرف الحاد من الدبوس بكتفها بدلًا من عنقها مُحدثًا فيه جرحًا سطحيًّا نزف دمًا..

وتراجع كِلَاهما إلى الخلف، هي تضغط على كتفها بألم نافس في حدته موضع شعر رأسها المشدود، بينما انحنى هو نحو قدمه المصابة ليضغط عليها فتلوثت كفاه بدمه..

نفدت الحيل من يديها، ولم يعد عقلها قادرًا على إسعافها بحل لإنقاذ نفسها وأخيها منه، وخاصة بعد أن وقف فجأة وكأنه هو الآخر قد سئم لعبها بالأيدي، فأخرج من أسفل معطفه مسدسًا وَجَّهَهُ نحوها، وقد عكست عيناه نظرة غيظ وسخط قلما يظهر مثلها في وجهٍ شاحب وجامد التعابير كوجهه، وحينئذ أدركت مايا أنها خسرت، فيما هتف هو بشبه يقين:

- إنه هو بالتأكيد.. لو لم يكن فارس لم تكوني لتقاتلي بكل هذا التصميم والقوة.. سيؤيد عملكِ قتلي لكِ.

شيء من الخوف طرق قلبها، واستجدتها نفسها أن تهرب لتُنقذ روحها منه، لكنها لم تتحرك فإن كان ولا بد فلتتحقق أمنيتها: (لن يأخذوه إلا على جثتها).

****

قبل عدة ساعات (٢:٣٠ ظهرًا)

«أحمد».

«أحمد».

«أحمد».

كررت شابة مناداتها لأحمد من خلف باب شقته، وقد شاب نبرة صوتها غصة باكية، فتنهد الرجل الواقف إلى جوارها:

- سوسن يا ابنتي.. لعلّه يأخذ قيلولة، لا يجوز لنا إزعاجه.

ازداد احمرار أنفها وهي تتحقق من ثبات الوشاح المغطي لشعرها، ثم أمسكت بيده:

- سندخل.
- لا يصح.. قد يكون خارج شقته ومن الأدب أن يستقبلنا هو فيها.
- أبي، أخبرتك.. ليس من عادة أحمد أن يتجاهل اتصالًا مني.. قُلْتَ لي إنه غاب عن عمله في المطعم البارحة، وقد تغيب اليوم أيضًا عن نوبته في المستشفى.. هذا ليس مُطمئنًا على الإطلاق.

وعندما لاحظت أن كلماتها لم تكن كافية لإقناعه رفعت ملفًّا من الورق المقوى، ثم قالت بقلقٍ أكبر:

- قال لي مازن حين التقيته اليوم في المستشفى، إن أحمد لم يكن ليفوّت استلام هذا الملف بنفسه، وإنه كان قد وعده بالأمس بأنه سيمر عليه اليوم ليأخذه منه.. لكنه لم يأتِ، وفوّت نوبته، ولم يردّ على رسائلي أيضًا.

وسمَّرَت عينيها عليه بإلحاح:

- أرجوك.. أبي.. أرجوك.

تأفف مدير المطعم من طلبات ابنته المُدَلَّلَة، الوحيدة بين ستة من الأبناء، فأخرج سلسلة تعجُّ بالمفاتيح تخصُّ كل جزء من مبناه، الذي استأجر أحمد خطيب ابنته سوسن إحدى شققه، ثم فتح الباب، وهو يرفع صوته بحرج:

- يا رجل! متى ستتزوجان وتريحان رأسي منكما؟

لكزته سوسن بسبابتها في ظهره، فضحك بعد أن رأى الاحمرار العنيف الذي غزا وجنتيها، ثم تقدم أكثر ليتوسط غرفة المعيشة، وحينها أطلقت سوسن من خلفه صرخة جزع عالية، وهي تنظر إلى نقطة ما وراء الأريكة، لم تكد عينا والدها تقع عليها حتى دفعها بغلظة إلى الخارج، ثم صاح بها:

- غادري!

تراجعت بضع خطوات إلى الخلف كابحة صرخة أخرى من أن تعلو، والملف يسقط من يدها، فيما انحنى والدها ينظر إلى الجسد الساكن خلف الأريكة، والدم يسيل من عدة جراحٍ من جسده كان أسوأها الذي في رأسه فيما التف قيد من الحبال على كلٍ من يديه وقدميه..

«أحمد» ناداه إلا أنه بدا له كجثة هامدة لا حياة فيها، واستغرق الأمر منه بضع دقائق ليُفلح في تخليصه من قيده..

بينما غرقت عينا سوسن بالدموع، فرؤيتها لشخص مصاب وتعرفه أفقدها صوابها للحظة، لكنها لم تلبث أن تمالكت نفسها أخيرًا بعد

تَذكُّرِهَا أنها طبيبة قادرة على تقديم المساعدة، فأحضرت حقيبة إسعافات من حجرة في شقته ثم بدأت تمارس خبرتها في إسعافه وعلاج جراحه..

كان نشيجها يعلو ويخفت، ووالدها يضرب وجنته محاولاً إيقاظه، شفتاه جافتان، والدم قد تفرَّع على صفحة وجهه..

ولم يطمئنها بأنه حي سوى تحرك صدره علوًّا وهبوطًا بنفس ضعيف، وبعد معاينتها لجراحه علما أن ما مر به ليس بقليل، لكنه لحسن الحظ ليس بقاتل، ومهما خمنا لم يجدا سببًا لما هو فيه الآن سوى أنه قد يكون هناك لص حاول سرقته أو رفيق خدعه بعد أن أحضره إلى شقته فَسَلبَهُ كل ما يَمْلِك..

وارتفع فجأة صوت شهقة عالية غمرت قلب والد سوسن بالفرح فأسرع ليرفع رأسه على ركبتيه فيما ازداد بكاء سوسن حدة وهي تلفُّ الشَّاشَ على جُرح رأسه.

كان وجهها هو أول ما وقعت عيناه الذابلتان عليه حين استيقظ، وقبل أن ينطق كان قد تفجر الألم من موضع جراحه فأطلق أنينًا عاليًا..

- يا رجل.. ماذا حدث لك؟

سأله والد سوسن فيما أخرجت سوسن هاتفها:

- أبي، سأتصل بالإسعاف لينقله إلى المستشفى.

- حسنًا.

واختفى هاتفها من كفها فجأة حين سحبه أحمد من يدها بغلظة، وقد أودع ما تبقى من قوته في فعله هذا..

بدت الصدمة في عيني سوسن وتفجر مماثل له في وجه والدها الذي

قال بانفعال:

- يجب أن نُثبت تعرضك لهجوم كي يُقبض على الفاعل.

كان وجه أحمد يعكس مزيجًا من الألم والهلع وهو يعارضها:

- كلا، إنه نائب رئيس الشرطة.. لن يُفيد تقديم شكوى ضده.. وقد تتورطان معي.. كم الساعة الآن؟

بدت الدهشة على وجه سوسن بينما تلاشى تَعاطف والدها بالكامل، وهو يساعده على الجلوس، لكنه بمجرد أن سمع ما قاله ابتعد عنه، ورغم رؤيته لترنحه الشديد لم يهتم، وكل ما يشغل باله؛ ما مشكلته بالضبط مع نائب رئيس الشرطة؟

- الثانية والنصف مساءً.

قالت سوسن، فبدا هلع أكبر في وجه أحمد وهو يستحثها:

- غادرا.. لقد أرسلته بعيدًا ليبحث عن جثة الفتى المفقود.. وأبقاني هنا في حال لم يجده ليعود لاستجوابي.. لديه مصلحة غير قانونية وخطرة يسعى خلفها.

سألته سوسن بصدمة:

- الفتى المفقود! هل تقصد الفتى المضطرب النفسي الذي اختفى قبل ما يقرب الشهر؟

- نعم.

- لماذا يظن أنك من اختطفه؟

- لأنني من ساعدته على الهرب، ولكن يجب ألا يعلم بعلاقتي بكما.. فقد يؤذيكما.

واستطاع أخيرًا الاستقامة في جلسته بسبب المُسكن الذي منحته سوسن، لكن لم يلبث أن شاب نبرة صوته ارتباك وتوتر شديد، وهو ينقل عينيه بين سوسن ووالدها:

- لم أُرد إلا خيرًا بإنقاذ الفتى، ولكن هذا الرجل قد تمادى في...

وصمت، وسكن المكان من حوله، ولم يَعُد هناك سوى نظرات متبادلة بينه وبينهما تسلل على إثرها القلق إلى نفسه، فتجاهل كل ماحدث ليسألهما:

- أنتما تصدقانني؟

هذا ما افترضه عندما رآهما وشاركهما سرَّه، ولكن بدا وكأن سقف توقعاته العالي قد انهار فوق رأسه مسببًا له جرحًا في قلبه أشدَّ فتكًا مما أصاب جبينه.. وحرك عينيه الجازعتين نحو سوسن فرأى شحوب وجهها وبهوت عينيها وكفيها ترتفعان لتغطيا فمها..

بدت له وكأنها هي الأخرى قد كُسر قلبها وخاب أملها، ولكن لفكرة أخرى مختلفة تمامًا عما حكاه لهما، أما والدها فقد كانت ردة فعله واضحة تمام الوضوح، غضبه، صدمته، وخذلانه من الرجل الذي كاد يمنحه ابنته دفعته ليسحب ابنته بالقوة ثم نهض واقفًا ليضمها إليه وكأنه يحميها منه..

من خطيبها أحمد..

كلا.. بل من المجرم الذي اعترف لهما أنه قد اختطف مراهقًا مضطربًا

نفسيًّا لغرض في نفسه لن يعلماه، ولن يخمن أحد دون اطلاع كامل على الحقيقة أنه سيكون لغرض شريف..

- أنا لستُ..

أراد الدفاع عن نفسه، وفي الوقت ذاته رفض قلبه ذلك، هناك شيء في أعماقه منعه من الاسترسال، قد تكون ثقة توسَّلها قلبه منهما دون تبرير..

كلا، بل أرادها من سوسن فقط وفاءً لثمانٍ من السنوات قد جمعت بينهما منذ بدأ دراسته، لكنها لم تنظر إليه، بل ضغطت وجهها على صدر والدها باكية..

وقف وامتدت يده و.. تفجر مشهد قديم في ذاكرته.. مشهد بدا وكأنه يعيشه للمرة الثانية، ولكن لسوء الحظ قد مُنح فوق خشبة مسرحه الدور المُعاكس..

وتحركت قدماه، فالتقط هاتفه القديم، ومعطفه من على الأريكة، ثم غادر الشقة جريًا قبل عودة نائب رئيس الشرطة (صفوان)، فهناك أشخاص حياتهم قد أصبحت على المحك بسبب ما تفلت به لسانه، وسيزداد الأمر سوءًا وخطورة لو أُمسك به مجددًا.

****

-٢٩-

مرت ثلاثة أشهر على الحريق الذي أصاب منزل سمير، لم تخرج أم سمير من المستشفى بعد؛ فالحروق التي أصابتها كانت من الدرجة الثالثة، لكن سمير الذي استطاع الهرب من إحدى نوافذ المنزل قد استطاع النجاة، ولكن بضريبة غالية: فقدانه لصفاء وجهه..

تفرقت البقع على كامل وجهه، ولم ينجُ منها سوى عينيه، وقد كُسر أنفه عندما رمى بنفسه من النافذة..

كان شهر أكثر من كافٍ لتلتئم جراحه، ولكن جرح قلبه لم يلتئم أبدًا بعد أن فقد مصدر ثقته وقوته الوحيد، كان وجهه هو الشيء الوحيد الذي امتلكه لنفسه واستحسنه الناس، إضافة إلى المال الذي لطالما داس والده على كرامته وأوغل في إهانته قبل أن يعطيه، وقد آمن سمير من قبل بعجزه عن الارتقاء في سلم الحياة عن طريق النجاح في دراسته...

ظهر الامتعاض على وجه والده حين زارهما هو ووالدته في المستشفى، أسفًا على ما أصابهما، ولكن امتعاضه الأكبر كان من أجل بيته الذي احترق عن بكرة أبيه، ولم يبق فيه ما هو صالح للسكن..

اضطر سمير بعد خروجه من المستشفى للسكن بمفرده في تلك الحجرة في فناء المنزل التي سكنتها ليلى من قبله، والتي نجت من النيران لانعزالها الشديد..

وفي الغد سيكون يومه الأول للذهاب إلى مدرسته الجديدة التي بدأت الدراسة فيها منذ شهر.. ما أصابه قد تسبب بوضع نقطة النهاية لفصل من حياته، ولكن كل نهاية طالما ما زلتَ تتنفس فهي ستكون بداية لفصل آخر جديد من حياة جديدة..

فصل قد يكون أكثر جمالًا أو أكثر ألمًا..

صدق أو لا تصدق فأفكارنا هي المسؤول الأول عن نظرتنا للحياة..

نسج عقل سمير الكثير من المخاوف، وحدث ما توقعه من تنمر الفتيان عليه، بل عند أقل شجار بينه وبين رفاقه التسعة كان: (مشوه) هو أول ما يخرج من أفواههم.

تجنبته الفتيات، وشاع بينهم لقباه: مشوه الوجه، مشوه السمعة، بعد ما ازداد والده سوءًا، وكان هذا أكثر من كافٍ ليهجره الجميع وتفشت الشائعة كتفشي النار في الهشيم وتناقلها حتى المعلمون في ما بينهم:

- أرأيت ذلك الفتى المشوه الوجه؟.. والده يملك مزرعة يبيع فيها الخمور، أفسد بها الكثير من الشباب والفتيات، وقد عاقبه الله في ابنه وزوجته ولم يتعظ..

وبالفعل حدث كما تمنى سمير فقد أصبح علمًا يُشار إليه بالبنان، ولكن بطريقة ناقضت الطريقة التي خطط لها قبل الحريق.

****



الغريب!

-٣٠-

سلطت مايا عينين مُلئتا مرارةً وقهرًا على كاظم الذي صوَّب السِّلاح بدقة نحو صدرها، ومهما انحنت أو مالت ستكون نسبة نجاتها صفرًا بالمئة، فمن المستحيل أن تسبق سرعتها سرعة رصاصة تفصلها عنها أمتار معدودة..

وضغط كاظم زناد الأمان في مسدسه..

وملأ الغيظ قلبها من ابتسامته الوحشية البغيضة التي ستكون هي آخر ما ستراه قبل مغادرتها للحياة..

و...

اختفت...

اختفت الابتسامة...

اختفت برفقة صاحبها ومسدسه...

لم يستوعب عقلها موقعه الفارغ أمامها، ظلت أصابع كفيها ترتجفُ خوفًا، وهي تُحرك بصرها إلى الجانب الآخر من صالة الجلوس حيث ارتفع منها صوت ارتطام عالٍ..

وبغرابة، لم يكن هناك جسد واحد، بل جسدان!

تحرر من بين شفتيها زفير مصحوب بأنين توجع خافت..

من هذا؟ وكيف دخل؟ ومتى؟

أهو أحد نزلاء الفندق؟

أم من المسؤولين فيه؟ نعم، فلم يكن ليدخل لولا معرفته برمز قفل الشقة الرقمي!

إذًا هل من الممكن أنَّهُ سَمِعَ صوت شِجارِهما فأسرع لنجدتها؟

ولكن هِيَ لم تستطع رؤيته حتى حينما مرَّ من أمامها كالريح مختطفًا معه جسد كاظم...

ومن تلك الزواية ارتفع صوت ارتماء المسدس على الأرض، وجسد ذاك الغريب يعتلي جسد كاظم، ثم أخذ يُسدِّد قَبَضاتِه نحو وجهه..

بلغ إلى سمعها صوت اللكمات المُهشمة لوجهه بعنف، ورأت الدماء تتناثر من حولهما، لكنه لم يتوقف، بل تابع وتابع...

بينما اجتاحتها رغبة عارمة في البكاء بعد أن وجدت أخيرًا متنفسًا لها من ثِقَل ما مرَّت به؛ بدءًا بمفاجئة كاظم لها وانتهاءً بتسارع الأحداث الجنوني والمخيف بينهما...

كل ذاك الضغط الذي كابدته لوقت طويل بدأ أخيرًا بالتلاشي...

ارتجفت شفتاها، وتسلل إلى عينيها دمع طفيف، وذلك الغريب يتولى ما عجزت عنه، أو ما تبقى من الوغد الذي لم يمنحه الغريب الفرصة ليتنفس حتى وهو يتابع ضربه..

لقد نجا أخوها أخيرًا..

وتابع ضربه..

هي الأخرى بفضل الله ثم بفضله نجت..

وتابع ضربه..

يمكنها الآن أخذ أخيها والهرب بعيدًا..

ولم يتوقف الغريب عن الضرب!

وعندئذ علقت دمعتان بطرفي جفنيها، واهتز حاجباها بحنق.. إلى متى سيستمر في ضربه؟

ولم تسمع أذناها همسه المتقزز الثائر من بعيد، وقبضاته تواصل عملها:

- امرأة؟! تتعارك مع امرأة؟! يا لك من حثالة! هل خلا العالم من الرجال؟! انهض أيها الوغد، وواجهني أنا.

لم يكن لينهض إطلاقًا ومَعالمُ وجهه تُسحق، ولون بشرته الأبيض يُصبغ بالدم، وقبضتاه الواهنتان يعجز عن رفعهما بعد ما اكتنف رأسه دوار عنيف، أصاب رأس الرجل الغريب مثله عندما اصطدم شيء ما ثقيل برأسه، فتأوه ألمًا وأدار عسليتين متقدتين شرًّا إلى الخلف فوجد مايا من بعيد تحمل حذاءها الآخر بغية رميه به إن لم يتوقف عن جنونه..

والتقت أعينهما فشحب وجه مايا صدمةً لعدة ثوان ثم صاحت:

- أنت؟!

فيما صاح بدوره بشك:

- لا تقولي إن ما اصطدم برأسي قبل قليل هو حذاؤك؟!

بقيت صامتة للحظة تُغالب صدمتها قبل أن يعلو وجهها غضب طفيف، وأسرعت لتمسح وجهها من دموعها، وهي تقول موبخة له:

- كان عليّ أن أُدرك أنه أنت.. طائش!.. لهذا دخلت السجن في عمر صغير.

لم يكترث إطلاقًا لتوبيخها، وعسليتاه المظلمتان تبحثان في ما حوله عما اصطدم برأسه خشية أن يكون حذاءها البني المليء بطين حقل التفاح، وبالفعل كان هو؛ فها هو يستقر على بُعد خطوات منه بعد أن طبع قذارته على رأسه وبعثَرَ شعره الكستنائي المُسرَّح جيدًا، فاشتد غضبه وسخطه عليها..

ومن خلفه سمعها تهتف مُهددةً له بجرأة، وهي تلوح بحذائها الآخر:

- وسيتبعه الآخر إن لم تتوقف! أنت! لا تورطني أنا وأخي معك في جريمة قتل.

يا للأنانية!

إذًا لم تكن غايتها من إيقافه أن تُنقذه من السجن، بل إنقاذ نفسها وأخيها فقط، وعندها رغب بنقل تلك اللكمة إلى وجهها لولا اقترابها منه فجأة لتنظر إلى وجه كاظم إن كان لا يزال حيًّا أو أنه قد قتله و... صرخت فجأة: «انتبه!».

صرخَتُها جعلته ينتفض، ويستدير بجسده كله نحو كاظم، فرأى يده الممتدة نحو المسدس تكاد تصل إليه، وعندها قبض على ذراعه ثم سحبها بقوة وأراد لَيَّها، ولا يُهمه لو تحطمت عظامه للأبد، المهم أن يوقفه وحسب...

وانتفض جسد كاظم فجأة بتتابع غريب ومُفزع، دفع نادر ليقفز

مبتعدًا عنه بذعر، وعيناه تنظران بصدمة إلى مايا التي تابعت إلصاق الصاعق في عنقه مُرسلة في جسده المزيد والمزيد من الكهرباء..

«بلهاء!.. عليكِ تحذيري أولًا!».

صاح بغضب إلا أنها لم تكترث وعيناها تتفقدان وجه كاظم، وبمجرد أن تيقنت من فقدانه لوعيه ابتسمت براحة، ثم انهارت ساقطة على ركبتيها إلى جواره.

تأمل نادر بغيظ عينيها المبتهجتين، وابتسامتها الخفيفة، وهِيَ تُشبِّكُ أصابع يديها بعضها ببعض ببلاهةٍ وحبور و.. بالتأكيد لن تُبالي بتحذيره أو شكره؛ فأيُّ خَيرٍ سَيُرجى من أنانية رمتهُ بِحذائِهَا بعد أن أنقَذ حياتها؟!

نفض الغبار عن رأسه، وعن معطفه الذي تجعد، ثم تحرك نحو حجرة فارس للاطمئنان عليه، لكنه تجمد فجأة في موقعه عندما ارتفع من ورائه صوت تصفيق عالٍ جعله يلتفت إلى الخلف برعب فرأى مايا مستمرة في التصفيق، وابتسامتها تتسع أكثر وأكثر:

- رائعة.. أنا رائعة.. لا أُصدق أنني فعلت كل ذلك بنفسي.. لقد صمدتُ أمامه.. هذا الوغد! لقد تغلبتُ عليه، لم أسمح له بأن يكررها للمرةِ الثانية.

انتفخ عرق جبينه غضبًا، فعن أي انتصار تتحدث؟ كاد يثقب جسدها برصاصته لولا تدخله.. ولو قتلها وأخذ فارس لتدمر ما فعله من أجله لستة أشهر بالكامل..

وبنبرة ثائرة قال:

- قُلتِ إن الرجلين سيأتيان لاصطحابكما إلى العاصمة خلال ساعة.. فلماذا لم يأتيا بعد؟

لم تهتم بإجابته وكل ما فيها يضجُّ فرحةً لأنها تماسكت إلى اللحظة الأخيرة فأردف بنبرة أعنف:

- أربعُ ساعات مرت ولم يأتيا.. أتعبثين معي؟!

رفعت وجهها نحوه بعد أن عكَّر فرحتها، وعندها رأى وجنتها المُحْمَرَّة إثر صفعة كاظم وشعرها الأشعث المبعثر، وكتفها الملوث ببقع الدّماء.. لا يُنكر أنه لم يلاحظ ذلك ابتداءً، ولَكِنَّ كُلَّ هذا أثبتَ له أنها قاتلت باستماتةٍ، وبذلت جهدًا لم تكن امرأة أُخرى لتفعله.

- صحيح.. لقد كذبتُ عليك.. لن يأتيا إلا في الغد.

قولها المفاجئ بدد تأثره بحالها فسألها بصدمة: «كذبتِ علي!؟».

- أجل.

اقترب منها وقد اشتعلت عيناه غضبًا واستهجانًا:

- ما نوع الهراء الموجود في رأسك؟! أيتها الطائشة؛ أخوكِ مُطارد فكيف تمكثين في الموقع نفسه لأربع ساعات متتالية دون حامٍ لكما؟ ألم تفكري في ضرورة الرحيل دون تأخير بعد ما نشرتِ الفيديو الذي أحرق جميع وسائل الإعلام في العاصمة؟.. بل.. وتتجرئين للكذب عليّ أيضًا!

- ولماذا تهتم؟!

قالت بدورها بثورة لا تقل عن ثورته وهي تقفز واقفة، فاتسعت عيناه دون أن يجد ردًّا لسؤالها، فيما تابعت بأنفاس لاهثة:

- طلبتُ منك بأدب أن تنقلنا إلى العاصمة ورفضت! عرضتُ عليك المال ورفضت.. حاولتُ إجبارك أيضًا فقاومت ورفضت.. ثم

قبل رحيلك ببضع دقائق تُظهر قلقك! ماذا كُنتَ تنتظر؟!.. أن أُظهر حاجتي إليك وأتوسل إليك أن تبقى مرافقًا لنا إلى الغد حتى يأتيا فتُهينني وترفض كما رفضت ذلك كُله؟

ارتخت ملامحه فيما أردفت فجأة بكبرياء مجروح:

- بالتأكيد لم أفعل ولن أفعل.. ألم تكن تلك الكذبة هي الأفضل لكلينا؟ أحفظ كرامتي من أن تُهان بلا فائدة.. وترحل أنت ببالٍ مرتاح ودون قلقك العديم الفائدة.

تغيّر وجهه وكلامها المنطقي يُفحمه، وبحق لو كان في موقعها لم يكن ليتوسل المساعدة منها، وخاصة بعد ما حدث بينهما، فيما ارتجفت عيناها فجأة وتهدج صوتها وهيَ تُفصح عن دهشتها منه:

- ولكنك عُدت!

وأشارت بسبابتها إلى صدره ووجهها يعكس حيرة حقيقية:

- عُدت رغم أنك قد أخذت المكافأة ولم يعد هناك من سبب يربطك بنا..

ونظرت إلى عينيه مباشرة متسائلة:

- أنت تعلم أنك لست مسؤولًا عنا ولم يكن ليلومك أحد لو رحلت.. فلِمَاذا إذًا عُدت؟!

عيناها الزرقاوان الشبيهتان بزرقاوي فارس كشفتا عن ارتباك وضياع حقيقيين، ولأنها أجابته بكل صراحة لم يتردد في إجابتها بدوره، ولكن بلفظٍ موجز:

- اتصل بي فارس فعلمتُ منه أنَّكِ بصحبة شخصٍ ما.

اتسعت عيناها لتذكرها فارس، وبصعوبة كبحت نفسها عن الذهاب للاطمئنان عليه، وسؤال آخر يحتل عقلها الغارق في الحيرة:

- لقد مرَّت أربع ساعاتٍ على رحيلك.. فحتى لو اتصل بك لم تكن لتأتي بهذه السرعة!

اهتز أحد حاجبيه بحنق، وأخفى وجهه متعمدًا بانحناءته نحو قدمي كاظم ثم سحب خيطي حذائه ليستعملهما في تقييد ذراعيه وقدميه فيما شهقت فجأة:

- أنت لم ترحل أبدًا.

أطبق شفتيه عن شتيمة بذيئة، وهو يُدخل ذراعيه أسفل كتفي كاظم، ثم جَرَّهُ بخشونة نحو الحجرة التي نام فيها سابقًا، بينما ظلت مايا مُتجمدة على حالها الرث ذاك لبضع ثوانٍ لكنها لم تلبث أن قالت ببطء:

- أنت لم تبقَ في الخارج منتظرًا قدوم الرجلين لتطمئن أولًا لرحيلنا بأمان ومن ثم ترحل؟

مجددًا تتجاهل كل ما هو مُهم، لتتشبث بما يُحرجه، فضاقت حدقتاه واحتقن وجهه، فيما بدا وكأن صاعقة قد أصابتها وهي تتأمل تعابير وجهه المؤيدة تفكيرها.. لو رحل لم يكن ما سيحدُثُ لأخيها ذَنبَهُ أبدًا.. لِمَاذا إذًا كلّف نفسه مُعاناة البقاء ليطمئن على رحيلهما أولًا؟

زار وجهها تعبير قديم قد انطَفَأ قبل ستة عشر عامًا لم تظن يومًا أن هناك من قد ينجح بتأجيج جذوته مرة أخرى بعد موت والدها، وظلت عيناها المبهوتتان مسمّرتين على هذا الرجل المُتَنَاقِض ظاهرًا وباطنًا،

والذي تذمر وهو يُسقط جسد كاظم بغلظة فوق أرضية حجرته متمتمًا بسخط:

- ما كُلُّ هذا الطول؟! من نبش قبره وأخرجه؟! فبالتأكيد ليس من زمننا هذا المومياء!

«ماذا سنفعلُ به؟!».

قالت فجأة بعد أن أفاقت أخيرًا من تحليلها المزعج بالنسبةِ له، وقد زين ثغرها ابتسامة متحمسة فنظر نحوها بحاجبين معقودين:

- أفعلُ به تقصدين!

وألقى نظرة مستاءة على حالها المُؤسِف فاهتز أحد حاجبيها حنقًا، ثم أسرعت لتلتقط وشاحًا أحمر من فوق الأريكة غطت به كتفيها، وربطت طرفيه أمام صدرها، ثم خللت شعرها بأطراف أصابعها وانحنت لتلتقط دبوس شعرها و... تجعد أنفها بتقزز لدم كاظم المغطي له فشتمته وهي ترفسه بطرف قدمها ليختفي تحت الأريكة، وابتسمت:

- هكذا لن يلاحظ أخي وجوده.

وسحبت ملعقة ذهبية وسط ذهول نادر لترفع بها شعرها على هيئة قبة فوق رأسها، وأنزلت خصلات منه على جانب وجنتها المُحْمَرَّة لأجلِ أن تصرف نظر فارس عن أثر أصابع كاظم المطبوعة عليها..

طوال ذلك كانت تبتسم مُثيرةً في نفس نادر شعورًا كبيرًا من الدهشة: هل هي حقًّا امرأة؟!

حين صفَع ريم انتحبت وبكت ورمته بأقذع الأوصاف، وحين مرَّ إلى جوارها حاملاً فأسه بدت له وكأنها ستفقد روحها...

أما هذه فتبتسم وكأنَّها لم تُصفَع!

وكأنَّها لم تَشهَد قبل دقائق قليلة سلاحًا يصُوَّبَ إلى صدرها!

من المفترض أن تنهار، عليها حقيقةً أن تنهار؛ فهو قَبلَ هذا قد وضعها تحت ضغط كان كفيلًا بأن يجعلها الآن تبلغ حدها الأقصى من التماسك والصلابة..

اختطفها، سجنها، رأته كمجرم لن يتوانى عن إيذائها أو إيذاء أخيها، صدمتها بحقيقة عمّها المُرة، وفزعها على أصدقاء والدها، وأيضًا قد تجرعت منه الكثير والكثير من الكلمات اللاذعة والجارحة حول عائلتها...

ولكن لماذا الآن لم يعلق في ذاكرته سوى صورتها تقف شامخة أمام مسدس كاظم؟

كانت ستموت! لكنها لم تفكر بالهرب حتى!

وحين انتهت مصيبتها ونجت من الموت لم تتشبث به باكية أو تندس خلف ظهره تنشدُ فيه أمانها المفقود، بل أخذت تُصفِّق أحتفالًا بِصمودها وروعتها!

هل كل النساء مثلها؟! أم كل النساء كـ(ريم)؟!

أم أنها استثناء بين جمهور النساء؟!

فحتى الكثير من الرجال، لو مرُّوا بما مرَّت به، لانهار بعضهم...

«نسيتَ فمهُ القذر».

استفاق على صوتها، وهيَ تقف أمام كاظم لتُلصق على فمه قطعة من الشريط اللاصق، الذي ألصق نادر على فمها مثله بالأمس..

ألا يجب أن تنظر إليه بضغينة في هذه اللحظة لما فعله بها؟ وبالفعل رمته بنظرة مُحتدة جعلته يرتبك وينحني ليثبت تلك القطعة بعدة خبطات عشوائية.

أطلقت زفرة متأففة منه، ثم أعادت خصلة خلف أذنها قائلة:

- أنا الآن مُستعدةٌ للقاء أخي.. كيف ينبغي لي أن أواجهه؟ أضحك؟ أبتسم؟ أم أكون جادة؟ بالتأكيد لن أُخبره بما حدث هنا؛ فتلك مسائل تَخصُّ البالغين وهو لا يزال صغيرًا عليها.. وأيضًا لقد رفعتُ صوتي عليه كي لا يخرج.. أتَظُنُّ هذا قد يُؤثر فيه؟ لقد كُنْتُ حريصة ألا أصرخ أثناء العراك كي لا يعتريه الخوف.. هل هذا جيد ؟!.. أم...

- تصرفي كعادتك فحسب.

قاطع ثرثرتها الغريبة، وهو يتجه إلى الحجرة:

- فلقد تأخرنا عليه بما فيه الكفاية.

أومأت برأسها بطاعة مُثيرةً تَعجُّبه؛ فحين يتعلق الأمر بفارس فهي لا تتردد في الامتثال لأمره، وبهدوء أغلقت الباب على كاظم، ثم سبقته لتطرق باب حجرة فارس صائحة:

- إلى متى سأنتظر خروجك؟ سأشتري الغداء دونك.

لم تكن قد أطبقت شفتيها بعد حين فُتح الباب بقوة، ليبرز فارس من خلفه، بوجهٍ عابس، وشفتين ممتدتين:

- إذًا هو خطئي الآن!.. مايا، لقد كُنتُ أُصغِي بحرص إذا ما هدأ المكان لأخرج، لكنكِ ظللتِ ترفضـ..

وشاب نبرته بطء شديد حين انتبه إلى جانب وجنتها المخفي،

والوشاح المُغطي لكتفيها، ثم تفاجأت باندفاعته نحوها ليضغط على كتفيها، وعيناه تتفحصان كل إنشٍ منها، ثم هتف بقلق عنيف:

- أنتِ لستِ بخير؟! هل آذوكِ؟.. سحقًا مايا!.. ماذا حدث؟

عيناه العاكستان قلقه وحبه الكبير لها لامستا قلبها، وجعلتا شفتيها ترتجفان رغمًا عنها.. متى كَبِرَ ليقف أمامها هكذا مُظهرًا قلقه عليها بدلًا من أن تتولى هِيَ الأخت الكبرى هذا الدور؟!

«بالتأكيد أنا بخير».

قالتها بلطف وهي تُنزل كفه عن كتفها المجروح، وأنين ألمها يكاد يخونها ويفضح ما خبأته عنه، مدت كفها الأخرى إلى وجنته إلا أنه تراجع فجأة إلى الخلف، وقد عكس وجهه اللطيف لأول مرة غضبًا.. غضبًا عنيفًا لم تَعتَدْه منه وقد تلون بياض عينيه باحمرار شديد:

- لم أعد طفلًا.. إنها المرةُ الأخيرة التي سأُطيعك فيها وأغلق الباب.. لن تقابليهم مرةً أخرى إلا في وجودي، وأنا إلى جوارك، فإن كانوا عائلتك فأنا أيضًا عائلتك حتى إن كان والِدَانَا مُختلفين!

رأى نظرتها الحزينة المصدومة فرقَّ صوته فجأة:

- ألستُ أخاكِ؟

ابتلعت غصة خانقة وكلماته تكاد تُفقدها تماسكها ليتفاجأ بضمها له بقوة، وشفتاها تُطلقان هتافًا مرحًا:

- بلى، أنت أخي وليس لي أخ غيرك.. وسأُشركك المرة القادمة معي ولن أدفعك بعيدًا.

ثم ابتسمت وهي تتراجع إلى الخلف لتنظر إلى وجهه المُشرق بفرح،

وبوجود كاظم مُقيَّدًا بالقرب منها ستحرص ألا تكون هناك مرة قادمة أبدًا..

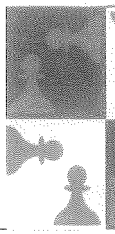
وهل نسي الاثنان شخصًا في الخلف مُتكئًا على ركن الباب، وعقله يتساءل: عن ماذا يتحدثان بالضبط؟

لم يكن قد فاته ملاحظة عدم تدخل فارس في صراع أخته، وأنه عند خروجه الآن لم يبدُ عليه الفزع أيضًا!

والأغرب أنه عندما اتصل بنادر لم يطلب منه إنقاذها، ولولا تفلت لسانه بالمصادفة خلال محادثتهما عن وجود فرد آخر من عائلة مايا معها في الشقة لم يكن نادر ليأتي ولكان الاثنان الآن في أسوأ حال..

واسترجعت ذاكرة نادر تفاصيل تلك المحادثة أثناء انتظاره - في مرآب الفندق - قدوم الرجلين كي يتسنى له الرحيل ببالٍ مرتاح.

****



هل أنت بخير؟

-٣١-

«كان عليَّ أن أجعلها تدفع ثمن تنظيف السيارة!».

تذمّر نادر بنبرة عالية، وأرنبة أنفه تهتز بتقزز رغم التنظيف الدقيق الذي تَلقَّتهُ السيارة.. عايَن كُلَّ جزءٍ منها قبل أن يتخذ من مقعد الراكب الأمامي مجلسًا له، أرخاه إلى الخلف ليحظَى بجلسة مريحة، ثم رمى بقدميه على طولهما فوق التَّابْلُوه المواجه له.

أسند مِرْفَقَ يَمينه على حافة النافذة المفتوحة، فيما تراقص أمام عينيه دخان سيجارته، وقد تراكم عدد كبير من أكواب القهوة بعضها فوق بعض في التجويف المخصص لها بين المقعدين، ولا تزال بقايا المشروب عالقة بقاع بعضها؛ فملأ فضاء السيارة رائحة القهوة مصحوبةً برائحة سجائره.

لقد قاوم نفسه لساعة ونصف الساعة بأكملها عن التدخين، لكنه حين ينزعج تَشتَدُّ أَعصَابه، ويزداد غضبه، ثم يفقد السيطرة على نفسه ويتجه نحو السجائر رغم إدراكه أنه لا مبرر له في الاستمرار بتعاطيها..

وتفجر في ذاكرته فجأة: «متعفن من الخارج!». بصوت مايا الغاضبة فازداد نفوره وضيقه من إدمانه هذا، فسحق السيجارة في موضعها المخصص في السيارة...

- لو استقلا دراجة هوائية لكانا الآن هنا!.. ما الذي يؤخر هذين العجوزين؟

غمره ندم شديد لأنه لم يأخذ رقميهما سابقًا من هاتف مايا. كان بصدد الرحيل حينما وقعت عيناه على مرتادي الفندق الخارجين منه والداخلين إليه. جميعهم غلب عليهم الهيئةُ العابثة، تُغطي الوشوم أذرعهم العارية إلى الكتف، وبعضهم ضخام الجثة تعلو وجوههم الندبات، وكأنهم ممن اعتاد الشجار والقتال منذ وقت طويل وتهيَّأ لهما ببناء عضلات جسده بالتمارين الشاقة...

هل سيترك طفلًا وامرأة بمفردهما في هذا الفندق؟!

نازعته نفسه الرحيل؛ فالرجلان سيصلان خلال ساعة كما أخبرته مايا، لكن ضميره لم يرحمه فالذنب ذنبه لأنه هو من وضعهما فيه في المقام الأول.

وبعد صراع نفسي طويل، اتخذ قراره، فأطلق شتائم قبيحة وهو يتجه لغسل سيارته للمرة الثانية في بهو الفندق من بُصاق تلك المتعجرفة، نعم، سينتظر قدوم الرجلين ليطمئن عليهما أولًا، ومن ثم سيرحل، ولكن ساعة الانتظار تبعتها أخرى وأخرى و...

- سحقًا!.. سأرحل وإن حدث شيء سيئ فالذنب ذنب العجوزين وذنبُ تلك البلهاء.. لقد حذرتـ...

وتشكَّلت أمام عينيه فجأة صورة فارس فأطلق تنهيدة طويلة.. من أجله قد يزيد المدة لساعة أخرى، لا أكثر...

أخرج الصَّكّ المالي الذي منحته إياه مايا، كل ما يملكه الآن هو هذا

المال وسيارته، وتزاحمت في عقله الكثير والكثير من المخططات حول ما سيفعله في مستقبله، لن يكون معالجًا نفسيًّا بعد الآن، فعند عودته إلى حقل التفاح سيرمي شهادته المحفوظة في كوخ والديه في أقرب حاوية للقمامة، ثم سيوقِّع عَقْدَهُ مع ريم ويجمع أشياء والديه ويرحل إلى الأبد...

هو حرٌّ الآن، لم يعد هناك ما يُقيده، صحيح أن ثمن هذه الحرية كان فقدانًا مؤلمًا، لكن الحقيقة أنه أصبح قادرًا على العيش أينما يريد وكيفما يريد...

أمسك هاتفه وبدأ بالبحث في المتصفح عن طُرق لامتهان وظيفة محقق خاص، كشخص مستقل، ودون غطاء قانوني رسمي، فحتى لو حُظرت هذه الوظيفة في البلاد فهذا لا يعني أنها لا تحدث في الخفاء ويُدفع من أجلها الكثير من المال من الأفراد الذين يفقدون ثقتهم بأجهزة الأمن الرسمية، أو ممن يخشون الفضائح العائلية إذا ما بلغت قضاياهم إلى جهاز الشرطة، قد يكون عملًا محفوفًا بالمخاطر ويتطلب قدرًا عاليًا من السرية والمهارة لتجنب المُلاحقة، ولكن استمتاعه بهذه الهواية تَفوَّق على كل إنذارات الخطر التي أطلقها عقله الذي اعتاد الدقة والتروّي...

ولكن ماذا قد يخسر أكثر مما خسر؟

من المستحيل أن يجد وظيفة بسجله الموسوم بجريمة ماضيه، إضافة إلى أنه لم يعد هناك من سيتضرر بتضرره، لذا ما المانع من بعض العبث والتهور؟

وقاطع تركيزه الشديد رنين هاتفه المفاجئ فكزَّ على أضراسه غيظًا...

ألا يسأم رفاق سجنه منه؟

لقد تجاهل اتصالاتهم المتكررة بعد مغادرته للشقة، لكنهم لم يتوقفوا، وتَتالَت سجائره، ورَنَّ هاتفه بغتة بمكالمة فيديو جذبت كامل انتباهه، فاعتدل في جلسته، ورمى بسيجارته المشتعلة، وتحركت سبابة كفه الأخرى دون وعيٍ منه لتلمس مفتاح الرد، وذاكرته تسترجع صدى صوته الحزين، وهو يستجديه: «فيديو!».

وعده لفارس بأن يرد عليه أفقده رَزانته بأنه من الممكن أن يكتشف أنه لا يزال في مرآب الفندق، ومع ذلك أجاب وهو يشتم نفسه لعدم تسجيله اسمًا على رقمه...

«زعيم».

ضاقت عيناه وارتد للخلف مصعوقًا، وصورة الثلاثة تظهر على شاشته، المخادعون استخدموا رقمًا ليس مُسَجَّلًا عنده لإدراكهم أنه يتجاهلهم عن عَمد..

والأغرب أنهم كانوا يجلسون حول طاولة مستديرة، احتل تميم وزيد الطرفين الأيمن والأيسر منها، بينما حاتم في مواجهته وقد ثبتوا الهاتف الحامل لصورته على المقعد الرابع بغرض إجراء مفاوضات معه حول شيءٍ ما، وانتبه فجأة للهاتف الآخر المألوف والمستقر في منتصف الطاولة (هاتف أحمد) الذي أنقذوه من قسوة المُسِنّين المختطفين له...

«الأَنْذَال!».

لم يكن قد تعافى جرح كرامته بعد لينكؤوه بهذه السرعة، ورغم ذلك أظهر وجهه أشد أمارات الثبات والرصانة وحاجبه الأيمن يُرفع، بينما امتدت سبابته لتُغلق الخط في أوجههم و...

«أسف زعيم».

صاح تميم بمزيج من الحرج والندم، فيما أشار زيد نحو حاتم صارخًا بانفعال:

- إنها فكرته.. قال إنه يمكننا أن نتفاوض معك حول حصصنا من المكافأة إن أربكناك، وجعلناك تشعر بالامتنان لنا لأننا قدَّمنا هذه الخدمة لك.. لكنني أخبرته أنك تمتلك ما تبتزني به ولن تُذَلَّ بمثل هذا الهراء.. وأخبـ...

قاطعه حاتم بابتسامة كبيرة، وهو يرى نادر لا يزال يلبس قناع الوقار:

- لا تنسَ أنك بدوت يائسًا وقتها، ورغم حطّك من كبريائك لتطلبها منا كخدمة فإننا لم نؤذِ مشاعرك ولم نرفض.. بجدية، كان الموقف بكامله سخافة محضة، من كان يظن أنك قد تُخدع من امرأة؟ لذا لا بد أن تمنحني أنا بالذات حِصّة تفوق حصة زيد وتميـ...

وتحدث نادر فجأة قاطعًا مفاوضته:

- تميم، إن كُنْتَ آسفًا حقًّا لإخفاء الحقيقة علي، ولمشاركتهما هذا الغباء، فاسحب حاتم إلى زاوية.

لم يكن قد أتمَّ أمره بعد حينما التَفَت ذراعاه الضخمتان حول حاتم، وبالفعل جَرَّه إلى إحدى الزوايا التي صدر عنها أصواتٌ مرعبة، امتقع لها وجه زيد وهتف بوجل:

- بُؤسًا له!.. ظننتهُ بمرور السنوات على خروجه من السجن سيتحرر من لقب: (دمية الزعيم).

ثم حوّل نظره نحو نادر، وقد رسم على وجهه أَشَدّ أمارات اللطف والمودة، وغرقت عيناه في تأثره، وهو يفتح شفتيه بـ:

- لا عليك.. كنت رائعًا، لقد انتصرتَ عليها، وأخذت المكافأ...

قاطعه نادر باشمئزاز:

- توقف عن تَملُّقك المُقزز هذا.. حسنًا.. سنقتسمها بالتساوي.

تجمد بصدمة:

- بالتساوي؟! ظننتُك ستأخذ ثلاثة أرباع المكافأة لنفسك!

- هل أغير رأيي إذًا؟!

- لا.

صرخ ودموع البهجة تكَادُ تتقافز من عينيه وهو يخبر المتعاركين هناك أنه لم يكن هناك أيُّ حاجة للمفاوضات ولا للعب على أوتار مشاعر الزعيم...

وظهر فجأة فوق شاشة هاتف نادر رسالة، رسالة غريبة تحمل رقم أحمد، فاتسعت عيناه ونظر إلى الهاتف الذي ما زال يقبع وسط طاولة رفاقه!

وتفجر في ذاكرته بغتة صورته الأخيرة بوجهه المُرهق، وعينيه المحمرتين، ونظرة العتاب والانكسار التي رماه بها قبل أن يُغلق الخط في وجهه...

أما زال غاضبًا منه لذا استبدل المكالمة برسالةً فقط؟!

تجاهل نادر رفاقه بالكامل وهو يغلق الاتصال ليفتح الرسالة،

وبالفعل هِيَ من أحمد، فقد أرسل إليه ما طلبه منه قبل عدة أيام حول مرض فارس العضوي، كانت المعلومات المُسجَّلة تشرح بالتفصيل المُمل حجم الضرر الذي قد يحدث للفتى لو لم يُعالج مرضه العضوي سريعًا ومدى خطورة الأدوية عليه...

رسالة شاملة تُغني عن مئة اتصال!

«الوغد!»

تمتم نادر من بين أسنانه المطبقة، فما فعله أحمد يُجبره على أن يكون هو المُبَادِر بالاتِّصال؛ نعم، قد أخطأ في حقه، لكنه، حتى لو تنازل واتصل به سيحرص على المحافظة على كبريائه بالقدر الذي يستطيعه...

قد يتظاهر كاذبًا بحاجته لشرح بعض النقاط في رسالته، ومن ثم سيتطرق خلال ذلك الحديث لتبرير تجاهله اللئيم لاتصالاته في قرية السنابل، وبالطبع، لن يُخبره بالحقيقة، بل بشيءٍ ما مثل انشغاله بترتيب لقاء لفارس مع أسرته، وسيكون ذلك مُقنعًا للغاية وكافيًا كعذر.

واتصل مرة، مرتين، وثلاثًا ولم يرد..

هل بلغ به حزنه وتكدّر خاطره أن يتجاهل هو الآخر اتصالاته؟!

وفي المرة الرابعة أجاب اتصاله، ولكن بصمت غريب جعل نادر يقول: «أحمد!».

«هذا أنت نادر؟!». سأله بنبرةٍ تشوبها صدمة.

- بالتأكيد هو أنا، إنه رقم هاتفي نفسه أيها الأحمق!
- يا رجل إلحاحك بالاتصال أصابني بالارتباك والخوف معًا فظننتُك شخصًا آخر.. ذلك ليس من طباعك!

تبخر شعور الذنب بالكامل من نفس نادر، وغالب نفسه ألا يُفسد الهدف النبيل من اتصاله به، لكن أحمد أردف فجأة بنبرة قلقة:

- ولكن دعنا من هذا الآن.. أخبرني.. هل أنت بخير؟

وعاد شعور الذنب دفعة واحدة حتى كاد يُفجر قلبه، الوغد! لم يمنحه الفرصة حتى لاختلاق سبب لإثارة تلك المشاحنة ومن ثم تبريرها، ومع ذلك رد:

- بخير.

- حمدًا لله.. من الجيد أن فارس كان معك في كوخ والديـ...

واسترسل في حديثه فقد كانت هذه هي محادثتهما الأولى معًا بعد وفاة العجوزين وبعد إغلاقه للاتصال في وجه نادر بالأمس، حمل صوته ارتياحه وزوال قلقه، بينما ارتفع أحد حاجبي نادر لغرابة الأمر، إذًا لم يكن يتجنب مكالمته لغضبه منه، وإلا لم يكن ليبدو بمثل هذا اللين معه، ولتعمّدَ استفزازه أيضًا.

سمع صوت رياح قوية على جانبه، وهو يسأله:

- وفارس؟ أهو بخير؟

وفي هذه المرة حَرَصَ نادر على الإجابة بلهجة باردة غلب عليها الهدوء:

- هو أيضًا بخير.. لقد أوصلته إلى عائلته وارتحت من وجع الرأس، وأنا الآن أستمتع بحريتي الخاصة.

ساد صمت مُطبق على الجانبين، لم يرَ فيه نادر صورة أحمد المصدوم بشدة من تسارع الأحداث خلال أقل من يومين؛ فمكالمته الأخيرة

لفارس كانت بالأمس صباحًا، ثم حمل صوته مزيجًا من الحزن والأسى معًا:

- من الجيد عودته إلى أسرته.. ولكن..

وتنهد بقوة:

- سنفتقده.

وتجهم وجه نادر، فالوغد بدا وكأنه يواسيه، لقد استطاع أن يكتشف حزنه رغم حرصه على المحافظة على صوته.. هل حانت اللحظة التي يتشاركان فيها الحزن معًا؟

بالطبع لم يكن ليسمح نادر بذلك على الإطلاق، وهذا ما حدث حين شاب صوته نبرة ساخرة وهو يعود بظهره إلى الخلف ليسترخي، ولا بأس بقضاء ساعة الانتظار في العبث معه:

- هاتفك! كيف سمحت لمُسِنّين بخداعك وسرقته منك؟

سمع شهقة أحمد بفزع، فبلغ استمتاعه حده وهو يتسلى به:

- قالت الشابة إن لديها مُسِنّين غبيين ولم يُفلح غباؤهما إلا معك!

- كيف علمت؟ هل اتصلا بك من هاتفي؟.. لقد تأخرتُ لظرفٍ ما عن إلغاء الرقم واستخراج جديد.. ظننتهما سيبيعان الهاتف ولن يستعملاه.. انتظر لحظة: هل من الممكن أنهما استخدما رقمي في الاحتيال عليك لذا كررت اتصالك بي بعد الرسالة لتتيقن من أنه أنا؟

- كُنْتَ غبيًّا كفاية لتُسرق وتظنني الآن مثلك!

امتزجت نبرة أحمد بغضبه:

- جرب فقط أن يقترب منك مُسِن على عصاه وهو يحمل ورقة فيها رقم هاتف ابنه.. ما أدراني أنه سيركض بكل تلك السرعة؟!

- إلى متى ستبقى غبيًّا أمام نوايا الآخرين؟!.. من المُحرج أن جمعتنا سنوات لم تستفد منها شيئًا.

- عيّرني فقط وانظر كيف ستكون أنت التالي!

ظللت الحمرة وجه نادر وهو يذكر أنه قد خُدع هو الآخر منهما بصورة مزيفة جعلته يفقد اتزانه فهل كان يُعالج الخزي الذي شعر به بإسقاطه عليه؟!

على حين هدأ أحمد بعد أن تفاءل له بالشر في مستقبله، وسأله:

- ولكن كيف علمت بهذا؟! ثم من تعني بالشابة؟

تجعد جبين نادر بسخط، وهو يذكر المعاناة التي مرَ بها، ثم راح يقصّ عليه ما حدث بإيجاز تخلله كلمات غاضبة جعلت وجه أحمد يشحب أكثر وأكثر، فكيف له أن يعلم بمثل هذا السبب السخيف لاختطاف هاتفه؟

كان الرجلان يَشُكّان إذًا في نزاهة نادر، وبفعلهما هذا أرادا الضغط على نقطة ضعفه التي قررا من نفسيهما أنها صديق طفولته، ثم زيّفا اختطافهما له كي يستبدلا به فارس الذي ظنا سلفًا أن نادر اختطفه، وبالتأكيد أسقط نادر في حديثه حقيقة اختطافه لأخت فارس، وطوال حديثه لم يقاطعه أحمد وفي عقله لم تكبر سوى مشكلة واحدة صرّح بها بجزع:

- كل هذا حدث بينك وبين أخت فارس.. يا للخسارة!.. كُنتُ أُعوِّلُ عليك أن تكسب قلبها عندما تلتقي بها فتقبل بك زوجًا

لها.. لا عليك، هناك شابات كُثر غيرها سُيعجبن بك، توقف فقط عن كونك وقحًا.. قد تكون ابنة عمة سوسن مناس..

وقطع حديثه للحزن الذي هاجم قلبه مع نطقه للاسم الأخير، ولكن نادر صاح بنبرة سيطر عليها امتعاضه:

- هل ظننتني أهدف للزواج من أخته؟

- ما معنى هذا؟ الجميع يقولون إنك تريد الزواج منها.

- الجميع! من هم الجميع؟

سأله نادر بدهشة، ثم سمع صوت سقوط الأمطار على جانب أحمد تبعها صوت وقع خطواته الراكضة على الطريق الزلق، قبل أن يحتمي تحت مظلة أحد الأزقة، وزاد من دهشة نادر أن انتبه فجأة لطول محادثتهما، لم يحدث هذا من قبل!

كانت الساعة تقترب من الخامسة عصرًا، هو متفرغ ولا عمل له سوى انتظار الرجلين ليأخذا مايا وفارس، لكن ما بالُ أحمد يتجول في هذه الساعة وفترة عمله المسائية في المطعم على وشك أن تبدأ؟!

عكس وجه نادر شيئًا من الجدية، فيما ارتفع صوت أحمد المُشفق عليه:

- لم تكن تهتم بمن قال وما قال! أتشعر بالملل بعد فراق فارس؟

سؤاله أفلح في جعل جسد نادر ينتفض بأكمله وكأنه كُشف، فيما عطس أحمد عدة عطسات متتابعة، وصوت الرعد يضرب من خلفه، وهو يستطرد بلين مواسيًا له:

- لا عليك.. لقد تدبرت لك بالأمس وظيفة بالقرب من موقع المستشفى الذي أعمل فيه، هو ليس بشهير كالمستشفى السابق،

ولكن يمكنك أخذ خبرةٍ منه.. كما أن ريم قد تكفَّلت بأمر ممتلكاتك في القرية.. سيكـ..

قاطعه بذهول: «أكانت فكرتك أنت؟!».

- لا.. حسنًا.. أنا.. فقط.. أعلم أنك لن تُطيق البقاء في القرية، ولا سبب قد يربطك بها بعد الآن فاتفقنا معًا.. نادر.. ريم ليست بذاك السوء الذي قد تسعى معه لتدمر تجارةً لك.. ولن تضطر أيضًا للقائها.. ستُدير أموالك وترسلها إليك.. قد تكون آذتك سابقًا، وأفقدتك الثقة بها، ولكنني متيقن أنها نادمة الآن على ذلك وتسعى بإخلاص لمد يد العون لك.. أنسى طُرقها السابقة فأكثر ما تُفلح فيه هو التجارة لذا ثق بأنها لن تتنازل لك عن قرشٍ واحد حين يتعلق الأمر بالمال وستحرص على أن تربحا معًا وتدوم تجارتـ..

ظل يتحدث ويتحدث فيما ارتخت ملامح نادر؛ لِمَ هما ما زالا يعتنيان به رغم صَدِّهِ عنهما كل هذا الصَّد؟!

يتحدثان عنه، يتناقشان حوله، عنه فقط دون أن يجمع الاثنين شيء مشترك.. هما حتى قد فسخا خطوبتهما وابتعدا بعضهما عن بعض مئات الأميال، ولكن لا يحمل أحدهما للآخر ضغينة حين يتعلق الأمر به!

«هل بالمصادفة تلبَّست جسديكما روح العجوزين؟!».

قال نادر مقاطعًا ثرثرة أحمد القلقةِ عليه فاهتز أحد حاجبيه حنقًا وصاح:

- لو تلبَّستنا لم يكن ليسلم ظهرك من عصاها.

- ولكنكما تبدوان مستميتين بشدة للحصول على شكرٍ مني.

- لا عليك.. لقد أصاب أرواحنا اليأس حتى ما عدنا نرجوه منك.

وضرب رعد آخر جعله يجفل ويتقلص في موقعه أكثر، وهو يستدرك باستبشار:

- ولكن إن كان هناكَ أملٌ قريب أنك قد تفعل ذلك.. فأرجوك هيئني فقلبي قد لا يحتمل الصدمة.

- حقًّا؟! إن كانت ستُوقفه فهل تظنني سأتأخر ما دمتم لن تدعوني أعيش بسلام؟

- سلام! هل نسيت؟ السلام الذي أعيشه الآن لم يقاطعه أحد غيرك.

قال بنبرة ساخرة استفزت نادر بالكامل؛ وبحق هو من اتصل به وليس العكس.. الفراغ الذي وضعته فيه مايا قد جعله يفقد صوابه ليطيل المكالمة مع هذا الوغد، وكان بصدد إغلاق الخط في وجهه، وهو يهدده:

- توقف عن نشر شائعات حول زواجي.. وإن كان فارس من أوحى لك بذلك فلا تُعِرهُ اهتمامًا فهو يتـ.. وهـ..

وخفت صوته، وعقله يتساءل: لماذا هو مهتم أصلًا لو نُشرت شائعات عنه؟! كان من قبل يقلق ويتشاجر مع أحمد خشية أن تصل الشائعات إلى والديه، ولكن والديه ماتا!

لا معنى إذًا لمتابعة اتصاله!

لكن أحمد قال بتذمر:

- وكأن إغلاق فمي سيُغلق أفواه الباقين.. الجميع يتحدثون عن هذا الزواج.. كُنتُ أظن ان فارس يتوهم الأمر حينما أخبرني بذلك لولا أن والدتك في يوم وفاتها قد تجولت على منازل القرية تتفاخر أمامهم بأنك ستتزوج محامية من العاصمة، فاتصلت بي والدتي لتسألني عن حقيقة الأمر وعندها بدأتُ بالشك، ثم تيقنتُ تمامًا حين أخبرتني ريم أنك قلت لها بنفسك أمام فارس إنه أخ لزوجتك المستقبلية..

سقطت السيجارة على أرضية موقف السيارات، وأنزل ذراعه عن حافة النافذة، وتلك الذكريات القريبة تتساقط كشلالٍ هادر وسط وعيه المُغيب تمامًا مع غرابة والديه في آخر يومٍ لهما...

دفاع العجوزين المبالغ فيه عن فارس، تقديم الطعام له بسخاء مع خمسة من مغلفات البسكويت.. حديث والده الغريب معه في اللحظة التي تسبق وفاته عن أنه استقبل أجمل خبر وقد اطمأن قلبه عليه أخيرًا..

ثم عينا جواهر اللتان ضجتا فرحة وبهجة، وهي تسحب وشاحها لتزور أهل القرية..

إذًا كل تلك الحفاوة التي حَظِيَ بها فارس منهما وأثارت غيرته كانا يفعلانها من أجله هو وليس العكس..

المرحَ والنشوة اللذان أظهراهما في يومهما الأخير كان مصدرهما هي سعادتهما المستمدة من سعادته التي ظنا أنه سيحصل عليها بزواجه من أخت فارس..

إذًا هذه الكذبة هي من أثارت عاطفتها...

وسببها فارس!

«لم يغب عني إلا حين كُنْتُ أطهو الغداء!».

تمتم ذاهلًا؛ فكيف استطاع خداعهما في تلك المدة القصيرة؟

حقيقة، هو لم يخدعهما لأنه هو المخدوع من قبلهما.. ولكن هل هذا الخبر التافه هو السبب في غرابة العجوزين ذلك اليوم؟!

حرك عسليتيه إلى الأعلى، حيث يقطن من استطاع رسم الابتسامة على شفاه والديه، وعلى شفاهه أيضًا...

كيف له خلال أيام قلائل فقط، جمعته بهما، أن يجعلهما يرحلان مطمئني القلب على أن هناك حياة جديدة تنتظر ابنهما، وأن هناك من سيعتني به؟

قد أوجد لأخته الشرسة فائدة انتفعت بها أسرته حتى إن كان الخبرُ مزيفًا.. وغزا قلبه شعور دافئ نحوه، وشفتاه تتسعان بابتسامة حانية و...

- لماذا أنت صامت؟ إن كنت تشعر بالخجل لانتشار الشائعة ورفضها لك.. فلا تقلق أنا معك.. لن أدعك حتى أزوجك بغيرها فلا تكتئب.

مُسح تأثره بالكامل وزفر بسخط:

- توقف عن تكهناتك الغبية فليس لأن الزواج لن يتم فهذا يعني أنها هي من رفضتني، بل العكس.. تلك البلهاء لا تستحقني أصلًا.

- تبًّا نادر.. أهيَ المرأةُ نفسها التي تركتها باكية وسط الأمطار؟!

- يا غبي لو كانت هِيَ.. فهل سيبقي أخوها معي كُلَّ هذه المدة دون أن أُسلِّمَهُ لها؟

- إذًا امرأةٌ أخرى! هل تتسلى بكسر قلوب الشابات؟!

شعر بضغط يكاد يفجر رأسه من غباء رفيق طفولته، وعندها نَحَّى كِبرياءَهُ جانبًا وأثار كل ذرة منطقية من عقله ليسأله بهدوء:

- أحمد.

- نعم.

- هل أنت بخير؟

ولم يسمع سوى صوت الرياح والأمطار على الجانب الآخر، صَمتُهُ أَكَّدَ له أنه ليس بخير، بدا له في تشبثه بمكالمته كالغريق الذي يتشبث بقشة نجاة رغم إدراكه أنها لن تُنجيه، ومع ذلك فقد وجد فيها مواساة له عن مُصابه، ولكن عن ماذا بالضبط؟!

عن فقده لهاتفه! أم هل رفضته خطيبته سوسن فقد بدا حزينًا حين ذكر اسمها؟! أو شيء أكبر يصعب عليه البوح به!

«نادر اسمع.. أنا مضطر لإنهاء المكالمة لدي عملٌ ما».

كان هو الآخر مُدركًا أن نادر قد فارق فارس، ولم يمر على خسارته لوالديه سوى أيام، لا خير في بقائه بمفرده لذا قاوم ما يعانيه من أجله..

لكنّه على الرغم من محاولته أن يصْرِفَه بنبرة هادئة ثابتة إلا أنه لم يستطع السيطرة على صوته فاهتز رغمًا عنه مُفصحًا لنادر عن أزمة لا

قدرة له عليها، وعندها ردَّ نادر بسرعة:

- حسنًا.. حسنًا.. ولكن لقد اتصلت بك لتوضح لي: ما الذي تعنيه بالسميّة الدوائية؟

لم يكن حتى سؤالًا يحتاج إلى قليل من الذكاء لفهمه، ورغم ذلك شرع أحمد في الشرح له بتفصيل لمس فيه حرصه الشديد على سلامة فارس وعدم انتباهه لسخافة السؤال، لكن نادر لم يكن يستمع حتى..

وانقطع الاتصال!

كان انقطاعه لخمس ثوانٍ فقط جعلت أحمد يَخفض هاتفه عن أذنه لينظر لشاشته، كان يجلس على إحدى درجات سلم منزل قديم في زقاق هي المرةُ الأولى التي تطؤه فيها قدماه، يغطي جسده معطف أسود بلغ طوله منتصف ساقيه، فيما اختفى شعره تحت قبعة كبيرة، لكنها لم تُخفِ نزول خيط رقيق من الدم على جبينه مسحه بسرعة وعيناه تسترقان ما بين لحظةٍ وأخرى نظرة إلى آخر الزقاق ممتلئة بخوفه...

مكالمته لنادر قد قللت كثيرًا من وساوسه بمفرده، وفجأة عاد الاتصال ففتحه بسرعة لتصطدم عيناه بصورة نادر على شاشة هاتفه..

نادر أجرى مكالمة فيديو!

تلك سابقة يجب أن تُسجل في ملف سابع المستحيلات، ولم يكن أحمد ليتخيلها حتى..

ظل أحمد مبهوتًا لثوانٍ وتانك العسليتان تتفحصان كل إنش من وجهه، الكدمة على وجنته اليمنى وخيط الدم المتفرع على عمود أنفه وصولًا لشفتيه وعينيه الخائفتين، ولثانية توقف الوقت بأحمد وهو يُبصر

في ذلك الوجه شيئًا اعتاده منه قبل سجنه، بل أكبر، عيناه الحادتان قد اتسعتا بفزع عليه، ثم لم تلبثا أن ارتختا رحمةً به شابها قلق سرعان ما استحال لغضب عنيف أطلقه في نبرة مُخيفة:

- بُؤسًا لها.. الماكرة!.. سأقتلها هِيَ ورجالها العجائز!

- ليس هِيَ.

صرخ بها أحمد قبل أن يُغلق نادر الخط في وجهه فصرخ بدوره بثورة:

- إياك أن تدافع عنها.. هما الوحيدان من تجرأ واقترب...

- كلا.. كلا.. إنه خطئي أنا.

وشاب صوته الكثير من الندم الممزوج بحرجه، وإن كان تخوفه الأكبر من ردة فعل نادر إذا ما علم أنه قد وشى به كما وشت به ريم.. كان قلبه يئن تحت وطأة الحادثة القديمة فلم يجرؤ على أن يُخبره بالغباء الذي أقدم عليه وأنه هو الثغرة في خطته فيُحدث بذلك شرخًا جديدًا في علاقتهما التي بالكاد التأمت..

- ما الذي تعنيه بأنه خطؤك أنت؟

ازداد توتر أحمد واعتراه التردد، ولكن نادراستحثه بغتة بنبرة أقل حدة:

- لا بأس.. تحدث.

وعندها امتلك الشجاعة ليعترف:

- إنهم الشرطة لقد اهتدوا إلى أنني من ساعدت في تهريب الفتى.

- الشرطة! مستحيل!.. لقد كانت الخطة مُحكمة.. أنت حتى لم تقد

سيارة الإسعاف ولم تلتقَ بفارس إلا بعيدًا عن المستشفى.. لن يجدوا دليلًا ضدك.

فقال بتوجس:

- حسنًا.. اسمع ولا تغضب، إن ما قادهم إليّ هو الطبيب الذي سألته عن كيفية إجراء فحص عن إصابة الكلى.. كُنتُ قلقًا جدًّا على فارس لذا فقدت حذري وسألته إن كان تضرر الكلى سيُعيق علاج شخص مصاب بمرض نفسي، وأعطيته هاتفي ولم أنتبه أن اسم المرض كان مدونًا فيه وقد انتبه لذلك فأبلغ عني للشرطة.

كاد الهاتف يسقط من يد نادر من هول صدمته لفعله الغبي فبالتأكيد سيعلم أنه يقصد فارس فلا أحد في العالم مريض بمرضه، وبنبرة عصبية انفجر:

- جميع رجال الشرطة يبحثون عنه في المستشفى الذي تعمل فيه فكيف تفضح نفسك بهذا الغباء وتسأل طبيبًا من مكان عملك؟

- لقد أقسم أنه سيحتفظ بأمر الاستشارة سرًّا.

- لهذا أخبرتك أن السرَّ لا قيمة له حين يغادر صدر صاحبه.

صاح بها والهمّ يتضاعف في وجهه؛ فهل سيكون أحمد قادرًا على التماسك والتخفي كرفاقه؟! ولم يُبعد عينيه عنه وهو يتأمل جرح رأسه المغطى بالشاش والمبلل بفعل المطر، بقاؤه في هذا الجو العاصف لا يصح.

- نادر، لكن من كان يلاحقني هو نائب رئيس الشرطة صفوان، بدا لي الأمر غريبًا لأنه لم يأخذني إلى مركز الشرطة ولم يقبض علي، بل تعمّد استجوابي في..

وقصّ عليه ما حدث بالكامل، إضافة إلى كيفية إنقاذ خطيبته له ووالدها، ومن ثم مغادرته للشقة بسرعة حرصًا على سلامتهما وهربًا من عودة صفوان الذي خرج بهدف تفقد موقع جثة الفتى وقد هدده بأنه سيعود إليه ليستجوبه ويعذبه مجددًا إن كان كاذبًا..

واحمرت عيناه واهتزت شفتاه رغمًا عنه، وهو يذكر إجْفَال سوسن ووالدها منه وتعبير وجهيهما المرتاب في نزاهته، فيما بدا نادر مبهوتًا لسوء تصرفه، الساذج، لم يُنكر، بل اعترف لنائب رئيس الشرطة أنه على علاقة بهرب الفتى، لقد ورط نفسه وورط الجميع معه، ومع ذلك لم ينطق إلا بـ:

- منذ الأمس! أكنت في قيده منذ الأمس؟!

ومن الغريب كيف أن عبارته قد جعلت عينيْ أحمد تحمران تأثرًا؛ أهذا ما انتبه له من حديثه كله؟ قاتلت ابتسامة لتعلو شفتيه الجافتين، ولكن سرعان ما محتها عبارة نادر التالية:

- على أي حال.. فلتحمد الله أنك لم تحصل إلا على هذه الضربات منه ولم يقتلك.

تبدد تأثره بعد ما بثت العبارة الرعب في قلبه فسأل بصدمة:

- هل سيفعل؟

- نعم، رغم أنه يعمل في سلك الشرطة إلا أنه سيفعل ذلك وبقيت مستسلمًا له وهو يستجوبك ويضربك ظنًّا منك أن مقاومة أحد رجال الشرطة قد ترتد عليك بعاقبة أسوأ..

- أنا لم أُعارض من قبل رجل شرط..

- لا تَعُد إلى عملك أبدًا ولا إلى المطعم ولا حتى شقتك حتى تصل مايا إلى العاصمة وتفضح حقيقة عمها..

- وأين أبقى إذًا؟

- مع رفاقي.

- أنت تمزح.. مع ذاك المُسعف المجنون!

- اخرس!.. لو تجرأت وتحركت بعيدًا عن هذا الموقع فأنا من سيقتلك..

وأمام عينيه المتسعتين أخرج هاتفًا آخر، تحدث فيه، ثم سأل أحمد عن موقعه، ومنحه للشخص الآخر على الهاتف، ثم قال بصرامة:

- سيأتي إليك شخص ضخم الجثة، طويل القامة، قليل الكلام اسمه تميم.. اصعد إلى شاحنته واختبئ داخلها جيدًا حتى لا تلتقطك كاميرات الطريق.. وتخلص من هاتفك هذا الآن.

ولكن أحمد ظل صامتًا، أهكذا فقط؟

يُدبر له موقعًا آمنًا! ويسعى لحمايته من المصيبة التي أوقع نفسه فيها!

ألن يوبخه؟!

وعلى الرغم من حاله البائس المثير للشفقة فقد انتشى قلبه طَرَبًا، وهو يتذكر وجهه حين رآه مصابًا، وثورته هامًّا بإيذاء مايا ورجالها من أجله، فتحركت شفتاه بشبح ابتسامة، وبرقت عيناه بحبور لم يُفلح في مداراته، وهو يقول:

- حين ظننت أن رجلي تلك المرأة قد اختطفاني كيف تصـ...

وأُغلق نادر الخط في وجهه، فتبخر سروره، فيما تزلزت سيارة نادر بصوته:

- الأحمق.. ليت المُسِنّين هما من نجحا باختطافه!

الآن علم السبب في عدم مقدرتهما على اختطافه.. لأنه نجا من السيئ ليقع في الأسوأ!

- ليتني لم أُشركه في الخطة.. كنت أعلم أنه ليس ببراعة رفاقي.. الغبي، هل ظل يتجول في الأزقة وحيدًا وخائفًا ومبللًا جراحه دون أي خطة؟!

وغلت أعماقه غضبًا وعسليتاه تتجهان إلى الأعلى حيث مايا، فكلما انقضت ساعة دون أن تُعجل بالرحيل إلى العاصمة لتفضح حقيقة عمها، ازداد الخطر عليه وعلى رفاقه، ولن يعلم ماذا قد يخترع نائب رئيس الشرطة ضد أحمد ليحرك خلفه كل رجال الشرطة ما دامت سمعته ومستقبله المهني يعتمدان على إيجاده لفارس.

نازعته نفسه الصعود إلى الأعلى والتحقيق معها حول السبب في تأخر الرجلين، لكن هاتفه رنَّ فجأة بمكالمة فيديو من رقم غريب.

ومجددًا تحركت سبابته لا شعوريًّا للرد، وأصاب في تخمينه هذه المرة فقد كان فارس، ولكن من رقم أخته مايا.

توسَّط وجهه المبتسم شاشة الهاتف، وأطلق همسات سعيدة بالكاد كبحها عن الارتفاع، وعيناه الزرقاوان تمتلئان بصورة وجه نادر الذي مُسح منه كل تعبير سابق لتحتله فقط ابتسامة واسعة.

- لقد أجبتَ على اتصالي.. ظننتك لن تفعل كما اعتدت تجاهل مكالمات أحمد!

قال ووجهه يكاد يلتصق في شاشة الهاتف، فقال نادر:

- متى اتصلت بي ولم أرد عليك؟

أطلق فارس ضحكة خافتة لهذه الحقيقة التي صدمته فهو لم يحتج للاتصال على هاتف نادر من قبل لأنهما لم يفترقا مُنذُ لقائهما الأول.. وانتبه فجأة ليسأله بدهشة:

- ما زلتَ في السيارة.. لم تصل إلى قرية السنابل بعد؟

- لقد اضطررتُ للاعتناء بأمرٍ ما قبل أن أتوجه إليها.

أجاب بهدوء مُفتعل وهو يتمنى ألا يلاحظ فارس أنه لا يزال في مرآب الفندق، وصمت الاثنان وهما ينظران بعضهما إلى بعض.. المكالمة هكذا، وجهًا لوجه، وبعد كل تلك الأيام التي جمعتهما معًا لم تُعجب الاثنين، وبان ذلك في عيني فارس الذي تزلزل تماسكه أخيرًا فاستجداه بحزنٍ واضح:

- عُدْ أَرجُوك.

أطلق زفرة خافتة فبصعوبة قد هَدَّأهُ سابقًا، لكن فارس لم يلبث أن استدرك بقلق:

- نادر.. والدي شخص طيّب لو أخبرته أنك بدون وظيفة فلن يهتم.. وإن طلبتُ منه أن تكون طبيبي الخاص فسيوافق لذا ما دمت لم تذهب بعد إلى قرية السنابل فلا تذهب.

كعادته، ينتقل من موضوع إلى آخر مُريحًا نادر من ثقل إجابته.. ولولا تأخر هذه المستهترة بالرحيل لكان قد أنجز بالفعل مهمته في قرية السنابل ورحل منها سريعًا فهو أيضًا ليس واثقًا تمامًا من أنه قد تجاوز فقده لوالديه وأن رجوعه إليها لن يعود عليه بالضرر النفسي.

- لِمَاذا لم تغادرا الفندق بعد؟

سأله نادر مغيرًا الموضوع فأجابه فارس بسرعة:

- مايا تقول إن صديقيْ والدها لن يأتيا إلا في الغد.

اتسعت عينا نادر بصدمة، واستقام في جلسته، فيما التصق وجه فارس أكثر بالهاتف حتى لم يعد نادر يرى سوى عينيه وحاجبيه، وهو يقول ببهجة:

- نسيت! لقد اتصلتُ بك لأخبرك بشيء مهم.. لقد قررت!

لَم يَدْرِ لِماذا ذَكَّرَهُ قوله هذا بقراره الغبي الذي اتخذه في المستشفى بأنه سيزوجه بمايا، ولم يكن عقله مستعدًّا لاستقبال قرار مُستفز آخر فقال بانفعال:

- قَرَارُك هذا أخبرني به لاحقًا.. والآن.. نادِ أختك.

- هل افتقدتها؟

صاح بحماس أثار غيظ نادر، وضغط نادر على نفسه ليُجيبه بنعم إلا أنها لم تخرج أبدًا فصاح بانفعال:

- نادها وحسب.

قفزت ابتسامة مُرتبكة إلى شفتي فارس، وهو يرى غضبه، ولو كان

بالقرب منه لتلقى رأسه بالتأكيد ضربته المعتادة، فضحك وهو يُخمن أن نادر قد يكون خجلًا من الاعتراف أمامه بشوقه إليها.. غادر سريره ليُعطي الهاتف إلى مايا و.. امتقع وجهه فجأة، ثم واجه شاشة الهاتف ليقول بتوتر:

- لا أستطيع الخروج وإعطاءه لها.. هي الآن برفقة أحد أفراد أسرتها وقد طلبت مني البقاء في الحجرة.. فعائلتها..

وأغلق نادر الخط في وجهه..

أغلقه ليفتح باب السيارة ثم هرع راكضًا نحو الشقة...

قد جعلته يثق بها، ولكن ما سبب وجود أحد أفراد أسرتها معها بمجرد ابتعاده عن فارس؟!

هل من الممكن أنها نجحت في خداعه؟!

استشاط غضبًا وخامر عقله الكثير والكثير من الظنون..

ووصل إلى الشقة، ثم فتح بابها، ليُصدم بذاك المشهد الغريب: مايا تقف بكل شموخ أمام كاظم الذي أراد قتلها دون ذرة رحمةٍ واحدة بعد ما ألقى بعدة كلمات أثبتت له براءتها، وعندها أطلق (نادر) مارد غضبه في وجه كاظم...

****

-٣٢-

(قبل ٢٣ عامًا).

مضت ستة أشهر على حادثة الحريق قضتها أم سمير في المستشفى، وعند إفاقتها ما قبل الأخيرة كان سمير إلى جوار سريرها منكِّس الرأس حزين القلب. تحركت شفتاها بابتسامة، ونادته فالتفت نحوها، وعندما رأت ما حلَّ بوجهه، انهارت الدموع من عينيها، وتحرك قلبها أخيرًا من أجله:

- حمدًا لله على سلامتك يا بُني..

لم ينطق، لم يحمد الله على سلامتها هي الأخرى، وعيناه الحاقدتان تكادان تقتلانها رغم احتضارها الواضح، ثم عاتبته بحزن:

- لماذا لم تزرني أنت ووالدك؟ في كل مرة أُفيق لا أجد أحدًا منكما إلى جواري.

سقاها جوابًا كالعلقم في مرارته امتلأ بحقده عليها:

- أزورك؟ أنتِ! انظري إلى وجهي ماذا فعلتِ به.. كل ما يهمك هو أبي.. أبي.. أبي.. المال.. الطلاق.. فنسيتِ الزيت على النار وأنتِ تعلمين أن عبوة الغاز قديمة وقطرة واحدة من الزيت المتناثر كانت كفيلة بإحراق منزلنا، ومدخراتي، ومشترياتي الجديدة، ووجهي...

صرخ بالأخيرة ثم اقترب برأسه منها لتنظر:

- هل أنتِ راضية الآن بعد أن أفسدتِ حياتي؟

لقد أُصيبت في أعز ما تملك.. ولدها!

كانت تلهث خلف المفقود، وغاب عنها الموجود، ففقدت الموجود ولم تظفر بالمفقود...

من سيكون مواسيًا له إذا ما ماتت؟ هل تخبره عن رسائل عمته ليلى؟

قد علمت أنها لن تنجو لذا قررت أن تسديه نصيحتها الأخيرة قبل رحيلها، فتحركت شفتاها الذائبتان:

- بُني.. لا يُستحسن أن يسمع الناس ما قلته لي الآن.. سيبغضونك.. كن عاقلًا لا تجمع مع قبح الوجه قبح الفعل والقول.. وإلا فسيكون بغضهم لك بُغضين!

أيُّ نصيحة هذه التي قدمتها له؟

كل قلبٍ مهما اجتهد لن ينضح إلا بما امتلأ به، قد أغضبته أكثر مما هدأته فصرخ:

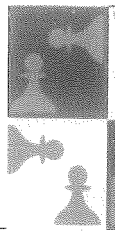
- قبح الوجه! تُعيرينني بما كنتِ أنتِ السبب به؟! ليتكِ تموتين.

ثم غادر ولم يزرها أخرى، وبعد نصف شهر ماتت تلك المرأة، وأُقيم العزاء، فأيقن سمير أنها قد نجت بنفسها من الدنيا، لكنها تركته خلفها يُعاني البؤس، أما والده فقد تنفس الصعداء ولم يعد هناك سبب يدفعه لتملق ابنه وكسب رضاه..

ومع فقدان سمير لكل شيء، المال والمظهر، أدرك حقيقة أن القبح

يجب أن لا يكون قبحين، فأغرق الناس من حوله بلطفه، ومساعدته، وفكاهته، التي جعلت حياته أكثر سهولة مع الفتيان فاستمتعوا معه، ولكنها لم تنجح مهما بذل واجتهد في أن تتقبله أي فتاة.

****



ارحل!

-٣٣-

كان نادر لا يزال يقف خلف فارس المستمر في الشجار مع أخته عندما تحركت شفتاه بابتسامة خفيفة، لقد بلغ فارس من نفسه مكانةً أفقدته رجاحة عقله، وجعلته من خوفه وقلقه عليه يُسرع إلى الشقة متناسيًا جميع الدلائل التي أثبتت بها مايا إخلاصها وتفانيها هي الأخرى من أجل أخيها.

«ارحل!».

مُسحت ابتسامته وأفاق من شروده على كلمة مايا التي كررتها بتحريك شفتيها دون صوت:

- ارحل! قبل أن يستدير ويكتشف عودتك.

تَمَنَّى لو يفهمها! لو يفتح جمجمتها ويتفقد الموجود فيها!

الغبية؛ الرجلان لن يأتيا إلا في الغد، ولديها سَفَّاح في الشقةِ نفسها معها، وقوتها لا تُضاهي قوته...

فقط ما الذي تهدف إليه من طرده؟

ثم لوحت له بكفها من خلف فارس، وكأنما تهشُّ ذُبابة لتطير عائدةً من حيث جاءت، بينما تابع فارس وَعدَهُ لها بأنها لن تندم على قرارها بإشراكهَ في مواجهة عائلتها..

حُب فارس الآن موجَّه لها..

لها وحدها..

«جئتُ لأسمع ما هو قرارك وجهًا لوجه».

احتبست الكلمات في حنجرة فارس وهو يسمع صوت نادر من خلفه، فيما انتفخت أوداج مايا وتمنت لو أنها صعقته بكهربائها ليفقد وعيه مع كاظم..

ماذا يظن نفسه بالدخول بينهما والرحيل متى شاء.. هل هما فندق مثلًا؟!

رأت الاحمرار الذي غزا عيني أخيها وهو يستدير نحوه.. كان مُكذِّبًا لِما سمعه، لولا أملٌ طفيف عَلِقَ بِقلبه..

وسقطت عينا فارس على العسليتين الحادتين، والابتسامة الواسعة، والوقفة الواثقة..

هو نادر بعينه، بجسده الطويل وملابسه الراقية المعتادة، وعندئذ أطلق صرخة عالية وهو يرتمي بثقله كُلِّه عليه معانقًا له...

وكاد الاثنان يقعان لولا تشبث نادر بحافة الباب، وعيناه تتقدان نقمةً ليس على فارس، بل على نفسه.. فكيف نسي أن هذا ما سيحدث تاليًا؟

«لقد عُدت.. لا أُصدق!.. مايا لقد عاد».

صاح بفرح وتراجع برأسه للخلف ليتيقن إن كان هو، ثم عاد لمعانقته مجددًا، فيما ازداد وجه نادر احتقانًا، وثرثرة فارس السعيدة تصمُّ أذنيه.

خامره الندم لأنه لم يستجب لمايا ويرحل بهدوء، ورصدت عيناه فجأة تلك الشرسة تلتقط شوكة ذهبية من فوق طاولة قريبة، أخذت تُقَلِّبها وعيناها مسمَّرتان عليه، كان شعرها ملمومًا بالملعقة الذهبية ولا حاجة لها بالشوكة، ولوهلة شَعَرَ وكأنه إيحاء منها بأنها لن تتوانى عن طعنه بها لو كسر قلب أخيها مجددًا، أو استخدمها كذريعة مُشينة للهرب والرحيل لاحقًا.

ولم يكن بحاجة لنصيحتها تلك، إن سُميت (نصيحة!)، فذلك اللمعان العالق بجفني فارس نبأه عن غرق قلبه في فرحةٍ لم يتسع لها صدره، ولم يكن ليستطيع أن يكون هو المتسبب في وأدها..

«لِماذا عُدت؟!».

السؤال ذاته يتكرر، ولكن هذه المرة بنبرة مبتهجة، وبصوت فارس، فدحرج كرتين كالجحيم نحو مايا فلم يغب إلا لأربع ساعات.. فكيف سَرَّبَتْ إليه عادتها بإلقاء الأسئلة بهذه السرعة؟!

«ألستَ سعيدًا بعودتي؟» سأله نادر وهو يعيد ترتيب هيئته.

- بلى.

- هذا هو المهم.

- أنت محق.

بدا وكأنه قد أعاد ضبطه إلى حالته الأصلية، فألقى فارس نظرةً تفيضُ حماسًا على مايا، متَرَصِّدًا للسرور الذي سيطغى على مُحياها بعودة خطيبها، و... وجه عابس، كفان مشتدتان على خصرها، وعينان ساخطتان تعلقتا

بنادر، فاتسعت عيناه:

- ألهذا رحلوا؟ لأن نادر قد جاء!

استغرب الاثنان جملته، فيما طغى التوتر عليه فحرك كفيه بينهما بغية الصلح:

- مايا، لا تغضبي منه لتأخره.. صحيح أن والدي قد قال إن قدومهم سيتوقف حين يكون لكِ زوج، ولكن نادر ما زال خطيبك وهم لم يعلموا بعد.

زال عبوس مايا وملأت الصدمة عينيها بعد أن علمت الهدف وراء سعيه الدؤوب للربط بينها وبين هذا الرجل الغريب.. ذلك ماضٍ قد انتهى، لكنه لم يعلم وبقي مُتمسكًا بما وعدها به وهو في السادسة من عمره...

أيَّ قلبٍ عطوف ومُحب يملكه لينسى ألمه، وما مرَّ به، وينشغل بالتفكير بها؟

بينما تَنقَّل نادر بنظره بين الاثنين، وقد خامر عقله شك بأن فارس كان يستغله في قراره بتزويجه بأخته..

صمتهما جرأ فارس ليضحك:

- لهذا كان نادر مُحرجًا، لأنه عاد من أجلك، هل قال لهم إنه خطيبـ...

قاطعته صرختان غاضبتان في آن واحد بـ: «اصمت!». فأطبق شفتيه، وتراجع إلى الخلف، بينما تبادل الاثنان نظرات مُحتدة..

ضاقت عينا نادر أكثر وأكثر فـ (الأخ كشقيقته قد أدخله في خطته

دون أن يعلم).. فيما ارتفع أحد حاجبي مايا (لِمَ الأمور المُحرجة تُصِرُّ دائمًا على الحدوث أمامه؟!).

وفجأة جذب انتباههم جميعًا صوت ارتطام شيءٍ ما، فالتفت الثلاثة معًا نحو الحجرة المُحتجز فيها كاظم..

وتحرك فارس أولًا يغلب عليه فضوله ومفاجأته، بينما تفجر توتر ووجل في أعين الآخرين، وسبقت مايا نادر فأمسكت بذراع فارس قائلة:

- لنذهب لشراء الغداء.

- ماذا؟ ولكنني سمعت صوتًا من حجرة نادر.. ألم تسمعيه؟

- سيفوتك اختيار الأصناف إن ذهبتُ وحدي.

وجذبته نحوها، ولكن عينيه ظلتا معلقتين بذاك الباب المغلق فارتفع صوت نادر فجأة:

- لنذهب معًا.

نظرت مايا نحو نادر بقلق، فغمز لها أن تتبع خطته، ثم اقترب من فارس ليتفقد قميصه الأسود المتسخ ببقع المثلجات البيضاء والصفراء، وقال:

- ولكن لن تخرج بهذه الملابـ...

وابتلع بقية عبارته ليتجهم وجهه من منظر صدره المكشوف، وطيات كُميه المتعدية مرفقيه، فرفع عسليتيه المُتَّقِدتين شرًّا نحو زرقاويه اللتين عكستا رعبًا حقيقيًّا جعله يُسرع ليسحب خيطي القميص بعنفٍ كاد

يخنقه ثم حَلَّ طيات كميه صائحًا:

- سأستبدلها.. انتظرني لن أتأخر.

رمى نادر نظره الساخط نحو مايا، فوجدها تميل بجسدها نحو اليمين؛ لتحجب عن عينيه الطاولة التي ارتص فوقها قراطيس المثلجات، وبالفعل لم يدعها في حالها:

- واستجديتني أن أُعلمك الاعتناء به!.. أي شقاءٍ كان سيحل بي وأنتِ لم تنجحي بتنفيذ نصيحة واحدة حتى؟

بدا الحرج في عينيها:

- كان حزينًا لرحيلك.. لذا فكرت.. وفكرت.. ولم أجد ما...

وصدر الصوت من جديد من تلك الحجرة فتجاهل نادر الانخراط في توبيخها، وعقله يُشغل بالأهم:

- لا أريد ان أعلم ما يدور داخل رأسك.. والآن لنُخرس هذا الوغد.

واتجه نحو الحجرة فشهقت بقوة.. ماذا سيفعل به؟.. ثم أسرعت إليها قبله، وأمسكت بمقبض الباب قائلة:

- أنا سافعل ذلك.

أخرجت صاعقها الكهربائي، فناوب نادر بصره بينها وبين الصاعق، ثم قال بصرامة:

- قلتُ أنا من سيفعل ذلك.

- وكأنني نسيتُ طيشك قبل قليل.. ماذا لو أخطأت فقتلته وأنت تريد إفقاده الوعي؟

- أإلى هذا الحد يُرعبك دخول السجن؟

- جرب أن يُسجن أحد أفراد أسرتك وعندها ستكون حذرًا أشد الحذر قبل أن تمتدَّ يدك على الآخرين.. بل وفي خضم معاركك ستحسب بدقة كل خطوة تُقدم عليها وس....

وأسقطت نظرةً مكتئبة حزينة على وجهه الهادئ دون تعابير، وظلا صامتين لثوانٍ قبل أن تتذكر أن من يقف أمامها قد دخل السجن إلا أن ذلك لم يردعه..

«انسَ الأمر».

استدركت بملل، وهيَ تتحقق من الصاعق الكهربائي إن كان يعمل، فأطلقت عدة شرارات، بينما وقف نادر يراقب حجرة فارس بحذر، وكأن مُبررها قد أقنعه:

- احرصي هذه المرة على ألا يُفيق لساعات.

- حسنًا.

وامتدت يدها نحو الباب ثم همست فجأة:

- ماذا لو فتحتُ الباب فثار عليّ؟!

- يستحيل أن يفك رباطًا ربطته أنا بنفسي.

نبرته الواثقة المغرورة استفزتها فرمقته بسخط، ورغم ذلك أسرعت

بتنفيذ المهمة قبل عودة فارس، فتحت الباب، وبالفعل كان ساقطًا على الأرض وقد تجلّى الوجع في عينيه إثر الرباط المشدود والذي حاول عبثًا تمزيقه، ولكن بلا فائدة..

منحته ابتسامة مُتشفّية، وهي ترى عينيه المسلطتين عليها بحقد كبير، وانتفض جسده عدة مرات وصاعقها يلتصق بعنقه..

وبعد دقيقة أشارت بإبهامها لمن في الخارج بعلامة النصر فارتفع أحد حاجبيه منتبهًا أنه اتفاقهما الأول الذي قاما به دون مشكلات..

أغلقت الباب بهدوء ثم استدارت لتتفاجأ بنادر الذي وقف أمامها وظل صامتًا لثانية مُغالبًا نفسه ثم سألها:

- قبل قليل.. عند خروج فارس لِمَ أردتِ مني الرحيل؟!

ولأول مرة ينتهج نهجها مما فاجأها، لو كان شخص غيرها لاستطاع فهمه دون الحاجة إلى السؤال، لكنها أشدُّ غموضًا من ذلك المومياء ففي كل مرة يحلل نيتها يجد نفسه يتجه لسوء الظن بها ثم يُصدم بالعكس تمامًا..

على حين أجابته بكل صراحة:

- لقد تجرأت في غفلة منه أن تتحدث عنه بوقاحة.. قلت إنه ليس عليك احتماله وإنك تريد التخلص منه.. أزعجني حينها أن تكون مودته لك تفوق مودتك له وبدوت لي كالجاحد للطفه؛ أخي لم يتحدث عنك بسوء أبدًا في غيابك، واختارك أنت، ثم يكافأ في صباح اليوم التالي بأن تتفوه عنه بمثل هذا الهراء.

انفرجت شفتا نادر بشبه صدمة لتفكيرها الغبي الذي لم يخطر له ببال، فقال بتَشَوُّش:

- كُنتِ تحمينه مني؟

- بالتأكيد.. إنه أخي.. لم أُرد أن يُكسر قلبه.. كيف سيكون شعوره لو أدرك أنك تراه كالحمل الثقيل؟ ثم يكتشف بعد هذا أنك رحلت ببساطة بمجرد أخذك للمكافأة!.. تهيئة قلبه لفراقك قبل أن يكتشف بنفسه حقيقتك كانت هي الحلَّ الأفضل، ومسؤوليتي أنا كأخته الكبرى.. لذا رأيت أن من مصلحته أن أُفرق بينكما بجعل قلبه ينصرف عنك بالتدريج في أيام السفر.

عقد حاجبيه باستهجان شديد وذاكرته تسترجع تلك اللحظات العصيبة فقال بانفعال:

- صرختِ بملء فمك بـ (الحربُ سِجال) مُعاديةً لي لأنكِ ظننتِ فقط أنني قد أكسر قلبه؟.. هل عقلك يُدرك سخافة ما تفوهتِ به الآن؟

ارتفع أحد حاجبيها بسخط:

- كلا، ليس سخافة! ثم عن أي حرب تتحدث؟! مهلًا، أنت تعني الحُبُّ سِجَال؟ نعم أنا عائلته، لن أكسر قلبه، وعدت إليه رغم اختياره لك.. لذا أنا الأحق بأن أكون الأولى في قلبه وها أنا ذي أُخبرك الآن للمرة الثانية أنه لن يهدأ لي بال حتى أفوز في هذا السِجَال بحبه.

اصفر وجهه، إذًا لم تقل (الحرب سجال) كما توهم، بل قالت: (الحُبُّ سِجَال).. ما نوع الصمم الذي أصاب أذنيه وقتها ليخلق سمعه حرفًا لم يكن موجودًا فاستنفرت كرامته كل ذرة كبرياء ليخوض حربًا ظنها حربًا ولم يكن عنوانها إلا الحب؟!

ذلك هدف لم يكن ليقاتل لأجله! بغض النظر عن أنه كسبه سلفًا دون جهدٍ منه...

جموده دون تعقيب على ردها جعلها تستدرك فجأة بانزعاج:

- حسنًا.. لن أُنكر أنه في لحظة رحيلك عندما رأيت تأثرك تغيرت الصورة التي رسمتها في ذهني عنك بحديثك الفظ ذاك..

واهتز صوتها فجأة بغضب وهي تضع كفيها على جانبي خصرها:

- ولكن ألم تدرك الآن كم أنت مستهتر؟ ما الذي تخطط له بظهورك أمامه بإهمال مرةً أخرى؟ وأي كذبةٍ ستكسر بها قلبه قبل رحيلك؟ أيها الوغد، من اللؤم أن تأتي وترحل كما تشاء لتُفسد الجهد المضني الذي بذلته لأجعله يسلو وينساك، وعندما بدأت أرى ثمرة تعبي تبدأ بالنضج إذا بك تدس رأسك بيننا من جديد..

هراء!

كل ما تقوله هراء!

إلا أن ذلك كُله جعل ابتسامة خفيفة تتسلل إلى شفتيه، لم تكن مشكلتها معه إلا أنها تغار على أخيها منه! ولكن هل غباؤها مُعدٍ؟

بالتأكيد لم يكن ليكتشف سببها هذا ولو استنفد آخر خلية من عقله في

التفكير.. قد سمع من قبل أن العاطفة لدى بعض النساء قد تتغلب على مَنطِقِهنَّ، ولكنه لم يره عيانًا إلا الآن!

- لماذا قررت البقاء إذًا وجعلته يراك؟

سألته بنبرة مستاءة جعلته يفيق من شروده وظل صامتًا لبضع ثوان يحاول تجاوز هرائها الذي مسَّه شؤمه، ثم أجاب بعد أن عاد عقله ليتربع على عرش الحكمة والرصانة:

- لدي ما أستفسر عنه من ذلك المومياء.

لم يُرضها سببه، فأردف بصراحةٍ وصدق:

- بقاؤكما أنتِ وفارس بمفردكما برفقة هذا المجرم لا يصح، وانتظاركما قدوم الرجلين دون أن يرافقكما أحد في هذا الفندق المشبوه يثير استيائي وقلقي.

اتسعت عيناها صدمةً فقلبها قد أخبرها بمثل هذا السبب بعد أن بقي منتظرًا لرحيلهما في مرآب الفندق، لكن عقلها لم يُصدق ذلك، فتحركت شفتاها بسؤال غاية في الدهشة:

- أنت تعلم أنك لست مسؤولًا عني ولا عن أخي.. والمكافأة التي أردتها قد أعطيتك.. فلِماذا تتمادى إلى هذا الحد؟

- لا أفعل ذلك لأجلك.. بل لأجل فارس.

- ليس وكأنني سأحزن لأنك استثنيتني.. ولكن لقد أنقذته، وسلمته إلى عائلته، وبقيت لساعات لتطمئن لرحيله، والآن ما زلت تريد البقاء لتحميه.. ما الذي يدفعك للاستمرار بفعل هذا من أجله؟

- لأنه يستحق الأفضل.

اتساع عينيها أَنبأَهُ بحجم ارتباكها ودهشتها، وقبل أن تلتهمه بأسئلتها نطق موضحًا:

- يستحق أن يرتاح.. أن يعيش حياةً كريمةً بعد كل ما مرّ به.. تسع سنوات من المعاناة تكفيه.. لذا أريد أن أطمئن عليه أولًا قبل رحيلي.. عُدِّيها عادة قديمة لم أستطع التخلص منها فأنا ملتزم نوعًا ما نحوه نتيجة إخراجي له ولن أتحرر من شعور مسؤوليتي تجاهه حتى أراه بأمان تام.

متى آخر مرة كان فيها صريحًا بهذا الشكل؟

متى كان قادرًا على التعبير عن شعوره وما يختلج في أعماقه دون تردد؟!

كان متفاجئًا من نفسه، ولكنه أدرك أيضًا أن هذه البلهاء لن تفهمه هِيَ الأخرى ما لم يصارحها بالحقيقة..

صمتها وجمودها أشعراه بالندم والحرج معًا، بدا وكأن الكثير والكثير من الأفكار تتصارع داخل عقلها، ولكنها حسمتها بقولها:

- أنت لا تُعجبني إطلاقًا.

تبخر حرجه بالكامل واستشاط غضبًا حتى ليكاد رأسه ينفث بخارًا حارقًا من غليان دمه الشديد على حين أخفت الصاعق في جيبها، وتجاوزته مُردفة:

- أنت من النوع الذي يتعب ويكدُّ في حياته كثيرًا.. نعمةٌ لغيرك وشقاءٌ على نفسك.

شيعها بكرتين كالجحيم، فيما منحته ظهرها، مُخفية ابتسامة الرضا المتسللة إلى شفتيها.. ستخبر سلوى لاحقًا أنها قد التقت بصنف نادر من الرجال يمتلك حِسًّا عاليًا بالمسؤوليَّة قلَّ أن تجدا شبيهًا له في لندن!

نقاشهما هذا كان بمثابة حفل الختام لسوء الفهم الذي كوّنه كل منهما في نفسه عن شخصية الآخر..

ولكن أن يخرج طرف آخر من الحديث مُنتصرًا!!

ذلك ليس من شيم نادر على الإطلاق، ولا سيّما حينما كررت عدم إعجابها به.. مَا علَّتها بالضبط لترفضه المرة تلو الأخرى وهو لم يتقدم لها حتى؟!

«اسمع!».

التفتت إلى الخلف بدهشة تبحث عن الشخص الذي يُوَجِّهُ إليه حديثه؛ ففارس ما زال في حجرته، فتابع بهدوء غريب:

- استبدل ملابسك وداوِ جرح كتفك قبل أن يكتشف فارس أنك خضت عراكًا.

ارتفع أحد حاجبيها بينما دفع بكمَّيْه إلى الأعلى:

- حسنًا.. إن كُنتَ بحاجةٍ إلى المساعدة في العلاج فلا تتردد.

أسرعت تضع كفها على كتفها المجروح:

- يمكنني علاجه بمفردي.

- ما الخطأ؟ كلانا رجلان.

اتسع فمها بصدمة، فالوغد يقصدها مُنذُ البداية.. ما الخطأ بها ليراها كرجل؟!

ذوقها بالملابس، أم زهدها في مساحيق التجميل.. أو قد يكون السبب وقاحتها معه.. كلا، لا بد أنه يشير لعراكها مع كاظم بكل تلك الجرأة وتحملها للألم إلى الآن دون شكوى!

شعرت بكرامتها كأنثى تُسحق، وقبل أن تُفجر بركانها المدمر فيه خرج فارس يركض، فابتسم نادر، ومشى نحوه متجاوزًا لها وشفتاه تنطقان بود:

- حمدًا لله.. ما زال ذوقك في الملابس مُحصّنًا ضدها.

ضحك فارس بزهو لامتداحه له المبطن بشتيمة لمايا، كان يرتدي بنطالًا من الجينز الأزرق الداكن، يعلوه قميص قطني أبيض، أضفى عليه لمسة أنيقة بارتدائه فوقه صديريًّا قماشيًّا بلون رمادي فاتح، وقد انتعل حذاءً رياضيًّا مريحًا.

وامتدت يد نادر ليُعدل له ياقة قميصه، وهو يفجر مفاجأة للاثنين بقوله:

- أختك عرضت مكافأة نظير من يجمع بينك وبينها وقد أخذتُها.

شحب وجه مايا واعترى قلبها الخوف على شعور أخيها الذي انفرجت شفتاه صدمةً، وهو يحوّل بصره نحوها..

تلك الثواني كانت بالنسبة لمايا أشبه بالدهر، تفاجأت بعدها باحمرار أرنبة أنفه، واهتزاز عينيه تأثرًا، وهو يهتف بسعادة:

- كُنتِ تبحثين عني؟

- بالتأكيد كُنتُ أبحثُ عنك.

- وعرضتِ مكافأة؟

- نعم.

ازداد سروره وفاضت عيناه بحبه العميق لها، وعندئذ غمر قلب مايا الفرح ووقفت إلى جواره قائلة بعجرفة:

- مليونيْ دولار!

- واااو.. كثير.

كلاهما، نادر ومايا، أسعدهما رؤية البهجة على وجهه لأنه لم يُنبذ كما ظن، ولوهلة حلَّ السرور في جو الشقة قبل أن ينقل فارس نظره إلى نادر قائلاً بلهفة:

- عندما تعطيك المليونين ماذا ستشتري لي منهما؟

اقشعر جسد نادر بالكامل:

- ماذا؟ إنهما لي أنا.. فلتشترِ لك أختك.

- لا.. أُريدُ سيارة.

اتسعت عينا الاثنين صدمة على حين اصفر وجه فارس وهو يرى نظراتهما المستهجنة الرافضة، ثم وبخته مايا:

- أنت لم تبلغ الثامنة عشرة بعد وتريدُ سيارة؟

- ولكنكِ قُدتِ سيارة وأنتِ في السادسة عشرة أيْ أصغر مني!

- أنا وأنت مختلفان.

- كلا.. هذا ظلم.. لقد حطمتِ سيارتين! وأنا أستطيع القيادة كنادر.

- لا.. وألف لا.

قالتها بحدة فنقل نادر بصره بينهما.. هل هما أحمقان؟ ثم قال بصرامة:

- فلتتلقَّ العلاج أولًا ثم عوض ما فاتك من الدراسة وبعدها فكّر بالسيارة.

رماها في وجهه بكل صراحة فصمت فارس بانزعاج، فيما تنهدت مايا بتعب قبل أن ينتبه عقلها لشيءٍ ما فصاحت:

- فارس.. ألا يزعجك أخذه للمكافأة؟!

تأمل فارس وجهها المُستنكر، ووجه نادر الهادئ، ثم حملت عيناه أسفًا كبيرًا:

- أنتِ عرضتِ المكافأة، وهو مضطر لأخذها لأنه فقير جدًّا.. مايا، سيارته خردة للغاية..

وقبل أن يُتمّ عبارته كان قد جُذب من صديريه إلى خارج الشقة، ونادر يقول بعصبية:

- أنت وأختك.. كلاكما، ما مشكلتكما مع سيارتي؟.. لن أسمـ...

على حين بقيت مايا متجمدة تُعاني الصدمة، لهذا نادر أخبره؛ لأنه يعلم أن ذلك سيُفرحه، وأيضًا لن يلومه لأخذها.. بؤسًا، إلى أيِّ مدًى قد بلغا بفهم بعضهما بعضًا؟

تآكلت غيظًا؛ كم من الوقت تحتاج لتجتاز مرتبة نادر هذه؟

وتذكرت فجأة نصيحته لها، فبخروج فارس قد حانت فرصتها لمداواة جرح كتفها، واستبدال ملابسها بأخرى، وبالفعل أسرعت لتنفذ ذلك قبل أن يعودا..

****

-٣٤-

(قبل ١٧ عامًا).

في أي بلد يُعقد فيه حفل تخرج لطلاب المرحلة الثانوية، لن يخرج الحفل عن طقوسه؛ بأن يسود أجواءه الصخب، وتكسو شخابيط الوداع جدران فصوله ومبناه، ويعلق رذاذ الاحتفال الثلجي بأردية البعض وشعرهم..

أخذ سمير شهادة تخرجه، ضحك مع هذا وذاك، ثم وقف ينظر بابتسامة للطلاب من مثل عُمره الذين وقفوا برفقة عائلاتهم يلتقطون العديد من الصور تخليدًا لهذه الذكرى الجميلة..

والغريب أنه رغم محبة الفتيان له لم يطلب أحد منهم التقاط صورة برفقته، بينما تجنبه الكثير ممن لم يعقد صداقة معه، فتلك السنوات الست كانت حافلة بالنسبةِ له، ولكل من تجرأ على إيذائه.. همست فتاة تُحدث رفيقتها:

- من الجيد تخرجه.. لقد سلب عقول المعلمين بلطافته وحسن سلوكه ولم يصدق أحد منهم الشائعة المنتشرة حوله، لكنني أصدّقها بالكامل، إنه يثير الرعب في قلبي.
- أي شائعة؟
- لا أصدق! ألم يُحذركِ منه أحد؟ يقولون إن كل من عاداه تُصيبه

شائعة تدمر مستقبله أو يناصبه شخص قوي العداء دون سبب فيجعل من حياته جحيمًا.

- وهل الجميع صدَّقوا ذلك؟

- نعم، ولكن بنسب متفاوتة.. كل من عاداه يقول إنهم مهما حاولوا أن يُمسكوا عليه دليلًا واحدًا بأنه السبب في ما أصابهم إلا أنهم يعجزون.. قلوبهم فقط المتيقنة من ذلك.

- هذا مخيف حقًّا.

- نعم، من المخيف أن يُخبرنا حدسنا بشيء، ولكن ولا حاسة من حواسنا الخمس تقع على ما يُثبت وجوده.

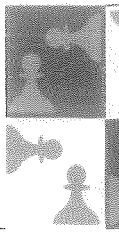
- لو كان ذلك حقيقيًّا فإذا ما كَبِرَ فكيف سيكون حاله؟

- أعوذ بالله، سيكون شيطانًا آخر.. حمدًا لله أننا لن نرى وجهه المشوه بعد الآن فيتعكر مزاجنا، لننعم بالعام القادم دون وجوده.

- أجل.

وغاب عن أعينهما التجهم الذي حلَّ في وجه سمير، وهو يقف خلفهما، يُنصت إلى حديثهما عنه، فتجعدت ورقة تخرجه في كفه، والتي حوت من الأرقام ما يجعل من المستحيل قبوله في أي جامعة من جامعات البلاد..

****



كَالأَلمَاسةِ في نُدرَتِهَا

-٣٥-

على بساط قديم مُهترئ تَوَسَّطَ أرضية محل الإلكترونيات، جلس أربعة أشخاص.. ارتَصَّ من حولهم عشرات الطاولات الحاملة لأجهزة حاسوب مكتبية..

ثلاثة في مواجهة شخص واحد فقط..

ازدرد ذلك الشخص لعابه، ثم جال بعينيه في الأعين الرافضة وجوده، ولم يلبث أن ابتسم بارتباك:

- القدوم إلى هنا.. لم تكن فكرتي إطلاقًا.

ملابسه المبللة قد قام باستبدالها بأخرى جافة، وجرح رأسه قد تم إيقاف نزيفه ومداواته مرةً أخرى بعد أن حصل على حقيبة إسعاف متكاملة منحها له تميم عندما انتشله من ذاك الزقاق، وحظي بوجبة طعام دسمة ودافئة تناولها بنهم في الشاحنة التي أَقَلَّته إلى حيث محل الإلكترونيات الذي يمتلكه زيد..

وأدت المُسكنات التي ابتلعها دورها في التخفيف من ألمه، لكنها لم تمحُ الكدمات المطبوعة على جسده.

«استخدام الزعيم لرقمه القديم ومهاتفة تميم بدلًا مني يؤكدان أنه ذو مكانةٍ عنده».

همس زيد مستنكرًا فلطالما كانت مكالمات نادر المزعجة حصرًا عليه

وحده، فيما تأفف حاتم، وعيناه لا تغادران الجالس في الزاوية:

- مُنْذُ أن توسَّل إلينا أن نُنقِذَهُ أدركتُ ذلك.. فقط ما الذي قد يُعجبه في هذا المعتوه؟

زفر الاثنان هواءً مُلئ بغضبهما المستعر من مدى غبائه وضعفه معًا؛ ففي الوقت الذي أنقذا فيه هاتفه من الاختطاف كان جسده مُختطفًا في موقع آخر.

قال زيد بحسرة:

- وطبيب أيضًا!

- إن كان ذلك صحيحًا فما زال في الحياة أمل أن أكون مُسعفًا.

- لا تستسلم والمثال الحي للغباء أمامك.

لم يسمع أحمد من همسهما سوى (الزعيم) التي أثارت استياءه، لكنه لم يجرؤ على البوح بشعوره فنقل عينيه منهما نحو تميم، بدا له أكثرهم لينًا ولطفًا رغم أنه لم ينبس بحرفٍ واحد مسافة الثلاثين ميلًا التي قطعها بشاحنته عندما نقله من الزقاق إلى هنا.

أراد أن يبدأ حديثًا معه وانتبه فجأة للعضلات أسفل قميصه الذي بالكاد خيوطه تتماسك عن التمزق، وهالته قامته التي تعدتهم طولًا بكثير رغم جلوسه، وعندها مسح فكرته بالتودد إليه.. سيعزل نفسه في زاويته إلى أن يسمح له نادر بالرحيل.

أخرج هاتفه وأراد تشغيله متجاهلًا أمر نادر له في الزقاق بأن يتخلص منه، ثم تسلل إلى وجهه أمل طفيف، هل من الممكن أن سوسن قد أرسلت إليه رسالة لتطمئن عليه؟

صحيح، كان والدها مصدومًا مما أخبرهما به، إلا أنها هِيَ وقتها لم تنطق بحرفٍ واحد، فهل توهم ما رآه في عينيها أم...

واختفى هاتفه من يده!

نظر بصدمة وغيظ إلى زيد الذي تجرأ أمامه ليفتح الهاتف ثم أخرج منه شريحته وأتلفها، فصاح بعصبية:

- كيف تجرؤ؟

- فلتحمد الله أن زيد من أخذه منك وليس أنا وإلا لكنتُ كسرته على رأسك.

حوّل بصره المحتد عن زيد نحو حاتم، فوجده يجلس بسرعة بعد أن كان متمددًا على البساط، وهو يتابع بثورة:

- تُريد الكشف عن موقعنا لرجال الشرطة؟!.. أنا لن أحتمل.. لا يمكنني حبس كل هذا الغضب داخلي.

وقبل أن يُتمَّ جملته كان قد تحرك تميم مع حركته فالتفت الاثنان نحوه، حاتم وزيد معًا، وعندها أدركا أن مهمة تميم لم تقتصر على نقله فقط.

بقي أحمد منزويًا في موقعه ينظر بوجل للنظرات الشرسة والمتحفزة، المتبادلة بين الثلاثة، ولم يلبثوا بعد دقيقة أن هدؤوا جميعًا وكأن شيئًا لم يكن.

وقبل أن يهدأ غضبهم وتستقر السكينة في قلوبهم، صاح أحمد بسؤاله المندهش:

- إن كانت الشرطة تبحثُ عني فلماذا تختبئون معي؟

أغمض حاتم عينيه بشبه انهيار، فيما خبأ زيد هاتفه في جيبه وهو يسأله بصدمة:

- أليس نادر صديقك ومن قريتك نفسها؟
- بلى.
- إذًا فجميعنا في خطر.

اتسعت عينا أحمد لثانية ثم اندفع يقول بصدق:

- لم أعترف بشيء.. أخبرته أنني من أخذت الفتى بعد أن وصل إلى المستشفى، وأنه قد مات بسبب مرضه العضوي، وكذبتُ عليه بموقع دفني له، أخبرته أنه في مدينة أخرى تبعد عن العاصمة قدر ست ساعـ...

وانفجر حاتم:

- كيف لك ألا تفهم الكارثة التي حلَّت على رؤوسنا بسببك؟ أيها المعتوه، بسبب لسانك الثرثار فُضِحْتَ أمام زميل لك في العمل فأبلغ عنك للشرطة.. ثم لم تُنكر، بل أَكَّدْتَ لنائب رئيس الشرطة حين استجوبك أن لك علاقة باختفاء الفتى، وقبل عودته من البحث، هربت.. أتظنه غبيًّا؟!.. هو الآن بالتأكيد يبحث في أدق التفاصيل عنك، وعندها سيعلم أنك من قرية السنابل، وسيربط بينك وبين طبيب الفتى (نادر) فيعلم أنه شريكك، وحين يبحث عن نادر سيعلم أن له علاقة بنا... وبووووم.. لهذا أيها الوغد حذّرنا الزعيم من الخروج وأمرنا بالاختباء إلى أن يتم تبرئتنا جميعًا عندما يصل الفتى إلى العاصمة مع أسرته.

مع صراخه بدا وكأن تعب أحمد قد تضاعف ألف مرة، لم يكن لينتبه لهذه التفاصيل، وحين تحدث نادر معه لم يخبره أنه قد عرضهم جميعًا

للخطر، ولم يوبخه أيضًا.. على حين استلقى زيد على البساط وهو يقول مؤيدًا حاتم بحنق:

- لقد رفضنا قدومك إلى هنا وأخبرناه أننا لا نثق بك وأنك قد تكون متواطئًا مع رجال الشرطة لتكشف لهم عن مخبئنا نظير تخفيف عقوبتك، ولكن أتعلم ما قال؟

شحب وجه أحمد، الأوغاد، يُشككون رفيق طفولته في ولائه وإخلاصه، هل ينقصهما شرخ آخر في جدار صداقتهما لينهار؟

ومع ذلك منعته حكمته من الكلام لكن عينيه ظلتا معلقتين بوجل بفم زيد مترقبًا إتمامه لحديثه وبالفعل أكمل بسخط:

- قال إنك بالفعل لستَ جديرًا بالثقة، وستكون الطارق الأول للمسمار في نعش كل واحدٍ منا وهو أولهم.

ارتخى جفناه، وبدا مصدومًا بشدة، إذًا هكذا يظن نادر عنه؛ أنه سيفضحه ويُوقع به.. لهذا كان يرفض إدخاله في خطته منذ البداية!

ظلَّل وجهه مسحة من الكآبة والحزن، وهو يذكر تعبير وجهه حين رأى حَالَهُ في الزقاق، هل توهم ما رآه؟ أم أنه رأى عيانًا حقيقة مودته له؟

المودة التي بنى نادر جدارًا يَقمَعُهَا منذ وطئت قدماه التربة خارج عتبة السجن واستقبله أحمد أمام مبنى السجن قبل والديه حتى ليُهنئه بحريته التي استعادها..

تلك المودة ظن أنه قد نجح أخيرًا في تحريرها، ولكن... هل ظن نادر حقًّا أنه سيخونه كما خانته ريم ويُفشي سره بأنه من اختطف الفتى؟

كلا، ألم يقل من قبل إنه قد ائتمنه من بين الجميع على فارس؟! يجب ألا...

وانتفض الثلاثة، حاتم وزيد وأحمد، حين تكلم تميم فجأة بنبرة عالية خالية من المشاعر:

- أنتما لا تعرفانه هو ليس مثلكما محتالًا وماكرًا، هو طيّب القلب إلى حد السذاجة، لذا إن بقي في الخارج، وقبض عليه نائب رئيس الشرطة مرةً أخرى، فبقليل من الكلمات المُخادعة سيوقع بهذا الأحمق الذي بدوره سيوقع بنا جميعًا من حيث يُريد حمايتنا، كما اعترف بغباء أن له علاقة باختفاء الفتى.. وإن قُبض عليه فمدَّةُ اكتشافهم لصلتنا به سَتَقصُر ولن يلبثوا أن يقبضوا علينا جميعًا قبل أن تصل أخت فارس إلى العاصمة وتقوم بتبرئتنا، لذا احبسوا هذا الوغد عندكم.. أو أنه سيموت في الخارج عبثًا بعد أن يدق مسمارًا في نعش كل واحد منا وأنا أولكم.. ولو حدث ومات، أو قُبض عليّ هنا في قرية السنابل بسبب جبنكما فأقسم أنني لن أخرج من السجن إلا ماشيًا على جثة كل واحد منكم.. هكذا قال الزعيم.

ثم أشار بأصبعه إلى زيد وحاتم:

- كان يقصدهما في حديثه بالمحتال والماكر.

تنقلت عينا أحمد المتسعتان بين زيد وحاتم وعقله يحاول استيعاب ما سمعه، فهزَّ زيد رأسه بامتعاض شابه تفاجؤه الذي لم يتلاشَ بعد:

- ولم يكن يمزح..

أيّده حاتم بمزيج من العصبية والذهول:

- على الإطلاق.. سواء بتهديده بقتلنا أو بحديثه عن حجم غبائك.

ثم تنهد زيد:

- ولولا أنه امتدحني علنًا، وقال إنه يثق بي؛ لأن رجال الشرطة لم يستطيعوا القبض عليّ رغم استمراري في السرقة والاحتيال، لما كُنتُ استضفتك في محلي حتى بعد تهديده.

وانفجر حاتم بثورة على تميم:

- انظر.. نحن محتجزون هنا في هذا المحل الضيق والعفن بسبب حُمقه.. وفقدتُ العقد بسببه ويريد الآن أيضًا استعمال الهاتف كي يتعقب الشرطة موقعه فيسلبنا المكان الآمن الوحيد.. مثل هذا الهراء كيف لا يفهمه طبيب مثله؟!.. تميم دعني أقتله.

تأفف زيد وهو يرى تميم يتحفز من جديد للعراك مع حاتم، بينما كاد أحمد يغرق من جديد ليس في مياه المطر بالخارج، ولكن في حرجه، وفي أعمق نقطة من قلبه شعر بأنه لو فقد ثقة نادر فيه وتبخرت كل مودة بينهما لكان ذلك أيسر على نفسه من أن ينظر إليه كأحمق يسهل التلاعب به..

هذا الحديث بينه وبينهم أسفر عن خضوعه التام لحقيقة أنه قد تسبب بزعزعة أمنهم، وأنه لا حق له ليلومهم على غضبهم منه، ودون تردد نطق بأدب:

- أسف.. لم أكن أعلم أن ثقتي بذلك الطبيب قد تَجُرُّ الخطر على الجميع.. أنا آسف حقًّا.

فغر الثلاثة أفواههم دون استثناء، وكأن الاعتذار سيعالج خطيئته في

حقهم، ومع ذلك كان استهجانهم الأكبر لقدرته على الاعتذار الذي لم يُفلح في التخفيف من المرارة المتصاعدة في أعماق حاتم الذي تذمر:

- كنا نحتفل بالمكافأة.. لم نضع بعد الشعلة فوق كعكة تميم التي لا أعلم من أين أخرجها من شاحنته، وكانت كلقمة واحدة لكل فردٍ منا، ومع ذلك كنا جميعًا سعداء وقبلنا المشاركة، وفجأة رنّ هاتف تميم باتصال الزعيم فعكّر فرحتنا وتحول ذاك الحفل إلى مأتم، ثم أطفأنا هواتفنا و...

- نادر سيأخذ المكافأة؟.. يا للعار.. كنت أثق أنه ينوي أخذها.. ذلـ...

وأغلق أحمد فمه للعيون الست التي حدجته بمزيج من السخط والغضب، عبارته جعلتهم يدركون أن الثوب الذي يعيش به يختلف تمامًا عن ثوبهم فقال زيد:

- إذًا لا تأخذ منها شيئًا.

- لا أريد قرشًا واحدًا منها.

صاح بحدة، فلوح حاتم بكفه قائلًا باستخفاف:

- اكسب مالك إذًا من وظيفتك.. وكأننا نلعب هنا.. حتى نحن نكسب المال، ولكن بطرق ذكية لا يفهمها مخبول مثلـ...

بتر عبارته بحدة حين لكزه زيد بمرفقه في خاصرته، فنظر إليه وعندئذ رأى السعادة الطاغية في عيني زيد، وثانية فقط، وضحك بسرور؛ فهذا المخبول لن يكون له نصيب من المكافأة وستكون لأربعة فقط..

وتحدث تميم فجأة:

- لقد دخلتُ السجن بعد الزعيم بثلاثة أشهر، أُخذتُ بالخطأ لأنني وُجدت في موقع لتجار المخدرات، كنت كصفحة بيضاء وُضِعَت

داخل السجن والجميع أرادوا التلوين والخطّ عليها وحينها أنقذني هو، ثم التصقت به، أبعدني، لكني لم أبتعد وحين ملّ من ملازمتي له استسلم وقال إنه سينظر لي كعطية الله التي منحها لموسى بعد أن سقى الماء للجاريتين.. إياك أن تنظر للزعيم بسوء لقبوله المكافأة.. أخذُه لها لا يعني أنه منذ ساعد الفتى كان يسعى لها.. إنها هبة يستحقها ونستحقها أيضًا.. هذا درس جيد تعلمته من الزعيم ويجب أن تتعلمه ولا..

وصمت تميم، أخرسته كفان، كف حاتم التي ضربت مؤخرة رأسه، وكف زيد التي أغلقت فمه، وهو يحرك شفتيه بذعر:

- أيها الوغد ابقَ كما أنت.. كالجدار.. لا تُقنعه بمشاركتنا المكافأة.

أطلق تميم شهقة جزع، وكاد ينفي ما قاله، لولا اقتراب أحمد المفاجع منهم حتى كاد يلتصق بهم، مما أثار ذعرهم ورعبهم، وحينئذ أطلق سؤاله الذي حمل كل لهفته:

- أنتم رفاق نادر في السجن، جمعتكم زنزانة واحدة.. لم يخبرني من قبل مهما سألته عن كيف أُصيب بتلك الندوب.. هل تعلمون أنتم؟

تبادل الثلاثه نظرات صامتة متوجسة، أشعرت أحمد بتوتر شديد وكاد ينزوي في تلك الزاوية مجددًا لولا:

- أنا سأخبره.

- بل أنا؛ فقد دخلت السجن قبل دخولك.

- لا؛ لقد أصبح صديقي قبلكم جميعًا.

نقاش حاد دار بين الثلاثة، وكل فرد منهم يُريد أن يتولى المهمة في قصّ ذلك الماضي قبل الباقين، فنقل أحمد عينيه بينهم بدهشة ثم سأل:

- من رافق نادر أولًا؟

رفع تميم ذراعه بأكملها: «أنا».

- إذًا ابدأ أنت أولًا ومن ثم الشخص الذي انضم للزنزانة من بعدك.

صاح زيد: «أنا».

فعبس حاتم:

- وكأنكما تملكان قصة لتُحكى! بالتأكيد كانت الزنزانة مُملة قبل قدومي.

سأله أحمد:

- هل تعلم ما حدث قبل قدومك؟

- لا.

- إذًا هناك ما لا تعلمه أنت أيضًا.. يا رجل.. اقترب ولنسمع معًا.

التفكير بأنه سيسمع شيئًا جديدًا حول الزعيم قد نجح في إثارة اهتمامه، فأنصت لتميم الذي تحدث أولًا، ووجد الأربعة أخيرًا وسيلة للتواصل والحوار في ما بينهم بفضل نادر؛ القاسم المشترك الوحيد بين الجميع.

****

الامتنان العميق ملأ العينين الزرقاوين، وكلتا كفيه تحمل كيسًا امتلأ بما اختاره من الطعام، لم تكن معدته لتتسع لهذا كله، ولكن رؤيته لتلك الأصناف المعروضة بعد سِنِي الحرمان صَعَّبَتْ عليه كبح رغبته في طلب هذا وهذا وذاك...

والأغرب أن نادر هو من اشتراها له بقبولٍ تام، فرمقه فارس بعينين تفيضان حُبًّا، فمتى تغير إلى الحد الذي لم يعد معه يرفض طلباته؟

دلفا معًا إلى المصعد، ولم ينتبه فارس لأضراس نادر التي طحنت بعضها بعضًا حقدًا على مايا؛ فلو كانت هِيَ من ترافقه لم تكن لتتأخر عن إجابة طلباته وهو بغبائه لم يأخذ المال منها...

تحركت العسليتان نحو الغافل بجواره يتفقد بسعادة ما في الأكياس..

أراد إيقافه، رفض طلباته، ولكن بالتأكيد لم يكن ليكون قادرًا على ذلك بعد أن أمسك بيده فجأة وجَرَّهُ نحو هذا وذاك كطفل سعيد بعودة أبيه الغائب منذ زمن...

التقت نظرتاهما فجأة وقبل أن يمسح نادر تعبيره الممتعض كان قد ابتسم فارس ثم سأله:

- حين أتيت إلى الشقة ماذا رأيت؟

- رأيتُ أختك.

- كلا.. أعني من كان برفقتها؟

لهفته الشديدة أثارت فضول نادر فأجاب بحذر:

- أحد أفراد أسرتها.

- صفه لي.

إلحاحه لم يُرح نادر الذي استدار نحوه سائلًا بدوره:

- لماذا أنت مهتم بمعرفة من كان معها؟ كان يمكنك أن تسألها هِيَ أو..

وصرح بالسؤال الذي أثار حيرته من قبل:

- لو خرجت من حجرتك لعلمت من كان معها.

- كلا.. هذا ممنوع.. حين كانوا يأتون إلى منزلنا كان والدي راكان وأختي مايا يُرغمانني على ألا أخرج وألا أتدخل في شؤون عائلة أخرى لأنني ما زلتُ طفلًا.. كنت أسمع صوت مايا يرتفع كثيرًا وأحيانًا أسمع صوت تحطم أشياء كالأكواب الخزفية والزهريات.. وبمجرد مغادرة عائلتها يسمحان لي بالخروج فأجد الخدم ينظفون، بينما مايا يظهر على وجهها إما الرضا، أو العبوس، وحين أسألها تقول إنها أشياء لن أفهمها بسبب صغر سني وإنه ليس عليّ أن أقلق فهي يمكنها التعامل مع عائلتها بمفردها.

قالها بانزعاج وضجيج المصعد يعلو مع صعوده بهما إلى الطابق التاسع، فيما ارتفع أحد حاجبي نادر وقد علم لماذا لم يتدخل فارس رغم سماعه لشجار أخته مع كاظم.

- أكان ذلك يحدث كثيرًا؟

- نعم.

وبدا الحزن والأسف في عينيه وهو يردف:

- كان أشدّها في إحدى المرات التي رأيتُ فيها مايا غاضبة وتكبح

بكاءها بصعوبة ووالدي راكان يحاول إقناعها بأن تقبل بأن يتبناها لأن هذا وحده ما سيردعهم عن القدوم؛ أن يمحو السبب الذي يربطها بهم، إلا أنها رفضت بشدة لأنها تعتز بوالدها أمجد كثيرًا، وعندها قال والدي راكان بتعب إنهم لن يتوقفوا إذًا عن القدوم حتى يكون لديها زوج.

- أوه.. لهذا قررت إذًا أن تجلب لها زوجًا؟

بنبرة عصبية ساخرة ألقى نادر عبارته وعيناه مسلطتان عليه بتعب، إذًا منذ البداية فهو لم يكن إلا إضافة إلى خطة تُحاك منذ زمن بعيد، بعيد جدًّا، بينما ضحك فارس بنقاوة:

- نعم، لقد تحمست وقتئذ وصرخت بأنني من سيجلب لها واحدًا وحينها قالت مايا إنه من النادر جدًّا أن يوجد رجل رائع، يناسبها، ويشبهها، وإنها كَالأَلَماسةِ فِي نُدرَتِهَا.

تجعد أنف نادر بتقزز لعجرفتها وثقتها في عمرٍ صغير و.. مهلًا:

- أنت لم تربط بيننا لأن كلمة (نادر) تكررت من فمها؟

- لا.

وصمت قبل أن يردف بابتسامة جذلة:

- ليس هذا فحسب.

زفر نادر هواءً حارًّا، لقد أصاب بشكه، بينما تابع فارس بدفء:

- لأنه أنت..

ارتفع أحد حاجبي نادر.. (المخادع يُحسن اختيار كلماته).. فتلاشى

غضبه دفعةً واحدة، فعلى أي حال ليس وكأن هذا الهراء سيمضي عليه لذا لا بأس بمجاراته.

وارتفع طنين خفيف يُعلن عن وصول رسالة إلى هاتفه، فأسرع إلى تفقُّدها بقلق كبير، ولم تلبث أن زينت شفتيه ابتسامة مرتاحة، فقد وصل أحمد إلى محل الإلكترونيات، وبدا في الصورة بخير وقد تم مداواة جرحه..

تنهد براحة للحمل الثقيل الذي زال عن كتفيه، الآن اطمأن على أحمد وباختباء رفاقه لن يُصيبهم سوء، عليه فقط استعجال ذينك المُسِنّين ليأخذا مايا وفارس إلى العاصمة و...

«لماذا تأخرت عندما ذهبت لارتداء ملابسك؟».

كان فارس منشغل بحساب المكافأة إن كانت ستُغني نادر عن الرحيل مجددًا حينما تلقى سؤال نادر الغامض فرفع رأسه نحوه لتظهر عيناه الزرقاوان المتسعتان من بين لفائف الأقمشة المغطية لرأسه من قبعة وكمامة ووشاح، رآه ينظر له وجهًا لوجه وقد عكست عسليتاه شيئًا من حدسه الذي لطالما لم ينجُ فارس منه مهما كذب..

- لم يتوقف الألم.

أجابه فجأة بعد ثانية فعقد نادر حاجبيه باستفهام فأكمل بسرعة:

- كنت مستعجلًا فسقطت وأنا أرتدي ملابسي فعاد الألم مجددًا لذا بقيت ساكنًا في موقعي إلى أن خف الألم ثم خرجت.

وضغط على جانب خاصرته حيث ضربة التوءمين، وعندها ظهر مزيج من القلق والغضب في عيني نادر.. فمنذ التقاه لم يحدث مثل هذا

الشيء.. لم يحدث أن غاب عنه أن يتفقد حاله، صراعه ليوم ونصف اليوم مع مايا كي يتثبت من أنه قد وجد له ملاذًا أمنًا قد صرف باله بالكامل عن الأهم وهو صحته...

- أهناك شيء آخر؟

سأله بنبرة حملت توجسه فعلت شفتي فارس ابتسامة صغيرة وهو يجيبه:

- لا.. لا.. هذا فقط.. ولكن لا عليك، سيزول الألم كالسابق، ستة أيام وسيتوقف.

ستة أيام! لا يزال يذكر السنين التي تلقى فيها الضرب من ياسر، ويعدُّ الأيام لاختفاء الألم كما اعتاد من قبل، ولم يُقلل نادر من تفاؤله هذا، وعقله يسترجع كل كلمة قرأها في الملف الذي أرسله أحمد.. لا يمكنه منحه مُسكنًا يخفف به من ألمه..

ولكن هل سيحتمل جسد فارس أيامًا أخرى تساوي مدة سفره إلى العاصمة؟

- يبدو أن العجائز الذين يرافقون أختك لديهم أولويات أخرى غير العودة بسرعة إلى العاصـ...

كان يتحدث بنبرة عصبية لم يفهم فارس سببها حين خفت صوت المصعد فجأة لتوقفه عند الطابق السابع فانفرجت دفتاه ودخل اثنان من الرجال الضخام غطت الأوشام جسديهما وبرزت عضلات نصفهما

العلوي بشكلٍ مبالغ فيه، وساعد من ظهورها قمصانها القطنية الخالية من الأكمام.

كان فارس يقف في زاوية المصعد ينظر إليهما بذهول كبير بينما ظل نادر قريبًا منه فتلك المكافأة التي نشرتها مايا من قبل ما زالت ذات صلاحية سارية.. وتعرّف نادر على أحد الرجلين فهو من وقفت مايا أمامه وكادت تتعارك معه لولا تدخله..

كانت نظرة الرجل إلى عيني فارس خاطفة إلا أن نادر انتبه له وخمن أنه يقارن بينه وبين تلك الشابة فالشبه بينهما في لون العينين واضح جدًّا..

وتحرك المصعد، طابقان آخران فقط ويصلان إلى الطابق التاسع حيث الشقة و..

اتسعت أعين الثلاثة: نادر، والرجلين لسبابة فارس التي غُرست في كتف الرجل يَتَلَمَّسُ الوشم إن كان شيئًا محفورًا في الجلد أو مرسومًا بالأقلام وقد يُمسح..

لم يرَ في حياته وشمًا إلا في التلفاز ولا يعلم كيف يضعه الناس من الأصل!

أشتعلت عينا الرجل وانفرجت شفتاه بصدمة لجرأته، فيما عكس وجه رفيقه مثل استهجانه، فاستدارا معًا نحوه، ليتفاجأا بسحب نادر لفارس بقوة إلى الحد الذي اصطدم به، وبحث عقله عن مخرج.. فهناك مجزرة على وشك الحدوث داخل هذه المساحة الضيقة، والخاسران الوحيدان فيها هو وفارس الذي يجب أن يُجنبه عنفًا جديدًا...

و...

هدأت ملامح نادر فجأة ثم رفع سبابته وأدارها عدة دورات على يمين رأسه مما جعل وجهي الرجلين يعكسان إشفاقًا رهيبًا.. (الأخت عمياء، والأخ مجنون).. فتنهدا بأسف نحو نادر الحامل عبأهما فرسمت شفتاه ابتسامة كئيبة مُحزنة..

موقف مفاجئ كان كفيلًا بجعل نادر يتيقن أن فكرة تركهما بمفردهما كانت خاطئة تمامًا.. ففارس لم يبلغ النضج النفسي الكامل، وما زالت تُسيطر عليه بعض السلوكيات الطفولية الاندفاعية مع ضعف بصيرته بعواقبها الخطرة.. بينما ماذا لو مرت مايا بهذا الموقف بدلًا منه؟ وشعر بالهَمِّ يُثقل كتفيه مجددًا؛ فرغم أنها ناضجة مقارنة بأخيها إلا أنه واثق تمامًا أن المجزرة ستغطي بالتأكيد كافة أخبار الغد.

****

داخل الشقة، كانت مايا قد انتهت من استبدال ملابسها إلى قميص طويل صُنع من قماش المخمل الفاخر بلون خمري داكن بياقة مرتفعة قليلًا، انساب فوق جسدها مغطيًا تفاصيله، وقد ثُبت كُمَّاهُ بِزِرَّينِ مُزدوجين، وارتدت أسفله بنطالًا أسود اللون واسع الأرجل.

تفلتت آهة ألم من بين شفتيها فضغطت على كتفها حيث الجرح، لم يكن سطحيًّا، ولكنه لم يكن عميقًا أيضًا وقد وجدت صعوبة بالغة في مداواته أمام المرآة، ومن ثم تغطيته وربطه.

تقوست شفتاها، وعيناها تتجهان للنظر إلى ذلك الباب المغلق الذي سجنا كاظم خلفه..

لسبعة عشر عامًا اختلق عقلها الكثير من السيناريوهات، وصَوَّرَ لها العديد من الخيالات حول الكيفية التي ينبغي لها أن تُعذبه بها..

هل تُمزق ذراعيه؟

أم تقتلع أظافره وأسنانه؟ أم تغرس في جسده العشرات من الدبابيس؟

في الواقع لطالما رأت أنه سيكون كافيًا لها لو هوت على وجهه بصفعة، تتلوها صفعاتٌ وصفعات، حتى تبلغ إهانتُها له أعمقَ نقطةٍ في روحه، فينكسر كبرياؤه، ويغمره شُعور الذِّلَّة والصَّغار فينعكس ذلك على وجهه المتحجّر البارد فيشفى بذلك القليل من غيظ قلبها عليه.

لكنها كانت تعلم أنها لم تكن إلا تحلم.. والأحلام لا تتحقق!

حسنًا، قد تتحقق بصورةٍ أخرى، لكن ليس بالتفاصيل نفسها التي تمنتها؛ فها هو يَفترِشُ الأرض بِجسده صاغرًا ذليلًا كما تمنت..

ولم تكبح دموعها هذه المرة؛ فما من أحد قد يراها. انحدرت بتتابع سريع على وجنتيها المتوردتين، بينما ذلك الماضي يعود إلى ذاكرتها:

(مجموعة من الأطفال، تراوحت أعمارهم ما بين العاشرة والتاسعة، خرجوا من المدرسة بعد ما انتهت صفوفهم الدراسية..

مشت في المنتصف بينهم طفلة في التاسعة، ترددت ضحكاتها العذبة، قد جُمع شعرها الموج الأسود على جانبي رأسها بشريطتين حريريتين، ومن حولها علا صخب الأطفال، وهم يضعون على حقيبتها المدرسية مُلصقات لشخصيات كرتونية أحبتها..

- غدًا ستحملين لي حقيبتي.. اتفقنا؟

- ستُعطيني أنا من مصروفك.

- خُذي كتابي وأنجزي لي الواجب معكِ.

- أريد قلمك المضيء ثمنًا للملصقين.

الجميع حدّدوا ثمنًا لتلك الملصقات التافهة، وهي تُجيبهم بالموافقة، وقد سُحرت عيناها السماويّتا اللَّون بالرسم الملون للشخصيات، والذي ظنت أنه زيّن حقيبتها الرخيصة الثمن، فتألقت شفتاها المصبوغتان بحلوى المصّاص بابتسامة مشرقة واسعة..

استعجلت في مشيها للوصول إلى منزلها لتتفاخر أمام والدها بغنيمتها الجديدة، والتي بالعادة تنتهي بتوبيخه لها دون أن تعلم لماذا!

أضحت خطواتها أشبه بقفزات، وحقيبتها تهتز خلف ظهرها، ومع رؤيتها لمنزلها تجمدت في موقعها مذهولةً من العدد الكبير من الناس الذي يقف أمام واجهته، وجميعهم يرتدون زَيَّ الشُّرطة.

وإلى جوار سيارات الشرطة المتوقفة كانت تقف أيضًا سيارة سوداء فاخرة من ذلك النوع الذي قد لا تحظى برؤيته إلا لمرة واحدة في حياتك أوقد لا تحظى أبدًا.

اقتربت مايا ثم ضغطت جسدها الصغير بين رجال الشرطة محاولةً الوصول إلى باب منزلها، وهي ترفع رأسها لتنظر لأوجههم العابسة والجادة.

وفُتح باب منزلها فجأة بعنف، جاذبًا نظرها نحوه، فرأت ذلك الحثالة (كاظم) يَجُرُّ جسد والدها (أمجد) إلى الخارج، وقد طُبع على وجه أمجد بعض الكدمات، وسال الدم من زاويتيْ شفتيه.

مالت شفتاها للتقوس، وقبل أن تتجاوز ما رأت أفزعها أشدّ الفزع

رؤية الأصفاد التي أسرع أحد رجال الشرطة ليضعها على ذراعي والدها بعد تثبيت كاظم له بالقوة.

وامتلأ المكان بصراخها الجازع، واخترقت الصفوف لترمي بجسدها عليه، معانقة له، وشهقات بكائها تتخلل صرخاتها، فتراجع رجال الشرطة إلى الخلف، وقد مسّ قلوبهم شيءٌ من الشفقة والرحمة بابنته الصغيرة..

«لا.. لا.. بابا.. ليس شريرًا.. لا تقيدوه!».

صرخت وصرخت ممزقة ما تبقى من قلب أمجد، الذي فُطر من قبل بعد ما سحبه كاظم بعنف من أمام زوجته (فاتن).. أغرقت دموع مايا الصغيرة بنطاله، واخترق رجل الحشود، يصرخ بنبرة سيطر عليها الغضب:

- ألا يملكون رحمة؟!.. كيف يفعلون هذا بأب أمام عيني ابنته؟

وكاد يتدخل لولا إيماءة رأس من أمجد نهته عن تهوره، على حين تقدَّم رجلان من رجال الشرطة بعد أن تمالكا نفسيهما؛ فالواجب يقتضي تنفيذ ما أُمروا به، فمن أمامهما قد وُصِمَ بمجرم ولا حرية لهما في اتخاذ القرار بإنزال الرحمة به أو العقاب.

وأحاط بجسد أمجد كل من فرغ قلبه من الرحمة، أو حكم عليه القانون بالقسوة، ولكن قلوبهم مجتمعة لم تكن لتتفوق في غلظتها على قلب ذاك الرجل، الكبير في السن، الذي راقب ما يحدث من زجاج نافذة سيارته السوداء الفخمة، بعد أن أمر بنفسه حارسه كاظم بسحب ابنه أمجد من

داخل المنزل؛ بسبب تردد وامتناع رجال الشرطة عن اقتحام منزل به امرأة.

كان ذلك الحضن هو الحضن الأخير الذي حظيت به مايا من والدها، ثم انتُزعت بعده بالقوة من بين ذراعيه، توسلت إليهم بصرخاتها، وبكائها أن يفلتوه، لكنهم قذفوا به في المقصورة الخلفية من سيارة الشرطة، التي غطت نوافذها شبكة حديدية مُحكمة، فعلم قلبها عندئذ أن والدها مجرم.

ركضت خلف سيارة الشرطة، تصرخ مُستنجدة بأمها، بالناس، كي يُعيدوه و.. وقعت عيناها على ذلك المُسِن في سيارته السوداء.

لم تلتقِه من قبل إلا أن والدها أمجد حَرَصَ على أن يُعَرِّفها به عن طريق الصور المتلمع بها هاتفه، ولمع الأمل في عينيها من جديد.

لم تُفَوت الالتجاء إليه، وقد رأت فيه طوق النجاة الأخير لوالدها، وقفت أمام نافذته المفتوحة، وبالكاد ظهر نصف وجهها أمامه لقصر قامتها وصرخت به باكية:

- جدي.. بابا ليس شريرًا.. أعد إليَّ بابا.. أرجوك.

كانت المرةَ الأولى والأخيرة التي سمعت فيها أُذُنا بسام ثروت مُناداتها لَهُ بجدي، لأنه وَأَدَ ذاك الرابط بينهما في لحظته؛ حينما حدق بها لثانية قال بعدها باشمئزاز:

- تُشبه الخبيثة التي أَغرَت ابني وأبعدته عني.. جماهن لعنة سلبن به رؤوس الرجال.

وأغلق زجاج النافذة في وجهها، رغم بكائها وتوسلها إليه، ثم رحل هاجرًا حفيدته الوحيدة التي حمل اسمها اسمه).

- أبي.. لم أكن أظن أن مثل هذا اليوم قد يأتي.

قالت فجأة بقلب مُنشرح والتأثر يُغرق عينيها، لقد أخذ كاظم والدها من أمامها مرة ثم فقدته للأبد لكنها لم تسمح له بأن يَسلُبَهَا حبيبًا آخر، لقد قاومته إلى آخر لحظة ولم تتردد.

نهضت وبقيت واقفة لثوانٍ بوجل ثم طمأنت نفسها بأنه لن يُفيق بسرعة ما دامت أفقدته الوعي قبل قليل.

فتحت الباب بهدوء، ثم أدخلت ذراعها الحاملة لهاتفها بحذر لتسلط الكاميرا عليه والتقطت عدة صور له لتُثبت لنفسها في المستقبل أن هذا قد حدث فعلًا وأنه لم يكن مجرد خيال.

أوصدت الباب ثم انزلقت جالسة بتعب، تمنت لو تُسمع العالم صرخة فرحها، ولكنها قد كَبرت ولم تعد تلك الطفلة المندفعة، كما تظن!

- لن يهنأ لي بال حتى أُحمِّلك أيها الوغد جريمةً ثم أقذف بك في السجن كما فعلتَ مع والدي.

وعكس وجهها جديتها الشديدة، وهي تُخرج مفكرتها السوداء، خطَّت عليها بقلمها الذهبي عدة أسطر، (الاختطاف) سيكون سببًا أكثر من كافٍ ليحبسه لعدة سنوات في السجن...

وتذكرت بغتة مُختطفها الحقيقي، فتجهم وجهها؛ لم يمضِ يوم حتى على الحالة العاطفية التي أظهرتها أمامه عند مدخل الشقة، وهي تُقدِّم له

بأعينٍ دامعة، ونبرة متأثرة، شكرها وامتنانها لإنقاذه فارس، ثم تجده فجأة قد عاد!

لم تكن تظن أنه قد يعود، أو أنها ستلتقيه عن قريب، وإلا لم تكن لتتساهل فتُظهر له مثل ذلك الوجه، والأسوأ أنها قد منحته حتى ابتسامتها التي حرمتها على جميع الرجال.

شعرت بالحرج يُغرقها فغطت وجهها بكفيها:

- تبًّا!.. كان من المفترض أن ألتقيه مجددًا في وقت هو من يحتاجني فيه وليس العكس.. أن أكون أنا في موقع القوة فأرد له المعروف لإنقاذه أخي، ولكن زاد الأمر سوءًا بأن جعلني ممتنة له مرة أخرى، ولكن هذه المرة لإنقاذه لنا معًا.. لا.. هل عليَّ الآن أن أشكره مرة أخرى عند رحيله؟

مبدؤها الذي اتبعته لسنوات على وشك أن يتزعزع، كلا، لن تشكره، ستظل وقحة معه ومع كل رجل وإن عنى ذلك وصفهم لها بالجاحدة..

«فات الأوان، لقد نال شكرك وابتسامتك، وإيقاف الثانية لن يمحي وقوع الأولى».

توهجت وجنتاها بحمرة قانية، وتجاهلت صوت ضميرها الداخلي المُزعج، لتُجبر نفسها على الانشغال بالأهم وهو: كيف تجعل الوغد كاظم يعلق في السجن إلى الأبد؟!

****

-٣٦-

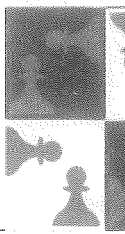
(قبل ١٦ عامًا).

لم تكن الحياة أسهل مما قبلها على سمير، مر تسعة أشهر على تخرجه، لكنه لم يحظَ بوظيفة، ولم يحتمل والده أن يرمي ماله لابنه البالغ الذي فشل في كسب رزقه، وفي كل مرة يزور سمير والده ليحصل على بعض المال كان عليه سماع محاضرة منه، يقارن فيها بينهما، ثم يتفاخر أمامه بقدر نجاحه في تحصيل المال ولو عن طريق الكسب الحرام..

وانقطع أخيرًا المال اليسير عن سمير، فاضطر للاستجابة لأمر والده بالعمل في مزرعته برفقة العمال واختار له المكان الأبعد في المزرعة كي لا يُزعجه..

ستة أشهر مرت بعد أن قَبِلَ العمل معه، انتشرت بعدها حادثة هزت البلد بأكمله عن حريق مزرعة قضت فيه فتاتان نحبهما برفقة رجل في آخر العقد الرابع من عمره، كانت الخمور هي المصدر الرئيس لاشتعال النيران، ولم ينتبه أحد لها لوقت طويل حتى تَفحَّمَ الرجل بالكامل، فلسوء حظه قد صادف أن وقعت هذه الحادثة في اليوم الذي منح فيه عمال مزرعته إجازة، وتم القبض على ابنه الوحيد بتهمة أنه من أشعل النيران.

****



شُكره!

-٣٧-

٥:٤٠ مساءً- ١٦ أكتوبر

على مبعدة ثلاثة وستين ميلًا من فندق مئة وتسعة، دفع أكرم ونواف سيارة سفرهما البيضاء المحطمة المقدمة نحو ورشة تصليح أخرى في قرية السنابل تبعد عن الأولى بثلاثة أميال.

كان وجها الاثنين محتقنين بدماء الغضب والقهر، وهما يتابعان المشي، ثم صرخ أكرم في ثورة:

- لماذا علينا طاعة ذلك النكرة؟
- أهذا ما يُغضبك؟ ألم تنتبه أنه يُهيننا أمامها وكأنه ليس هو السبب في وجودنا في قرية السنابل؟!

شحب وجه أكرم لهذه الحقيقة التي صفعت وجهه، ورفعت ضغط دمه، فتوقف عن دفع السيارة لينظر نحو نواف قائلًا:

- أنت محق.. اختطفها فسعينا بكل قوتنا وجُهدنا لإنقاذها منه، ولم نتردد في العودة إلى هذه القرية للبحث عمّا يدلنا عليه في كوخ والديه، وإذا به الآن يُهاتفنا ليدلنا على السبيل الأسرع والأيسر للعودة إلى الفندق كي نسترجعها.. لم أمر في حياتي بمثل هذا الغباء؟
- بل وختم استعجاله لنا بتوبيخنا لوضعنا السيارة في ورشة

اشتهرت بمماطلتها.. ما أدرانا نحن بالعفن المختبئ في هذه القرية الغريبة؟

- الوغد النكرة!

- قُدتُ السيارة لثلاثة أيام ونصف اليوم من العاصمة إلى هنا سعيًا للقبض عليه وتخليص الفتى من بين يديه فإذا به الآن هو من يتحكم بنا كما لو أننا رفاق منذ زمن!

ورنّ هاتف نواف فجأة برقم مايا فأخذ نفسًا عميقًا وقد قرر بثها ما في قلبيهما وإعرابه عن رفضه التام لهذا السلوك غير المقبول من مختطفها الغريب، وارتفع من الهاتف صوت نادر بدلًا منها، يسألهما إن كانا قد بلغا الورشة الأخرى، فتجهم وجهاهما، ألا يدرك الموقف؟ هما يدفعانها بجسديهما فكيف سيقطعان ثلاثة أميال بهذه السرعة؟!

ثم تابع حديثه مخبرًا لهما أنه قد اتفق مع صاحب الورشة الأخرى على إعارتهما سيارته وستمنحه مايا مالًا مجزيًا نظير ذلك ما دامت قرية السنابل لا يوجد فيها خدمة لاستئجار السيارات وستكون سيارتهما رهينةً عنده حتى تُعاد إليه سيارته وإلا فإنه بعد إصلاحها الطويل سيأخذها لنفسه ما دامت أغلى ثمنًا من سيارته.

تجمد الاثنان وهما يسمعانه يخطط لهما مصيرهما دون أن يفكر باستشارة أحدهما، فيما التقطت آذانهما صوت ضحكات مايا وهي تتحدث مع شخص آخر غير آبهة بهما.

ثم سمعا طرقًا من تذمر نادر، وهو يُعيد الهاتف إليها:

- لماذا عليّ القيام بكل شيء؟ لماذا الثغرات التي يخلقها غيري أنا من

يَسدُّها؟ تباطؤهما يزيد من الخطر على رفاقي، والفتى في حاجة لعلاج عاجل.. سحقًا، ما الذي أرجوه وقد اختطفتها أمام أعينهما؟

أخذت مايا هاتفها ثم أغلقت الخط، فانحنى نواف أرضًا بغيظٍ بلغ أقصاه، فيما ركل أكرم عجلة السيارة.. أين حقوق كبار السن؟!

ألا يوجد رحمة في قلبيهما؟!

ولم يلث أن قال بشبه انهيار:

- ليتني دخلت السجن مع أمجد.

ولم يعارض نواف أمنيته، فلقد رحل أمجد وأبقى فَضلَهُ عليهما كالقيد الذي سلم زمامه إلى ابنته الشيطانة التي استغلته شر استغلال.

وفي الشقة، حيث الثلاثة، بعد أن أنهوا الغداء الذي بقي منه أكثر مما أُكل، غمز نادر بعينه إلى مايا بإشارةٍ فهمتها على الفور وبدلاً من طاعته أومأت له برأسها برفض.

سلط نحوها نظرة محتدة بادلته بمثلها، لن تُشغل أخاها حتى تُهيئ له الجو للانفراد بكاظم فهي أيضًا لديها ما تسأل عنه ذلك الوغد.

نقل فارس بصره بينهما بتعجب، وتلك الغمزات المتبادلة بينهما لم تفته إلا أنه لم يُدرك أن كلًّا منهما يرمي بثقل مجالسته على الآخر.

«أحتاج لقيلولة بعد هذا الطعام».

قال نادر وهو ينهض نحو حجرته التي يوجد فيها كاظم، مما جعل عيني مايا تضيقان بحسد، لم يُعجبها أن يجد مهربًا، فقالت:

- قيلولة الآن؟! إنهـ..

ثم صمتت بدهشة عندما وقف فارس فجأة وعيناه معلقتان بنادر، الذي توقف بدوره عن المشي بعد رؤيته لتكدر خاطره الواضح، وهو يسأله بتوجس:

- هل سترتاح ثم ترحل؟

رمته مايا بنظرة ساخطة موبخة فهذا ما حذرته منه، وعندها نظر نادر إليه بإشفاق، فالذنب ذنبه، ثم ابتسم بلين:

- لا.. سأبقى معكما حتى ترحلا إلى العاصمة.

عبارته كانت تصريحًا منه بأنه سيفارقهما في لحظةٍ ما، إلا أن عدة ساعات عنت لفارس الكثير وغمرت قلبه بالفرح:

- بالطبع.. بالطبع.

وحرك عينيه الزرقاوين المنشرحتين نحو مايا، فوجدها تكبت غضبها بصعوبة وهي تراه يمشي مجددًا نحو حجرته ثم قالت فجأة:

- هل حقًّا أوقعك أخي فارس في مشكلة مع رفيقك أحمد؟

تجمدت كف نادر فوق مقبض الباب، فيما حولت نظرها نحو فارس موبخة له:

- فارس، عليك الاتصال به والاعتذار منه.. هذا لا يصح.

كسا وجه فارس الانزعاج مجددًا:

- ولكن مهما اتصلتُ به لا يُجيب اتصالي.. أظنه غاضبًا مني أنا أيضًا.

عض نادر شفته السفلى بغيظ، بينما ملأ عينيْ فارس شعور كبير بالذنب؛ لأنه هو من أوقع بينهما عندما سَلَّط كاميرا هاتفه خلسة على نادر المنشغل بمكالمة رفاقه فغضب أحمد.

طمأنه نادر بابتسامة خفيفة:

- لا عليك.. هو بخير.. لقد فقد هاتفه لذا لم يرد عليك.

- حقًّا؟

- أجل.. لذا لا تهتـ..

قاطعته مايا باستفزاز:

- هذا يعني أنك قد استطعت التواصل معه.. دع أخي يتحدث معه أيضًا، ويعتذر منه.

واستدارت نحوه بجسدها كله، متكئة بمرفقيها على ظهر الأريكة، وقدماها تتأرجحان بعبث عند حافتها، وفمها يتسع بابتسامة زادت من استفزازه، فأجاب:

- هو الآن برفقة رفاقي.. الذين تعرفينهم جيدًا.. لقد تحدثوا معكِ من قبل.

احمرَ وجهها خجلًا، وهي تذكر مكالمتها لهم وتلاعبهم بها، فهمست: «وغدا!».

فيما صاح فارس بحماس:

- الذين ساعدوا في إخراجي من المستشفى؟ دعني أشكرهم وأتحدث مع أحمد.

لانت تقاسيم وجه مايا وما قاله يَصدمها.. هؤلاء الأشخاص قد ساعدوا أيضًا في إخراجه!

نظرت إلى نادر وقد أطلَّ الفضول من عينيها، قد سمعت جانب فارس من مساعدة نادر له، لكنها لم تسمع جانب نادر من القصة.. أرادت سؤاله، ولكن وجهه العابس، ونظرته الناقمه عليها، وهو يُخرج هاتفه ليعطيه إلى فارس جعلاها تفقد الأمل تمامًا.

- هل يمكنني أن أتحدث مع رفاقك أيضًا؟

سأله فارس بلهفة فارتفعت زمجرتان في آنٍ واحد بـ «لا!». ثم تبادل نادر ومايا نظرة متجهمة، حملت رأيًا واحدًا، أحمد لا بأس به، ولكن أولئك العصابة ذات الكلمات القذرة: بالطبع لا.

«مع أحمد فقط».

قال نادر، فقال فارس بنبرة مستعطفة:

- فيديو..

كل ذرة من عقل نادر أرادت الرفض، ولكن الساعات القليلة المتبقية بينهما استجدته أن يرأف به، وبالفعل اختار فيديو وهو يجري اتصاله بأحد أرقام زيد التي يَصعُبُ تتبُّعها، فأجاب زيد وقد بدت عليه الصدمة لأن نادر اختار مكالمة فيديو!

ومن خلف وجه زيد الظاهر على الشاشة رأى نادر صورة الثلاثة؛ أحمد وتميم وحاتم فاستطاع أن يُميز احمرارًا في أعينهم وكأنهم بكوا، أو موشكون على البكاء، أو يكبتون بكاءهم بصعوبة.

حالهم الغريب أفزعه فصاح:

- ما الذي حدث؟ هل اكتشفت الشرطة موقعكم؟

أخذ زيد نفسًا عميقًا بدد به حزنه، ثم قرب الكاميرا منهم فرأى نادر كومة الحطب المرتصة قريبًا من البساط الذي جلسوا عليه، انحنى تميم ينفخ على نارها كي تشتعل أكثر، بينما أخذ أحمد من فوقها إبريقًا قد اسودت قاعدته، راح يصب منه في كاسات صغيرة، شايًا بالحليب، وهو يحدثهم:

- هذا ما كنا نشربه صباحًا في حقل التفاح قبل سجنه.

انفرجت شفتا نادر بصدمة؛ هو يعلم أن أحمد منفتح على الآخرين، اجتماعي، يألفه الناس بسرعة، ويحبونه.. ولكن مع أناس طبيعيين!

فكيف استطاع التوافق مع هؤلاء الثلاثة؟!

مسح تميم عينيه قائلًا بأسف حقيقي نابع من قلبٍ مُحب:

- لقد قسونا عليه من أجل المكافأة، واستهزأنا به بشأن الهاتف المخطوف، في الوقت الذي كان والداه فيه قد توفيا قبلها بيومين دون أن يُخبرنا حتى.

- يا رجل هو هكذا لا يُفصح عما بداخله.. وما قمتم به من أجله في السجن يُكفر عن ذلك كله.

وناوله كأسه فيما حكّ حاتم رأسه ببعض الحرج:

- أنت تختلف قليلًا عما كُنتُ أظنه عنك.

ضحك أحمد، وعدّها مجاملة، فيما لم ينتبه الثلاثة للكاميرا المسلطة

عليهم، والتي أعادها زيد إلى وجهه فرأى نادر عينيه اللتين احمرتا فجأة، وهو يخاطبه بإشفاق:

- لو أخبرتنا أن والديك قد ماتا في اليوم نفسه لم نكن لنتركك، ولجئنا للعزاء ومسـ..

واصطدمت شاشة هاتف نادر بصدر فارس، وأنفه يتجعد بتقزز:

- خذه واذهب إلى حجرتك ولا تدعني أراهم مُطلقًا.

رمش فارس بعدم فهم فأردف نادر بارتباك:

- أقصد لا تدع أحمد يراني وإلا فإنه قد يغضب مجددًا وقد لا نتصالح هذه المرة.

حملت عينا فارس جدية كبيرة، وأخذ تحذيره على محمل الجد، فركض إلى حجرته، فيما تحركت شفتا مايا بابتسامة متحمسة وقفزت عن الأريكة نحو حجرة كاظم؛ فأخوها الآن مشغول وليست بحاجة لمجالسته.

أخرجت مفكرتها السوداء وقلمها الذهبي من جيب داخلي في قميصها الخمري الداكن فسمعت نادر يقول بغيظ:

- ألا يُمكنكِ لمرةٍ واحدة أن تنفذي ما آمرك به دون تضييع للوقت؟

- الأمرُ هو: لماذا قد أُطيع أمرك؟

ضاقت عيناه بغضب، فابتسمت بتكبر:

- كلانا ليس مضطرًّا لسماع أوامر الآخر ولا تنفيذها؛ فلا شيء يربطنا بعضنا ببعض.. ثم لا تنسَ أنني أنا الآن من تدبرت أمر أخي وأشغلته.. عليك أن تكون مُمتنًّا.

ودفعت بشعرها المموج إلى الخلف، ثم تحركت نحو الحجرة، لكن استوقفها فجأة بقاؤه في موقعه دون أن يلحق بها، نظرت نحوه بحيرة، منتظرة مرافقته لها، دون أن تدري أنه في هذه اللحظة كان يُغالب نفسه عن إظهار الامتنان الذي نصحته به، ولكن بطريقة لن تحبها هي!

وانتبه هو الآخر لحالها، لثانية فقط، ظهر ذلك في عينيها الواسعتين، وكفيها المنقبضتين، إلا أن عسليتيه رصدتاه، فصدرت (تشه) مستهزئة من بين شفتيه جعلت وجهها يشتعل غضبًا وتصرخ:

- ماذا؟

- لا شيء.

وابتسم باستخفاف وهو يتقدمها نحو الباب فَاحْمَرَّ وجهها حنقًا وحرجًا، وعقلها يُخبرها أنه قد كشف خوفها، فصاحت:

- لستُ خائفةً منه.

- لا بأس.. لا بأس.. ما زلتِ بشرًا في نهاية الأمر.

- ما معنى هذا؟

- لا تدعيه يكتشف ذلك.

(يكتشف ماذا؟ أنها بشر أم أنها خائفة منه!) لم تعد تدري أيُّهما أغضبها أكثر فارتفع صوت طحن أضراسها بعضها لبعض.

فيما دخل نادر إلى الحجرة فرأى تغير موقع كاظم بعد أن كان بعيدًا عن الباب، كان قد أفاق منذ وقت وقد بذل جهدًا عظيمًا في محاولة تمزيق قيوده حتى أن الدم قد بلل الخيوط المشدودة والمغروسة في ساعديه وقدميه.

لم تُظهر العسليتان أي تعبير وهو ينحني نحوه ليسحبه بقوة، فتفاجأت مايا برؤية عيني كاظم الميتتين وكأنما دبت فيهما الحياةُ فجأةً فعكستا أخيرًا بعض رد الفعل؛ فقد اتسعتا بشدة وغزاهما بهوت كبير حتى أن شفتيه قد انفرجتا، ونظره لا يبتعد عن نادر أبدًا.

فبالتأكيد، لم يكن مقامُ الشك ليرتقي أبدًا إلى مقام اليقين، الذي عصف بكل ذرة من شعور كاظم، فانفجر الغضبُ جليًّا على وجهه الممتقع، وعيناه لا تزالان مسلطتين بحقد على نادر، فقد أثار ياسر الشك في نفسه من قبل بأنه هو السبب في مصيبتهم إلا أن عقله لم يستسغ هذا الاتهام، وأراد بالذهاب خلفه أن يوقف وساوس نفسه ليس إلا.

أجلسه نادر على أحد المقاعد في الحجرة، ثم جلس هو على آخر، في مواجهته، وقد أعجبته النظرة الممتلئة صدمةً في عينيه.

على حين اقتربت مايا من كاظم، وسحبت بعنف قطعة اللاصق المغطية لفمه، فانتزعت معها بعضَ شعر شاربه الكث، وسرّها سماع شهقته المتألمة، وهي تجلس في مواجهته إلى جوار نادر، فراوح كاظم نظره بينهما غير مُصدق أنهما في الصف نفسه!

متى وكيف وأين استطاعا عقد مثل هذا التحالف الذي فاته هو وفاضل؟

ثم عاد بنظره إلى نادر، هل من الممكن أنه منذ البداية كان خارج رقعة خطتهم؟

قد أعلن فاضل أمامه عن تفاصيل خطته للاستيلاء على الإرث، وعرض عليه أن يُشركه فيها فَصرَّح أمامهما عن موافقته بحماس ثم دعم فاضل بشدة، ولكن...

ماذا لو أنه هو من وزع الأدوار عليهم فجعل من نفسه أمامهم حليفًا بينما كان هو الخصم وهم ضحيته؟!

إن كان كذلك فهو أدهى وأخطر مما تصور؛ فبحديثٍ واحد بعد فقدان الفتى، قد جعل من جميع الحلفاء خصومًا...

كان بصدد الحديث أولًا، ولكن نادر تكلم بنبرة أثارت الوجل في قلبه:

- انظر إلي.. بالرغم من فقداني لوظيفتكم ما زلتُ حيًّا ولم أمت جوعًا أو فقرًا.

أدرك كاظم أنه يستهزئ، ورغم ذلك لم ترمش عينا نادر، أو تبتسم شفتاه، كان هادئًا بشكل مريب ومخيف، وعندئذ صدقت مايا ما قاله لها عن أنه في تعامله معها كان متسامحًا للغاية، وبالفعل، جديته الشديدة أحدثت ضغطًا في الحجرة ظهر أثره على وجه كاظم الذي لطالما عاملها باستخفاف على عكسه الآن فقد بان حذره الواضح منه وهو يعتدل في جلسته.

- لماذا أخرجته من المستشفى؟

السؤال الوحيد الذي لم يستطع كاظم كبح نفسه عن إلقائه.

- لأنني الأنسب لذلك فمجرم سيئ السمعة مثلي لن يُظن به فعل الخير.

أجاب ببرود وظهر مقعده يمتلئ بكتفيه، وبالفعل هذا ما صرف الجميع عن الشك فيه، ولكن لم تكن هذه الإجابة التي أرادها كاظم فوضح بهدوء:

- أنت تعلم ما أعنيه.. لقد أغراك فاضل بمال يُغنيك عن العمل، وعن مد يدك للآخرين لعشر سنوات قادمة، ولم يكن حالك يسمح بالرفض فسجلك ملوث بسابقة جنائية ليست بهينة ولا أحد يوظف من هو مثلك حتى أنه قد ضمن لك الوظيفة الدائمة.
- لأنه بالرغم مما وصفت به من أنني مُجرم وسجين سابق فما زلت كما أنا، دخلت السجن مسلمًا وخرجت مسلمًا.. أنا لم أغير ديانتي وأعلم معنى أن يكون الإنسان مُظلومًا وأنه يستحق أن يُرفع الظلم عنه.

وظهرت ابتسامة طفيفة ساخرة على جانبيْ شفتيه للاستهجان الذي تفجر على وجه كاظم، فأن تخرج مثل هذه العبارات الحكيمة من فمه هو، ذلك لا يناسبه إطلاقًا.. ثم قال بتهكم:

- رأيت، لم يكن ليظن أحد أنني أنقذته لهذا السبب النبيل.

وازدادت ابتسامته اتساعًا، فضاقت عينا كاظم وقال بحدة:

- لقد نبذت الثروة التي وعدك بها فاضل.. فماذا جنيت من إخراجك له؟

اشتدت أصابع مايا بغضب على قلمها الذهبي، فيما استطرد كاظم باستصغار:

- الفتى لم يكن سوى حطام بشري، لا عقل له، يهاجم هذا وذاك دون تمييز، ولم يُحسن حتى صياغة الكلمات.. ماذا جنيت من تهريب قمامة بشرية مثله؟

أحدث صوت القلم الذي سقط من يد مايا ضجيجًا، ووجهها

يشحب للوصف الشنيع الذي وَسم به أخاها، ولم يجعل منه ذاك الشخص البائس غيرهم.

انحنت لتلتقط القلم وأخرجت سنه الحادة، طعنة واحدة في فخذه ستؤذيه ولن تقتله.. ولكن ارتفع صوت نادر فجأة بهدوئه نفسه:

- شُكره.

ارتخت أصابعها مجددًا وكاد القلم يُفلت من بينها، فيما انفرجت شفتا كاظم، ونادر يهز كتفيه مؤكدًا جوابه:

- جنيتُ شكره.

ضاقت عينا كاظم بغضب، فيما أردف نادر بجدية:

- أخبرني الفتى أن شكره ثمين وهو لا يمنحه لأحد بسهولة لذا قبلت به.

ورفع حاجبيه:

- أنت لن تصدق: هو حتى ابتسم لي وهو يَنطِقُ به.

ولأول مرة منذ دخولها ترى مايا في عينيه دفئًا وارتياحًا عميقين، وكأنما كل ذاك الضغط قد تلاشى دفعة واحدة.. فيما تحركت شفتا كاظم بابتسامة جانبية وهو يقول:

- أتدَّعي الآن القوة لاستعادة كرامتك بعد تأديتك دور الجبان أمامنا؟

- ولِمَ لا تظن أن هذه هي حقيقتي؟

اصفَرَّ وجه كاظم، فيما استطرد نادر ببرود:

- الآن، لا شيء قد يتأذى.. الفتى بمأمن ووصل إلى أسرته.. كما أنه لسوء حظك لم يعد هناك من سيتضَرَّر لو تأذيت.. لذا ليس هناك حدود لما أنا قادر على فعله..

وابتسم بتهديد: «بك».

انقبض قلب كاظم بفزع، وهو يذكر كيف انهالت على وجهه لكماته دون أن يُبالي لو قتله، بل من شدة عنفه لم يُميز وقتها حتى من الذي كان يضربه.

بل وإلى هذه اللحظة لا زال يتعذب بسياط من ألم في موضع ضرباته، ولولا اعتياد جسده الألم لأفرجت شفتاه عن صيحات توجع، وعلى الرغم من رؤيتهما لوجهه شبه المحطم وقدمه التي تقطرُ دمًا وأغرقت الأرض تحتها، لم يتحرك قلباهما برحمة نحوه، ولم يقدما له ولو شاشًا يربط به جرح قدمه، أو يَمسح به أثر الدم عن وجهه.

تلك الرقّة التي تمناها أصابت قلب مايا، ولكن ليس عليه، بل على نادر، فوالداه لم يموتا إلا قريبًا، ومع ذلك فهذا ليس مبررًا لمحاولته قتل كاظم.. ألا تُهِمُّهُ نفسه؟!

«الطائش! هذا ما أكرهه فيه».

همست بها لنفسها ولم يخفف من وطأة استيائها من صفته هذه إلا أنه في حديثه قد ضمّ فارس إلى والديه في أنه السبب في سيطرته على عنفه وتهوره.

وعاد كاظم ليتصدَّر المجلس بأسئلته لولا نبرة نادر الحازمة التي أخرسته:

- فسحتك للسؤال انتهت.. دوري الآن.

تغضن جبينه فيما ضاقت عينا نادر بشدة:

- ما هي علاقة ياسر بفاضل؟

لم يُجب كاظم، واكتفى بإعادة ظهره إلى الخلف، وعيناه الجاحظتان تواجهان بجرأة عينيْ نادر الحادتين، والذي شبك بين كفيه ثم اتكأ بمرفقيه على ركبتيه لينحني نحوه مستطردًا:

- إن بقيت صامتًا هكذا فلن أعرف.

عبارته بلغت بتهديدها أعماق كاظم الذي سأله بتعجب:

- لِمَاذا أنت فضولي بشأنه؟

- قَتْلُهُ لِلطِّفلَةِ ثم تَشوِيه جسدها أمام عيني أخيها لا معنى له؛ فلم تكن جزءًا من عائلة بسام ثروت ولا حظَّ لها في ورثه أو وصيته، ثم لَازَمَ فارس لتسع سنوات يُعذبه حريصًا كل الحرص على الزيادة من اضطرابه.. أرى أنه هو الآخر قد سجن نفسه برفقة الفتى برضًا تام.. ذلك ليس طبيعيًّا.

- غير الطبيعي هو فضولك حوله، وكأنك مهتم به، بالرغم من أنك قد كِدْتَ تقتله أمام أعيننا.

علم نادر أنه يراوغ ويتهرب من إجابته، ومع ذلك رد بثقة:

- فضولي هذا هو السَّبب في فقدانكم للفتى بعد تحقيقي في ماضيه.

وابتسم مستفزًّا له، فقال كاظم بتهكم:

- أتعيشُ الآن حُلم طفولتك المسلوب؟

لم تفهم مايا ما يُلمح إليه، إلا أن عيني نادر أظلمتا تمامًا، وكاظم يستطرد:

- عُدْ إلى واقعك.. لن تُصبح محققًا ما حييت.. أنت لست إلا صعلوكًا يتمرغ في وحل جريمته.. ماضيك قد أفسد مستقبلك فرفضتك جميع الوظائف، وستُدرك عِظَمَ الفجوة بينك وبين رجال الشـ..

واختفى صوته، واختفت معه معالم فمه إثر قبضة نادر التي جعلت الدم يفيض غزيرًا من بين أسنانه التي بصق مع دمه إحداها، ثم رفع عينين تفيضان ضغينة وشراسة نحوه، وانقض إلى الأمام محاولًا الانتصاف لنفسه منه لكن ثبات من أمامه وعدم ابتعاده ولو إنشًا واحدًا وكأنه يريد سببًا آخر فقط ليكرر تلك القبضة الثائرة جعلاه يتجمد في موقعه..

على حين أصاب مايا الفزع فتراجعت بمقعدها إلى الخلف، وقد سلطت نظرة ساخطة على نادر؛ فما تلقاه كاظم منهما بالكاد يُبقيه حيًّا..

«إياكِ أن تفتحي فمك!».

رماها بهدوء مخيف جعلها تُطبق فمها بوجل، آخذةً تحذيره على محمل الجد، فلم يبدُ لها في وضعه هذا مستعدًّا لتقبل أي توبيخ أو انتقاد، واتسعت عيناها بصدمة لقبضته التي ظلت تهتز بغضب عنيف..

أيعنيه هذا الحلم إلى هذا الحد؟

- لسوء حظك فهذا الصعلوك لم يُمنح فرصة ليُمارس دور المحقق إلا مع ما يدمر مصالحك أنت ورئيسك.

قال نادر وهو يستعيد هدوءه من جديد، فيما بقي كاظم يصق دمه النازف وقتًا طويلًا قبل أن يسمعه يكرر سؤاله بصرامة أكبر:

- لماذا ياسر رافق الفتى لتسعة أعوام راميًا بحياته عرض الحائط؟

- أليس لديك عقل؟ من أجل المال بالطبع.

- كاذب.

قالها بحدة حاسمًا كذبه، فتجعد جبين كاظم، فيما اعتصرت مايا مفكرتها وتساؤله يثير استغرابها هي الأخرى:

- لماذا سيسعى خلف أخي إن لم يكن وعده بجزء من الورث؟

«لا تتدخّلي!».

قاطعها بغلظة فتَطَفّلها سيعرقل سير استجوابه، ويقوي من حجة كاظم الماكرة، ثم وجّه حديثه له:

- ذلك الرجل لا يبدو لي كشخص يُقدس المال.

- ولماذا يُهمك هدفه؟ لقد خلصت الفتى منه ولم يعد وجوده يشكل أي قيمة لفاضل.

- من الأفضل معرفة ذلك؛ فما أدراني أنه لن يسعى خلف الصبي مجددًا بمحض إرادته؟

لم يكن قد أنهى جملته بعد حين فاجأته ابتسامة كاظم التي ظهر معها صف أسنانه الدامي، وهو يَرُد:

- هذا صحيح.. ياسر يسعى لهدف آخر.. هدف بعيد كُلّ البُعد عن المال.. لقد نجح بالهرب منا بعد أن نشب خصام بينه وبين فاضل وقد تَوعَّدَ بقتل الصبي..

أطلقت مايا شهقة هلع أفزعت الاثنين، ثم وقفت، وباغتت كاظم بدوسها على قدمه المصابة بكعب حذائها، فارتد نادر للخلف، فيما لم يكبح كاظم أنين توجعه، وهي تصرخ به:

- لماذا لم تقيدوه جيدًا؟ أنتم حثالة لا تنفعون لشيء.

انحنى كاظم كاتمًا ألمه، فصفعت رأسه بمفكرتها:

- حرصكم المقزز لسنوات من أجل حماية هدفكم لم يختل إلا الآن.. أيها الحقير، لو قتله فستفقدون أيضًا الإرث الذي سعيتم خلفه.

- وهذا مايريده: أن نفقد المال.. ألم تفهمي؟.. لم نعد في الجانب نفسه.. لقد افترقت طُرقنا بفضل هذا الشيطان.

وحول كرتين كالجحيم نحو نادر الذي استقبله بعينين ضيقتين ومجددًا ألقى سؤاله:

- ما هو هدفه إذًا؟

وعلى الرغم من ألم كاظم فقد اتسعت عيناه لصبر من أمامه، فلم يَحِدْ عن السؤال نفسه منذ بدأ استجوابه له، وتحركت شفتاه بغتة بابتسامة مُستفزة جعلت نادر يبتسم بدوره، ويقول بذكاء أثار ذهوله:

- رغم أنك في حالٍ بائس ومُقيد إلا أنك لم تيأس من أن رئيسك فاضل قادر على انتزاع الصبي من بين أيدينا، لذا قررت مشاركتنا هذه المعلومة حول هرب المجرم ياسر حتى نكون أكثر حذرًا،

ونحمي الفتى منه إلى أن تحين الساعة التي تنجحان فيها باسترجاعه منا.

استنتاجه صدم مايا، ودفع باحمرار إلى عينيها، هل هناك في الحياة ما هو أقسى وأقذر مما فكر به؟

الوغد! يكاد يموت ألمًا، وفقد الكثير من دمه، ورغم ذلك فقد أعمى المال عينيه، وأزكم أنفه، فراح يخطط بكل خبث للاستفادة مما هو فيه باستخدامهم كجسر يعبر عليه هو وفاضل إلى أخيها فيدمرانه بأيديهما بدلاً من أن يدمره ياسر.

«ما الذي يسعى خلفه؟».

كرر نادر بعناد، وهو يقف مستعدًّا لانتهاج أسلوب أشدَّ وحشيةً وعنفًا معه، فالوقت ليس في مصلحته، وفارس قد يُنهي المكالمة في الدقائق القليلة القادمة، على حين اتسعت ابتسامة كاظم، وارتد بظهره للخلف، وعيناه تتحركان نحو الواقفة التي ملأ وجهها غضب عنيف، لم تكن التفاتته إلا لثانية واحدة فقط، ثم عاد بنظره نحو نادر فوجد حدقتيه قد اتسعتا باستهجان عظيم.

ارتباك كاظم لزلته، زاد من يقين نادر وصدمته، فحوّل نظره نحو مايا ليرصد انفعالها إن كانت هي الأخرى قد فهمت، إلا أنها ظلت على بلاهتها عالقة في دناءة حارس عمها، ثم انحنت فجأة على مفكرتها تُسجل فيها بسرعة..

وفي أقل من دقيقة استرجعت ذاكرة نادر تفاصيل الأيام التي قضاها برفقة ياسر، وانبرى عقله يُحلل شخصيته ثم شحب وجهه فجأة..

استماتته الغريبة على عقد صداقة معه لم تكن طبيعية أبدًا، بل كانت أقرب إلى هوس مرضي! لم يكن ينثني عن التصريح برغبته تلك مرارًا وتكرارًا على الرغم من صدٍّ نادر له بوقاحة..

أخبره أن لديه خطيبة، لكنها لم تشغل باله عن السعي لصداقة رجل نكرة التقاه للتو!

وقضى ما يقرب من الخمس عشرة ساعة يوميًّا برفقة فارس، والمتبقي من الساعات بالكاد يكفيه للنوم، بل قبل قدوم نادر كان يرافق الفتى ليومٍ بأكمله؛ فكيف كان يجد الوقت للقاء عائلته أو خطيبته هذه؟

وسمّر عينيه باستهجان تام على مايا: ما علاقتها بياسر؟

بدا له الأمر غريبًا فعند مشاهدتها للفيديو لم تُظهر أي تعبير ولو طفيفًا عن معرفة سابقة به!

على حين بقيت مايا تشتم، وتُتمتم بخفوت بقسم مغلظ أنها لن تسمح بأن يخرج كاظم من هذه الحجرة إلا للسجن، لن تمنحه الفرصة لارتكاب عمل ولو صغيرًا قد يضر بأخيها، ولكن عليها قبل سجنه أن تنتزع منه كافة المعلومات التي تحتاجها لإسقاط عمها...

رفعت وجهها عن المفكرة بعد أن استعادت تعبيرها الهادئ، ثم جلست في مواجهته، وقد حمل صوتها جدية شديدة:

- الوصية لم يكن ليُدَوِنَها بسام ثروت باسم فارس يتبعه اسم راكان، لا بد أن تحمل اسمه هو؛ فكيف استطاع فاضل إثبات نسب أخي إلى عائلتنا؟

اكتفى نادر بتلك النظرة من كاظم كإجابةٍ لسؤاله، لذا سلّم مهمة الاستجواب إليها عن طيب خاطر، وقد عكست عيناه استحسانًا طفيفًا للسؤال الذي اختارته..

الحصول على منجم من المعلومات لم يكن ليحلم الاثنان به في منامهما حتى لذا استغلاله إلى آخر قطرة من دمه هو السبيل الأمثل لعدم ندمهما لاحقًا..

«أجب!»

أَمَرَهُ نادر بغلظة حين رآه يُقرر الصمت أمامها. كان الألم قد بلغ بكاظم مبلغه، ومع ذلك قاوم دوار رأسه، وهو يلملم عدة كلمات ليُجيبها بها:

- ولماذا تظنين أنه قد أثبت نسبه؟.. (فارس أمجد بسام ثروت) ليس موجودًا وما زال كذلك.
- كُفَّ عن الكذب.. ذلك العجوز يُبغض أسرة راكان أشدّ البغض ولم يكن ليسمح بأن يُسجل في وصيته اسم راكان.
- بما أنكِ تعلمين ذلك فما الفائدة من السؤال؟ لقد أثبت عمك ذلك وانتهى الأمر.

ابتسمت براحة:

- هذا يعني أنه زَوَّر التقارير الطبية فاستنادًا لنظام القضاء لن يُقبل قانونيًّا تطابق الحمض النووي - لفاضل مع الخاص بأخي - كدليل على النسب ما لم تكن العينة أُخذت من الأم والأخت أيضًا بما أن الأب متوفًّى، ولم يحصل فاضل على ذلك منا، ولن يظفر

به أبدًا.. سأطعن في المستند المُقدم منه للمحكمة بأنني وأمي لم نمنحه عينة لإجراء الاختبار وأنه قد زَيَّف ذلك بنفسه.

وصمتت وعيناها تعكسان ثقتها التامة فهيَ مُحامية ولم يكن ليفوتها هذا الأمر، ففاضل ليس قريبًا من الدرجة الأولى، وخمسة وعشرون بالمئة من تطابق الحمض النووي لن تعني شيئًا في إثبات النسب..

«حمدًا لله».

تمتمت بابتسامة مرتاحة لحصولها أخيرًا على إجابة لسؤالها.. ستمتنع هي وأمها عن إثبات نسب فارس إلى أسرة بسام ثروت، وبذلك ستُعيده إلى أسرة راكان، إلى الأمان حيث الرجل القادر على حمايته من دناءة وقذارة عائلته الحقيقية..

والإرث؟

ستجد الحل لاحقًا لكيفية الاستيلاء عليه وإعطائه لأخيها ثمنًا لكل ما مر به على أيديهم.

ثقتها الواضحة جعلت كاظم يرمقها بسخرية دون أن يظهر عليه أدنى قلق أو توتر من تهديدها له بأنها لن تُثبت النسب..

وفجأة حلَّ الصمت بين الاثنين، فأرجح نادر بصره بينهما قبل أن يُركزه على مايا التي اتسعت عيناها بغتة لتذكُّرها شيئًا ما، فاهتز القلم بين أناملها، ثم نظرت إلى كاظم الذي استمر في هدوئه فاشتدَّ شكُّها إلى الحد الذي سُحب معه اللون من وجهها.

حالها الغريب فجر في عقل نادر فكرة جعلت وجهه هو الآخر يعكس استهجانًا شديدًا..

إلا أنه لم يُفصح عن فكرته ولم تُفصح هي أيضًا عما يدور في رأسها، وقبضتها تشتد على القلم، ولولا أنه صُنع من المعدن لكُسر بين أصابعها..

كان ذلك قبل أربع سنوات، حين أخبرها فاضل أنه يحتضر، عادت إلى الوطن لتوديعه، ولكن والدتها أصرّت على مرافقتها لتواسيها في حال فقدته كما فقدت والدها من قبل.

كان فاضل يعاني من تليف الكبد وقد استعدت مايا للتبرع له، فخضعت للعديد من الفحوصات الطبية، وأجرت أمها هي الأخرى فحوصات دورية بناءً على نصيحة من طبيب ثم وقعتا الكثير من الأوراق برضًا تام في وجود آلات التصوير الرقمية التي تثبت موافقتهما، ولم تقرأ المكتوب ولم تهتما..

فهل كان أخوها فارس في حجرة أخرى بالقرب منهما دون أن تعلما؟

فشفاء فاضل الغريب بمجرد انتهاء الفحوصات كان كالمعجزة التي لم تستطع تفسيرها في ذلك الوقت، لكنها الآن أحسَّت بحرقة شديدة تغزو عينيها اللتين كبتتا دموعهما بالقوة حتى لا تُسعد هذا الوغد الذي آذاها منذ أن كانت طفلة..

فيما لم يستطع نادر أن يلومها؛ فمن السهل أخذ عينة منها ما دامت تزور عمها باستمرار وتربطها به علاقة، فحتى أذكى البشر لم يكن ليمنع هذا..

زفر بانزعاج، بينما بدا الحزن عليها رغمًا عنها، لقد استغفلها فاضل

إلى أقصى حد مستغلًّا حبها له، ورغم شعورها بعدم قدرتها على تحمل المزيد من الصدمات المُبرهنة لها على عظم غبائها إلا أنها وجدت نفسها تصيح بعصبية:

- أيها الحقير!.. لقد قلت لفاضل إنه كان عليه قتلي بدلًا من نفيي، ما الذي كنت تعنيه بقولك هذا؟

كان كاظم لا يزال متماسكًا رغم ما تلقاه من كليهما فرمقه نادر بامتعاض شديد وهو يجيب سؤالها ببرود:

- ما تظنينه صحيح.

وتألقت عيناه الجاحظتان باستمتاع كبير حين رأى الصدمة في وجهها لأنه لم ينفِ ما ظنته، لكنها لم تلبث أن أطلقت ضحكة صاخبة، وانحنت نحوه:

- كاذب.. أنت كاذب.. أنت تأمل بتزييفك للحقيقة أن تداوي بعضَ جرحي كرامتك وكبرياءك اللذين دستُ عليهما.. لم تكن تظن أن ابنة أمجد قد تكبر يومًا ثم تقف في وجهك، بل وتضربك.

رصد نادر الغضب في وجهه دون أن يُدرك المراد من حديثهما، ولم يهتم إطلاقًا. استرخى في مقعده أكثر، مستمتعًا بنقاشهما؛ فالجلوس بمفرده برفقة مايا وفارس إلى أن يحين قدوم الرجلين سيكون مُتعبًا لذا فليحمل كاظم عنه شيئًا من ذلك.

- لا أُنكر أنكِ تعلمتِ بعض الأشياء.. كانوا مُحقين إذًا؛ فجحيم لندن لا يرحم.

رد بابتسامة، وسرّه أن رأى بهوت عينيها للألم الشديد الذي هاجم روحها حينما انهالت الصور القديمة على ذاكرتها، بينما لأول مرة ينتبه نادر أن فارس قد أخبره عن رحيلها إلى لندن في عمرٍ صغير فحوّل نظره المتسع نحوها..

مُراهقة لم تُلمّ بعد بقوانين بلدها، كيف ستُلمُّ بقوانين بلد لم تزره من قبل؟

بلد يخلو من جميع المظاهر الإسلامية والعربية المألوفةِ لعينيها..

بلد ساوَى بين الرجل والمرأة في كل شيء، مساواة مُطلقة أسقطت التكاملية وعظَّمت التماثلية..

بلد جمع في مبنًى واحد دارسيه ممن لا يعتقدون بحرمة الملامسة بين الرجل والمرأة!

كيف احتملت كل ذلك؟!

رأى ارتجاف شفتيها، ووجهها يعكس قهرها الشديد من شماتته بها، لكنها فقدت تماسكها حين أردف:

- ما تظنينه صحيح.. لم تُنقذي أحدًا بما فعلته.

وفي هذه المرة لم يسقط على الأرض قلمها الذهبي فقط، بل ومفكرتها السوداء وهاتفها حينما هبت واقفة بشبه صدمة، فسألها نادر بحدة:

- ما معنى هذا؟

لم تُجبه رغم مرارة الألم المتصاعدة إلى وجهها، فيما أخرج كاظم حقده كله عليها في عبارته التالية:

- كُلَّ ذلك كان هراء قال عمك إنكِ ستُصدقينه وبالفعل كُنتِ بلهاء جدًّا وصدقته.

وقف نادر بسخط بعد أن تجاهله كلاهما، وكان سخطه الأكبر على مايا فعلى الأقل فلتخرج إن كانت ستظل صامتة ووجهها يكشف أثر كلماته السامة عليها، وقبل أن يأمرها بالخروج لم يُضيع كاظم فرصته وهو يتذكر قتاله معها بالخارج فلولاها لكان فارس الآن في سيارته المتجهةِ إلى فاضل، لذا ضاعف من جرعاته السامة القاتلة لقلبها بقوله:

- رحلتِ للا شيء.. لن يمتن لكِ أحد، وسيجحد الجميع تضحيتك؛ لأنه لم يكن هناك حاجة لذلك من الأصل.. رحـ..

وأخرس فمه صفعة قوية هوت على فكه من كفها اليمنى، وهي تعض شفتها السفلى بمرارة مانعة نوبة بكاء تكاد تخونها وتُرضي عينيه المستمتعتين..

«جيد».

همس نادر بعد أن أوقف قبضته في منتصف المسافة، فيما حوّل كاظم عينيه الشرستين نحوها، وقد ساءه جرأتها عليه و.. تلقى فكه صفعة أخرى منها وأخرى.. وأخرى...

زمجر غاضبًا، ونهض نحوها رغم قيده، فارتد جالسًا بعنف إثر ساق نادر التي رزحت بثقلها فوق فخذيه، مثبتًا له، وهو يقول بابتسامة مستمتعة:

- يا رجل.. دعها تُفرغ ما بداخلها وإلا فإن كتمانها له قد يرتد بالسوء على صحتها لاحقًا.. كما وأنك أيها الحثالة مَدِينَ لها بصفعة.

ولكنها لم تنتبه إطلاقًا لمساعدته لها، وكفها ما زالت تصفعه وتصفعه وشفتاها مُطبقتان بألم كبير.. مُنذُ اللحظةِ التي رأتهُ فيها يجر والدها نحو رجال الشرطة ليكبلوه بالأصفاد، وقلبها يحمل عداءً وبغضًا له..

أرادت أن تضربه، أن تُفرغ ضغينتها ضده، وحظيت بفرصتها أخيرًا، لكنها لم تعتقد أبدًا أن هناك ما هو قادر على أن يُثير حقدها عليه أكثر من ذاك الماضي.

توالت صفعاتها حتى أن نادر رأى التهاب كفها بحمرةٍ شديدة، واشتعل فضوله كما اشتعل حين رأى فارس في المستشفى بذاك الحال البائس والمؤلم أمام عمه فاضل الذي جفاه ونبذه، فتحرك قلبه نحوها بشيء من الشفقة فعيناها المحتقنتان تحملان خلفهما انكسارة قلب أكثر من كونها غضبًا.

صرخ كاظم بكلمات متحشرجة انتشر معها دمه النازف من فمه:

- افعلي ما يحلو لكِ.. لأنكِ لاحقًا ستموتين ببطء، ومهما توسلتِ لن أقتلك إلا بعد عذاب طويل لن يتعرف معه أحد على جسدك.. وما دام عَمُّكِ يعلم أنكِ هنا فلن يُمانع إيذائي لكِ عندما أُخبره أنكِ هنا بهدف حماية الفتى منـ...

وتوقفت فجأة كف مايا المرتفعة حين أمسكها نادر بقوة، وعسليتاه تكشفان عن غضب مريع:

- فاضل يعلم أنكِ هنا؟

نظرت إليه بوجوم وما زال عقلها عالقًا وسط ذاك الألم فهزها بقوة:

- تكلمي!

فأجابته بتشتت:

- نعم.. ولكني تصرفتُ معه.

اتسعت عينا نادر عن آخرهما وارتخت كفه عن ساعدها المغطى بكم قميصها الخمري الداكن:

- أنا أتفق مع عملكِ وهذا الحثالة في شيء واحد فقط.. أنكِ بلهاء للغاية.

رمته بنظرة عصبية متألمة، على حين تلقى كاظم على أنفه لكمة عنيفة أسقطته في غيبوبته مجددًا دون حاجة لصاعقها، ونادر يصيح:

- لنرحل!

رمشت بجفونها عدة مرات مُكذبة ما سمعته، ثم انتفضت فجأة ووعيها يعود إلى الواقع، فأشارت نحو كاظم الفاقد الوعي صائحة بجزع:

- لا يزال لديَّ ما أسألهُ عنهُ.. لماذا أفقدته الوعي؟

أخرج نادر من خزانة حجرته حبلًا، ثم لفه بقوة حول جسد كاظم ليثبته إلى المقعد، وشدّ العقدة عدة مرات، وهو يأمرها بصرامة:

- أخبري فارس فليتهيأ بسرعة وجهزي حقائبكما.. سنرحل حالًا.

تأملته بجمود لثوانٍ ثم سألت:

- إلى أين؟

- إلى العاصمة بالتأكيد.

- معك أنت؟!

حمل صوتُها دهشتها الكبيرة، فقال بسخط:

- ومع من إذًا؟!.. لديكِ رجال أغبياء لأنكِ أنتِ أغبى منهم وليس العكس.

- ألن تتوقف عن وصفي بالغبية في كل جملة تقولها؟

أخرجتها حاملة غضبها فوقف أمامها فجأة مُصرحًا بغيظ:

- ألم تظني أن فاضل قد يُرسل رجالًا إلى هذا الفندق ما دام يعلم أنكِ فيه؟.. انقطاع اتصاله بحارسه سيجعله يرتابُ بكِ؛ فالوحيد المُهدد له والقادر على انتزاع وصاية فارس منه هو أنتِ الشريكة له في نفس الاسم.

كلامه منطقي للغاية ومع ذلك فقد فكرت بذلك الاحتمال، فقالت بحدة:

- حتى لو فعل وأرسل رجاله فرحلات الطيران متوقفة وسيأخذ رجاله أكثر من ثلاثة أيام للوصول إلى هنا بالسيارة وعندها سنكون أنا وأخي قد رحلنا مع المُسِنّين.

بدا وكأنه سيفقد أعصابه وسبابته تمتد لجبهتها دون أن يلمسها:

- ألم يُخمن رأسك الفارغ هذا أنه قد يمتلك رجالًا هنا؟! قد يتصل بمديرية شرطة الجنوب بدعوى أن أخاكِ مُختطف فيها فيجتذب كل رجال شرطة قرية السنابل وضواحيها بمكافأته.. هو ذو صلة كبيرة برئيس شرطة العاصمة ويتشارك مع نائب رئيس الشرطة في مصلحة واحدة وبالتأكيد ذلك الوغد لديه سلطة على من هنا وقد...

بتر عبارته حين شهقت بقوة ووجهها يعكس صدمتها، فهي لم تُفكر بذلك على الإطلاق، على حين زفر بإرهاق وهو يخرج من الحجرة من بعدها ليغلق الباب على كاظم بإحكام.

أسرعت إلى الحجرة لتجمع أغراضها، وهي تتمتم بغيرةٍ واضحة:

- ليس الأمر أنني غبية، بل هو من لديه عقل مجنون بالارتياب.. تبًّا!.. كيف لتفكيره أن يذهب إلى هذا البُعد؟ لهذا لم يستطع أحد القبض على أخي.. لأنه معه..

ولم تكد تقترب من باب الحجرة حتى عبست بشدة؛ هل عليها أن تُغلق حقيبتها من جديد؟

وتوقفت فجأة، ثم استدارت نحوه، فرأته يُخرج من أسفل الأريكة مسدس كاظم وراح يتفقد ذخيرته، وعندها لم تعد تستطيع كبح نفسها أكثر فقالت:

- لقد عرضتُ عليك المال لتنقلنا إلى العاصمة ورفضت.. حاولتُ إجبارك ورفضت.. والآن تُغير رأيك بكل بساطة؟!

نظر نحوها بحدة منتظرًا تتمة كلامها الغريب، فأردفت فجأة بانزعاج:

- ألم تظن للحظة أنني قد أرفض الرحيل معك؟

- إذًا، هل سترفضين؟

سأل وهو يُسلط عليها عينين تتقِّدَان شرًّا، ويده تعبث بالمسدس.

«لا».

أجابت بابتسامة واسعة فهو كان ضمن خطتها منذ البداية.. (طبيب وحارس وخبير بالطرق، إضافة إلى أنه ذو نظرة ثاقبة بما قد يفكر به المجرمون).. ذلك كُله بالمجان! هي لن ترفض ذلك بالتأكيد..

وكاد المسدس يُكسر بين قبضتيه، وهو يراها تدخل إلى حجرة فارس بسعادة، فقال:

- لِمَاذا تسأل إن كانت موافقة أصلًا.. أتعبثُ معي؟

وتذكر هاتفه فجأة، هو يعلم أن فارس لا يَمَلُّ من الهاتف، وخاصة حين يكون على الطرف الآخر منه أحمد؛ الشخص الأول الذي استمتع فارس بمهاتفته بعد عزله عن الناس لتسع سنوات، ولكن ألم يزد هذا على حَدِّهِ قليلًا؟

رصيد هاتفه في خطر!

لحق بمايا إلى الحجرة، ودخل من خلفها، ليُصدم الاثنان معًا بجلوس فارس أمام الهاتف بأدبٍ جم يُنصت بكل جوارحه لأحمد:

- أنت رجل.. فحتى لو كان خطيبها، لا يصح أن تخلو أختك بمفردها مع رجل.. الشيطان يا فارس ثالثهما، سيُزينها له ويزين له الحرام.. ومهما صَرَفَكَ الاثنان ابقَ معهما رغمًا عنهما.. ستكسب الأجر من الله، وستمنع...

- ما الذي سيمنعه أيها الوغد إن كنت مع الشيطان نفسه؟

أجفل الأربعة لصوت نادر الذي وصل إليهم أولًا، تبعه ظهور وجهه المتجهم على الشاشة، فاتسعت عينا أحمد قلقًا عليه فقد بدا منهكًا على غير

عادته، فيما عبس الآخرون من خلفه، وتطوع حاتم من بينهم ليُلقي عليه ضغينته:

- لم يكن هدفك المليونين منذ البداية.. بل صاحبة المليونين؟

وغمغم زيد بعصبية مفرطة:

- ونحن من قنعنا بالقليل!

على حين ابتسم تميم بإعجاب:

- لقد تفوَّق علينا الزعيم وخدعنا.

وازداد الضغط في رأس نادر، شعر بالدم المتصاعد إليه يكاد يُفجره، فألقى كرتين كالجحيم نحو فارس فوجده يبتسم له و... سَيطَرت عليه بغتة رجاحة عقله؛ أليست هذه هي الفرصة المثالية ليرد اعتباره أمام رفاقه بعد ذاك الخزي الذي أوقعته فيه تلك الشيطانة؟

فالتزم بصمت الحكمة من غير أن يؤكد لهم ما قالوه أو ينفيه، لكن الوحيد الذي استطاع قراءة ما خلف عينيه هو أحمد الذي نطق بعصبية:

- ماذا؟ لقد أخبرني فارس أنها هي السبب في عودتك وأنكما أصبحتما مخطوبين لبعضكما البعض.. لا تقل لي إنك رفضتها مجددًا.. يا رجل، لديك مشكلة تحتاج لعلاج.. توقف عن إسقاط ضغينتك تجاه ريم على بقية النسـ..

وأغلق نادر الخط في وجهه مثيرًا الفزع في قلب فارس الذي صاح:

- كلا! ستتشاجران الآن مجددًا!

أخرج نادر نفسًا عميقًا.. لماذا الجميع مستمتعون ويلهون بينما هو الوحيد المُثقل بالهمّ؟!

- أنا من أغلقت الخط في وجهه وليس العكس.

ألقاها ببرود، فتأمله فارس بوجوم، وعقله يُقلب فكرته، صحيح، من الطبيعي أن يُغلق نادر الخط، ولكن ليس أحمد!

إذًا لا شيء يستدعي قلقه، فضحك ثم وقف إلى جواره يُخبره:

- يقول حاتم إنني مُغفل للغاية لأنني سمحت لكما بالبقاء بمفردكما.. وإنكما في الخارج تضحكان وتسخران من سذاجتي.

انتفخت أوداج نادر، فيما انتبهت مايا لشكوى أخيها بعد ما كانت منشغلة برمي ملابسها بفوضوية داخل حقيبتها، فقالت بغضب:

- قُلتَ اسمه حاتم؟! هذا الوغد، كيف يجرؤ على أن يشتمك في وجهك؟ لا عليك، حين نصل إلى العاصمة سأُعلمه من هو المغفل.. سـ..

وابتلعت عبارتها بوجل حين قاطعها نادر:

- أتملكين الوقت لمواساته بعد البلوى التي أوقعتنا بها؟

شهقت بقوة:

- فارس.. أغلق حقيبتي.. سنرحل الآن إلى العاصمة.

ظل فارس مشدوهًا لثانية قبل أن يصرخ:

- مع نادر؟

وحول زرقاويه المهتزتين بحماس إلى نادر فأومأ له برأسه بسرعة ثم استحثه:

- أسرع.. لا وقت لدينا.

أطلق صرخات مبتهجة، وهو يقفز واقفًا، ثم سحب حقيبة ظهره ليحملها، أتبعها بقفزة كبيرة فوق حقيبة مايا مغلقًا إياها بالقوة، فيما انشغلت مايا بلملمة بعض فوضاها في حقيبة يدها، والتقت عيناها خلسة بعيني أخيها الغارقتين في الجنة، فهمست:

- السيئ في الأمر سيارته الخردة.

تحطم البعض من حماس فارس ثم همس بدوره:

- هذا ما أُخبره به دومًا، ولكنه يُحبها بشدة.

- يُحب معدن؟!.. مُمل.

وَجَرَّ الاثنَانِ حقائبهما ليجدا نادر أمام باب الشقه ينتظرهما، تجاوزه فارس بالمشي، وعند مرور مايا رفع ذراعه مانعًا خروجها فنظرت نحوه بغضب ليصدمها وجهه المتجعد بتقزز:

- لن تخرجي برفقتي وهذه الملعقة في شعرك.

أطبقت شفتيها بحرج، لقد نسيت أمرها، أسرعت تسحبها، فسقط شعرها المموج خلف ظهرها وأمام كتفيها، وغطت خصلات متمردة منه وجهها، بينما علت ضحكات فارس من خلفهما:

- كالماضي.. حين كان والدي يرفض خروجها لوضعها الأقلام فيه.

- ويبدو أن مرضها زاد سوءًا لتلجأ إلى أدوات المائدة.

قال نادر وهو يأخذ حقيبة فارس منه ليسحبها فيما بقيت مايا في موقعها مُلوحة بيدها فهي المرأةُ هنا فعاد فارس نحوها ليجر حقيبتها وهو ما زال يضحك عليهما..

الاثنان معًا نظرا نحوه، وتحركت شفاههما بابتسامة مُشفقة؛ من الوغد القادر على تعكير مثل هذه الضحكة البريئة منه؟

تسع سنوات كافية.. هو يستحق أن يبتهج، يمرح، يعيش كباقي الناس.

وبالفعل لم تُغادر الابتسامة شفتيه وكِلَا من أحبَّهُما برفقته..

****

-٣٨-

(قبل ١٦ عامًا).

مرَّ أسبوعان منذ حُبس سمير، لم تكن الأدلة كافية لإثبات التهمةِ عليه.. وقد توفرت حجة غياب له تتوافق مع وقت اشتعال الحريق الذي نال مزرعة والده وقتله..

ورغم ذلك لم يُطلق سراحه بسبب مثابرة المحقق المسؤول عن قضيته، الذي أخذ يُقدم الدليل تلو الآخر كي يربط بينه وبين القضية، وإن كانت جميعها ضعيفَةً؛ فقد بدا له أن المال الذي سيؤول إلى سمير بعد وفاة والده هو دافع كبير لتخلصه منه..

كان سمير قد بلغ العشرين من عمره، جلس على أرضية السجن بهدوء، وإلى جواره جلس أربعة من المساجين الذين لم يتم إحالتهم إلى السجن المخصص لتنفيذ العقوبة بعد لعدم ثبوت إدانتهم هم أيضًا..

وكعادة الزائرين لأقربائهم من المساجين إن كان من بينهم أطفال سيُسمع بكاؤهم وصياحهم إذا ما رأوا وجه سمير المشوه، أما النساء فقد كن يمتعضن ويتجنبن النظر إليه..

أقبلت طفلة في التاسعة من عمرها تحمل حافظة مُلئت بالطعام، أعطتها لوالدها الذي بادل ابتسامتها الكبيرة بابتسامة خفيفة، وهو يوبخ صديقه لاصطحابه لها..

ومع أخذه للطعام منها رأى ابتسامتها التي اهتزت حينما وقعت عيناها على وجه سمير، وامتزج فزعها بدموعها فأمسك والدها يدها وقربها منه ليُشعرها بالأمان:

- لا ذنب له.. مسكين، لقد احترق وجهه.. كان وسيمًا جدًّا ولو كان يملك المال لأزال عن وجهه هذا التشوه.

- مسكين!

- نعم، إنها حادثة لذا يجب أن نكون لطفاء معه.

وأمام عينيها أخذ من طعامه ثم وضعه أمام سمير الذي عكست شفتاه ابتسامة صغيرة؛ فلمَ يحظَ بزائرٍ يخصُّه مُنذُ سُجِن، ولم يُكرِمهُ إلا هذا الرجل..

- بابا.

نادت الفتاة والدها فالتفت نحوها. رآها تُخرج من جيب فستانها مغلفًا صغيرًا لشكولاتة قد تم دوسه أثناء جلوسها عليه في السيارة، ثم قالت:

- للمسكين.

وضحكت.. أخذه والدها منها، وضحك بدوره بحرج على وصفها لسمير بالمسكين:

- ستبقى ابنتي ساذجة مهما علمتُها.

أخذ سمير مغلف الشكولاتة، ثم نظر نحوها لكنها لم تفزع، بل ظلت تُحدق فيه لوقت طويل أنهته بأن أمالت رأسها ضاحكةً له..

وتتالت تلك الزيارات مع هداياها له من الحلوى والمقرمشات لشهرٍ كامل قبل أن تثبت التهمة على والدها، ويُساق إلى السجن الذي سيقضي فيه عقوبته، بينما خرج سمير وقد بُرئ تمامًا من التهمةِ الموجهةِ إليه..

****



نكبة

-٣٩-

في إحدى مدن سويسرا، علت الدهشة وجه رجل تجاوز الستين من عمره. كانت له لحية كثيفة، خطَّ الشيب على سوادَها، الذي ظل يلَوِّن معظمها، ولم يبدُ عليه الضعف ولا العجز رغم كبر سنه..

وضع كوبه الخزفي، الذي فاح منه عبق القهوة فوق طاولة بالقرب منه، ثم حوَّل نظره عن التلفاز الذي كان يبث على الهواء مباشرة مشهدًا للتجمع الصحفي حول شركة فاضل، تبعه مقطع للفيديو الذي انتشر في جميع وسائل التواصل الاجتماعي كانتشار النار في الهشيم.

التقط هاتفه ثم بحث عن الفيديو ليشاهده مرارًا وتكرارًا، ترك بعدها الهاتف وأحكم قبضته على عصاه، وقال:

- من كان يظن أنه لا يزال حيًّا!

وبعد ساعة واحدة فقط، دلف إلى حجرته فتى في الثامنة عشرة من عمره، كان لا يزال يرتدي بدلة الطيران الشراعي وهو يصيح بدهشة:

- جدي.. هل هذا صحيح؟ هل فارس حي؟

- سأعود إلى الوطن.

قال الرجل ذلك وهو يقف متكئًا بذراعه على العصا، رغم عدم حاجته إليها، بينما غمر الفرح وجه الفتى، وهو ينظر إلى ذراع جده

الآخرى التي فقدها منذ سنوات تساوي في عددها سنوات مغادرته الوطن، ثم قال بحماس:

- حسنًا.. سأرتب لذلك.

وغادر مسرعًا، بينما عقد الرجل حاجبيه، فلم يكن ليعلم أن الطفل فارس قد نجا لولا مقطع الفيديو الذي نشرته مايا لفاضل في المستشفى.

استطاع من خلال ذلك النقاش المتبادل بين فاضل ومن كان معه في الفيديو أن يتيقن أنه لم يمت حرقًا، كما زعموا، بعد أن سلّمه راكان إلى عمه فاضل..

قد احترقت العاصمة بأكملها بهذه الأخبار، وعليه أن ينضم هو الآخر. فلكلٍّ دوره، وسيؤدي هو الآخر دوره على أكمل وجه..

«حان الوقت ليعلم حفيده بالحقيقة.. حقيقة جده بسام ثروت».

واتجه إلى حقيبته ليهيئها للرحيل إلى الوطن، إلى العاصمة تحديدًا، ويده الوحيدة تشتد بقوة كبيرة على العصا التي يعلوها مقبض ذهبي على هيئة طائر.

****

في مرآب الفندق كان نادر قد أدار محرك سيارته الزرقاء استعدادًا للرحيل، ثم حمل الحقيبتين ليضعهما في صندوقها الخلفي الذي فتحه له فارس، ثم ظل ممسكًا ببابها وفمه لا يتوقف عن الثرثرة، واصفًا له كيف أن رفاقه ممتعون؛ فقد أوقدوا النار في المحل كما لو أنهم في مُخيم، يشربون شايًا بالحليب مع قطعة كعك صغيرة جدًّا اقتسموها بينهم.. تميم نزع

قميصه كي يُريه عضلاته.. وزيد ظل يُمَجِّده باعتباره مصدر حظهم الحسن و.. و..

أومأ نادر برأسه مرارًا وتكرارًا، كاتمًا غيظه، فمحادثته لرفاق سجنه لم تكن خيارًا مطروحًا منذ أن أنقذه، وسمع فجأة همسة مايا على جانبه الآخر:

- لماذا وجهك جاد للغاية؟

- أيجب أن أبتسم بغباء مثلَكِ؟.. ماذا لو وصل الباحثون عنه في هذه اللحظة؟

- لم يأتوا بعد، لذا توقف عن التصرف بسخافة وجارِ حديثه بابتسامة.. تبًّا!.. لا أعلم لِمَاذا يُحبك؟ أنت مُمل للغاية.

رفع كفه ومسح بها وجهه، ونفسه تُنازعه تركها، أو ربطها مع كاظم و.. مهلًا:

- فارس.. ماذا لو لحقت بنا أختك في سيارة أخرى.. ألن يكون ذلك أفضل؟!

أوقف فارس ثرثرته بصدمة، وعكست عيناه جزعًا شديدًا، فاستدرك بسرعة:

- كُنتُ أمزح.

وربت على رأسه فهذه الوقحة تدفعه للأسوأ..

- لا تجعله يمر بضغط شديد كي يختار بيننا.

وبخته مايا بهلع، وهي تقترب من أخيها، فيما دحرج عسليتيه نحوها، ألم تتعلم من الدروس إلا هذا؟

ورغم وقوفها أمام وجه فارس تُطمئنه أنها لن تُطيع متحجر القلب هذا وتفترق عنه، ورغم كف نادر التي ما زالت على رأسه، إلا أن عيني فارس ظلتا متسعتين وهو يُحدق في نقطة ما خلفهما.

وجومه أقلق نادر فتجاهل كل شيء عداه، وسأله باهتمام:

- ما الأمر؟!

تحرك عنق فارس بريق مزدرد، ومدّ كفًّا مرتجفة ليتشبث بساعده:

- ألن يأتي المجرم ياسر إلى هنا؟!

سؤاله فجر رعبًا شديدًا في وجه مايا التي استدارت للخلف تبحث عنه، ثم وقفت بقامتها مُغطية فارس وكأنها تحميه منه، إن كان موجودًا بالفعل!

فيما بدا نادر هادئًا للغاية، وهو يسأله:

- أترَى وجهه في صورته الحقيقية أم يبدو مختلفًا؟

- لا أعلم.. مرّ بين السيارات.. جسده أمتن بعض الشيء، ولكنه قد يُغير من جسده حتى يخدعنا ولا نلاحظه، صحيح؟!

رفع نادر ومايا رأسيهما في الوقت ذاته فسقطت أعينهما على رجل خلف إحدى السيارات يتمايل وقد بدا ثملًا من شيءٍ ما إلا أنه لم يُشبه ياسر في شيء.

«لعلّه رجل يشبهه».

قال نادر فجأة وهو ينظر إلى وجهه بكدر، فسأله فارس بوجل:

- أتظن أن المرض قد عاد إلي؟

- لقد أخبرتك أن هذا الاضطراب لا شفاء له.. وهذا مُحتمل.

وعلى الرغم من انخلاع قلب مايا لرؤيتها للمرةِ الأولى أحد الأعراض الصريحة لاضطرابه، إلا أن مصارحة نادر له لم تُعجبها، أرادت ملاطفته وإخباره أنه لا يفصلهم عن الوصول إلى العاصمة سوى أربعة أيام أو أقل، وعندها سيتلقى العلاج على يد أشهر الأطباء النفسيين، إلا أن نادر سبقها حين ابتسم له:

- إن تكرر هذا الأمر.. فعندها يمكنك أن تقلق.

- حقًّا؟

- نعم.. وأخبرني في الحال.. هل فهمت؟

أومأ فارس له بطاعة، فابتسم نادر وكأن ما حدث لا يُهم، ثم هتف:

- والآن لدينا رحلة لأربعة أيام قد تكون ممتعة..

وأسقط عينيه على مايا هامسًا له: «لولا وجودها!».

ضحك فارس لمشاجراتهما التي لا تنتهي، وهو يحتل المقعد الخلفي، فيما صعدت مايا إلى جوار نادر الذي عكست عيناه سخطًا شديدًا ومن المرآة الداخلية رأى وجه فارس المبتهج وهو يؤرجح بصره بينهما، ومع ذلك لن يحتمل، لن يحتمل جلوسها إلى جواره..

وعندما فتح شفتيه ليطردها إلى الخلف، ويُعيد فارس إلى جواره، ارتفع رنين هاتفه فجأة فعكست عيناه انزعاجه التام لاسم (ريم) الظاهر على شاشته..

لم يعد يملك وقتًا للعودة إلى قرية السنابل، ولا للاهتمام بكوخ والديه، أو حقل التفاح.. رغبته الشديدة بأن يعوض والديه عما فوته قبل يومين، قد تم إحباطُها بسبب هذه البلهاء.

على حين جذب انتباه فارس مرور شخص آخر إلى جوار السيارة، فَسَرَت رَجفَة شديدة في جسده، وعيناه تتبعان الرجل في مشيه حتى غاب..

حنى نظره للأسفل، وعقله يُلقي عليه فجأةً تفسيرًا لما حدث قبل نصف ساعة، حين أخذ الهاتف من نادر وأسرع ليتحدث مع أحمد، لم يكن هناك مشكلة مع رؤيته لأحمد لكن ما داهمه عندما ظهر رفاق نادر كان غريبًا، ففي كل مرة يظهر الواحد منهم تلو الآخر كان ذلك يُشعره ببعض الارتباك الغريب..

عزا الأمر وقتها إلى أن السبب هو عدم معرفته السابقة بهم ولأنه واجههم بمفرده دون نادر..

ولكن هذا الشعور قد تكرر الآن! حتى في وجوده!

هل عليه أن يتلقى الدواء كي يعود متزنًا كالسابق؟

وفتح شفتيه ليُخبر نادر لكنه لم يلبث أن أطبقهما بتَرَوٍّ وعيناه تَسقُطان على مايا...

وفي الوقت ذاته حرك نادر السيارة، وهو يُجيب اتصال ريم، فَبَلَغَ إلى سَمعِهِ صوتها المَرعُوب فسألها بقلق:

- ماذا؟ لا يُمكنني فهم ما تقولين!

بالكاد استطاعت تَمالُكَ نفسها، لتهمس له بصوت خافت مذعور:

- جميع رجال شرطة قرية السنابل بقيادة أخي راجح قد اقتحموا منزلك، هم الآن يُفتشون في كل إنشٍ منه عنك، والباقون انتشروا في حقل التفاح، وجميعهم يحملون في ايديهم صورة للفتى الذي كان برفقتك.

التحم حاجباه، وفرَّ اللون من وجهه، وعقله يستنكر: ما هو الرابط بين معرفة فاضل لموقع مايا في الفندق وبحثهم عن فارس في منزله؟ لو أراد فاضل مُهاجمة أحد فبالتأكيد سيسعى خلف مايا أولًا لا خلفه هو!

واتسعت عيناه؛ هل أحمد هو السبب؟ هل اهتدى نائب رئيس الشرطة بهذه السرعة إلى أنهما رفيقا طفولة قد عاشا معًا في قرية السنابل؟

ولكن من المستحيل أن يكون مُتيقنًا إلى هذا الحد من وجوده في قرية السنابل، من المفترض أن يظن أنه ما زال موجودًا في العاصمة برفقة أحمد..

- نادر.. يقولون إن هناك رجلًا آخر مفقودًا ومعهم صورةٌ له.. يبدو غريب الهيئة بعينيه الجاحظتين.

- كاظم!

قال نادر بذهول، فهمست بدورها:

- نعم، هذا هو الاسم الذي سمعته.

وحمل صوتها غضبها:

- ألن تكف عن تهورك.. ماذا فعلت هذه المرة؟!

لم يفعل شيئًا، هو متيقن أنه لم يفعل شيئًا، وازدحمت التخمينات في عقله وجميعها بدت له غير منطقية، وفجأة رأى خروج رجال من الفندق يجرون بأشد ما تستطيعه أقدامهم، ركب بعضهم سياراتهم، بينما البعض الآخر قفز فوق دراجات نارية، مما جعل الموقف يبدو كما لو كان هناك هروبًا جماعيًّا من الفندق..

وظهر على شاشة هاتفه فجأة رقم مدير الفندق فأغلق الخط مع ريم ثم أجاب اتصاله فارتفع صوته صارخًا بغضب وجزع:

- أيها الوغد.. ماذا فعلت؟.. موظف الاستقبال سمع أحد رجال الشرطة هنا يُبلغ سرًّا عن رؤيته لك في فندقي والآن ست من سيارات الشرطة في طريقها إلى هنا.. اعترف: أنت ما زلت تحقد عليَّ منذ سجننا معًا؟.. ألم تطب نفسك حتى بعد كسرك لأسناني بطبق طعامك؟.. ثم.. ما هذا الحديث الذي انتشر عن أن هناك امرأة عمياء تتجول في ممرات الفندق بملابس متسخة؟ وعن أن الطابق التاسع سيكون طابقًا خيريًّا يؤوي المتأخرين عقليًّا والمساكين؟ أشعر أن هذا النحسَ أنت سببـ...

وأغلق نادر الخط في وجهه، وشفتيه تنفرجان بغير استيعاب، كيف استطاع رجل الشرطة التعرف عليه؟ هل من الممكن أن لديهم صورةً له يتداولها رجال الشرطة بين بعضهم وبعض؟ إن كان ذلك صحيحًا، ما الذي أكدَّ لهم أنه هو المشتبه الأول في إختفاء فارس وكاظم؟

هل أصبح الوضع جادًّا وخطرًا إلى هذا الحد دون أن يرتكب خطأ؟ أو ينتبه حتى!

وفجأة حوّل نظره الحائر نحو مايا فوجدها ترفع سبابتها، وقد عكست عيناها وجلها العظيم منه، فزاد وجهه شحوبًا لشبه الابتسامة التي غطت شفتيها، وهي تفضح نفسها:

- حين تحدث معي فاضل قُلتُ له إن سبب وجودي بالقرب من قرية السنابل هو أنك قد اتصلت بي وأخبرتني أن هناك ما تريد تسليمه لي نظير مبلغ ضخم، ولكنك لم تخبرني ما هو، لذا قال فاضل كاذبًا إنك قد اتصلت به هو أيضًا ثم أرسل إليك كاظم ليلتقيك بدلًا مني، وقبل أن يخطو كاظم خارج الشقة حدث أن سمع صوت فارس فتعاركتُ معه..

وارتجفت ابتسامتها برعب:

- ليس وكأنني أوقعتك.. هو منذ البداية كان في طريقه إليك لأنهما يَشُكان فيـ...

وسمعت أُذناها صوت تحطم غطاء هاتفه بين أصابعه، وأضراسه تطحن بعضها بعضًا بغضب، فأغلقت عينيها بخوف، وهمسه الخافت يصل إليها:

- كان على والديكِ تسميتك بـ.. مُصيبة.. كَارِثَة.. نَكبَة..

فتحت فمها على آخره بسخط و.. ألم يقل لها والدها إن فاضل قد حضر ولادتها وإنه هو من اقترح عليه اسم مايا؟.. فامتقع وجهها.. هل

تُخبره؟!.. بالتأكيد لا؛ فهو بلا شك سيدفعها خارج السيارة، هذا إن لم يُسئ الظن بها مرةً أخرى فيعتقد أنها في صف فاضل، وعندها فلتَحلم برؤية أخيها مجددًا!

لذا استدارت، والتزمت الأدب، متجاهلةً الفرن المشتعل إلى جوارها..

****

تمت بحمد الله

يفصل الضحية عن الجاني قرار...

ومن حيث بدأت المأساة، ستتكرر...

(متلازمة فريجولي ٤)